المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٥٣٥٧

الاغتراب في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب :

صغير غريب عبد الله العنزي

الرقم الجامعي : ٥-٦٠٤٠٨ - ٤١٩

إشراف :

الأستاذ الدكتور / عبد الله أحمد باقازي

الفصل الدراسي الأول

لعام ١٤٢٣هـ

ملخص البحث

الاغتراب ظاهرة إنسانية عامة تتمثل في وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته والبيئة المحيطة به والمحبطة له ، وشعور الإنسان بعدم انتمائه وإحساسه بانفصاله عمن حوله وما يصاحب ذلك من تمزق ذاتي وقلق .

وقد درست هذه الرسالة الاغتراب عند شعراء العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، والعوامل السياسية والاجتماعية والفكرية التي أدت إلى إيجاد فجوة في هذا المجتمع . ودرست الاغتراب المكاني ، ووقفت عند أهمية المكان بالنسبة للإنسان ثم رصدت مشاعر المغتربين في الحنين إلى أوطانهم وأهلهم وأحبتهم .

وفي دراسة الاغتراب الاجتماعي ، أخذت الدراسة ثلاثة محاور ، الأول في الاغتراب عن القيم الاجتماعية ، وعدم الرضا عليها ، وما يلحقه من غربة عن الآخرين . والمحور الثاني درست فيه الاغتراب السياسي جماعياً وفردياً ثم في المحور الثالث جاءت الغربة الجمالية المتمثلة في الثورة على القصيدة العربية التقليدية .

وفي الفصل الرابع من هذه الدراسة ، تناولت الاغتراب الذاتي الذي يدرس فيه تمزق نفسية الشاعر العباسي وتجسد ذلك في الغربة عن الذات الأصيلة ، والشعور بالدونية ومانتج عن ذلك من صور التوجس والقلق ثم رصدت هذه الدراسة شعر الفكاهة الذي ينم عن ألم دفين وغربة موجعة .

أما الفصل الخامس فقد تعرض لدراسة فنية موجزة لامحة لأثر الاغتراب في اللغة الشعرية والصور والإيقاع .وذيلت هذه الدراسة بخاتمة رصدت ما تم التوصل إليه من نتائج تنبئ عن أثر الاغتراب في الحياة العباسية بنواحيها المختلفة ، وما خلفته هذه الظاهرة من أثر فني في شكل ومضمون القصيدة العباسية .

المقدمة

الاغتراب ظاهرة إنسانية استحوذت على اهتمام كثير من الباحثين في العصر الحديث ، فدرسوها من جوانبها المختلفة ، ومثلما لقيت اهتماماً خاصاً من فلاسفة هذا العصر ، وجدت اهتماماً كبيراً من علماء الاجتماع وعلماء النفس ودارسي الظواهر الإنسانية بشكل عام . ولأن الأدب صورة للنفس الإنسانية لهذا فقد أقبل دارسوه على دخول عالم الاغتراب الواسع ، راصدين ومحللين ومستنتجين ، ولا نبعد عن الحقيقة إذ قلنا إن الاغتراب عند الشعراء أوضح وأظهر ، لأن هذا الإنسان المرهف شديد الإحساس ، ويتأثر بالصدمات أكثر من غيره ، ومن هنا كانت نفسه مجالاً رحباً للشعور بالغربة والانفصال .

وإذا كان الاهتمام بالاغتراب ، مفهوماً ودراسة ، جاء حديثاً ، فإن ظاهرة الاغتراب سمة وجودية مميزة للإنسان وقديمة قدم الإنسان نفسه ، فقد شعر الإنسان منذ خطواته الأولى بانفصاله ، ولكن هذا الانفصال نسبي يكثر ويقل تبعاً للظروف المحيطة بالإنسان .

والعربي ذو نفس شفافة ، شديدة الحساسية ، ومزاجه حاد ، يندفع بسرعة حتى التهور ، ويصمد أمام المجابهة حتى الموت ، ومع هذا فهو رقيق المشاعر تؤثر فيه الكلمة الطيبة فيتنازل أمام نفاذها عن أغلى ما يملك ، ويؤثر فيه الموقف الجميل فينذر حياته وفاء لصاحبه ، ويصعقه الغدر والاعتداء فينقلب وحشاً كاسراً وبركاناً هائجاً يجتاح من أمامه .

وشخصية تحمل مثل هذه السمات لا بد أن تكون أرضاً خصبة للاغتراب ، لهذا فقد عاش العربي مغترباً في معظم عصوره ، ولكن درجة هذه الغربة تختلف من عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى آخر ، لاختلاف ظروف كل عصر ، ولما يطرأ فيه من تغيرات وأحداث .

ولم يشهد عصر من عصور الحياة العربية من التطورات والمفاجآت والتغيرات ، مثلما شهد العصر العباسي الذي كان يموج بالأجناس المختلفة ، وتتصارع فيه الحضارات الوافدة ، ويرتطم فيه الجديد المعجب بجدار القديم الثابت ، ويطغى فيه نفوذ المال حتى يصبح سيد الموقف .

في مثل هذا العصر الذي ظهرت فيه الطبقية في أقوى صورها ، وعاش فيه ذوو النفوذ عيشة راضية رخية بلغت حد البذخ و السرف ، عاشت الطبقة الفقيرة مطحونة منهكة تبحث عن رغيف خبز فلا تجده .

وفي هذا العصر عاش الإنسان منفرداً وهو بين الجماعة ، ووجد الآخر حجر عثرة في طريقه ، فقد كان الآخر يمثل له خصماً لدوداً .

ووسط هذه الصراعات المذهبية المتناحرة كانت الفتوق بين هذه الأحزاب واسعة لا يمكن رتقها ، فقد كان كل منهم يبحث عن الآخر لينحره ، وكان الجدل من أجل فرض النفس لا من أجل البحث عن الحقيقة ، إذ كان الحكم مقرا مسبقاً .

في مثل هذه الظروف عاش الشاعر العباسي منفصلاً عن مجتمعه وعن الآخرين ، وكان صوته المغترب واضحاً كل الوضوح . لأنه حاول - ما أمكنه - أن يتكيف مع الآخرين ففشل ، وعاش صراعاً مريراً مع آلامه وأحلامه ، وكان من هؤلاء الشعراء من لم يستطع الصمود فانسحب وأنكفأ على نفسه ، ومنهم من فر إلى عالم الملذات الحسية والشهوة الحيوانية فانغمس فيها حتى أذنيه هرباً من واقعه القاسي ، فقرن إلى غربته الاجتماعية غربة ذاتية إذ انفصل عن ذاته الأصيلة ، وتخلى عن إنسانيته السامية .

ولأن سبر أغوار النفس الإنسانية من أنبل ما يدرس ، و البحث في أعماقها من أجل ما يفتش عنه ، فقد اخترت هذه الظاهرة المتغلغلة في نفوس البشر ، وحيث إن العصر العباسي قد ارتفعت درجة حضارته وطغت ماديته وتطور فكره ، وفي مقابل هذا تدنت إنسانية أفراده وتبددت علاقاتهم ، ومن هنا كان جديراً بأن تدرس نفسية مجتمعه ، خاصة وأن هذا العصر شهد نهضة أدبية سامقة وخلف شعراؤه نتاجاً هائلاً صور النفس مثلما صور المجتمع ، ومهما درس ، فإنه يبقى متسع عريض لدراسات جديدة مختلفة .

وقد اخترت العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث ؛ لأن هذه الفترة المدروسة لم يسبق أن درست ظاهرة الاغتراب عند شعرائها ، اللهم إلا إذا كانت هناك دراسات تفرد بعض شعرائها ، وقد تتعرض لاغترابه لامحة موجزة .

الدراسات السابقة :

لقد درس الاغتراب في الفلسفة وعلم الاجتماع كما درس في الأدب والنقد ، وما يهمنا نحن هو الدراسات الأدبية التي عالجت هذا الموضوع ومن أهمها :

أولا : الغربة في الشعر الجاهلي ، للدكتور عبدالرزاق الخشروم وقد تكلم عن ماهية الغربة ثم ميز بين نوعين من الغربة ، الأولى نشأت بدوافع القهر ، والثانية نشأت بدوافع الذات ، ثم بحث في العوامل التي كانت سبباً في نشوء هذه الغربة .

وقد قسم دراسته إلى ثلاثة فصول ، حيث تناول في الفصل الأول الغربة عن الوطن والأهل راصداً مظاهر هذا النوع من الاغتراب ، واتخذ المتلمس الضبعي نموذجاً للمغترب النائي ، ثم تعرض في الفصل الثاني للغربة عن المجتمع ، فتحدث عن غربة السود والصعاليك ، ثم تكلم عن

غربة الأسير والسجين وختم الفصل بالحديث عن الجار والحليف ، وجاء الفصل الثالث للحديث عن غربة الذات متطرقاً فيه إلى رفض بعض الشعراء الجاهليين للالتزام بواجبات القبيلة وخروجهم على أعرافها ، وجعل طرفة بن العبد نموذجاً لهذه الغربة ، وبعدها انتقل إلى الحديث عن الحنين إلى الماضي مركزاً على الأطلال ، ثم تحدث عن غربة الشيخوخة وتغير الدهر والغربة بعد الموت ويعد هذا الكتاب من الدراسات المهمة في هذا الباب .

ثانيا : الاغتراب في الشعر الأموي ، للدكتورة فاطمة حميد السويدي :

وقد درست الاغتراب في الشعر الأموي دراسة عميقة تنم عن وعي الباحثة حيث وقفت عند ظاهرة الاغتراب وحللت أسبابها ، وقسمت دراستها إلى ثلاثة أبواب ، فدرست في الباب الأول الاغتراب بأنواعه ، وقد درست موضوعات الاغتراب بدءاً من الاغتراب المكاني الذي دفعت إليه عوامل مجتمعة ، ثم الاغتراب السياسي في ذلك العصر الذي كان يموج بالصراعات والفتن ، وكان من البدهي أن ينتج عن ذلك اغتراب اجتماعي حاد ، وعرجت الكاتبة بعد ذلك إلى ما سمته بالاغتراب العاطفي .

وفي الباب الثاني درست التشكيل التصويري حيث بينت أن للاغتراب أثراً واضحاً في زعزعة الشكل الفني للقصيدة العربية ، وطبقت نظريتها على أرض الواقع إذ درست نماذج شعرية للاغتراب بموضوعاته المختلفة .

وفي الباب الثالث خصصت الدراسة بالتشكيل اللغوي في شعر المغتربين مبرزة أهم تلك الخصائص التي تميزت بها قصائد الغربة .

والكتاب يعد من الدراسات الثرية التي تناولت الاغتراب بدقة وإحاطة .

ثالثاً : الاغتراب في الشعر العباسي ، القرن الرابع للدكتورة سميرة سلامي :

وهذه الدراسة هي أطروحة دكتوراة قدمت في جامعة دمشق . وقد عالجت الباحثة هذا الموضوع بالانطلاق من النتائج التي توصل إليها ريتشارد شاخت في كتابه (الاغتراب) . وقد وزعت الباحثة دراستها على أربعة أبواب ، تناولت فيها مفهوم الاغتراب واهتمت بما دار حول هذا المصطلح في الفلسفة الغربية خاصة ، حيث تكلمت عن الاغتراب عند فلاسفة هذا العصر ، على اختلاف نزعاتهم ، كما تناولت ملامح الاغتراب في العصور العربية التي سبقت القرن الرابع الهجري ، ودرست العوامل المؤدية إلى الاغتراب في القرن الرابع . ثم تكلمت عن مظاهر الاغتراب في الفترة التي درستها ، فتحدثت عن الاغتراب عن الوطن والذي أدرجت تحته اغتراب الهجرة واغتراب الأسر ، وبعد ذلك تحدثت عن الاغتراب عن المجتمع حديثاً موسعاً ، مثلما تحدثت عن قهر الاغتراب ، وتناولت أيضاً الاغتراب عن الذات ، والاغتراب الروحي عند الصوفية خاصة . ثم خصصت الدراسة بشعر المتنبي .

أما العصر الحديث فهناك دراسات متعددة تناولت الغربة في الشعر العربي الحديث ، ولا سيما في الشعر المهجري والشعر الحر الذي كان للاغتراب عن المدينة المعاصرة أثر واضح في توجيهاته النفسية ، حتى ظهر موضوع المدينة في الشعر المعاصر ، بشكل لافت للنظر . وهو ما استدعى الدراسات المختلفة عن المدينة في الشعر الحر .

وقد تبين لنا أن معظم مراحل الشعر العربي قد تمت دراستها من منظور الاغتراب ، وذلك ما خلا المرحلة التي درسناها في هذه الأطروحة التي جاءت في تمهيد وخمسة فصول .

وقد اشتمل التمهيد على تعريف الاغتراب في النقد والفلسفة كما تضمن دراسة موجزة عن الاغتراب في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والأموي .

وفي الفصل الأول استقصينا العوامل المؤثرة في الاغتراب فوجدنا أن العامل السياسي يأتي في طليعة هذه العوامل المغربة ، وكذلك فللعامل الاقتصادي أثر بعيد في انفصال الناس عن بعضهم، أو عن حكوماتهم ، ويحتل العامل الاجتماعي مكانة كبيرة في بث بذور الغربة في المجتمع وتأصلها . وللعامل الثقافي أثر لا ينكر في هذا الباب .

أما الفصل الثاني الذي جاء تحت عنوان الاغتراب المكاني فقد تعرضنا فيه للبحث في أهمية المكان بالنسبة للإنسان ثم رصدنا مشاعر المغتربين في الحنين إلى أوطانهم والحنين إلى أهلهم وأحبتهم .

ثم انتقلنا إلى الفصل الثالث الذي كان عنوانه (الاغتراب الاجتماعي) فقسمناه إلى اغتراب عن القيم الاجتماعية وما تنتجه من غربة عن الآخرين ثم الاغتراب السياسي الجماعي والفردي ، وبعد ذلك جاءت دراسة الغربة الجمالية وما تتضمنه من تمرد على القصيدة العربية التقليدية .

وفي الفصل الرابع ، تناولنا الاغتراب الذاتي الذي درسنا فيه تمزق نفسية الشاعر العباسي وآثار هذا التمزق وكانت دراسته في المحاور الآتية : الاغتراب عن الذات الأصيلة ، الشعور بالدونية ، صور التوجس والقلق ، الفكاهة بوصفها صورة للاغتراب الذاتي .

وقد جاء الفصل الخامس دراسة فنية لامحة لأثر الاغتراب في اللغة الشعرية ، والصور ، والإيقاع.

أما منهج دراستنا في هذه الأطروحة ، فلم نتبن فيه منهجاً واحداً ، إذ حاولنا أن نجمع بين عدة مناهج ،وذلك حسب ما يمليه علينا هذا الفصل أو ذاك . ولا بأس من الإشارة إلى أننا استفدنا من المناهج النفسية والاجتماعية والأسلوبية ، فمثلاً في الاغتراب الذاتي كان المنهج النفسي أولى ، وفي الاجتماعي كان المنهج الاجتماعي مناسباً لهذا الفصل ، كما كان المنهج الأسلوبي ملائماً للدراسة الفنية . ومما يجدر بنا ذكره الإشارة إلى أننا أردنا لهذه الرسالة أن تكون رصداً لظاهرة الاغتراب التي شاعت في شعر العصر العباسي . وكان رأينا أن رصد هذه الظاهرة بذاته عملاً ليس بيسير ولا سيما أن المرحلة المدروسة قد شهدت عدداً هائلاً من الشعراء بمختلف منازعهم وانتماءاتهم ومواقفهم ، وتياراتهم الفنية . ومن هذا المنطلق كان رصد هذه الظاهرة ضرورياً لتوضيح تفشي إحدى الظواهر الاجتماعية التي كان لها تأثير في الحضارة العربية الإسلامية . ولا شك في أن حرصنا على تتبع هذه الظاهرة ورصدها كان له أثره في إطالة هذه الرسالة ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ، على أن ذلك دفعنا إلى الإيجاز في الدراسة الفنية التي أردنا لها أن تكون لامحة موجزة تثبت أثر الاغتراب في البنية الفنية وحسب ، دون الدخول في تفاصيل مطولة لهذا الأثر ، لأننا رأينا أن ذلك يحتاج لدراسة أخرى مفصلة ومستقلة لا تحتملها هذه الرسالة ، وقد يتوفر لها ، مستقبلاً ، من يفردها بدراسة عميقة تثبت ما أشرنا إليه .

و لا بد أن نتوجه أخيراً بالشكر الجزيل لأستاذنا الكريم أ .د عبدالله باقازي المشرف على هذه الأطروحة ، الذي أمد لنا كل العون والمساعدة ، واستفدنا من توجيهاته الكريمة وآرائه السديدة في مسيرة بحثنا هذا ، فله بعد الله سبحانه وتعالى الفضل علينا وعلى هذه الدراسة.

تمهيد : الاغتراب

الاغتراب لغة :

جاء في تاج العروس[1] :

الغَرْبُ : التنحي عن الناس ، وقد غَرَبَ يَغربُ غَرْباً

والغَرْبُ : النَوى والبُعْدُ كالغَرْبَةَ – بالفتح – ونَوى غَرْبَة : بعيدة ، وغَرْبَة النَوى : بُعْدُها .

والغُرْبُ بالضَّم : النُزُوح عن الوطن كالغُرْبة – بالضم أيضاً – والاغْتراب والتَّغرُّب .

والتَّغَرُّب أيضاً البُعْدُ ، تقول منه : تَغَرَّبَ واغْتَرَب .

وغَرَب غَرْباً : بَعُدَ ، كغَرَّبَ وتَغَرّبَ ، ويقال اغْرُبْ عني ، أي تباعد .

واغْتَرَبَ الرجل : نكحَ في الغرَائب ، وتزوج في غير الأقارب ، وفي الحديث (اغتربوا لا تُضْوُوا)

والاغْتِراب : افتعال من الغُرْبَة .

والعنْقَاء المُغْرِبة : . . . طائر عظيم يُبْعدُ في طيرانه .

والتَّغْريب : النفي عن البلد الذي وقعت الخيانة فيه ، وفي الحديث (أن رجلاً قال له : إن امرأتي لا تردّ يد لامس ، فقال : غرّبها) أي أبعدها ، يريد الطلاق .

وغَرَّبه الدهر وغَربَّ عليه : تركه بُعداً .

والغُرُب – بضمتين – : الغَريبُ ، ورجل غَريبٌ وغُرُبُ بمعنى ، أي ليس من القوم .

والغُربَاء : الأباعد .

---

[1] تاج العروس : الزبيدي ، مادة (غرب)

وشأوٌ مُغرِب : أي بعيد .

وقالوا : " هل أطرفتنا من مغربة خبر " : أي هل من خبر جاء من بعد .

وفي معجم المقاييس في اللغة[١] :

والغُربة : البعد عن الوطن ، يقال : غَرَبَتِ الدار ، ومن هذا الباب : غُروب الشمس ، وكأنه بُعدُها عن وجه الأرض.

وجاء في لسان العرب [٢] :

والغَرْبُ : الذهاب والتنحي عن الناس ، وقد غرَب عنا يَغْرُبُ غرباً ، وغَرَّبَ ، وأَغْرَب ، وغَرَّبه ، وأَغْرَبه : نحاه . وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أمر بتغريب الزاني سنةً إذا لم يُحْصَن ، وهو نفيه عن بلده .

والغَرْبة والغَرْبُ : النَّوى والبُعد .

والغُرْبة والغُرب : النزوح عن الوطن والاغتراب ،قال المتلمس :

ألا أبلغا أفناء سعد بن مالك	رسالة من قد صار ، في الغُرْب جانبه

والاغتراب والتغرب كذلك تقول منه تَغَرَّب واغْتَرب ، وقد غَرَّبه الدهر ، ورجلٌ غُرُب بضم الغين والراء وغريب : بعيدٌ عن وطنه .

والغَرَبُ : الخمرُ .

ومن استقراء مادة (غرب) ومشتقاتها في كتب اللغة نجدها تدور في أغلب معانيها حول البعد والمفارقة والانفصال. ولعل تسمية الخمر بذلك لا يخرج عن نطاق المعنى الذي نحن فيه ،

---

(1) معجم المقاييس في اللغة : ابن فارس : ص٤١٨ .
(2) لسان العرب : ابن منظور : مادة (غرب) .

لأنها تذهب عقل صاحبها وتبعده عن رشده .

الاغتراب مفهوماً وسيرة

الاغتراب مصطلح ثري مثير للجدل لكثرة التعريفات التي وضعت لـه وتعدد معانيها واتساعها، حتى أخرجه بعض الباحثين من مضمونه الجوهري ، ودار به في حلقة مفرغة فأساء بذلك الفهم والإفهام ، وهذا أحد أسباب اتهام هذا المصطلح بالغموض أحياناً .

جاء الاهتمام بمفهوم الاغتراب في عصرنا الحديث من قبل رواد الحركة الفكرية الغربية ، وإذا كان للفلاسفة اهتمام كبير في تجلية هذا المفهوم فلعلماء الاجتماع والنفس يد طولى في إثراء هذا الجانب وتحديد ملامحه ، ولعل بعض الفلاسفة من أصحاب نظرية العقد الاجتماعي كانوا من أوائل المهتمين بهذا الجانب ، وهم وإن لم يحددوا هذا المصطلح تحديداً دقيقاً فقد داروا حول حماه إلى أن جاء "جان جاك روسو في" القرن الثامن عشر وأطلق كلمة (اغتراب) على ذلك الشيء (الذي يتمثل في ضياع الإنسان في المجتمع وانفصاله عن ذاته)[١]، وإذا كان بعض الفلاسفة في ذلك القرن قد استخدم هذه الكلمة في مجال الانطولوجيا (المجال الوجودي) فقد جاء "شللر" ليهبط بها إلى مجال التاريخ والفن والأخلاق ، ويرى أن الاغتراب يتمثل في (انفصال الإنسان عن ذاته والعالم انفصالاً يصبح معه غير قادر على التناغم والانسجام لا مع نفسه ولا مع العالم)[٢] ، ثم جاء أبو الاغتراب "هيجل" الذي ناقش مصطلح الاغتراب بمنهجية جديدة جعلت كثيراً من الباحثين يعقد له الريادة في هذا المجال .

---

(1) الاغتراب سيرة مصطلح : محمود رجب ، ص١١.
(2) المرجع السابق ص١٢- ١٣

وقد تحدّث عن الاغتراب في غير موضع في مؤلفات الشباب التي دارت حول فكرتي الحرية والاغتراب ، ويقصد بالحرية امتلاك الإنسان لذاته امتلاكاً تاماً واعياً .وأما الاغتراب فعلى النقيض من الحرية فيقصد به (انفصال الإنسان عن ذاته وأفعاله والآخرين انفصالاً تبدو معه هذه الأمور كلها وكأنها غريبة عنه أو عدواً له ، أي أن يكون خارج نفسه ، وقد يقصد به أيضاً عدم امتلاك الإنسان لذاته وضياعها واستلابها على نحو يؤدي إلى الوقوع في العبودية بصنوفها المختلفة)[1] ، وقد نضجت عنده تجربة الاغتراب في كتابه (ظاهريات الروح) وعول عليها كثير من الذين جاؤوا بعده ثم بعد ذلك ظهرت مؤلفات كثيرة ودراسات متعددة تناولت هذا المفهوم من وجهات مختلفة وفي مجالات شتى يمكن حصرها بما هو وجودي واجتماعي اقتصادي ، وفردي نفسي ، حيث ذهب بعضهم إلى تحديد الاغتراب بجوهر الوجود الإنساني ، فبدا هذا الوجود برمته مبنيّاً على الاغتراب . وذهب آخرون إلى تحديد هذا المفهوم بالمسألة الاجتماعية الطبقية ، فتم الحديث عن اغتراب الإنسان عن أدوات العمل ، واغتراب الفئات الفقيرة عن الواقع الاجتماعي لاعتبارات اقتصادية ، كما ذهب بعضهم إلى تحديد الاغتراب بالذات الفردية المكبوتة ، أي تم اعتبار الاغتراب نتيجة لجملة من العقد والأمراض النفسية الناجمة من تصادم الفرد مع المجتمع .

والاغتراب ظاهرة تاريخية تتميز بتعدد أبعادها وتنوع مظاهرها ، ظهرت بوادرها منذ التاريخ القديم وكانت تشتد حيناً وتلين حيناً تبعاً لظروف المرحلة والحقبة التاريخية ، وامتدت جذورها إلى الملاحم اليونانية حيث (أفرز الوجود الاجتماعي وعياً بالظاهرة بدأ مع

---

[1] الاغتراب سيرة مصطلح ص ١١٢-١١٣

الإحساس بانعدام الأمن عبر عنه "هوميروس " في الإلياذة والأوديسا ، فحدثنا عمن لا قلب له ولا قبيلة ولا وطن ، كما حدثنا عن أولئك الذين ينشدون الأمن ولا يجدونه ، كما يحدثنا أفلاطون عن الإنسان المغترب عن الإنسان بالذات عن طبيعته ووجوده المثالي)[١] .

(وقد ذاعت فكرة الشريد التائه في التراث اليهودي وصار إبراهيم الخليل رمزاً عالمياً خالداً للإنسان المغترب حين ينفصل عن أسرته ومجتمعه ، ويتخلى عن دين قومه ويهاجر من أرضه إلى أرض غريبة)[٢] .

وكثير من الباحثين يرى أن الاغتراب كان أساسه دينياً وأن دلالة كلمة الاغتراب بمعنى الانفصال تعود إلى الديانات السماوية وإن كان ذلك بشكل خاص في اليهودية والمسيحية . والاغتراب ليس فكراً دخيلاً على الإسلام فاغتراب الإنسان وطرده من الجنة وإنزاله إلى الأرض موجود (في التفكير الإسلامي استناداً إلى الآيات القرآنية التي تبين حقيقة هذا الانفصال المتمثل في قصة آدم وخروجه من الجنة ثم هبوطه إلى الأرض)[٣] .

وإذا كان الإنسان قد اغترب عن الله – بعد أن عصى أمره – فهو في هذه الحياة يعيش أزمة اغترابه وبعده وهذا ما يثير في نفسه الأحزان والمخاوف التي تشتد تارة وتخف حدتها تارة حسب قوة إيمانه التي يقهر بها هذا الاغتراب ويحقق بها الطمأنينة والسعادة .

وهذا الاغتراب يمكن أن نطلق عليه (غربة مكانية) لأن الناس في هذه الدنيا كلهم غرباء فهي دار متاع وليست دار مقام ، وكما يقول ابن قيم الجوزية عن هذه الغربة بأنها

---

(1) الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر : دكتور نبيل رمزي إسكندر : ص٣٢٥
(2) المرجع السابق ص٤
(3) الاغتراب في الفن: عبد الكريم هلال خالد : ص١٤٣

(مشتركة لا تحمد ولا تذم) وفي هذا المعنى يقول ابن الجوزي [١] :

وحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيـــم
ولكننا سبي العدو فهل تـــرى ... نعود إلى أوطاننا ونسلـــــم
وأي اغتراب فوق غربتنا التــي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكم

وقد حث الإسلام على الزهد في الدنيا وحذر من الإغراق في ملذاتها لأن من لا يشعرون بهذا النوع من الاغتراب في هذا الحياة هم من أخذتهم الحياة بزينتها وزخرفها ، أما المؤمنون فهم مشتركون في هذه الغربة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[٢] .

وتمتزج هذه الغربة المكانية بغربة زمانية فتشتد وطأتها ويظهر فيها فضل الغرباء الصابرين ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء)[٣] .

وعندما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الغرباء جاءت إجابته بروايات عدة وإن اختلفت هذه الروايات فكلها تدل على أن الغرباء فئة من أهل الصلاح والتقوى ممن آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم في أول دعوته وكان إيمانه صادقاً خالصاً لوجه الله استطاع معه أن يكابد أنواع المشقة والأذى ويظل صامداً في أول الدعوة ويبقى صامداً بعد ذلك عندما يفتتن الناس بالشهوات والشبهات إذ فتحت لهم كنوز الأرض وخزائنها .

---

(1) مدارج السالكين : ابن قيم الجوزية : ٣ / ١٩٠ .
(2) صحيح الإمام الترمذي : ٢ / ٥٤ .
(3) صحيح مسلم : ١ / ١٣٠ .

(والاغتراب بالمعنى الإسلامي اغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة ، واغتراب عن النظام الاجتماعي غير العادل ، فالغرباء قاوموا الحياة ومغرياتها بطريقة إيجابية سلبية فقهروا السلطتين جميعاً سلطة الحكام وسلطة النفس بترويضها على الطاعات والمجاهدات واعتزالهم الناس)[١] .

وقد كان موقف الإسلام واضحاً من الدنيا يدعو إلى العمل الدؤوب والحياة الجادة فالمسلم يعمل لدنياه وكأنه يعيش أبداً ويعمل لآخرته و كأنه يموت غداً ، لهذا كان الشعراء يمدحون سلاطينهم على نحو[٢] :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

فعمل المسلم لدنياه جاء في خطوط دقيقة رسمها له هذا الدين العظيم ووضع لها حدوداً سامية فلم يأت هذا العمل على حساب نفسه ولا جاء على حساب الآخرين ، وهذه مثالية الإسلام ووسطيته العظيمة ، وعندما ينحرف المسلم عن هذا الطريق الوسطي يكون قد اغترب عن تعاليم دينه ولو بصورة مؤقتة ، وعلى شاكله الإنفاق والإمساك في قوله تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾[٤]

(1) الاغتراب في الإسلام : فتح الله خليف ، عالم الفكر ص٨٨
(2) البيت لجرير في الديوان ص٤٨٠
(3) سورة الإسراء – آية ٢٦
(4) سورة الإسراء – آية ٢٩

جاءت تعاليم الإسلام في كل صور الحياة فلم يدع الإسلام المسلم إلى أن يكون عجوزاً في محرابه ، باكياً منشغلاً في اعتكافه عن معاشه والسعي في أسباب رقي مجتمعه ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾[1] ، بل أمره بأن يعمر هذه الحياة ولكن لا ينسى أنها ليست دار مقام وأن يكون عمله موجهاً للخير والنفع والإحسان لمن حوله وأن يبتغي بذلك وجه الله ومتى زلت قدم المسلم وأخطأ هذه التوجيهات الكريمة وأغرق في ملذات الحياة وغيها كان بذلك بعيداً عن نهج الإسلام القويم مغترباً عن تعاليمه .

وعندما انفجرت الثروة وعم الترف والبذخ بعد الفتوحات الإسلامية ، وفي العهد الأموي – تحديداً – كان ذلك سبباً في اختلال ميزان العدل الطبقي وكان أول الثائرين وأشدهم الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري الذي نبه المسلمين إلى خطورة هذا الوضع وذلك من منطلق النظرة الإسلامية الوسطية للحياة وليست دعوة أخرى كما يتأولها بعضهم في هذا العصر ويستثمرها لتغطية مقاصد أهدافه .

وتبقى الرؤية الإسلامية الواضحة في أن هذه الحياة ليست دار إقامة وبما أن الأمر كذلك فعابر السبيل لا يسعى إلى البحث عن فرش الحرير وحياة الأرائك الفاخرة لأنه غريب يوشك على الرحيل ، ولأن الإسلام جعل الأعمال الخيرة ميزان التفاضل بين الناس فدرجة العالم المؤمن أفضل من درجة المؤمن والمؤمن أعلى درجة من المسلم ، وبين هذه المستويات تنشأ غربة يمكن

---

(1) سورة القصص – آية ٧٧

ردها إلى القلة والندرة والتفرد (فغربة العلماء هي أشد أنواع الاغتراب لقلتهم بين الناس وقلة مشاركة الناس لهم وانفرادهم بإعمال الفكر والعقل)[١] .

بعد أن عرضنا بإيجاز شديد النظرة الإسلامية العامة لمفهوم الاغتراب يجدر بنا أن نعرج على أحد كبار أدباء ومفكري العرب القدماء والذي له رؤية واضحة في الاغتراب الاجتماعي خاصة ، عول عليها كثير من الباحثين العرب الذين طرقوا هذا المفهوم في عصرنا الحاضر ، ولعل معايشة أبي حيان التوحيدي للاغتراب على أرض الواقع قد أنضجت هذه الرؤية وأذكت ذلك الفكر ، فقد عاش هذا المفكر الكبير حياة بائسة وكان كثير الشكوى من شدة الضنك وضيق العيش ، ويعلل كثير ممن كتبوا عنه سبب هذه الضائقة لأنه كان يعيش على الوراقة ، ويرى الدكتور شوقي ضيف (أن بؤسه كان بؤساً نفسياً أكثر منه بؤساً مادياً ، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا في الحياة وهم دونه في الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة ، فكان يشعر بضجر شديد وبشقاء لا حد له يملأ قلبه حسرة وروعة)[٢] ولعل سبب اغتراب التوحيدي يعود إلى علاقته السيئة بمن حوله من كبار القوم وعامتهم فقد برموا به وبرم بهم فألف كتاباً في مثالب بعض رؤسائهم وضمن كتبه الأخرى مثل ذلك ، وقال عن عامتهم : (طلب الرفعة بينهم ضعة والتشبه بهم نقيصة) وهو استعلاء غريب على العامة من رجل أسرته منهم ونشأ بينهم [٣] .

و لتوتر العلاقة بينه وبين أبناء مجتمعه وإخفاق هذه العلاقة مع سادة عصره ونظرته المتشائمة للحياة من حوله ، فاحت رائحة الاغتراب في كثير مما كتبه مثل مقدمة كتاب المقابسات في ذمه

---

(1) الاغتراب في الإسلام: فتح الله خليف : ص٩٢

(2) (عصر الدول والإمارات – الجزيرة – العراق – إيران) د.شوقي ضيف: ص٤٥٥

(3) المرجع السابق نفسه .

لأهل زمانه ، ويبرز ذلك في رسائله خاصة ، كرسالتـه عن (الغريب والغربة)[1] والتي جاءت فيها عبارته الشهيرة التي جسدت معنى الاغتراب الاجتماعي : " وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه " .

ومن هنا نجد أن التوحيدي يشير للغريب هنا بالشخص الذي صار شقياً والذي يقتلع من عالمه ولا يمتلك جذور ثقافة تربطه به [2] ، وقد رسم التوحيدي صورة واضحة جلية للمغترب الذي يعاني من انفصاله وعدم تكيفه مع بني جنسه وأثر ذلك في نفسيته وما يلقاه من حزن وأسى في هذه الرسالة الطويلة التي من خلالها (تحدث عن ثلاثة أنماط للاغتراب هي :

١- الاغتراب عن الوطن . ٢- الاغتراب داخل الوطن والاغتراب عن المجتمع .

٣ - الاغتراب عن الذات) [3]

وجميع الذين كتبوا عن الاغتراب من الفلاسفة وعلماء النفس الغربيين والباحثين العرب لم يتجاوزوا هذه الأنماط الثلاثة للاغتراب وحتى في تفريعات الاغتراب الأخرى كانت هذه الرسالة وافية بالغرض حيث ميز فيها التوحيدي بين نوعين من الاغتراب (الاغتراب الناجم عن إقصاء الشخص بعيداً عن وطنه وثقافته وهو النوع السلبي من أنواع الاغتراب ، أما الاغتراب الثاني فهو المتمثل في الاغتراب الإيجابي حيث يكون الشخص غريباً في وطنه ويتسم بنوع من التحدي ورفض التقولب بأفكارهم)[4] .

---

(1) الإشارات الإلهية : أبو حيان التوحيدي : ١ / ٨٠ وما بعدها.
(2) نظرية الاغتراب من منظور الاجتماع : د. السيد علي شتا : ص٢٦
(3) الاغتراب في الشعر العباسي (القرن الرابع الهجري): د . سميرة سلامي : ص٢١
(4) نظرية الاغتراب ص : ٢٦ .

لقد حاولنا جلاء الرؤية الإسلامية العربية لهذا المفهوم من خلال عرضنا السابق ولم نكن بصدد تتبع تاريخ هذه الظاهرة بشكل دقيق لأن ذلك ليس مجال بحثنا وإنما أردنا الإشارة إلى أن الاغتراب ظاهرة تاريخية وعرضية تنشأ في المجتمعات التي تهيئ ظروفها النفسية والاجتماعية والاقتصادية جواً مناسباً لاستفحالها وهي تطغى عندما تطغى الطبقية في المجتمع وينقسم إلى طبقتي السادة والعبيد ، الأغنياء والفقراء ، الأقوياء والضعفاء ويشتد عودها عندما تغيب القيم ويتسلط قانون النفعية وتستشري الأنانية فينعدم الإحساس المرهف وتتقطع الصلات السامية وتحبس إنسانية الإنسان .

وإن كان عصرنا هذا قد تميز باغترابه الشديد لأن إنسانه قد تشيأ وأخذت منه الآلة أضعاف ما أعطته وسلبت إنسانيته وهي فوق ذلك كله مصدر رعبه وقلقه ونذير دماره ، فإن ذلك لا يعني أن الاغتراب في العصور السابقة كان أخف وطأة ، لأن (من لم يمت بالسيف مات بغيره)، وبما أن (أصل الاغتراب هو استغلال الإنسان لأخيه الإنسان)[١] فإن الاغتراب موجود في كل مكان وزمان وإن اختلفت حدته لاختلاف ظروف كل عصر ، لهذا فهو (ظاهرة إنسانية يمكن أن نتتبعها بشكل أو بآخر في مختلف النظم والثقافات والمجتمعات ، وحيثما يوجد أفراد يشعرون بتفردهم وتميز شخصيتهم وبالعجز عن التجاوب مع الأوضاع العامة السائدة في المجتمع الذين يعيشون فيه والثقافة التي يفترض أنهم ينتمون إليها ويرفضون القيم العامة أو الشعبية التي تسود في هذه الثقافات والتي يتقبلها بقية أفراد المجتمع)[٢] .

(1) فتح الله خليف : ندوة حول مشكلة الاغتراب ، عالم الفكر ص١٤٢
(2) الاغتراب : د . أحمد أبو زيد : عالم الفكر ص١٠

وإذا كان المغترب في تصور التوحيدي ومعظم المفكرين العرب والمتصوفة هو (الإنسان الذي يجد ذاته بعيدة عن الجماهير العامة)[١] ،فإنك تحس أن هذا التصور منطلق من الرؤية الإسلامية التي تعتبر المجتمع بنياناً متراصاً وجسداً واحداً وسقوط لبنة منه تعني خللاً يشعر به الجميع ، ولا ضير أن نجد أن تصور الوجوديين ينطلق من رؤيتهم المتقوقعة حول أنفسهم ، فالمغترب عندهم هو (ذلك الإنسان الذي يفقد ذاته الحقيقية في خضم الجماهير والناس)[٢] . ولكي نمسك بهذا المفهوم المتفلت أردنا أن نقتصر منه على ما نراه داخلاً في صميم دراستنا هذه ونحن مع رأي أغلب منظري الاغتراب الذين يرون أن مدلوله الجامع هو (الانفصال وعدم الانتماء) والحق أنه كذلك ولكن بكل ما يحمله هذا المضمون من بعد وعمق .

والتعريف الذي أخذ من معظم معاني الاغتراب بطرف – وهو ما ارتضيناه في هذه الدراسة – أن الاغتراب يقصد به (وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته والبيئة المحيطة به والمحبطة له بصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء والسخط والقلق وما يصاحب ذلك من سلوك إيجابي أو بالشعور بفقدان المعنى واللامبالاة ومركزية الذات والانعزال الاجتماعي)[٣] .

وإذا كان هذا التعريف قد جمع بعض أطراف الاغتراب فليس معناه أنه شامل مغن يتوقف عنده الباحث ويقتصر عليه الدارس وذلك أن للاغتراب ظواهر متعددة وأبعاداً مختلفة ، ولا بأس في أن نلم ببعضها :

---

(1) نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع ص٢٦

(2) المرجع السابق نفسه .

(3) سيكولوجية الاغتراب (ظاهرة الاغتراب لدى طلاب الجامعة) أحمد خيري حافظ : ص٩٧

١-العزلة الاجتماعية :

وهي شعور الإنسان بالانفصال عن الآخرين ، والشعور بعدم الانتماء واللامبالاة بطريقة (يحس فيها الفرد بعدم الانتماء لمن حوله وبعزلته عنهم رغم معيشته معهم)[١] وكثيراً ما يشعر هذا المغترب بالوحدة حتى بين أقرب الناس إليه . يقول " إيريك فروم " : (إن الشعور بالعزلة تماماً يفضي إلى الموت ، فالفرد قد يكون وحيداً بمعنى فزيائي لعدة سنوات ، ومع هذا يمكن أن يتعلق بالأفكار أو القيم أو على الأقل بالأنماط الاجتماعية التي تمنحه الشعور بالتواصل وأنه ينتمي إلى شيء ، وقد يعيش وسط الناس ومع هذا يقهره شعور لا يطاق بالعزلة وتكون النتيجة إذا تجاوز الأمر حداً معيناً إصابة الفرد بالأمراض العقلية)[٢]

وحقاً إن أشد معارك الإنسان هي تلك التي يخوضها مع نفسه ! !

والعزلة تعني في مجملها انفصال الفرد عن مجتمعه وتراثه وغربته عن أهداف وقيم مجتمعه السائدة ، لأنه لا يرى قيمة لهذه الأهداف التي يقرها هذا المجتمع ، وهذا المنفرد بنفسه يحاول الهرب لأن واقعه يتحول أحلاماً وأفكاره تصبح أوهاماً ، ويظل مسترسلاً في أحلام يقظته (وتختلط عنده الحقيقة بالخيال فهو لا يعرف كما يقول "شاختل" : ماذا يكون ، ولا ماذا يريد ، ولا ماذا يريد منه الآخرون)[٣] .

وهذا المغترب (الملتصق بذاته ، والذي يعيش في كنف وحدة نفسية يعاني من شعور حاد بالقلق الذي يترجمه شعوره بعدم الاستقرار والأمن وكراهيته لما يحيط به من واقع ومن

---

(1) الاغتراب والتطرف لدى الشباب الجامعي بصعيد مصر: صلاح محمد صالح : ص١١

(2) الاغتراب النفسي : د. إبراهيم عيد : ص١٧٠

(3) المرجع السابق نفسه .

آخرين)[١] .

٢- التشيؤ :

وهو أن يعامل الإنسان كما لو كان شيئاً وينفصل حينئذٍ عن الآخرين ويفقد ذاته الحقيقية فيكسب ذاتاً مزيفة متشيئة ويفقد هويته وتستأصل آدميته ، ويصبح كأنه أداة يحركها المجتمع كيف شاء ، وأنه يحيا على نحو لا إنساني (فالقيم والكائنات الإنسانية تتحول إلى أشياء أو سلع قابلة للبيع في سوق الحياة)[٢] . وهنا يشعر الفرد أنه عديم القيمة ويرى القيم وكأنها فقدت مغزاها ، وشعوره بفقدان شخصيته وعدم جدواه وفائدته شعور محبط مغرق في الاغتراب . والتشيؤ (يتجلى بصفة خاصة في العالم التجاري إذا ما أصبحت للمال القيمة العليا كما يتجلى في الامتثال ، حيث تفقد الأنا حسها النقدي ، كما يتجلى كذلك في انهيار عالم القيم الحقيقية وإحلال قيم زائفة بديلة وكل هذا لأن الأنا تغرق في عالم الوقائعية المباشرة للأشياء ، ووقفت عند أسطح الأشياء الخارجية ، ولأن الأنا تجزأت وفقدت نظرتها الشمولية)[٣] .

والمتشيئ لا يفكر بل يترك الآخرين يفكرون عنه ، وتحل بذلك لغة الآخرين محل لغة الذات ، وقد كان "هيجل" (بشكل لا يقل عن "أريك فروم" يعارض الانغمار التام للإنسان في العالم الخارجي)[٤] لأن الخروج من مأزق التشيؤ لا يكون إلا بوجود الإنسان الحقيقي الذي يستطيع معرفة الحقيقة بنفسه .

---

(1) المرجع السابق ص١٦٩
(2) الاغتراب النفسي ص١٧٤
(3) الإنسان والاغتراب : مجاهد عبد المنعم مجاهد : ص٤٨
(4) المرجع السابق ص٥٠

٣- اللامعيارية :

وتعني الانفصال بين الأهداف والغايات الفردية الذاتية التي يحيا الفرد من أجل تحقيقها بأي وسيلة ، وبين القيم والمبادئ الدينية والاجتماعية [١]، وتنتج عن إحساس الفرد بالإخفاق في إدراك وتقبل قيم المجتمع ومعايره السائدة فيعتبر عند ذلك منسحباً من هذا المجتمع رافضاً لهذه القيم والمعايير ، ولعل أشد أنماط اللامعيارية ذلك الذي يتمثل في غياب المعايير أو ضعفها واهتزازها بصورة تفقدها احترامها وتعرضها للشك ، وينتج عن ذلك عدم ثقة أفراد المجتمع بها فيقل تقبلها والاندماج بها ، وتنيجة لذلك كله تفقد سيطرتها على سلوك هؤلاء الأفراد ولا تعد موجهة لهذا السلوك .

واللامعيارية حالة من انعدام القوانين وفيها تبرر الغاية الوسيلة ، حيث لا ينظر (اللامعياري) عند تحقيقه لأهدافه ما إذا كانت وسائله مشروعة ، أو غير مشروعة وهي حالة من اللامبادئ يطلق عليها أحياناً لفظ الأنومي الذي يشير كما يقول "سيمان" (للموقف الذي تتحطم فيه المعايير المنظمة لسلوك الفرد إذ أن هذه المعايير ليست مؤثرة ولا تؤدي وظيفتها كقواعد للسلوك ، وأشار إلى تأكيدميرتون على هذا الموضوع ونظرته إليه باعتباره معبراً عن فوضى اجتماعية تغرق فيها القيم العامة في خضم الرغبات الخاصة الباحثة عن الإشباع بأي وسيلة)[٢] .

وهذه الفوضى الاجتماعية التي يسعى من خلالها الفرد إلى تحقيق أهدافه بطرق غير مشروعة تنعدم فيها الطمأنينة لأنه (حينما تكون القيم التقليدية مهددة) ينعدم الأمن ،

---

(1) ينظر : الاغتراب النفسي ص١٧٩

(2) نظرية الاغتراب ص٢٢٠

وبذلك تخلق (اللامعيارية) إحباطاً وتزعزعاً في المجتمع يهز ثوابته ورموزه .

٤- العجز :

يعرف "كلارك " الاغتراب بأنه (حالة يشعر فيها الإنسان بأنه قد أصبح مجرداً من القوى التي تسمح لـه بتحقيق الدور الذي كان قد حدده لنفسه في مواقف خاصة)[١] . وباختصار فقد عرف الاغتراب بأنه حالة "عجز" يحس الفرد فيها بعدم قدرته على اتخاذ القرار والتنبؤ والاستقلال الذاتي ويفقد إرادته ويشعر بحالة من الاستسلام والخنوع ، وهو ما يطلق عليه فقدان السيطرة أو انعدام السلطة أو نقص القوة الاجتماعية وضعفها ، بمعنى (شعور الشخص بأنه لا حول له ولا قوة ، وإحساسه بأن مقدراته في مجملها ليست ملكه أو رهن تصرفه أو يمكنه أن يتحكم فيها بنفسه وإنما تتحكم فيها وتسيرها كيانات أخرى خارجة عن ذاته ، إنه العجز الذي يقف أمامه الشخص مكبلاً في غير استطاعة)[٢] ، والفرد حينئذ يكون عاجزاً عن التخطيط لحياته بشكل فعال ولا يمتلك القدرة على الدفاع عما يؤمن به ، وهو فوق شعوره بالضعف أمام رغباته لا يقدر على اتخاذ أي قرار خاص بحياته (وعندما يجد الفرد نفسه محبطة أو معوقة فإنه لا يتخلى عن أهداف النجاح ولكن بدلاً منها يتكيف مع ميكانزمات الهروب وذلك مثل روح الانهزامية والتصوف والانسحاب)[٣] ، وقد يلجأ إلى الانتماء إلى كيانات أكبر منه يشعر معها بالأمن لعله بذلك يخفف شعوره بالقلق والخوف الذي يملأ حياته ويحقق شيئاً من إحساسه بهويته

(1) نظرية الاغتراب ص٢٣١
(2) الاغتراب وانحراف الشباب العربي : د. عبد المنعم محمد بدر، المجلة العربية للدراسات الأمنية : ص٨٤
(3) نظرية الاغتراب ص١١٤

ويجد نفسه ويشارك في صنع القرار .

٥- اللامعنى :

(إنه شعور الفرد بعدم فهم الجوانب التي هو مولج فيها والتي تؤثر عليه ، وقد نظر "دويت دبن" للشخص الذي لديه شعور باللامعنى باعتباره الشخص الذي يشعر بعدم القدرة على فهم الجوانب المختلفة التي تعتمد عليها حياته وسعادته)[١] .

وبوضوح أكثر فإن اللامعنى يعني : إحساس الفرد بأن حياته خالية من الأهداف التي تستحق أن يحيا الإنسان من أجلها ، وأنها لا قيمة ولا معنى لها وكأنها عديمة الفائدة ومملة ورتيبة ، ويشعر أنه يعيش بدون هدف وكأن الحياة عبثية لا جدوى منها ، ويفقد ثقته حتى بالمعاني السامية كالحب الذي ينظر إليه على أنه لا معنى لــه ، وبذلك يقترب من التبلد الذي لا يشعر صاحبه بشدة الحزن ولا توهج الفرح ، ويصبح شخصاً غير مبالٍ لا تربطه بالآخرين أية رابطة وهذا الشعور المحبط اليائس قد يؤدي إلى انتحار صاحبه .

٦- التمرد :

ويطلق عليه العصيان أيضاً ويقصد به (شعور الفرد بالرفض لكل ما حوله من نظم سياسية وقيم دينية وتقاليد اجتماعية ورفض السلطة في أي صورة من صورها)[٢] ، وهذا الرفض أو الكراهية قد يتجه إلى داخل الفرد في شكل عزلة ونكوص وانسحاب وعكوف على الذات ويكون كذلك خارجياً يتمثل في سلوك رافض يتسم بالعدوانية والعنف بأنواعه .

---

(1) نظرية الاغتراب ص٣٥٣
(2) الاغتراب والتطرف : صلاح محمد صالح : ص١١

والتمرد (يظهر في شكل سلوك رافض يتسم بالعداء والازدراء والكراهية والشعور بالاستياء والإحباط واليأس من كل ما تعارف عليه المجتمع من قيم ومعايير ويظهر في الانسحاب من المجتمع والالتصاق بالذات والاحتماء فيها والإحساس بالسلبية مما يؤدي إلى إحساس الفرد باللامبالاة وعدم الانتماء إلى المجتمع وكل ما ينتمي إلى ذلك المجتمع)[١] .

وقد يأخذ التمرد شكلاً عدوانياً نحو المجتمع ويتمثل في السرقة والنهب وتعاطي المخدرات

٧- القلق :

وهو حالة من عدم الارتياح والخوف من خطر غامض غير معروف يمكن أن يكون داخلياً في نفس الفرد أو خارجياً في بيئته المحيطة به [٢] .

ومعظم الدراسات تجعل من الاغتراب قلقاً إنسانياً بسبب ما يعانيه هذا الإنسان من عوامل نفسية داخلية وظروف خارجية مختلفة تغرس في داخله حالة من التوتر المترقب وتجعل حياته هالة من المخاوف التي لا حد لها . والقلق – كما يقولون – معنى آخر للاغتراب (وعندما يصبح الفرد مستقلاً فإنه يقف بمفرده في مواجهة العالم المليء بالمخاطر والقوى الخارقة ولا يلبث أن يشعر بالعجز والقلق ومن ثم الاغتراب)[٣] .

ويعد القلق قاسماً مشتركاً في جميع الاضطرابات النفسجسمية والاضطرابات النفسية وهو خبرة انفعالية تتضمن الخوف من المجهول ، وهذا الخوف غامض لا يعرف سببه وينتظر فرصته للتعلق بأي فكرة أو شيء خارجي.

---

[1] بعض المتغيرات النفسية المرتبطة بالشعور بالاغتراب : عفاف محمد عبد المنعم : ص٤٥

[2] الاغتراب والتطرف : ص١١

[3] الاغتراب وبعض متغيرات الشخصية : د. رشاد صالح دمنهوري : ص١٠

ويشير "إدلر" (إلى ارتباط القلق بما يسميه بعقدة النقص ، وتشير "هورني" إلى أن القلق رد فعل انفعالي للشعور بالخطر وتختلف مع "فرويد" في اهتمامها بالدوافع العدوانية أكثر من اهتمامها بالدوافع الجنسية ، وترى في شدة الدوافع العدوانية أهم مصدر للخطر الذي يثير القلق ، وترى في فقدان الشعور بالأمن أهم ما يثير القلق لدى الفرد)[١] .

وإذا كان القلق قاسماً مشتركاً في جميع الاضطرابات النفسية فهو قاسم مشترك أيضاً في جميع أعراض الاغتراب ، فالقلق يصاحب الاغتراب في الفكر والسلوك والمواقف .

---

[1] الاغتراب النفسي ص٨٠

الاغتراب في العصر الجاهلي

لم يكن الاغتراب مختصاً بعصرٍ دون عصر بل هو قديم قدم التاريخ نفسه (ويبدو أن الإنسان منذ بدأ يضرب في الأرض قد حمل بين جوانحه ضروباً من الإحساس بالغربة حتى لقد تلونت قطاعات عريضة من أدبه بعد ذلك بهذا الإحساس ، وربما كانت أسطورة الحارث الجرهمي التي ذكرها وهب بن منبه في كتاب " التيجان " تصور زوال الجراهمة وبقاء الحارث وحده في التيه والغربة هي في الواقع رمز لحياة العربي التي تضرب في المتاهات بلا انقطاع ورحيله الذي لا يهدأ وراء المطر والكلأ)[١] .

وليست الغربة وقفاً على البعد المكاني الذي يعني النزوح عن الوطن والأهل والقبيلة وما يتبع ذلك من عناء وشقاء ، بل إن الغربة النفسية التي تعني انفصال الفرد عن مجتمعه وعدم تكيفه مع هذا المجتمع وقيمه أشد وطأة وأذكى ألماً في نفس هذا العربي الجاهلي الذي لم يعرف طعماً للاستقرار بنوعيه (المكاني والنفسي) .

والحق أن كل ما في حياة العربي الجاهلي يعد مدعاة للغربة ، ولا نبالغ إذا قلنا إن العربي عاش في هذا العصر قمة اغترابه ، لأنه لم يعرف الأمن وكان قلقه فيه قلقاً عصابياً ، فهو إن سلم من ويلات صحرائه وقلة مائها ومرعاها ، لم يسلم من هجمات أخيه المتوثب[٢] :

وأحياناً على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا

---

(1) الحنين والغربة في الشعر العربي : د. ماهر حسن فهمي : ص٧
(2) شرح حماسة أبي تمام : الأعلم الشنتمري ١ / ٣٧٧ والبيت للقطامي

هذا القلق والخوف من المجهول جعله يئد بناته ومن أبقى عليهن رحمة بهن كان يتمنى موتهن خوفاً عليهن وإشفاقاً ، فالشاعر الجاهلي لم تستقر به حال ولم تهدأ رحلاته في طلب الماء والكلأ وكانت متوالية ، ومهما يكن حبه لأرضه التي يغادرها فهو لا يقاس بحبه لقبيلته، لأن ارتباط الشاعر بقبيلته (وطنه الأم) أكثر من ارتباطه بأرضه ، فالوطن عنده ليس حدوداً جغرافية معينة وإنما أواصر من النسب الصحيح أو المزعوم.

ولعل غربته تكمن فيما وراء ذلك لأن كل طلل يتركه يغادر جزءاً من عمره اليافع عنده وفي كل أرض جديدة يتوقع خطراً جديداً قادماً ، وعدم الاستقرار وحده كفيل بتهديد حياة الجاهلي وإثارة أشجانه ، ولكن هذه الغربة تكون مضاعفة شديدة الوقع عندما يكون مغترباً في غير قومه [1]:

وجدت الفتى ما كان في غير قومه تنوصر مظلوماً عليه وظالماً

ولأنه في عرف القبيلة مواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة فإنه لا يعامل معاملة الإنسان السوي التي كان يلقاها على أرضه وبين قومه فيشعر بمرارة وذل كبيرين[2] .

ولإحساس الشاعر الجاهلي بأبعاد غربته العميقة بدأت مطالع قصائده بالوقوف على الأطلال ومحادثتها وبالبكاء على الأحبة والحنين إليهم (والاغتراب في مثل هذه الحال يكمن في فقد الألاف و المحبين وفقدان مذاق الحياة واشتهائها ما دام الحب معادلاً لاستمرارية الحياة وخصبها ، أو بمعنى آخر الاغتراب هنا معادل موضوعي للعقم والجدب والعدم وإلحاح الشعراء على هذا المعنى في مطالع قصائدهم يوحي بقوة إلى إحساسهم الشديد بفجيعة الغربة وللأقدار

(1) الغربة في الشعر الجاهلي عبد الرزاق الخشروم ص : ٤٧ .
(2) المرجع السابق نفسه .

قوى لا يستطيع الشاعر السيطرة عليها أو إبعادها وليس أمامه إلا أن يركب ناقته ليرحل فينسى ، أي أنه يواجه الغربة باغتراب آخر)[١] .

وفي وقوف الشاعر على الأطلال يتبدى لنا حنين إلى الماضي وهرب إليه من الحاضر القاسي والواقع المؤلم ، وإن لم يكن ذلك الماضي يحمل كل ذكريات الرخاء والاطمئنان إلا أن الشاعر يجد فيه تأسياً يخفف كثيراً من عنائه ، كما أنه يجد في ذكرياته الجميلة من أيامه الخالية متنفساً وترويحاً وشيئاً من الطمأنينة التي تساعده على حياته الآنية بقسوتها ومرارتها فيستعد لمواجهة الموقف بعزيمة وثبات .

وأكثر ما يهرب إليه هذا الشاعر ذكريات صباه التي تبعث في نفسه الأمل وتجدد أحلام حياته ويجد فيها ذلك الملجأ الذي يبحث عنه (وهو بذلك يخلق توازناً في ذاته يحرره من قلق اللحظة وبؤس الواقع) [٢] .

وعندما يصدمه الطلل فيوقظه من حلمه الواهي ليريه حقيقة يومه يحس عند ذلك بهذه الفجيعة فيلجأ إلى طلب مشاركة أصحابه له في هذا العزاء[٣] :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فامرؤ القيس يتحدث إلى صديقين يشاركانه هذه الهموم ، وفي مشاركة الناس معاونة على حمل الأسى .

---

(1) الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ص : ١٠٨ .
(2) الغربة في الشعر الجاهلي : عبدالرزاق الخشروم : ص٢٤٢
(3) شرح الديوان ص١٦٤

وتلمح من تغنى الجاهلي بأطلاله اغترابا منبعه ذلك الفردوس المفقود : الأهل والديار والأحبة والحياة السعيدة الغنية بالذكريات .

ولا يخفى على قارئ المعلقات ما يلحظه من ترنح الشاعر الجاهلي بين ماضيه وحاضره ، اغترب عن حاضره هاربا إلى ماضيه ليعيش في دفء أحلام ذكرياته وأفاق من حلمه الماضي الواهي على واقعه المر فاغترب عن ماضيه أيضا وكأنه فقد زمنه كله ولم يبق له منه شيء .

وهذا لبيد بن ربيعة (يتوقف طويلاً عند مشاهد الذكرى الطللية ، وتعقبها عنده رحلة الظعينة وهو في الصورتين كلتيهما يرصد بعدا واضحا من أبعاد حالته النفسية وكأنما انسلخ زمنيا – أو أراد – من واقعه ليعايش ذلك الماضي معايشة تامة . . .

عفت الديار محلها فمقامها　　　　بمنى تأبد غولها فرجامها

وفي زحام ذكريات الزمان والمكان يروق له من صور الحياة بعض من ملامح الرخاء التي ارتبطت بحياة القبيلة وخيراتها)[1] ، ويتمثل ذلك في الصورة الشعرية التي رسمها للمطر والمروج الخضراء والعيش الناعم[2] :

من كل سارية وغاد مدجن　　　　وعشية متجاوب إرزامها

وقد كان حلم الشاعر جميلاً فصله عن واقعه أو كاد حتى ظن الحياة في الأطلال لولا أنه استدرك :

(1) ظاهر الاغتراب عند شعراء المعلقات : د. مي يوسف خليف : ص٤٥-٤٦
(2) شرح المعلقات السبع : الحسين بن أحمد الزوزني : ص ٧٧ وما بعدها

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا   صما خوالد ما يبين كلامها

ويستمر الشاعر في استسلامه لأحلام الماضي فيعرض مشهداً للظعينة يعيشه بكل حواسه :

شاقتك ظعن الحي حين تحملوا   فتكنسوا قطنا تصر خيامها

(وكأنه يعمد من خلالها إلى استدعاء شتى مشاهد الماضي فلعلها تطمس جانباً من المشاهد الكئيبة التي يمليها عليه الحاضر حتى يضيق بها ، ويبدو عاجزاً عن طمسها)[١] .

ولعل أقدم الأصوات المغتربة في الشعر الجاهلي المهلهل بن ربيعة الذي عاش غربة ذاتية في انفصاله عن واقعه وانهماكه في عربدته ومجونه ثم صدمه موت أخيه كليب فكانت الحادثة الأكثر سوءاً في حياته فهذا الشاعر الذي لم يعش سوياً لابد أن تكون ردة فعله بحجم حالته الاغترابية إذ تحول من ماجن عربيد إلى (بجرم حرب) يستلذ بالعنف ويتمتع بإراقة الدماء وإيذاء الآخرين[٢]:

أكثرت قتلى بني بكر بربهم   حتى بكيت ، وما يبكي لهم أحـــد

آليت بالله لا أرضى بقتلهم   حتى أبــــهرج بكراً أينما وجدوا

فقد تجرد من إنسانيته وأصبح عدوانياً دموياً إلى حد تبلدت فيها مشاعره وفقد أحاسيسه [٣]:

---

(1) ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات ص : ٢٤

(2) خزانة الأدب : ٢ /١٥١

(3)ـ المصدر السابق : ٣٧/٦.

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد   لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

وليس غريباً أن تصل حالته الاغترابية إلى استهتاره بمن حوله حتى رأى خيار قومه (بشسع نعل كليب) وهو بذلك يقطع آخر حبال اتصاله بمجتمعه الذي لم يستطع التكيف والانسجام معه ، فلفظه قومه وملوا منه، فخرج من بينهم ليضيف إلى غربته النفسية غربة مكانية جنى منها مذلة وانكساراً حيث سار إلى اليمن ونزل في جنب فأجبروه على أن ينكحهم ابنته ، وكان صداقها جلوداً من أدم ، وقد قال في ذلك [١]:

أنكحها فقدها الأراقم في جنب   وكـــان الحبـــاء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبهـــــا   ضرج ما أنف خاطب بـــدم
أصبحت لا منفساً أصبت ولا   أبت كريــــماً حراً من الندم
هـــان على تغلب بما لقيت   أخت بني المالكين من جشـــم
ليســـوا بأكفائنا الكرام ولا   يغنـــون من عيلـــة ولا عدم

(الغربة إذن بدلت قيماً ومفاهيم ، فمن كان يجرؤ على أن يتقدم لخطبة ابنة مهلهل ؟ ولكنه خارج وطنه وقومه فاقد للعز ممتهن الكرامة لم يصب مالاً في زواجها و لا شرفاً وما كان الخاطب كفؤاً له أولها لكنها الغربة)[٢] .

والمهلهل من أشد شعراء الجاهلية اغتراباً لأنه لم يفق من غربته الأولى الماجنة حتى صدم بغربته الثانية الدامية ، لهذا فهو من الاغتراب بمكان لم يعد معه يستطيع أن يهرب من واقعه ولا يملك القدرة على تساؤلات المغتربين الجاهليين الذين كانوا يريحون إلى الماضي ويقفون

---

(1) الأغاني ٥/٥٠-٥١

(2)- الغربة في الشعر الجاهلي ص : ٤٩ .

ويستوقفون حيث يجدون في ذلك انفصالاً ولو بشكل مؤقت عن واقعهم الأليم وهرباً إلى الماضي بذكرياته الجميلة ،وفي ذلك عزاء لهم ومواساة ، أما المهلهل فقد كان يقتل كل الأسئلة في صدره كما قتل حريته التي استعبدتها (صورة كليب العظيم) وثأره الذي لم يرتو من نهر الدماء المتدفقة ، ولا نستغرب حينئذٍ أن نراه يزجر نفسه (عن الطلول والبكاء عليها، إذ كيف يقف ويتذكر الماضي السعيد من كان في همه وحزنه .

إن موت كليب أخيه قد ترك في صدره جروحاً لا تندمل، وهو بعد موته مكفل بطعان الأنام جيلاً بعد جيل)[1]، يقول [2]:

بات ليلى بالأنعمين طويـــــلاً   أرقب النجم ساهراً لن يزولا
أزجر العين أن تبكي الطلــولا   إن في الصدر من كليب فليلاً
كيف يبكي الطلول من هو رهن   بطعـــــان الأنام جيلاً فجيلاً

وإذا كان امرؤ القيس يمت نسبه — من جهة أمه — إلى المهلهل ، فهما أيضاً يلتقيان في غربتهما ويتشابهان في الجراح ، وكما غرق المهلهل في عزلته الماجنة في أول حياته كان امرؤ القيس يعب من خمرته في حياة لاهية مستهترة جعلت أباه يأمر بقتله ،ولعل وراء هذا الأمر ما لحظه والده من استهتاره وبعده عن همم الملوك ومجونه الذي لا يتوافق ومكانة أبيه بين القوم ، وقد تفانى امرؤ القيس في غربته الذاتية حتى نسي من هو ؟ أو ابن من هو ؟ ووصل به الحال إلى أن يفقد اعتزازه بذاته كما هي حال أبناء القبائل من حوله فضلاً عن أبناء الملوك ، وتتفجر

(1) الغربة في الشعر الجاهلي ص : ٢٥٤ - ٢٥٥ .
(2) أخبار المراقسة وأشعارهم : حسن السندوبي : ص٣١٨

مشاعره الاغترابية في سقوط همته واستسلامه للذة الحياة الهابطة مستغنياً بذلك عن كل شيء حتى وصف أبو عمرو بن العلاء قوله :

لنا غنم نسوقها غـزار كأن قرون جلتهـــا العصي

فتملأ بيتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع وري

بأنه من أنذل ما قالت العرب)[١] .

وحسبك منه هذا القول لترى مدى إحساسه بدونيته وسقوطه .

وهو كالمهلهل – كما ذكرنا – فلم يفق من غربته هذه حتى فتحت له غربته الثانية بابها المزدحم بالدماء والآلام ليترك (لهو الخمر) إلى (شدة الأمر) باحثاً عن ثأر وملك أبيه ، وليتحول ذلك الصوت الدوني إلى جلجلة وهدير [٢]:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني – ولم أطلب – قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثـــل وقد يدرك المجد المؤثل أمثـــالي

وهـنا تبدأ رحلته الاغترابية الأخرى الباحثة عن الملك ولا تفارقه حتى فارق هـو الحياة ، وفي هـذه المرحلة من حياته تمتزج الغربة النفسية بغربة مكانية ، فقد فقَدَ ملكاً وأباً وأصبح مطارِداً ومطارَداً ، فلم يستقر في مكان ولم تقرَّ به أرض.

وعـندما بلغه مقتل أبيه وهو بدمون تحركت في داخله كل أشجان الغربة وليلها الطويل ليفيق وتفيق معه الحقيقة التي نسيها أو تناساها ، فهو يمانيّ يبحث عن ملك مفقود بين قبائل

---

(1) الموشح : المرزباني ص : ٣٧ .

(2)ـ الموشح : ص ٣٧ ، وشرح الديوان ص : ١٨٨

الشمال ، وهـذه مواجهة مرة مع النفس واغتراب فوق اغتراب ، لأن أرضه التي يحس الآن أنه فقدها هي في الحقيقة ليست أرضه فهو مستعمر عربي في نظر بعض تلك القبائل [١]:

تطاول الليل علينا دمون　　　دمون إنا معشر يمانون

وإننا لأهلنا محبون

وعندما استجاش بعض القبائل لنصرته ، نصرته على تثاقل ثم تخاذلت لأنها لم تنس مثله أنه وافد غريب وتضاعفت آلامه لأنه أحس بضياعه ، وسار نحو قيصر ملك الروم متشبثاً بآخر آماله لاسترداد ملك أبيه وتحقيق ذاته الاجتماعية يرافقه في ذلك عمرو بن قميئة (عمرو الضائع) الذي كان مهزوزاً، ويبدو أن كبر سنه وطول غربته
قد حطا من عزيمته فبكى وهو القائل في هذا :[٢]

قد سألتني بنت عمرو عن الـ　　　أرض التي تنكر أعلامهـا

لما رأت ساتيدما استعبـرت　　　لله در – اليوم – من لامها

تذكرت أرضاً بها أهلهـــا　　　أخوالها فيهـا وأعمـامها

حيث شعر بمرارة الغربة وطول الطريق واستعبر لأنه بعيد من ديار العرب يرى أن لائمه محق لخروجه باختياره وندامته بعد ذلك ، وقد يكون ذلك مما ضاعف برحاء امرئ القيس الذي كان بحاجة إلى صاحب يشد من عزيمته لا أن يثبطها ، وإن أنكرت نفس عمرو هذه الأرض فإن هـذه الأرض هي التي أنكرت امرأ القيس ، وفي كل خطوة يقطعها يقطع معها سبباً

(1)ـ الشعر والشعراء : ابن قتيبة : ص ٥٠ .
(2) خزانة الأدب ٤ : ص٣٧٤

من (أسباب اللبانة والهوى) وتزداد ضغوط أزمته النفسية ولكنه يجد عزاءه أعظم من غربته – وإن عظمت – لأنه (يحاول ملكا) وهنا يقهر اغترابه بطموح لا يضاهى [١]:

تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت ... على خملي خوص الركاب وأوجرا

ولما بدت حوران والآل دونها ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا

تقطع أسباب اللبانة والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له : لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وغربة امرئ القيس في هذه الرحلة الشاقة كانت وراءها غربة نفسية أشد منها وأنكأ جراحاً دفعته إليها

دفعاً وما أقسى غربة من عاش في وطنه غريباً لم يجد أحداً يستحق ثقته [٢]:

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته ... وقرت له العينان بدلت آخرا

كذلك جدي ما أصاحب واحداً ... من الناس إلا خانني وتغيرا

هذا الشاعر الذي عاش حياته مغترباً واجه غربة مضاعفة حين أحس بدنو أجله فالموت غربة ويزداد وجع هذه المأساة حينما يكون الموت أيضاً في بلاد الغربة [٣]:

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب

---

(1) شرح الديوان : ص١٠٠ وما بعدها .
(2) شرح الديوان ص ١٠٠ وما بعدها .
(3) الشعر والشعراء ص : ٥٩ .

وننتقل إلى شاعر آخر عاش حياة قلقة مضطربة وعلى الرغم من أنها لم تكن طويلة إلا أن صوت هذا الشاعر ملأها حوله ضجيجاً وجلبة .

نشأ طرفة بن العبد وسط ظروف قاسية أثرت في نفسيته تأثيراً واضحاً ، فلقد طبقت مفاهيم المجتمع القاسية عليه وعلى أسرته حيث تقاسم أعمامه مال أبيه وواجهوه بمعاملة فظة ، فثار – على الرغم من صغر سنه – على هذا الوضع الظالم مذكراً قومه عاقبة الظلم الذي لم تبرأ جروحهم من آثاره [1]:

ما تنظرون بحق وردة فيكـــم	صغر البنون ورهط وردة غيب
قد يبعث الأمر العظيم صغيره	حتى تظل له الدمـاء تصبـــب
والظلم فرق بين حيي وائـــل	بكر تساقيهـا المنايا تغلـــب

وقد رسخ في ذاكرته أن سياط هذا المجتمع الظالم لا ترحم ضعيفاً وأن العيش فيه للأقويـاء، فـولد ذلك في نفسـه شعوراً بالنقمة والقلق والخوف فكان أمامه طريقان لم يجد مندوحة عن أحدهما فإما التمرد والثورة أو التقوقع والانكفاء على النفس والاستسلام . ولعل شخصيته الذكية ويأسه من عدالة مجتمعه فجرت في داخله ثورة عارمة وتمرداً لا يلين ، وشيئاً من عدم الانتماء فانسلخ من قبيلته أو كاد ، ورفض ما كان يؤمن به قومه من قيم وإذا كان تمرده وثورته في البداية على الظلم فقد تمرد بعد ذلك على كل القيم التي لم يقتنع بها ، وصنع لنفسه قيماً خاصة من منطلق رؤيته للحياة ، ولكن يبقى (الظلم) سبباً جديراً لهذه الثورة صرح به

---

(1) المصدر السابق ص ١٠٤ والديوان ص ١١

في قوله :[1]

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

أو ألمح إليه :

فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني ويبعـــد

وأيأسني من كل خير طلبتـه كأنا وضعناه على رمس ملحد

هذه الظروف جعلته يقف مترنحاً بين انتمائه الذي تفرضه عليه طبيعة مجتمعه وعدم انتمائه الذي يفرضه صوت داخلي يلح عليه ، ومع هذا الإلحاح يخفت انتماؤه ويطغى تمرده الذي لم يستخف بقيم القبيلة وحدها بل جعله يستخف بكل شيء حوله لتتساوى في عينه الأشياء (الفضيلة والرذيلة ، الموت والحياة ، قبر الكريم وقبر البخيل)[2]:

أرى قبر نحام بخيل بمالـــــه كقبر غوي في البطالة مفســد

ترى حثوتين من تراب عليهمــا صفائح صم من صفيح منضد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحــش المتردد

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلـة وما تنقص الأيام ،والدهر ينفد

هذه الرؤية المشبعة بالاضطراب والخوف زرعت في نفسه القلق واليأس وكأنما ينتابه شعور بتفاهة هذه الحياة وعدم جدواها وأنها لا تستحق أن تعاش ، لهذا بدأ الشاعر قلقاً متوثباً فكان خوفه من الفناء وراء حرصه الشديد على اقتناص اللذات وكأنها فرص يخشى أن تفوته قبل أن يغتنمها ، ولا غرابة أن ينهمك في حسية مادية مفرطة ويستغرق في لذاته ضارباً

(1) شرح المعلقات السبع ص٣٨ وما بعدها ، والديوان ص ٣٤ ومابعدها .
(2) الديوان ص٣٣- ٣٤

بكل قيم مجتمعه عرض الحائط منساقاً خلف ذاته المتضخمة التي أصبحت ترى كل شيء حولها من حقها ومباحاً لها دون رقيب من داخلها أو رادع من خارجها فهو لم يعبأ بلائميه ولم ير من حوله إلا من خلال نظرته المستهترة الساخرة الجدلية :

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يـــدي

وهو جدل يصفع به المنطق الجاهلي ويلجم خصمه باحتجاجاته المندفعة وراء اللذات الحسية ، وفلسفة اللذة عند طرفة تدور في ثلاثة محاور هي (الخمر والمرأة والفروسية) ويرى أنه يحقق من خلالها ذاته في مجتمعه ، وتلمس من بين سطور هذه الشخصية أنها تكره الرتابة والجمود وتسعى إلى الثورة والتمرد ، فذاته لا تتحقق إلا بالنشوة العارمة : نشوة الخمرة ، نشوة انتصار الفارس ، نشوة لقاء المرأة [1]:

ولولا ثلاث هن من عيشـــة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقي العاذلات بشربـــة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكري إذا نادى المضاف محنبـــاً كسيد الغضا نبهتـه المتـورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف المعمد

وهو لا يرى للحياة معنى إلا من خلال هذه الصورة ، وقد اغترب بين هذه المتع الثلاث ، واستمر في ترويجه لفلسفة اللذة ممعنا في اغترابه وانسلاخه من انتمائه القيمي مجاهراً في دعوته إلى عالمه الخاص الذي يرى الحياة من خلاله والذي يزيده انفصالاً ويبلغ فيه اغترابه ذروته غير

---

(1) الديوان : ص ٣٢ - ٣٣

مبال بردة فعل من حوله [١]:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي | وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلهـا | وأفردت إفراد البعير المعبـد

ولكن على الرغم من ذلك حمل شيئاً من تناقضات مجتمعه في داخله حتى بدأ في بعض مواقفه مترنحاً بين انتمائه وعدم انتمائه وكأنما عجز عن السير في خط نفسي منتظم وشدة حسه الاجتماعي لتجد صدى الآخرين في نفسيته [٢]:

وإن يلتق الحي الجميـع تلاقني | إلى ذروة البيت الرفيع المصمد
إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أنني | عنيت فلم أكسـل ولم أتبلد

وكأنه يبرر ذلك بارتباط قومه به وحاجتهم الملحة إلى انتمائه إليهم [٣]:

رأيت بني غبراء لا ينكرونني | ولا أهل هذاك الطراف الممدد

وقد نجد له عذره في هذا لأنه قد يراها داخلة في إطار فلسفته (لنشوة اللذة) فللنخوة من اللذة ما يجعل العربي يلقى بنفسه إلى الموت في سبيلها .

ومهما يكن من ظهور إضاءة خافتة لمعالم الحس الجماعي عند طرفة فإنه يظل الصوت الأقوى للفردية والذات المتضخمة المتوهجة في العصر الجاهلي التي اختارت هذا الطريق طوعاً، أو على الأقل لم يرمها فيه الفقر أو قصر النسب، وإن كنا لا ننكر أن (الظلم) هو المحرك الأساسي في هذا التمرد الذي أودى بهذا الشاعر إلى نهايته على يد عمرو بن هند، ولأن عمراً

(1)ـ المصدر السابق ص : ٣١ .
(2)ـ الديوان ص : ٣٠ .
(3)ـ المصدر السابق : ص: ٣١ .

هذا كان جباراً ظالماً مستهتراً بكرامة من حوله فلم يرق هذا الوضع لطرفة الثائر الذي تحتشد كل قواه أمام طبائع الاستبداد والقهر ، وقد جاءت قصيدته في عمرو بن هند معلنة صرخة شعر الاغتراب السياسي ، وعلى طريقة طرفة التهكمية الساخرة المستخفة بقيم من حوله حتى ملوكهم [1]:

فليت لنا مكان الملك عمرو ... رغوثاً حول قبتنا تخور

من الزمرات أسبل قادماها ... وضرتها مركنة درور

يشاركنا لنا رخلان فيها ... وتعلوها الكباش فما تثور

لعمرك إن قابوس بن هند ... ليخلط ملكه نوك كثير

لنا يوم وللكروان يوم ... تطير البائسات ولا نطير

ومكمن الغضب في هذه القصيدة الاغترابية إهدار عمرو بن هند لكرامة الناس واستهتاره بهم :

وأما يومنا ، فنظل ركباً ... وقوفاً ما نحل وما نسير

والمجتمع الجاهلي قائم على النعرة العصبية والاعتزاز بالنسب ، وما تنزل قدم فرد من أفراده لفقر أو لالتباس في نسب حتى يسقط من قائمة من يعتد بهم ويكون عرضة لسهام القوم ، فما بالك إذا كان من غير الصرحاء ومت به عرق أجنبي وكان هذا العرق زنجياً أسود في مجتمع تتسلط فيه العنصرية والنزعة العرقية الصارمة ، لا شك في أن هذه الفئة (السود)

---

[1]- الديوان ص : ٤٨ - ٤٩ .

عاشت منبوذة في المجتمع الجاهلي عند هؤلاء الناس لا بينهم وعلى هامش الحياة مطرودين في منفى البخس والنظرة الدونية ، وعوملوا كما تعامل الأشياء وكأنما نزعت إنسانيتهم وفقدوا جذورهم بسبب (عقدة اللون) التي لازمتهم طوال حياتهم، وسنفرد عنترة بينهم لاختلافه عنهم في تبريره وإسقاطاته ودفاعه ومناضلته ، ونجمل ذكر البقية في غربة الصعاليك وهذا الاختلاف قد أضفى على شخصية عنترة نزعة أسطورية جعلت بعضهم يشكك في وجوده، وإذا كان والد عنترة من خيار قومه فوالدته تنتمي إلى الطبقة الثالثة من نساء المجتمع العربي حيث كان الاعتراف بابن السبيئة أمراً مسلماً به بينما لم يقر عرفهم الاعتراف بابن الأمة ، وإذا كان حظ عنترة سيئاً بسبب نظرة المجتمع الجاهلي المتغطرس لأمه (الأمة) فقد أسعفه حظه بما أوتي من قوة جسدية في مجتمع للقوة فيه حكمها وكذلك فقد أوتي بياناً وفصاحة، وقد كان للشعر قدره أيضاً فحاول أن يسد شطره الكليم بمهارته القتالية والبيانية [١]:

إني امرؤ من خير عبس منصبــــا   شطري وأحمي سائري بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت   ألفيت خيراً من معم مخــول

فاعتراف أبيه بنسبه اعتراف نفعي (كر وأنت حر) لم يأت من قناعة ولم يره عنترة ولا قبيلته إلا اعترافاً ناقصاً مشروخاً، وقد دافع عنترة عن قضيته دفاعاً مستميتاً سالكاً كل السبل معتمداً على ما يرغبه هذا المجتمع من القيم ، وقد استخدم ذكاءه في دفاعه موهماً أن القضية (لون) والعرب تحب الأبيض وتكره الأسود[٢] :

يعيبون لوني بالسواد جهالة   ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

(1)ـ الشعر والشعراء ص : ١٥١ .
(2)ـ الديوان ص : ٨٩ .

والحقيقة أن المسألة ليست مجرد لون فهم ينظرون إلى ما وراء ذلك من عبودية (لقد كان حياة كاملة لهذا الإنسان الفقير والمدموغ بين إخوانه والذي كان يحاول دائماً أن يرفع عنه هذا العذاب المحيط به أو الذي يتوهمه – لفرط حساسيته – في بعض الأحيان ومن هنا كان السواد ليس غيبوبة ولكنه في صميمه رفض)[١] .

وإذا كان عنترة يفاخر بلونه فذلك ينبئ عن اعتزازه بفرديته وإنكاره لنظرة المجتمع الواهية التي لا ترى قيمة الإنسان من خلال أفعاله ، وقد افتخر بانتمائه لأمه ومنبع فخره تلك الصفات التي انتقدها المجتمع وذلك (نوع من العصيان والخروج المبطن على القبيلة إنه يضرب عرض الحائط بكل القيم التي ناضل هو نفسه للحصول عليها وذلك
تعبير عن الغربة أشد مرارة مما لو عبر عن ألمه تعبيراً مباشراً)[٢] جاء على شاكلة قوله [٣]:

وأنا ابن سوداء الجبين كأنها	ضبع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة	والشعر منها مثل حب الفلفل
والثغر من تحت اللثام كأنه	برق تلألأ في الظلام المسدل

لم يستسلم عنترة لنظرة مجتمعه ولم تكن ردة فعله تمرداً وثورة منتهكة كالصعاليك ، ولكنه صاحب قضية (عاقل حكيم) دافع عن قضيته دفاع المستميت ، وكأنه يريد الخلاص لبني جنسه لا لنفسه فحسب .

(1)- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي : د.عبده بدوي ص : ١٦ .
(2)- الغربة في الشعر الجاهلي ص : ١٠٧ .
(3)- ديوانه ص ٣٩ .

قد لجأ إلى كل الأساليب والحجج القوية التي تهدم تلك النظرة السائدة أو تساعد على تخفيف حدتها ، وأراد ألا يكون الانتصار لهذه القضية بالقوة على الرغم من قدرته لأن القوة لا تدوم طويلاً .

ومعلقته مطارحة جدلية بينه وبين عبلة حبيبته المزعومة والتي هي في الحقيقة لا تعني له إلا الحلم المنشود (والحرية الكاملة) فزواجه منها يعني اعترافاً تاماً بسيادته وحريته ونهاية لاغترابه ، لم يكن عنترة عاشقاً لعبلة بل كان باحثاً عن حريته الممثلة بزواجه من عبلة فهو يعشق الحرية وقد جاء حديثه معها مصحوباً بلغة السيوف والرماح فلم يستدر عطفها شأن العاشقين بل إنه يعتز بنفسه ويثور على الظلم الذي عانى منه أشد المعاناة :

إن تغدفي دوني القنـــــاع فإنني   طب بأخذ الفارس المستلئـــم[1]

أثني علي بما علمـــــــت فإنني   سمح مخالقتي إذا لم أظلـــــم

وإذا ظلمت فإن ظلمي باســـل   مرٌّ مذاقته كطعم العلقـــــم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى   وكما علمت شمائلي وتكرمي

أراد أن يعوض نقصه بالفروسية وكرم الأخلاق وهي السمات التي تصلح لأن تكون ميزاناً للتفاضل وتمايز الناس ، وقد أخذ يلح على هذه الصفات مستعرضاً فروسيته الحربية والأخلاقية لأنه يدرك أنه مغترب بطولي لا يشعر بحريته إلا عندما ينهزم قومه ويحتاجون إليه وهو يذكرهم بذلك في السلم لأنه يعرف أنهم ينسون سريعاً .

---

(1) شرح المعلقات ص١٢٣ وما بعدها

عبلة تعني عند عنترة (المجتمع) الذي يريد إقناعه (والحرية) التي يسعى إليها كاملة غير مشروطة وقيم عنترة التي يفاخر بها هي قيم التفاضل الحقيقي الذي يترافع في محكمته لإثبات أن السمو ليس بالآباء وإنما بالفعال :

يخبرك من شهد الوقيعة أنني　　　أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم

وإذا كان فارساً كريماً نبيلاً عفيف النفس فلم يحكم عليه بالدونية ؟ ولم ينظر إلى البيض من حوله – وإن كانوا تافهين – على أنهم أعلى قدراً وأسمى مكانة ! !

ألا يقتلون كالناس ؟ وتأكلهم السباع ؟ وتمزق أجسادهم مثل سائر البشر ! !

هل ينفعهم كرم أصلهم وحسن معاصمهم ، واحتذاؤهم نعال السبت الفاخرة ؟

ركز عنترة على قتل الأحرار المرفهين والتشفي بهم وكأنهم عدوه النفسي الذي يطارده ، أراد أن ينتقم منهم وأن يثبت أنه أقوى منهم وأكرم أخلاقاً ! !

فشككت بالرمح الأصم ثيابه　　　ليس (الكريم) على القنا بمحرم[1]

فتركته جزر السباع ينشنه　　　يقضمن (حسن بنانه والمعصم)

بطل كأن ثيابه في سرحة　　　(يحذى نعال السبت ليس بتوأم)

وكأنه بقتلهم يحقق شيئاً من حريته ويقهر اغترابه ويقتل عاهة أصله ساعياً إلى حلمه الذي يقاتل من أجله فيزيده تذكره اندفاعاً ويستبسل حتى الموت ، لأن طموحاً بهذا الحجم يستحق مثل هذه التضحية .

---

(1) شرح المعلقات السبع ص١٢٦ وما بعدها

ومهما يكن فإن عقدة النقص ظلت تطارد عنترة الأسود وقد جسد هذا اللون في (أعماق نفسه نمطاً من التعقيد ، وسبب له ضروباً من الانزعاج والألم)[١] : يقول [٢]:

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركابكم بليل مظلـــــم

فيها اثنتان وأربعون حلوبــة سوداً كخافية الغراب الأسحم

(ولا شك أن سواد الليل أو الغراب أو النوق أو البحث عن رموز السواد في غيرها جميعاً يلتقي حول بؤرة واحدة أساسها الإحساس المتضخم بذلك الغموض وما يبعث عليه من القلق الذي سيطر على نفس الشاعر حتى بدا مغترباً إزاء كل ما حوله على إطلاقه)[٣] .

وإذا كان غيره من السود منكفئاً عاجزاً فإنه حقق لنفسه ولبني جنسه شيئاً من الانتصار وقهر الاغتراب ، وإن لم يكن ذلك كاملاً فإنه قد نجح في مرافعته الجدلية وأحيا جانباً مهماً تناساه أو نسيه جبابرة ذلك العصر الذين سنوا قوانينهم وفق أمزجتهم، ثم جاء الإسلام متمماً تلك النظرة الرائدة في ميزان تفاضل الناس على أننا لا ننسى أن عنترة حقق بفروسيته انتصاراً حياً وانتزع حريته وقهر اغترابه في مواقف كثيرة كانت تشفي نفسه وتبرئ سقمها[٤]:

ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

ونترك هذه الغربة الفردية إلى غربة جماعية ظهرت عند فئة من المجتمع الجاهلي عرفت بالصعاليك ، وهي طائفة تشابهت ظروفها وغاياتها وأساليب أشعارها ، وقد كان للبيئة الجغرافية والتقاليد الاجتماعية والحالة الاقتصادية أثر في نشأتها واستمرارها وعصيانها ولم تكن

(1) ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات ص : ٣١ .
(2) شرح المعلقات السبع ص : ١١٨ .
(3) ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات ص : ٣٢ ..
(4) شرح المعلقات السبع ص : ١٣٠ .

صرامة التقاليد الاجتماعية في العصر الجاهلي أقل قسوة من مسرح الحياة الصحراوية الذي دارت عليه قصة مغامرات هذه الفئة ، تلك الصحراء التي تجمع لونا من التضاد الجغرافي الذي أوجد في هذه الشخصيات تضاداً نفسياً (فالبدوي لا يعرف القصد لا في الخير ولا في الشر ، مبالغ في عداوته ، مبالغ في محبته)[١] وظروف هذه الصحراء جعلت البدوي والعوز صاحبين ألف كل منهما صاحبه. وقد كان بجوار هذه المناطق الجافة مناطق خصبة نوعاً ما مما جعل إحساس الفقراء بفقرهم واضحاً عند عقد المقارنة على أن هذه البيئة خلقت من أبنائها رجالاً أقوياء لأنها تربي في نفوسهم صفات الشجاعة والجرأة والكبرياء العنيدة ، كبرياء الرجال الأحرار .

ولم يكن النظام الاجتماعي الصارم أخف وطأة من تلك البيئة القاسية بل لعل ظروف هذه الصحراء هي التي أوجدت هذا النظام القاسي لمواجهة هذه الظروف الصعبة، والمجتمع الجاهلي عنصري إلى حد يقدس فيه وحدة القبيلة ونقاءها ويحرص على أن لا يدخلها غريب إلا وفق شروط صعبة ، وللقبيلة دستورها المكون من مجموعة من التقاليد (والأساس الذي تقوم عليه نصوص هذا الدستور "العصبية" ، على أن أفراد القبيلة متضامنون فيما يجنيه أحدهم. . وفي الجريرة تشترك العشيرة) [٢] .

وهذه الحماية التي تقدمها القبيلة للفرد ليست مطلقة في كل الأحوال ، فالقبيلة تفرض عليه لقاء هذا العقد الاجتماعي (أن يحترم رأيها الجماعي ، فلا يخرج عليه ، ولا يتصرف تصرفاً بدون رضاها ، ولا يكون سببًا في تمزيق وحدتها ، أو الإساءة إلى سمعتها بين القبائل، أو

---

(1) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : د. يوسف خليف : ص٧٢

(2) المرجع السابق ص ٩١ .

تحميلها مالا تطيق)[1]، وعند مخالفته لأحد هذه الشروط تخلعه قبيلته وتتخلى عن حمايته ويصبح مهدر الدم وحيدًا منفردًا، ومن هنا تكونت مجموعة "الخلعاء" الصعاليك .

وتيجة لحرص القبيلة في الجاهلية على نقاء دمها تكونت طبقة الصرحاء ، وطبقة العبيد وبعضهم من أبناء الإماء الذين لم يعترف بهم آباؤهم.

ومن مجموع الخلعاء والسود أبناء الإماء الثائرين تكونت الطبقة الأولى من طبقات الصعاليك الذين انفصلوا عن قبائلهم أو هي بالأحرى (فصلتهم) .

وتكونت الطبقة الثانية من الأحرار الساخطين على الوضع الاجتماعي مثل عروة بن الورد، ومن يدرس حالة الصعاليك يتأكد له أن هذه الفئة قد ثارت بسبب إحساسها بالظلم ونظرة المجتمع الدونية ، وإن تخيل أن (المخلوع) من بين هذه الفئة يمكن أن ينظر إليه على أنه فاتك مخاطر ، فالأمر ليس كذلك، فمجرد أن يخلع يكون كالساقط بين فراشين وتضعف قوته ، ويفقد إحساسه بالحماية بعد أن سحبت منه الجنسية القبلية ، وهو يعلم ذلك جيدًا، فقيس ابن الحدادية يقول لمزينة عندما طلبوا منه أن يستأسر (لو أسرتموني ثم طلبتم بي من قومي عنزًا جرباء جذماء ما أعطيتموها)[2] وقد فضل أن يقاتل فيقتل . وكما يشعر الخليع بهذه النظرة ، فإن أبناء القبيلة يصرحون بها أمامه مهما كانت قوته الفردية ، فالبراض بن قيس الكناني ، أحد فتاك العرب الذين خلعهم قومهم بسبب جرائرهم وشرهم، أراد أن يجيز اللطيمة التي يبعثها النعمان بن المنذر للتجارة في سوق عكاظ فغضب عروة بن عتبة "الرحال" وقال:(أكلب خليع

(1) المرجع السابق ص ٩٢
(2) الأغاني ١٥٨/١٤

يجيزها لك ، أبيت اللعن ، أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم)[١] ، والنتيجة أن البراض قتل عروة، ومع هذا تبقى نظرة المجتمع الجاهلي له ولمثله على أنه (كلب خليع) لأنه بدون حماية قبلية. وإذا كانت هذه النظرة للأحرار فبدهي أن تكون نظرتهم لأبناء الإماء أشد احتقارًا ! !

هذه النظرة السائدة جعلت الصعاليك يواجهون الموقف بالثورة والتمرد ورفضوا الشخصية المقدمة من مجتمعهم ، لأنهم كانوا يحسون إحساسًا مفرطًا بالكرامة والاعتزاز بالذات. وقد وجدوا في الصحراء ضالتهم المنشودة [٢]:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى　　　وفيها لمن خاف القلى متحول

لعمرك، ما بالأرض ضيق على امرئ　　　سرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقل

وكانت مركز هجماتهم على القبائل ، وأول حصائد غاراتهم قبائلهم ، بل ربما ظلت هي هدف الصعلوك إلى أن يموت.

وشعور الصعلوك بغربته شعور مرير ، لأن انتماءه القبلي متجذر في أعماقه ، وانفصامه عن القبيلة أمر لا يحتمل ، وقد تكون أشد لحظات الإحساس بالاغتراب عند المرض أو دنو الأجل وهو بعيد عن قومه ، فأبو الطمحان القيني يبكي بكاءً مرًا في هذه اللحظات:[٣]

ألا عللاني قبل صدح النوائح　　　وقبل ارتقاء النفس بين الجوانح

وقبل غد ، يا لهف نفسي على غد　　　إذا راح أصحابي ولست برائح

---

(1) الكامل في التاريخ : ابن الأثير : ١ / ٣٨٥ .
(2) ديوان الصعاليك ص٣٨
(3) شرح حماسة أبي تمام : الأعلم الشنتمري : ٢/ ٧٥٣

وهو لا يستحي أن يعلن هذا الارتباط أمام الملأ ، خاصة وقد شعر بحاجته إليهم في موقفه :[١]

ألا حنت المرقال وائتب ربها ... تذكر أرمامًا وأذكر معشري

ولو علمت صرف البيوع لسرها ... بمكة أن تبتاع حمضًا بأذخر

وإني لأرجو ملحها في بطونكم ... وما بسطت من جلد أشعث أغبر

لأن قوماً قد أخذوا إبله بعد أن شربوا من لبنها في ضيافته، ولأن الصعلكة جاءت نتيجة لعوامل متعددة ، فقد كان الوضع الاقتصادي واحدًا منها حيث كان الفارق بين طبقة الأثرياء والفقراء شاسعًا، فاجتمع الصعاليك تحت مظلة التشرد والفقر والجوع ، وأخذوا في شن غارات الكسب ، وهذا السليك بن السلكة لا ينال رزقه حتى يشارف على الموت وتزوغ عيناه من شدة الجوع:[٢]

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة ... وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني ... إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

وقد كانوا يعون ذلك ، ولا يأكلون إلا ما يسد رمقهم ، والشنفرى يسمي تأبط شرًا (أم العيال) لأنه القائم بأمرهم ، وقد أخذ يضيق عليهم كي لا ينفد الطعام:[٣]

وأم عيال قد شهدت تقوتهم ... إذا أطعمتهم أو تحت وأقلت

تخاف علينا العيل إن هي أكثرت ... ونحن جياع ، أي آي تألت

(1) الشعر والشعراء ص ٢٤٦

(2) ديوانه ص ٨٤-٨٥

(3) المفضليات: المفضل الضبي: القصيدة رقم ٢٠

وما إن بها ضن بما في وعائها ولكنها من خيفة الجوع أبقت

مصعلكة لا يقصر الستر دونها ولا ترتجي للبيت إن لم تبيت

وليس الفقر هو الدافع الوحيد لهذه الثورة الجماعية ، فالإحساس المفرط بالكرامة ورفض النظرة الدونية يأتي في مقدمة الأسباب أنهم يرفضون الهوان والضيم (يرفضون ما فرضه مجتمعهم عليهم ، فهم لا يوافقون على سلوك مجتمعهم ومواقفه ، يثورون على الخلع والعبودية والفقر ، ويحتقرون الخانع الذي يقبل بمواضعات القبيلة وبأوضاعه الاقتصادية السيئة)[١] . . . وصخر الغي بلغه أن أناسًا يعرضون على قتله فقال:[٢]

فلست عبدًا لموعدي ولا أقبل ضيمًا يأتي به أحد

وتشتد وطأة الاغتراب على الصعاليك عندما يتذكرون أهلهم الذين تركوهم للفقر والجوع وسياط الحاجة للأقارب فتتكالب عليهم الهموم ، ويوجعهم هذا التذكر المرير ، وفي شعر الأعلم الهذلي الذي كان مطرودًا ، من الحزن والشجى ما يستحق الوقفة[٣] :

رفّعت عينّي الحجاز إلى أناس بالمناقب

وذكرت أهلي بالعرا ء وحاجة الشعث التوالب

المصرمين من التلاد اللامحين إلى الأقارب

وبجاني نعمان ،قلت ألن يبلغني مآرب

---

(1) الغربة في الشعر الجاهلي ص١٥٠

(2) منتهى الطلب من أشعار العرب : محمد بن المبارك بن ميمون : ٢٣٢/٩

(3) المصدر السابق ٢٥١/٩

وقد يكون الأمر أبعد من ذلك فيحس الصعلوك بالتأثر إزاء ما يراه من استهتار بقيمة الإنسان وكأنه مسؤول عن الآخرين المعذبين ، والسليك بن السلكة يتألم عندما يرى خالاته (السود) يمتهنّ ويشيب رأسه من هذا الوضع المزري:[١]

أشاب الرأس أني كل يوم ... أرى لي خالة وسط الرحال

يشق علي أن يلقين ضيما ... ويعجز عن تخلّصهن حالي

وللصعلكة وجهان كلاهما يفيض بالغربة والشجى:

الأول : وجه سلبي هدام يمثله الشنفرى وأمثاله من الناقمين الثائرين الذين أحسوا بالمهانة فاستهانوا بالقتل وإراقة الدماء وشن الغارات المفزعة ، وكانت صلتهم بمجتمعهم قائمة على الصراع ، فالشنفرى ثار على مجتمعه، واغترب عن قيم هذا المجتمع وأفراده بسبب الإهانة التي وجهتها إليه الفتاة السلامية التي كان يعتقد أنها أخته، وكانت سببًا مباشرًا في تصعلكه وغربته (لأنها أنكرت عليه أن يتسامى إلى مقامها الاجتماعي ، ويرفع الحواجز الاجتماعية التي تفصل بين طبقتيهما)[٢]، وقد جاءت لاميته صورة للصعلوك المغترب الثائر ، واحتجاجًا صارخًا على الواقع الطبقي الذي عاناه ، حاملة كل هموم المنبوذين ، ممعنة في هجومها على هذا المجتمع الذي يعتمد في تقييمه للناس على النسب والثراء ويرى الشنفرى أن الرحيل والثورة هما الحل[٣]:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سـواكـم لأمـيل

فقد حمت الحاجات والليل مقمر ... وشدت لطيات مطايا وأرحل

---

(1) ديوانه ص ٨٩

(2) الغربة في الشعر الجاهلي ص ١٣١

(3) ديوان الصعاليك ص٣٨ وما بعدها .

إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمي ... تطاير منه قادح ومفلل
أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحًا فأذهل
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له ... علي من الطول امرؤ متطول
وآلف وجه الأرض عند افتراشها ... بأهدأ تنبيه سناسن قحل
طريد جنايات تياسرن لحمه ... عقيرته لأيها حم أول

والوجه الثاني للصعلكة : وجه إيجابي يمثله عروة بن الورد الذي ينتمي إلى قبيلة عبس وقد كانت غربته غربة نتجاوز في تسميتها بالغربة الاختيارية، لأن انتماءه إلى عالم الصعاليك لم يكن نهائيًا ، بل خيارًا إنسانيًا، دافعه الثورة على الظلم و الاحتجاج على الوضع المجحف ، ومساعدة الضعفاء، وصلته بقبيلته لم تكن مقطوعة تمامًا ، وإن فقد إحساسه بالعصبية ، وتبدو أول بوادر الاغتراب عند عروة مقترنة بفقره الذي أبعده عن القيام بدوره شأن أحرار عبس ، وقد تمثلت نقمته على تلك المفاهيم المقلوبة التي تقدس مادية الإنسان لا جوهره وأخلاقه الخيرة:[1]

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير
ويقصيه الندى وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير
ويلفى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

---
(1) المصدر السابق : ص٩٣

ولقد كان (أبو الصعاليك)زعيمًا شعبيًا يسلب الأموال من الأغنياء ليردها إلى الفقراء من الصعاليك . والإحساس بالآخرين إحساس عال عندهم، وربما كانت عصبيتهم المذهبية أشد إيثارًا من العصبية القبلية ، ومن هذا المنطلق فقد نذر عروة نفسه لمن حوله ، وكان يبحث عن أصحاب الأموال الكثيرة لا ليستأثر بها وإنما لينفقها على الفقراء الذين منوا بعقوق مجتمعهم:[١]

لعل انطلاقي في البلاد ورحلتي ... وشدي حيازيم المطية بالرحل

سيد فعني يومًا إلى رب هجمة ... يدافع عنها بالعقوق وبالبخل

ويتساءل (أيهلك أفراد من المجتمع لفقرهم وجوعهم في حين يعيش إخوان لهم مترفين متخمين ، وهو قاعد لا يفعل شيئًا)[٢]:

أيهلك معتم وزيد ولم أقم ... على ندب يومًا ولي نفس مخطر

وإذا كانت زوجه تنحي عليه باللائمة في غربته المستمرة وتطوافه ، فقد فاتها أن الغربة الحقيقية في أن يمكث عندها بين قوم لا يرحمون فقيرًا [٣]:

أرى أم حسان الغداة تلومني ... تخوفني الأعداء والنفس أخوف

تقول سليمي لو أقمت لسرنا ... ولم تدر أني للمقام أطوف

لعل الذي خوفتنا من أمامنا ... يصادفه في أهله المتخلف

(1) ديوان الصعاليك ص١٠٤
(2) المصدر السابق ص٨٤
(3) المصدر السابق ص١٠٠

وغربة عروة في مجتمعه غربة فكرية تقوم على اختلاف المبادئ والرؤى في أساسها ، فالإيثار أصبح في نظرتهم محلاً للسخرية والاستهزاء ، والجشع المعيب صار صاحبه السمين فخارًا عيابًا[1]:

وإني امرؤ عافي إنائي شركة   وأنت امرؤ عافي إنائك واحد

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى   بوجهي شحوب الحق والحق جاهد

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة   وأحسو قراح الماء ، والماء بارد

---

(1) المصدر السابق ص٧٢

الأطلال والحيوان في شعر المنبوذين

إحساس عنترة ومثله الصعاليك باستئصالهم من المجتمع الجاهلي ، وإحساسهم الشديد بالغربة، جعلهم يثورون على قيم هذا المجتمع حتى الفنية منها ، وتبدو قضية الأطلال عندهم محل نظر يقول أحد الباحثين (فنحن إن كنا نوافق الذين قالوا بأن عنترة قد سئم الوقوف بالأطلال ، وإن قوله هذا دليل على أن الوقوف بالأطلال هو طريقة فنية أصبحت في وقته مملة ، وبدأ الجاهليون بالخروج عنها ، فإننا نذكر هنا لعنترة كما سنذكر للصعاليك ، خروجه على التقليد الفني ، وكأنه يرفض هذا الوقوف بشعوره الباطن ، ويرفض من ثم قيم مجتمعه)[1] حتى الفنية منها وهذا قد يبدو صحيحًا ولكن لا يفوتنا أمر آخر جدير بالإشارة ، فالمنبوذون يشعرون بالانسلاخ عن قبائلهم ولا يحسون بالانتماء ، وكأنهم بدون جذور ولعل هذا يشعرهم بانفصالهم التام عن هذا المجتمع فهم لا يثورون على الأطلال بل هم بدون أطلال ، بدون أهل، بدون أرض، فعلام يبكون ، وعند ماذا يقفون؟ وهذا في رأيي السبب الحقيقي وراء اختفاء ظاهرة الأطلال من شعر الصعاليك وأمثالهم ، وهو دليل آخر على هذه الغربة الضاربة بأعماقهم.

وظاهرة ثانية جديرة بالدراسة تلفت النظر عند هؤلاء المنبوذين وترسم أبعاد غربتهم الموغلة ، وهي التصاقهم بعالم الحيوانات التي بثوها أحاسيسهم وعواطفهم الصادقة ووجدوا فيها ما لم يجدوه في بني جنسهم من الوفاء والصدق ، وقد يعجز أحدهم عن بث مشاعره الصادقة

---

(1) الغربة في الشعر الجاهلي ص١٠٨

لحبيبته ، أو بمعنى أنك لا تجد في هذه المشاعر الدفء العاطفي والبوح الرقيق ، ولكنه عندما يتحدث إلى فرسه تجد عاشقًا متيمًا باكيًا ، فما عجز عنه عنترة تجاه عبلة ، فاض به أمام فرسه ، واختلفت لغته وبوحه وإذا به (يعكس علاقته الإنسانية في أوسع صورها بفرسه . . وكأنما التقى المغتربان ليتحاورا طويلاً بعد ذلك . . ولم يجد الفارس ساحة ألم يحكي من خلالها أشجانه إلا من خلال فرسه، ومرة أخرى يتناجى المغتربان ليصلا معًا إلى ذروة هذا التوحد بعد تجارب مريرة للاغتراب)[١] يقول عنترة [٢] :

فازورّ من وقع القنا بلبانه | وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى | ولكان لو علم الكلام مكلمي

وهذا الفهم العجيب لنفسية فرسه يدل على ترابط وانسجام عجيبين ، ولم يحدث هذا الارتباط مع قومه بل حتى مع أقرب الناس إليه (عبلة) .

وإذا كان عنترة يجد في فرسه ما لم يجده في أفراد مجتمعه ، فإن الشنفرى رأى أن الحيوان (الذئب والنمر والضبع) أهله وقومه ، وهم كل شيء بالنسبة إليه، والغريب أن يستبطن مقارنة لم يصرح بها فقد اختار هذه الحيوانات المفترسة وكأنه يقول إنها على الرغم من شراستها أرحم من البشر ! ! وإن هذا العالم رحب يجد الحر فيه مأوى وصحبة إذا ضاقت به نفوس الناس [٣]:

ولي دونكم أهلون سيد عملس | وأرقط زهلول وعرفاء جيأل[٤]

(1) ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات : ص٦٧ وما بعدها
(2) شرح المعلقات السبع ص١٢٩
(3) ديوان الصعاليك ص ٣٨ .
(4) ديوان الصعاليك ص٣٨

وقد ألف هذه الحيوانات وآثرها على قومه لأنها لا تتخلى عنه ولا تخذله ولا تبيح أسراره وكأنه يشير إلى سره الذي مات عمرًا ثم ظهر فجأة ليذبح أحلامه ويصبح بين عشية وضحاها طريدًا:

هم الأهل لا مستودع السر ذائع   لديهم ولا الجاني بما جر يخذل

فهذه الحيوانات لا تتآمر ولا تغدر كالإنسان الذي يدعون إلى هجر عالمه المتآمر .وفي مثل هذه النماذج تتجسد غربتهم الحقيقية عن مجتمعهم .

شعر الفتوح

كان العربي ينتقل من أرض إلى أرض مجاورة وإن اختلفت في شيء من تضاريسها البسيطة فإنها لا تختلف في هوائها ومائها ولغة سكانها ودمهم العربي ومع هذا يعد ذلك غربة يذرف من جرائها الدموع الغزيرة .ولما جاء الإسلام وأشرقت جزيرة العرب بنور ربها خرج العرب من جزيرتهم يحملون في نفوسهم إيماناً عظيماً وعزماً على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ، وخلال هذه النقلة السريعة وجدوا أنفسهم في بيئة تختلف عن بيئتهم التي ألفوها اختلافاً كلياً في مناخها وتضاريسها ولم يستطيعوا أن يألفوا هذه البيئة الجديدة وكان من الصعب أن يندمجوا فيها أو ينسوا أنهم تركوا خلفهم أهلاً وأحبة لم تجف دموع وداعهم ، كل ذلك جعلهم يحسون بوحشة وغربة فجاءت أشعارهم (شحنات نفسية دافقة بالمحبة عامرة بالرجولة والصلابة والثبات) [1] ممزوجة بالغربة والحنين ويتضاعف الإحساس بالغربة عندما تتعلق الزوجة بزوجها باكية متضرعة ، وقد صور النابغة الجعدي هذا الموقف خير تصوير [2] :

باتت تذكرني بالله قاعـــــدة　　　والدمع ينهل من شأنيهما سبــلا
يا ابنة عمي كتاب الله أخرجني　　　كرها وهل أمنعن الله مافعــــلا
فإن رجعت فرب الناس يرجعني　　　وإن لحقت بربي فابتغي بـــدلا

ويكون القاعد أحياناً أشد إحساساً بالغربة من المجاهد المسافر وذلك عندما يكون شيخاً كبيراً يزمع (عائله) على مفارقته إلى أرض بعيدة وفي رحلة أبعد ما تكون عن اللهو ، ولعل

(1) مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي : د. مصطفى عليان : ص٢١
(2) الشعر والشعراء ص١٩١/١

خطورتها سر هذه الغربة المفجعة ، وقد جاءت ثورة أمية بن الأسكر صرخة مغترب يتنازعه عاطفة وغضب شديدان [١] :

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتاب الله إن حفظ الكتابا
إذا هتفت حمامة بطن وج على بيضاتها ذكرت كلابا
تركت أباك مرعشة يـداه وأمك ما تسيغ لها شرابا

وتتفاقم هذه الغربة فتدمي فؤاد الوالد حتى يكاد أن ينفلق أسى ووجداً ، وتكسر حواجز الهيبة والخوف وتأخذ لغته التهديد والشكوى على من كان وراء خروج ولده :[٢]

أعاذل قد عذلت بغير علـم وما يدريك ويحك ما ألاقـي
فإما كنت عاذلتي فـــردي كلاباً إذ توجه للعــــــراق
سأستادي على الفاروق رباً له عمد الحجيج إلى بســـاق
وأدعو الله محتسباً عليــــه ببطن الأخشبين إلى دقـــاق
إن الفاروق لم يردد كلابــــاً على شيخين هامهما زواقي
فلو فلق الفؤاد حماط وجد لهمّ سواد قلبي بانفـــــلاق

وقد أثرت هذه الشكوى في نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأسرع بإشخاص كلاب إلى والده .

وما دمنا في حديث غربة أمية فإنه حريّ بنا أن نذكر عرضاً قصيدته التي قالها وهو

(1) طبقات فحول الشعراء : ابن سلام : ١٩١/١
(2) الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني : ١٠٤/٢ ، والمعمرون والوصايا ص٨٦

في هرمه ودلهه فله حس عجيب تجاه الغربة وشفافية تفيض أسى وشجناً :[١]

أصبحت فنا لراعي الشاة أعجبه ... ماذا يريبك مني راعي الضـان
إن ترع ضاناً فإني قد فقدتـهم ... بيض الوجوه بني عمي وإخواني
يا ابني أمية إني عنكما غـاني ... وما غنـائي إلا أنني فاني
يا ابني أمية ألا تشهـدا كبري ... فإن نأيكما والموت سيـان

ويبقى للوطن صوته القوي في الغربة ، كل سانحة تذكر به ، وكل ذكرى تهيج أشواقاً وأشجاناً حتى يشارك الطير حزنه وصدحه :[٢]

أقمرية الوادي التي خان إلفها ... من الدهر أحداث أتت وخطوب
تعالي أطارحك البكاء فإننا ... كلانا بمرو الشاهجـان غريب

ومهما واجه المجاهد من حروب ومآزق صعبة وانتصارات مبهجة فإنه لا ينسى وطنه وأرضه ولا ينقطع حنينه إليها ولا يفتأ يكرر طرفه نحوها وكأنه يراها من ذلك البعد السحيق ولعله يراها بقلبه لا بعينه فترابها عنده مسك وعنبر وهي حب لا يموت بالنزوح والاغتراب [٣]:

أكرر طرفي نحو نجـد وإنني ... إليه وإن لم يدرك الطرف أنظـر
حنينا إلى أرض كأن ترابـها ... إذا مطرت عود ومسك وعنبر
بلاد كأن الأقحوان بروضـة ... ونور الأقاحي وَشْي بـرد محبر
أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجتي ... خيام بنجد دونها الطرف يقصر

---

(1) طبقات فحول الشعراء ١٩٢/١
(2) معجم البلدان: ياقوت الحموي : ٥ / ١١٤
(3) المصدر السابق ٥ /٢٦٢-٢٦٣

وما نظري من نحو نجد بنافعي | أجل لا ولكني إلى ذاك أنظر
أفي كل يوم نظرة ثم عبرة | لعينيك مجرى مائها يتحدر
متى يستريح القلب إما مجاور | بحرب وإما نازح يتذكر

وتشتعل جمرة الغربة عندما يرى المجاهد إخوانه يموتون في أرض غريبة وكثير بن الغريزة التميمي يشده هذا الموقف ويحزنه [1] :

سقى مزن السحاب إذا استهلت | مصارع فتية بالجوزجان
وما بي أن أكون جزعت إلا | حنين القلب للبرق اليماني
ورب أخ أصاب الموت قبلي | بكيت ولو نعيت له بكاني

وتبلغ الغربة مداها وتشتد وحشتها عندما يحس المرء بدنو أجله في بلاد غريبة فيشعر بمرارة الفراق وخوف القادم ، وقصيدة مالك بن الريب التميمي الذي لدغ في أثناء جهاده في خراسان ترسم أبعاد هذا القلق والخوف ،وتروي تجربة نفسية ذاتية تدل على ارتباط الشاعر بأهله وحرقته لموته بعيداً عنهم وهو ما دفعه لأن يلح في طلب اهتمام رفيقيه به وكأن ذلك مقاومة للاغتراب الذي ملأ نفسه [2] :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة | بوادي الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه | وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
وأصبحت في أرض الأعادي بعدما | أراني عن أرض الأعادي قاصيا
تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي | سفارك هذا تاركي لا أباليا

(1) الأغاني ٢٧٩/١١
(2) خزانة الأدب ١٧٨/٢-١٨٠

تذكرت من يبكي علي فلم أجـــد
سوى السيف والرمح الرديني باكيـــا

ولكن بأكناف السمينة نســـــوة
عزيز عليهن العشية ما بـــيـــــا

أقول لأصحابي ارفعوني فإنـــــه
يقر بعيني أن سهيل بـدالـــيـــــا

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا
برابية إني مقيم ليـــالـــيـــــا

ولا تحسداني بارك الله فيكمـــــا
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

ولا تنسيا عهدي خليلي بعدمـــا
تقطع أوصالي وتبلى عظاميـــــا

يقولون لا تبعدْوهُمْ يدفنونـــــني
وأين مكان البعد إلا مكانيـــــا

غداة غد يا لهف نفسي على غد
إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويـــا

بعيد غريب الدار ثاو بقـــفـرة
يد الدهر، معروفاً بأن لا تدانيـــا

الاغتراب في العصر الأموي

دارت عجلة الأحداث في العصر الأموي سريعة، تدفعها عوامل كثيرة متشابكة ، مما أدى إلى شيء غير قليل من الاضطراب النفسي الذي أنتج اغترابًا فرديًا وجماعيًا ، فعلى الصعيد الاقتصادي ظهرت في المجتمع مقدمات لطبقية مالية متخمة وأخرى فقيرة تصرخ عاليًا من أجل تأمين قوت عيالها :[١]

تعزت أم حزرة ثـم قـــالت ... رأيت الواردين ذوي امتناح

تعلل وهي ساغبة بنيهـــــا ... بأنفاس من الشبم القـــراح

ثقي بالله ليس له شريـــــك ... ومن عند الخليفة بالنجــاح

سأشكر إن رددت علي ريشي ... وأنبت القوادم في جنـــاحي

وإذا كان اختلال الميزان الاقتصادي قد أدى إلى ظهور الطبقية الاجتماعية، فإن النزاعات العصبية والعرقية التي طغت على هذا العصر قد أسهمت بشكل فعال في صنع غربة اجتماعية واسعة، حيث نرى نصيب بن رباح الذي كان من (السود الطامحين للانعتاق من العبودية بعد أن أمضى زمنًا في الصراع مع مواليه) ، يتوسل إلى عبد العزيز ابن مروان (ففي يديه مفتاح الحرية لأسرته جميعًا)[٢] يقول :[٣]

وإن وراء ظهري يا ابن ليلى ... أناساً ينظرون متى أؤوب

أمامة منهم ولمأقييهـــــا ... غداة البين في أثري غروب

---

[1] شرح ديوان جرير ص ١٠٩

[2] الاغتراب في العصر الأموي : د. فاطمة السويدي : ص١١

[3] الأغاني : ٣٢٦/١

تركت بلادها ونأيت عنها فأشبه ما رأيت بها السلوب

فأتبع بعضنا بعضاً فلسنا نثيبك لكـن الله المثيب

ويقف وراء ذلك كله الوضع السياسي فقد تحولت الخلافة القائمة على الشورى إلى ملكية وراثية قوبلت بالرفض الذي نتج عنه اغتراب سياسي فردي طامح إلى السلطة ، وجماعي تشكلت منه أحزاب المعارضة السياسية ذات الصبغة الدينية فضلاً عن الموالي الذين بدأت عندهم نزعة شعوبية كانت شرارة النار المستعرة في العصور اللاحقة ، وهذه العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أنتجت أدباً اغترابياً نفسياً سطر الوجه الآخر لتاريخ الحياة الأموية .

وقبل دراسة بعض النماذج الاغترابية السياسية والاجتماعية ، نمر بالاغتراب المكاني الذي اتصف بالشفافية لرقة في شعراء هذا العصر خاصة ما نجده في الشعر العذري .

ففي شعر الصمة القشيري فيض من الشوق والحنين إذ خرج مجاهداً وما أن أدار ظهره لنجد حتى شق عليه ذلك وكأنما أمضى وقتاً طويلاً في سفره وكان يقف بعد كل خطوة مديراً رأسه لموطن هواه مستنشقاً شميم عرارها ، مجيلاً نظراته في كل شبر من ربوعها :[1]

أقول لصاحبي والعيس تخذي بنا بين المنيفة فالضمـار

تمتع من شميم عرار نجـد فما بعد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحات نجـد وريا روضه بعد القطـار

[1] شرح حماسة أبي تمام ٧٧٤/٢

وحياة هذا الشاعر سلسلة من الاغتراب المزمن فقد أحب ابنة عمه ريا واختلف والده مع عمه في مهر الزواج لأمر تافه لا يخلو من عناد ، فاستشاط غضب الصمة وقرر هجر أهله وموطنه نجد في لحظة غضب ، وما كاد يخرج من هذه الديار حتى اشتد به الشوق وزاد بنجد وأهلها تعلقاً وأدرك أنه لم يقدر تبعات قراره [١]:

حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معاً

وقد أودى به رحيله إلى ضرب من الانكسار النفسي والهلع ولم تنفعه محاولات التجلد :

فما حسن أن تأتي الأمر طائعا وتجزع أن داعي الصبابة أسمعا

وكل خطوة يخطوها وتبعده مكانياً عن نجد تزيده تشبثاً بها فقد ضربت نجد هذه بأعماقه فهي حياته الحقيقية التي تزين حياته الحركية ولا يتخيل الدنيا دون نجد :

قفا ودعا نجداً ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يودعا

وتتواصل الضغوط النفسية (لتجسد الإحساس الحاد بالانتماء إلى " المكان " والانجذاب إليه والتشبث بترابه وتتضافر أساليب التعجب المتعاقبة في استحضار " المكان " في أجمل صوره وهيئاته وأزمنته ، ما أطيب الربا ، ما أجمل المصطاف والمتربعا)[٢]:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا وما أجمل المصطاف والمتربعا

وتكتمل صورة الفاجعة في انفصال الشاعر عن واقعه وانسلاخه عن حاضره في مواجهة مرة مع الحقيقة الصعبة يتنازل فيها الشاعر عن كثير من كبريائه فتأتي الدموع حلاً يخفف من وطأة الاغتراب المفجع :

---

(1) المصدر السابق ٨٣٨/٢

(2) النص الشعري وآليات القراءة : د. فوزي عيسى : ص١٩٣

وليست عشيات الحمى برواجع   عليك ولكن خل عينيك تدمعا

وحينما يفارق الشاعر آخر معالم موطنه ويغيّب (البشر) عنه رمز بقائه يسقط كليا وسط نهر من الدموع رامياً معه آخر آليات مقاومته النفسية فلا يستطيع بعد ذلك إلا الخضوع النفسي والانحناء على كبده ليطفئ وهج ناره الملتهبة :

ولما رأيت البشر أعرض دوننـــــا   وحالت بنات الشوق يحنن نزعـــــا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتهـــا   عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معـــــا
تلفتّ نحو الحي حتى وجدتـــنـــي   وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعـا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثـــنـــــــي   على كبدي من خشية أن تصدعـا

وحب المكان مغروس في عمق العربي لا يقبل به بديلاً ولا يفاجئنا بعد ذلك موقف ميسون بنت بجدل الكلابية زوجة معاوية بن أبي سفيان التي رفضت عيش الملوك من أجل موطنها في الصحراء القاحلة لترسم بهذه التضحية أبعاد هذا التعلق العجيب بالوطن [١]:

لبيت تخفق الأرواح فيـــه   أحب إلي من قصر منيـــف
وأصوات الرياح بكل فـــج   أسر إلي من نقر الدفـــوف
وبكر يتبع الأظعان صعب   أحب إلي من بغل زفيـــف
وكلب ينبح الطراق عـــني   أحب إلي من قط ألـــيـــف
ولبس عباءة وتقر عيـــني   أحب إلي من لبس الشفوف

---

(1) حماسة ابن الشجري ص١٦٦

وإذا ما تركنا الاغتراب المكاني إلى السياسي فإننا نجد كمّاً من النصوص الاغترابية ، وتعود هذه الكثرة إلى توسع شقة الخلاف وانتشار الأحزاب المناوئة للحكم الأموي الذي غير نظام الخلافة الراشدة إلى ملك وراثي يشح به الأخ عن أخيه مفضلاً ابنه ، ولم تخل سيرة بعض خلفاء بني أمية من مخالفات أثارت الناس الذين اختلفت ردة فعلهم في مواجهتها فمنهم من التزم الصمت ومنهم من اكتفى بالنصح ، ومنهم من واجه الموقف بثورة وتمرد ممتشقاً سيفه ، مستحلاً دماء من خالفه. وقد كان أشد المواقف إثارة مقتل الحسين بن علي رحمه الله في كربلاء ، وكانت المراثي (هي المعبر الحقيقي لمشاعر الحزن والاضطهاد ، وهي أيضاً خطوة جديدة نحو التعبير عما يعانيه الفرد من اغتراب وضغط شديدين نتيجة سياسة تكميم الأفواه الاستبدادية)[١] .

وقد تشيع له كثير من الشعراء الذين فجعوا بمقتله رضي الله عنه ، وجاء رثاؤهم له حارًا، وقد وقف أبو دهبل الجمحي موقفاً شجاعًا حين رأى الناس يخشون رثاء الحسين خوفاً من سيوف السلطة فجاء رثاؤه ممتزجاً بهجاء من كانوا وراء هذه الفاجعة[٢] :

وإن قتيل الطف من آل هاشـــم أذل رقاباً من قريش فذلـــت
فإن تتبعوه عائذ البيت تصبحـوا كعاد تعمت عن هداها فضلت
وكانوا غياثا ثم أضحوا رزيـــة لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
ألم تر أن الأرض أضحت مريضة لفقد حسين والبلاد اقشعـرت
فليت الذي أهوى إليه بسيفــه أصاب به يمنى يديه فشلـــت

(1) الاغتراب في الشعر الأموي : فاطمة السويدي : ص ٥١
(2) ديوان أبي دهبل الجمحي ص٦٠ ، وقد اختلف في نسبتها إليه وإلى سليمان بن قتة

وتشتد غربة شعراء الشيعة أمام خوفهم من بني أمية وانزعاجهم الشديد مما يسمعونه من شتم لعلي – رضي الله عنه – على المنابر ليعبروا عن موقفهم المكبوت شعراً [١] :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبـــاً
فالله أخر مدتي فتطـــاولـت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يـــوم للزمـــان خطيبهـم بين الجميع لآل أحمد عائبـــا

وقد واجه شعراء الشيعة الأوائل غربتهم باللجوء إلى (الزهد في الدنيا) وندلل على ذلك ببيتي حرب بن المنذر بن الجارود[٢]:

فحسبي من الدنيا كفاف يقيمني وأثواب كتان أزور بها قبري
وحبي ذوي قربى النبيّ محمـــد فما سالنا إلا المودة من أجر

وقد يلجأون في مواجهة هذه الغربة إلى مواجهة بني أمية بثورة (تطوي في داخلها رغبة شديدة في أن تسفك دماؤهم)[٣]، وشعرهم ملئ بالبكاء والأسى والحزن العميق ، وقد يأتي أحياناً بلغة العتاب الممزوج بالتهديد إذا كان الشاعر من بني هاشم خاصة ، فالفضل بن العباس اللهبي يتعتب بعنف[٤]:

مهلا بني عمنا مهلا موالينـــــا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونـا
مهلا بني عمنا عن نحت أثلتنـا مهلا بني عمنا مهلا موالينـــــا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

---

(1) شرح الهاشميات : محمد محمود الرافعي ص١١ ، لم تنسب لأحد.
(2) البيان والتبيين ٣/٣٦٥
(3) العصر الإسلامي د. شوقي ضيف : ص٣١٩
(4) شرح حماسة أبي تمام ١ / ٣٨١ .

كل له نية في بغض صاحبـــه　　　بنعمة الله نقليكـم وتقلونـــا

وللكميت بن زيد الأسدي قصائد طوال تحكي اغترابه وغيره كثير .

ويأتي الخوارج ليشكلوا حزباً سياسياً آخر أثرى شعراؤه ساحة الشعر السياسي في العصر الأموي ولكنه يختلف عن الأحزاب الأخرى لدمويته وشجاعة أفراده ، فقد واجه السلطة الأموية بالثورة والتمرد والعنف العقدي والدموي .

وشعرهم سافر في غربته التي بينت مدى الفجوة التي بينهم وبين المجتمع ، فالاختلاف في المبادئ يمثل جانباً كبيراً من الانفصال والتباعد ، وفي شعر سميرة بن الجعد صورة لهذا الاختلاف السحيق[1] :

فمن مبلغ الحجـــاج أن سميرة　　　قلى كل دين غيردين الخـــوارج

رأى الناس إلا من رأي مثل رأيه　　　ملاعين تراكين قصد المناهـــج

فأيُّ أيِّ أمرئ يا ابن يوســـف　　　ظفرت به لم يأت غير الولائـــج

إذن لرأيت الحق منه مخالفـــاً　　　لدينك أن كنت امرأً غير فـــالج

يسائلني الحجاج عن أمر دينـه　　　وليس هواه للصواب بواشـــج

فأضلل به من واشج خلجت به　　　عن الدين والإسلام إحدى الخوالج

وغربتهم لا تقف عند حدود الانفصال عن الأحزاب المناوئة لهم بل تتعداه إلى غربة عن كل ما في الحياة من وقائع ، والحويرث الراسبي يتمنى الخلاص من الدنيا[2] :

أقول لنفسي في الخلاء ألومها　　　هبلت دعيني قد مللت من العمر

---

(1) ديوان الخوارج : ص٧٠
(2) ديوان الخوارج : ص٥٥

ومن عيشة لا خير فيها دنيئة مذممة عند الكرام ذوي الصبــر

وقد كان فشل الخوارج المتكرر في إصلاح الوضع الاجتماعي بالشكل الذي كانوا يطمحون إليه سبباً مباشراً في تضاعف غربتهم ، وتعددت بسبب فشلهم طرق مواجهة هذه الغربة أو بالأصح ازدوجت هذه الطرق حيث واجهوا المجتمع بالتمرد والثورة بينما واجهوا أنفسهم بالزهد ، كما صنع حسان بن جعدة : (١)

بنوا مقاصر في الدنيا لتخلدهــــم فمن لهم بخلـود في المقاصير

هيهات لن يخلدوا فيها ولو حرصوا حتى تروع أناساً نفحة الصور

قد كان قبلهم قوم فما خلــــدوا وأصبحوا بين مقتول ومقبور

والزبيريون يأتون في مؤخرة هذه الأحزاب لقصر عمر تأريخهم السياسي ، وكان صوتهم المتوهج ابن قيس الرقيات الذي صبغ غربته باللون القبلي في قصيدة باكية ثائرة (٢) :

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهــــواء

قبل أن تطمــع القبائـل في مـــــــــلك قريش وتشمت الأعــــداء

إن تودع من البلاد قريــــش لا يكن بعدهم لحي بقـــاء

لو تقفي وتترك الناس كانـوا غنم الذئب غاب عنها الرعاء

كيف نومي على الفراش ولـما يشمل الشام غارة شعــــواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن براها العقيلة العــــذراء

أنا عنكم بني أمية مـــــزور وأنتم في نفسي الأعـــــداء

(1) شعر الخوارج ص٧٠
(2) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ص٨٨ وما بعدها

وإذا عرفنا العصبية التي شابت هذا العصر فإننا لا نستغرب أن تواجه طبقة الموالي في هذا العصر ضغوطاً نفسية من تعالي القوم واحتقارهم لهم مما جعل هذه الطبقة تواجه غربتها وانفصالها بالاشتراك في كثير من الثورات التي قامت ضد الحكم الأموي وتأخذ في مواجهتها الأخرى منحى فكرياً وعنصرياً تميز بشعوبية ضاغطة ، وجاء صدى هذه النعرة في شعر إسماعيل بن يسار النسائي(١) :

رب خال متوج لي وعــــــم ماجد مجتدي كريم النصـــاب

إنما سمي الفوارس بالفــــــر س مضاهاة رفعة الأنســـــاب

فاتركي الفخر يا إمام علينـــا واتركي الجور وانطقي بالصواب

واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب

إذ نربي بناتنا وتدســــــو ن سفاها بناتكـــــم بالتراب

والاغتراب الاجتماعي في العصر الأموي يمثله الصعاليك الذين تعرضوا لموجة من الرفض والنبذ ولقوا ظلما وإهمالاً أدّيا بهم إلى ثورة وتمرد لمواجهة الظروف المضطربة والحياة البائسة التي أجهدتهم حتى تعرض كثير منهم للمطاردة والملاحقة ، ويتكون الصعاليك من الفقراء والمخلوعين الذين تبرأت منهم قبائلهم وممن قاموا بجرائم أوجبت عليهم الحد ففروا ، ومن الثائرين على النظام السياسي .

وتزيد أنّات الاغتراب عندما يقع المغترب في فخ السلطة فترمي به كما حدث لجحدر في سجن دوار الكئيب(٢) :

(1) الاغتراب في الشعر الأموي ص : ٨٤ .
(2) شعراء أمويون : نوري حمود القيسي ص : ١٧٣

كانت منازلنا التي كنا بـــها   شتى وألف بيننا دوار
سجن يلاقي أهله من خوفه   أزلاً ويمنع منهم الـزوار
يغشون مقطرة كأن عمودها   عنق يعرق لحمها الجزار

وأحياناً يفلت من يدها فيرى في الصحراء المتعبة حلاً لمشكلته ويتفاخر بهذه الغربة والتفرد، فالعديل بن الفرخ العجلي يهرب من غربة الحجاج إلى غربة الصحراء [١] :

ودون يد الحجـاج من أن تنالني   بساط لأيدي الناعجات عريض
مهامــه أشباه كأن ســرابهــا   ملاء بأيد الغاسلات رحيــض

وتضيق هـذه الصحراء الواسعة بمغترب آخر فيرى غير شيء ويظنه رجلاً مثلما حدث للقتال الكلابي [٢] :

كأن بلاد الله وهي عريضة   على الخائف المطلوب كفة حابل
يؤدى إليـه ، أن كل ثنيــة   تيممها توحي إليه بقــاتـــل

وعبيد بن أيوب العنبري ارتكب جريمة فطرد وخلع (وأبيح لجميع الناس اقتناصه كفريسة سهلة فراح يمعن في الفرار ونفسه تضطرب بكل معاني القلق الشديد والخوف من كل شيء يخيل إليه أنه يترصده)[٣] يقول [٤]:

لقد خفت حتى خلت أن ليس ناظر   إلى أحد غيري فكدت أطير
وليس فم إلا بسرى محـــدث   وليس يد إلا إلي تشيـــر

(1) المرجع السابق ص :٢٧٥
(2) ديوان القتال الكلابي ص٩٩
(3) الاغتراب في الشعر الأموي ص١٢٠
(4) شعراء أمويون ص : ٢١٤ .

وعبيد الله بن الحر يمثل نموذجاً للمغترب السياسي الذي لم يرض الظلم ولم يسعه حزب ، وثورته لا تقف عند حد لأنه يرى أن الدنيا ليست ملكاً لمخلوق (وهو يتعطش للحرية بعيداً عن التبعية لأي أمير ويلخص موقفه الاستقلالي)[1] بقوله[2]

فإن بنت عني أو تردلي إهانـــة ... أجد عنك في الأرض العريضة مذهبا

فلا تحسبن الأرض باباً سددته ... عليَّ ولا المصرين أماً ولا أبـــــا

وإذا وجد الإنسان نفسه بعيداً عن مجتمعه وهو يضحي بأغلى ما يملكه من أجل هذا المجتمع فإنه يشعر بشيء غير قليل من الألم وتخنقه هذه الغربة التي جاءت من جراء عدم توافق مبادئه مع مبادئ الآخرين ، والمقنع الكندي يعلن صراحة عن انفصاله الاغترابي الذي يعتبر من حوله من أقاربه سبباً فيه [3] :

يعاتبني في الدين قومي وإنمـــــا ... ديوني في أشياء تكسبهم حمـــدا

ألم تر قومي كيف أوسر مـــــرة ... وأعسر حتى تبلغ العسرة الجهـــدا

فما زادني الإقتار منهم تقربـــــاً ... ولا زادني فضل الغنى منهم بعـــدا

أسد به ما قد أخلوا وضيعـــوا ... حقوق أناس ما أطاقوا لها ســـدا

وإن الذي بيني وبين بني أبـــي ... وبين بني عمي لمختلف جـــــدا

أراهم إلى نصري بطاء وإن هـــم ... دعوني على نصر أتيتهم شـــــدا

وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهـــم ... وإن يهدموا بيتي بنيت لهم مجـــدا

---

(1) الاغتراب في الشعر الاموي ١٤٠

(2) شعراء أمويون ٩٧/١

(3) شرح حماسة أبي تمام ٦٤٦/٢ وما بعدها

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا

ومن خلال استقراء الاغتراب في العصر الجاهلي والأموي تبين لنا أن الشاعر الجاهلي كان يعاني من وطأة ظروف الحياة القاسية من حوله ، وكان أكثر ما يثير شجونه ويؤرقه انفصـــــاله عن مجتمعه الخاص ، أقصد قبيلته ، فالآم غربته المنفردة أشد وطأة من غيرها ، إذ أن الجاهلي لا يحتاج إلى شيء حاجته إلى حماية القبيلة في ذلك المجتمع الذي لا يرحم الضعيف ولا يحمي المنبت .

أما في العصر الأموي فقد طغت الغربة السياسية على الساحة ، وكانت الأحزاب المتطاحنة ، والأفراد المنفصلون عن السلطة ، هم أصحاب الصوت الأقوى الذي يعتصره الألم ، ويمثل أزمة الانشقاق والتصدع في هذا المجتمع ، وكأن السلطة الأموية كانت حجر عثرة في وجههم جميعاً ، إذ واجهت عداء جماعيّاً ورفضاً سلمياً ومسلحاً .

الفصل الأول

عوامل الاغتراب في العصر العباسي

أولاً : العامل السياسي .

ثانياً : العامل الاجتماعي .

ثالثاً : العامل الاقتصادي .

رابعاً : العامل الثقافي.

تظافرت عدة عوامل مؤثرة على خلق فجوة كبيرة في المجتمع العباسي على المستوى الفردي والطبقي ، وعلى الصعيد السياسي الذي انفصل فيه عامة الشعب عن قيادتهم . فالعامل السياسي كان لـه أبعد الأثر في ظاهرة الاغتراب حيث شهد هذا العصر صراعاً دموّياً بين السلطة ومعارضيها والثائرين لأسباب مختلفة ، حيث نتج عن هذه الثورات مجازر كبيرة أوجدت رعباً لا ينقطع في نفوس الناس . وعجزت الحكومة في أحايين كثيرة عن إيقاف نزف هذه الثورات التي ذهب ضحيتها أعداد هائلة من أبناء هذا المجتمع في مصارع جماعية .

ولم تكن المؤثرات الاجتماعية أقل أثراً في معاناة الناس وغربتهم ، كما كان للثقافات الوافدة بُعد آخر في هذا المضمار .

ومن هنا فقد بسطنا القول في سرد بعض الأحداث ووصف بعض الوقائع والمظاهر التي رأينا أن عرضها يدل على ما نرمي إليه من قوة أثرهذه الأحداث في انفصال الفرد ، وتصدع البناء الاجتماعي في هذا العصر ، ولعلنا نجد عذراً في هذا الإسهاب الذي لم نر منه بد ، لكي تكون الصورة واضحة تماماً .وقد تركنا الأحداث التاريخية المأساوية تتحدث عن الواقع ، إذا رأينا أن نوجز في التعليق بعد أن جمعنا هذه الصور الدامية من المصادر التاريخية الموثقة ، وذلك مانجد أثره واضحاً في غربة الناس في هذا العصر .

أولاً :العامل السياسي :

لقد بدا في جسم الدولة الأموية ثغرات متعددة أغرت الثوار الذين اتفقوا- وإن اختلفت أهدافهم- على أن ظلم السلطة الحاكمة وراء ثوراتهم ، ولا غرابة حينئذ في أن تتخذ هذه

الثورات مظهرًا إصلاحيًا يدعو إلى محاربة الظلم ويبحث عن العدالة المفقودة ، ولم يكن خلفاء بني أمية مهادنين ولا متهاونين فقد قضوا على ثورة ابن الأشعث وابن الزبير ويزيد بن المهلب قضاءً مبرمًا بينما اشتد وقع ثورات الخوارج على الدولة الأموية لأنهم لا يعرفون اليأس ويسعون إلى الموت سعي غيرهم إلى الحياة ، وقد كلفت ثوراتهم بني أمية رجالاً ومالاً حتى كادت هذه الثورات أن تنهك هذه الدولة ويأتي الشيعة في خطرهم بعد الخوارج ، فما تخمد ثورة حتى تقوم أخرى وقد كانت أهم ثوراتهم ثورة المختار بن عبيد الثقفي في الكوفة ، وهذه الثورات وإن لم تكن في عنف ثورات الخوارج إلا أنها بدت أكثر شعبية وتعاطفًا وهذه الجماهيرية الكبيرة تشكل خطرًا بعيد الأثر لشدة إيمان هؤلاء الثائرين بحقهم ، وأمر آخر أن معظم المتشيعين لآل البيت هم من الموالي الذين عانوا من ظلم الأمويين معاناة شديدة حيث ضوعفت عليهم الضرائب التي أثقلت كاهلهم ، وشعروا بتهاون العرب بهم واحتقارهم لهم ، وكانت نقمتهم تزيد ، لأن ظلمهم وعددهم في زيادة ،فالولاة يبعثون بأعداد كبيرة من الرقيق الأبيض والأسود إلى الخلفاء هدية أو عوضًا عن خراج ونحوه.

وهذه الفئة التي تشعر أنها محتقرة وممتهنة كانت ترى في آل البيت ضالتها المنشودة وحلم العدالة التي تنتظر تحقيقه.

ولهذا كان أفراد هذه الفئة يندفعون مع كل ثورة طامحين إلى أن يكون خلاصهم على أيدي هؤلاء الثائرين وكان كثير من الشيعة يلتفون حول أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إمام فرقة الكيسانية الشيعية ، الذي تربطه بمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس علاقة وطيدة وكان محمد شخصية سياسية طامحة تتصف بالدهاء والذكاء ، وقد صادف أنه في سنة ٩٨

للهجرة (استدعى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك أبا هاشم وأكرم وفادته ، وأظهر التودد لـــه ، ولكنه دبَر قتله خشية أن يدعو إلى نفسه فدس لـه من سمه وهو في طريقه إلى الحميمة ، وهي قرية في أرض الشراة بين الشام والحجاز حيث يقيم محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس ، وقد قيل إن أبا هاشم لما شعر بدنو أجله قصد محمد هذا ، وأفضى إليه بأسرار الدعوة الهاشمية ، ونزل له عن حقه في الإمامة ، وأمده بأسماء داعي دعاته في الكوفة ، ومن يليه من الدعاة ، كما سلمه رسائل يقدمها إليهم)[١] .

وكانت هذه الحادثة إيذاناً بانتقال الإمامة من العلويين إلى العباسيين ، ولم يفوّت محمد هذه الفرصة لأنه كان يملك فكرًا تنظيميًا خطيرًا ، ولم يكن بالرجل السهل المتسرع فلم يعلن حق العباسيين في هذه الدعوة بل أمر دعاته إلى الدعوة إلى الرضا من أهل البيت ترضية للعلويين. وفي مطلع القرن الثاني سير محمد دعاته إلى الآفاق وكتب إليهم كتاباً ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها[٢] .

واتجه ثقل الدعوة إلى خراسان بتوجيه من محمد بن علي لبعد خراسان عن مركز الحكم الأموي ، وصعوبة وصول الإمدادات الأموية إليها أو على الأقل تأخرها، وهي أيضاً بلد مضطرب تشتعل فيها الفتن والعصبيات بين العرب من يمنية ومضرية ، وأهم من هذا أن معظم أهلها من الفرس الذين عانوا الأمرين من اضطهاد الحكم الأموي ، وعرف عنهم ميلهم إلى أهل البيت ، وكانوا ينتظرون من يحركهم لأنهم كانوا يحسون بأنهم طبقة محتقرة وممتهنة ، واستغل دعاة بني العباس هذه الفرص المتاحة ، واستمالوا أيضاً القبائل التي تضمر العداوة لبني أمية

---

(1) تاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم حسن ، ١٤/٢ . وينظر الكامل: ابن الأثير ، ٢٦٣/٣
(2) ينظر : الكامل ٢٦٣/٣

وأتباعهم. ومما ساعد على سرعة انتشار هذه الدعوة حدوث انشقاق[1] تفرقت فيه كلمة بني أمية وتصدع بنيانهم وآذن بالسقوط لتطاحنهم على عرش الخلافة ، وأسفر هذا التطاحن عن مقتل الوليد بن يزيد ، ونولي يزيد بن الوليد الخلافة ، وكان قميص عثمان ذريعة لرجل آخر من البيت الأموي وهو مروان بن محمد الذي كان أميراً للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يصدر عن أمره ، فنهض محرضاً وثائراً شعاره المطالبة بدم الوليد وهدفه البعيد عرش الملك ، واستطاع أن يدخل الشام ويتغلب عليها في عام ١٢٧ للهجرة ، وبويع له بالخلافة [2] ، فاستغل كثير من الثائرين هذه الظروف وكثر المنشقون على الخلافة ، وفي خراسان عجز نصر بن سيار عن إطفاء نار العصبية التي اشتعلت بين النزارية واليمانية لأنه لم يكن محايداً في هذه الفتنة فقد كان هواه مع النزارية ، وجاء مروان بن محمد الذي أظهر تعصبه لقومه من نزار على اليمن ، وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية [3] . كل هذه الأوضاع المتدهورة أتاحت الفرصة لظهور الدعوة العباسية على الساحة السياسية .

وفي أثناء تتابع هذه الحوادث توفي محمد بن علي عاهداً بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم ، وبويع إبراهيم عام ١٢٥ للهجرة ليواصل مسير والده ، وقد اتخذت الدعوة في عهد إبراهيم منحى آخر أراد به زيادة شعبية هذه الدعوة حيث طرح فكرة الثأر لشهداء آل البيت وهي فكرة تثير حماس الشيعة وتزيد من نقمتهم على الحكم الأموي وتدفعهم إلى سرعة التحرك لإنجاز هذه المهمة. وفي هذه الفترة اتصل بإبراهيم شاب اتصف بالدهاء والنبوغ والعزيمة وشدة

---

(1) الكامل ٣٦٥/٣

(2) تاريخ الطبري : ٢٨٠/٤

(3) مروج الذهب : أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي : ٢٤٥/٣

الطموح وهو أبو مسلم الخراساني وعرف منه إبراهيم هذه الصفات فجعله قائداً عاماً للدعوة في خرا سان وكانت الظـروف مواتية لظهور هذه الدعوة في شكلـها المعـلن ، وقدم أبو مسلم خراسان وكانت خلافات أهل خرا سان في أوجها والأمويون في تطاحن مريب فكانت فرصة مواتية للعمل والتنفيذ، فبدأ عند ذاك خطته العملية واستغل تلك الأوضاع .

وخلال هذه الفترة كان قواد جيوشه يستولون على بلاد خراسان دون مقاومة من أصحاب نصر بن سيار ، وقد استطاع أبو مسلم بطريقة خبيثة ماكرة أن يوقع بين القبائل العربية في خراسان ليسهل عليه أمرهم مما جعل بعضهم يستعين به وتمكن من تفريق كلمتهم بعد أن أوشكوا على الاجتماع ضده .

وكان موقف بني أمية سلبيا إلى أبعد الحدود ، واستطاع قائد جيش أبي مسلم أن يحقق انتصارات متوالية حيث تمكن من دخول الكوفة عام ١٣٢ للهجرة وسلم الأمر لأبي سلمة الخلال الذي أرجأ إعلان الخليفة العباسي بعد أن علم بمقتل الإمام إبراهيم بن علي على يد الخليفة الأموي مروان بن محمد ، ولم يكن أبو العباس السفاح قصير النظر ينتظر ما تصنعه الظروف بل كان قد تقدم قبل ذلك إلى الكوفة يصحبه عدد من أهل بيته ، مقترباً من سدة الحكم ، وعبثاً حاول أبو سلمة الخلال صرف الخلافة إلى العلويين وإخفاء قدوم أبي العباس إلى الكوفة ، ومنع جند خراسان من الوصول إليه حيث استطاع أبو العباس الاتصال بجند خراسان وإبلاغ أبي مسلم بنية الخلال ، ولم يشعر أبو سلمة إلا بأبي العباس خليفة تلقى إليه تحية الملوك ، وبايع الناس عبد الله بن محمد بن علي[1] المعروف بالسفاح عام ١٣٢ للهجرة

١- تاريخ الطبري ٣٤٤/٤ وما بعدها .

ليكون أول خليفة عباسي .

واستطاع قادة الجيش العباسي القضاء على كل مقاومة تواجههم ، ولم يقف بنو العباس عند هذا الحد بل عمدوا إلى تصفية بني أمية وأخذوا يفتكون بهم فتكاً ذريعاً (فقد تتبع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم ، فقتل منهم في يوم واحد اثنتين وتسعين نفساً عند نهر بالرملة وبسط عليهم الأنطاع ، ومد عليهم سماطاً فأكل وهم يختلجون تحته)[١] .

وإذا كان بعض حكام بني أمية قد زرعوا حياة الناس رعباً وقلقا ً، وساهموا بشكل كبير في تغريب الناس ومعاناتهم ، فإن الدولة العباسية أيضاً قد قامت على جثث وأشلاء معارضيها ولم يتورع قادتها عن التضحية بأوليائهم قبل خصومهم ، وعندما يشعرون بتهديد سلطتهم ، ولهذا فقد عاش الناس في قلق وخوف وتضاعفت غربتهم ومأساتهم .

ولم يشف غليل العباسيين مذابح بني أمية واستئصال الأحياء منهم بل تجاوزوا ذلك إلى نبش قبور الأموات حيث أمر عبد الله بن علي بنبش قبور بني أمية بدمشق ووجدوا فيها شيئاً من عظام بعضهم عدا هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً لم يبل منه إلا أرنبة أنفه ، فأمر عبد الله بضربه بالسياط وحرقه وذراه في الريح[٢] .

وقتل داود بن علي عدداً كبيراً منهم في مكة والمدينة . وعلى الرغم من قسوة بني العباس في معاملة أنصار بني أمية إلا أن ذلك لم يمنع بعض القواد الذين كانوا يميلون لبني أمية من الثورة من حين لآخر يدفعهم إلى هذه الثورات حلمهم في إعادة تلك الدولة العربية التي كان للعرب فيها يد طولى وحظ وافر ، واستطاع قادة السفاح وأد هذه الثورات سريعاً، وتتبع كل من

١- ابن كثير البداية والنهاية ٢٥٩/١٣ -٢٦٠

(2) الكامل ٥٠٢/٣

يكون مظنة للريبة، ولم يتأخر العباسيون عن فعل كل ما يرونه مناسباً لتثبيت عرش ملكهم ، وقد كانت قاعدتهم التي يسيرون عليها وصية الإمام إبراهيم لأبي مسلم (واقتل من شككت فيه) وذهب ضحية لهذه القاعدة الجائرة ابن هبيرة الذي أعطي الأمان ثم تبعه أبو سلمة الخلال الذي كان له أثر كبير في دعم الدعوة العباسية ثم اتهم أبو مسلم بتلك التهمة شخصاً كان يحظى بثقة العباسيين وهو سليمان بن كثير وقد قتل دون تحقق أو مراعاة لسابقته ، وقد أتت هذه القاعدة على كبار رجال هذه الدولة من وزراء وقواد خلال فترة الخلافة العباسية حتى لم تعد المواثيق مواثيقَ ولا العهود عهوداً حتى إن غلّظت فيها الإيمان وشددت فيها إجراءات الحيطة ، واستعمل العباسيون كل أساليب القسوة في عقاب خصومهم (ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان من أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة)[١] .

وقد كان عهد أبي العباس السفاح حافلاً بمذابح البيت الأموي التي جاءت في صورة شنيعة دامية ، وقضى على كبار المنافسين من أنصار الأمويين ، وفي عام ١٣٦هـ توفي السفاح في هذا العام ، فبويع المنصور بالخلافة ، وقد بايعه أبو مسلم بالخلافة بعد تراخٍ ، وبقيت العلاقة بينهما متوترة على الرغم من الاستعداد الذي أظهره أبو مسلم للدفاع عن الخلافة والقضاء على جيش عبدالله بن علي عم المنصور الذي دعا لنفسه بالخلافة بعد موت السفاح وانتهى الأمر بفرار عبد الله ثم سجنه المنصور في بيت أساسه ملح وأُجري الماء في أساسه فسقط عليه فمات .[٢]

(1) الدولة العباسية : محمد الخضري ص ٤٨
(2) الكامل ٥٩٧/٣

وعندما تخلص المنصور من عدوه الأول التفت إلى عدوه الثاني الذي لم يطمئن له منذ زيارته له في أثناء خلافة أخيه السفاح ، فقد شعر المنصور منذ تلك اللحظة بخطورة أبي مسلم الخراساني وصرح لأبي العباس قائلاً (لست بخليفة ما دام أبو مسلم حيّاً حتى تقتله لما رأى من طاعة الجيش والأمراء له ، فقال له السفاح اكتمها فسكت) [١] .

وكان قد دبر قتله مع أخيه السفاح وفي ساعة التنفيذ ندم أبو العباس ورفض هذه الخطة لخوفه من الخراسانية فغضب أبو جعفر غضباً شديداً ثم حدث بين أبى جعفر وأبي مسلم قبل البيعة خلاف ضاعف ما بينهما من تباعد ،وفوق هذا فقد كان تعامل أبي مسلم معه لا يخلو من غلظة وجفاء ، وبعد قضاء أبي مسلم على عبد الله بن علي وجد منه المنصور استخفافاً بكتبه فصمم على الخلاص منه ، وتمكن الشك من قلب المنصور فأرسل بعد هزيمة جيش عبد الله بن علي رسولاً يحصي الغنائم فغضب أبو مسلم وكاد أن يقتله ، وقال (أمين على الدماء ، خائن في الأموال ، وشتم أبا جعفر) [٢]، وعلم أبو جعفر بما حدث فاحتال للأمر ولكن أبا مسلم كان يحل كل ما يعقده أبو جعفر ويترفق في رسائله إليه ولكنه لم يمكنه من نفسه .

ومما قاله لأبي جعفر في إحدى رسائله إليه (إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان : أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت) [٣] .

---

(1) البداية والنهاية ٢٨٠/١٣
(2) تاريخ الطبري ٣٨٢/٤
(3) المصدر السابق نفسه

وفي هذه الرسالة تهديد مبطن شعر معه المنصور بأن الموقف متأزم وأن وصول أبي مسلم لخراسان سيكون خطرًا يزعزع هذه الدولة التي لم تثبت أقدامها إلا وشيكاً ، فوجّه إليه أحد من يثق فيهم ، ليجادله في الرجوع بلطف وإلا قال لـه على لسان أبي جعفر (لست للعباس وأنا بريء من محمد ، إن مضيت مشاقاً ولم تأتني ، إن وكلت أمرك إلى أحد سواي ، وإن آل طلبك وقتالك بنفسي ، ولو خضت البحر لخضته ، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك)[1] .

ووقع منه هذا الكلام موقعًا آلمه وكسره ، فعزم على الرجوع إلى المنصور وما زال المنصور يستدرجه حتى قدم إليه وكان أبو جعفر قد دبر أمر قتله ، ولم تنفع أبو مسلم استجداءاته ، فقد قتل وأسكت أصحابه بالعطايا والهبات.

وإذا كان المنصور قد أخمد بعض الثورات التي تثور في نواحي مملكته بسرعة فائقة فإنه صدم بخروج محمد بن عبد الله الهاشمي المعروف بالنفس الزكية لمعرفته بتشيع كثير من جيشه وولائهم الشديد للعلويين ، ولم يثن محمد بن عبد الله عن عزمه ما فعله أبو جعفر بأقاربه الذين ماتوا في سجنه ، فأعلن ثورته سنة ١٤٥هـ ، واستولى على المدينة ورفض الأمان الذي بذله له المنصور لمعرفته بغدراته في سبيل تثبيت ملكه ، لأن أبا جعفر لا يتورع عن نكث ميثاقه الذي يعطيه ويتشدد في أيمانه ، إذا كان فيه إطاحة بخصم عنيف ، وهي عادة لا يقرها الإسلام ، وتأنف منها العرب وقد عرف خصومه منه ذلك ، ولم يكن محمد بن عبد الله بن الحسن بالرجل الذي يجهل مثل هذا الأمر ، فكانت إجابته لأبي جعفر حاسمة معلنة رأيه الواضح فيه حيث

[1] تاريخ الطبري ٤/٣٨٢-٣٨٣

كتب إليه رسالة يقول في بعضها(وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي ، فأي الأمانات تعطيني ! أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم)[١] .

وعندما عجزت حيل أبي جعفر عن رد محمد عن عزمه انتدب له عيسى بن موسى وقال: (لا أبالي أيهما قتل صاحبه)[٢]، وإذا كان هذا موقفه من عيسى الذي عرف بتفانيه في سبيل توطيد ملك بني العباس فليس غريبًا أن يقف من محمد هذا الموقف لأن أبا جعفر لا يرده عن طموحه عهد ولا يمين ، وقد استطاع عيسى ابن موسى القضاء على ثورة النفس الزكية ، والتي كانت الشرارة الأولى لاشتعال ثورات العلويين في العصر العباسي لأنهم يرون أنهم أحق بالخلافة من بني العباس ، وبعد أن قضى المنصور على أخطر منافسيه التفت إلى ولاية العهد عن عيسى بن موسى إلى ابنه المهدي . وقد رضخ عيسى لهذا الأمر لأنه يعلم أن المنصور لا يرحم من يخالفه . ومن الخطوط الواضحة للسياسة العباسية منذ خطواتها الأولى قتل الأولياء لأدنى شك أو ريبة (واقتل من شككت فيه) كما يقول إمام هذه الدعوة ، وهي قاعدة فارسية ظهرت واضحة في الحكم العباسي وقد صرح بها أبو مسلم في رسالته التي أشرنا إليها سابقًا وهذه النظرة السياسية الثابتة في الحكم الساساني التي تظهر العلاقة المتوترة المترقبة على وجل بين الحكام ووزرائهم وأعوانهم ، وهي تنتظر الخيانة في أي لحظة ، هذه النظرة الساسانية ألقت بظلالها على الخلافة العباسية فأصبح الخليفة لا يثق كثيرًا بوزرائه وأعوانه ، والوزراء يترقبون فرصة سانحة للإطاحة بالخليفة لأن الرابح في هذا الصراع من سبق ، وقد ظهر جليًا أن

(1) المصدر السابق : ٤/٤٣١
(2) المصدر السابق ٤/٤٣٦

الخليفة ما إن يخلص من أعدائه حتى يتفرغ لتصفية الكبار الذين برزوا على الساحة من أعوانه ، وإن كانت لهم عنده أياد بيضاء . . .

ولا شك في أن هذه النظرة أوجدت علاقة قائمة على عدم الثقة وعلى الخوف والتوتر مما جعل الوزراء والقادة يسعون إلى جمع أكبر قدر من المال وأكثر حشد من الرجال ليثبتوا أقدامهم ويحموا أنفسهم ، وكان أبو جعفر المنصور أكثر خلفاء بني العباس خروجًا من عهده وأسرعهم نقضًا لوعده ، وأجرأهم على إراقة الدماء ، إذا كان ذلك يدعم موقفه ويراه لصالح ملكه ، فكان يقتل ويعذب ويصادر الأموال ، وكان من حوله وخاصة كبار وزرائه وأعوانه محل تهمة عنده ، ولم يكن أحدهم يأمن نكبة عاجلة وفي نكبة أبي أيوب المورياني وزير المنصور يقول ابن حبيبات الشاعر الكوفي[١]:

قد وجدنا الملوك تحسد من ... أعطته طوعًا أزمة التدبير
فإذا ما رأو له النهي والأمر ... أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعد حفص ... سليمان ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منها ... إذ دعوه من بعدها بالأمير
أسوأ العالمين حالاً لديهم ... من تسمى بكاتب أو وزير

(وهذه الأبيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على ألسنة القوم إذ ذاك في نكبات الوزراء التي لم تكن قليلة بل قلما نجد من وزراء بني العباس من سلم منها)[٢] .

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية : محمد بن علي بن طباطبا: ص١٤١
(2) الدولة العباسية ص٧٢

وبعد وفاة أبي جعفر المنصور في سنة ١٥٨هـ تولى الخلافة المهدي الذي ساس الناس باللين ، ومثلما كان المهدي ليناً سهلاً مع عامة الشعب فقد كان شديداً على الزنادقة الذين كانت ثوراتهم ذات خطر شديد فقد كان نهجهم شاذاً وتعاليمهم تبعد عن (الإسلام وعقائده وتقوم على نوع من الديمقراطية الفاسدة التي تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية والزوجية المرعية وتعرض الحياة السياسية والدينية للخطر)[١] فتتبعهم المهدي وقطع كتبهم وقتل منهم من ثبتت تهمته ، وكانت وقفته الصارمة مع هؤلاء الزنادقة لما رآه من تفاقم شرهم وانتشار آرائهم ، فقد كان للمانوية طقوس وتعاليم يأخذ بعضها مظهراً حسناً وتنطوي على شر عظيم ، ولم يكتف المهدي بملاحقة هؤلاء الزنادقة في حياته بل أوصى ابنه الهادي بالتجرد لهم وأن يرفع فيهم الخشب ويجرد لهم السيف .

ومات المهدي في عام ١٦٩هـ ، وتولى الخلافة بعده ابنه موسى الهادي الذي اتصف بالشدة والشراسة والحزم ، وتتبع الزنادقة تنفيذاً لوصية والده فنكل بهم .

وبعدوفاة الهادي ، تولى هارون الرشيد الخلافة فبلغت في عهده أوج مجدها ، ويعد عصره العصر الذهبي للخلافة العباسية حيث (ارتفعت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها)[٢] واشتهر اسم الرشيد في الغرب للعلاقة الطيبة التي ربطته مع شارلمان ملك الفرنجة.

وإذا كان الرشيد محسناً في سياسة خلافته فقد أخطأ في توزيع مملكته بين أبنائه ولعل ذلك جاء نتيجة الضغوط المحيطة به ، فقد عهد بالخلافة من بعده لابنه الأمين الذي تدعمه

---

(1) تاريخ الإسلام ص٤٠

(2) الدولة العباسية ص ١٠٢

والدته الهاشمية زبيدة ويحيط به العباسيون ويعضدونه وذلك في عام ١٧٥هـ وجعل لـه ولاية الشام والعراق حتى أقصى المغرب ، وكان عمره خمس سنين[١]، ولم يبايع للمأمون على الرغم من أنه أكبر سناً وأكثر كفاءة وذلك لمكانة زبيدة منه ومساندة بني العباس للأمين وفي سنة ١٨٢ هـ بايع الرشيد للمأمون بعد أخيه الأمين وولاه المشرق وضم إليه جعفر بن يحيى [٢] فحظي المأمون بدعم البرامكة والفرس لاسيما وأن أمه فارسية ، وأخذ كل حزب يحشد لصاحبه ، وكانت تلك الحادثة إيذاناً ببدء التفكك السياسي في الدولة العباسية فقد نسي الرشيد (أن بساطاً قد يتسع لنوم عشرة من الناس ، ولكن مملكة بأسرها لا تتسع لسلطان حاكمين) [٣] وقد شعر الرشيد بهذا الخطر المقبل بعد ذلك فحاول جاهداً أن يقطع كل الأسباب التي يراها مظنة لفتح باب الشر بين الأخوين .

ولعل هذا الأمر كان شاغله في هذه الفترة فقد كان يسعى بجد وسرية لو أد كل مصادر الفتنة ، ولعل نكبة البرامكة يقف وراءها خوف الرشيد من بذرهم الفرقة بين الأخوين وإن كانت هناك أسبابٌ أخرى شكلت في نفسه الإطاحة بهذه الأسرة التي كان بيدها السلطان الفعلي في عهده، حيث إن الرشيد منذ توليه الخلافة قلد يحيى بن خالد البرمكي الوزارة وأعطاه صلاحيات مطلقة فقد قال لـه :(قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وأمض الأمور على ما ترى) ودفع إليه خاتمه[٤] وسيطر البرامكة على أمور الدولة وأحسنوا السياسة وتودّدوا إلى

---

(1) الكامل ٣٠/٤

(2) الكامل ٥٦/٤

(3) العصر العباسي الأول : شوقي ضيف ص ٣٨

(4) تاريخ الطبري ٦١٩/٤

الناس فأحبوهم وأنفقوا الأموال الطائلة فمدحهم الشعراء واتجه إليهم القصاد من كل جانب، وتصرفوا في أمور الدولة كيف شاءوا ، فكان المال الذي يقع في أيديهم أكثر من المال الذي يقع في يد الخليفة ، وملكوا من الضياع ما لم يملكه الخليفة ولا أبناؤه ، وفوق ذلك فقد كانوا يحيطون أنفسهم بأبناء جلدتهم من فارس .

وإذا كان ثمة أسباب أخرى أدت إلى تباعد ما بين الرشيد والبرامكة فهناك سبب خفى تجاهله بعض المؤرخين ولعله هو الدافع الحقيقي الذي أودى بالبرامكة ، ويقف خلفه كما قدمنا حذر الرشيد من مصير الخلافة بين ابنيه الأمين والمأمون وانشغاله بالبحث عن الأسباب التي قد تؤدي إلى فرقتهما والقضاء عليها ، وقد شعر الرشيد بتفاقم الأمر بين الحزبين المحيطين بابنيه ، فالأمين ابن زبيدة ويحيط به العباسيون والفضل بن الربيع عدو البرامكة اللدود ، وهذا حزب عباسي من الصعب التخلص منه ، والثاني حزب المأمون وهو برمكي فارسي يميل إلى العلويين .

وإذا كان لابد من الإطاحة بأحد الحزبين ليصلح ما بين الأخوين ، فالبرامكة قد أصبحوا غرضاً للرامي لتجاوزهم في سلطان الخليفة ، وبإزاحتهم تزول الأسباب التي توغر صدر الأخوين ، وقد يكون هذا هو ما دعا الرشيد إلى الجد في الإطاحة بهم ولاسيما أن هذه الحادثة جاءت بعد عودته من حجه الذي كتب فيه المواثيق بين الأمين والمأمون .

وتوفي الرشيد عام ١٩٣هـ في مدينة طوس وهو في طريقه لإخماد ثورة رافع الليث بسمرقند . وتولى الخلافة بعده ابنه الأمين .

وسعى الحساد بين الأمين والمأمون ، فبدأ الأمين في تهميش دور المأمون بعد أن حسن له الوشاة صرف ولاية العهد إلى ابنه موسى . وساء ما بين الأخوين وبدأت شرارة الحرب بينهما ، فبعث الأمين جيوشه لكسر شوكة أخيه ، وعادت هذه الجيوش مهزومة ، وتردت أحوال الخلافة واهتز عرش الأمين .

ومما ساعد على تدهور وضع الأمين تماديه في لهوه واستهتاره حتى في أسوأ الظروف وأشدها ضيقاً[(١)] واستحوذ طاهر بن الحسين على أكثر البلاد وخلعت أكثر الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون وتقدمت جيوش طاهر إلى بغداد وحاصرتها سنة ١٩٧هـ ، وضيق طاهر على أنصار الأمين واستولى على ضياعهم وأموالهم ، وضاق الناس من هذا الحصار واشتد الأمر على الأمين حيث نفدت خزائنه واضطر لبيع كل ما في الخزائن والأمتعة لينفق على جنده ، في حين كان الشعب يعاني من تعالي قواده وتجاهلهم ، فعاث اللصوص وقطاع الطرق في الأرض فساداً وتبادل الجيشان المناوشات القتالية التي كان ضحيتها الشعب قبل الحكام والقادة ، وكان كل فريق يحرق ويدمر ويرمي بالمجانيق ، فجند طاهر قاموا بتخريب المنازل والمتاجر في بغداد ، ومثل ذلك فعل جنود الأمين حتى كادت بغداد أن تتهدم بكاملها .

وفي هذا يقول عمرو بن عبد الملك الوراق [(٢)]:

يارماة المنجنيق كلكم غير شفيق
ما تبالون صديقاً كان أو غير صديق
ويلكم تدرون ما تر مون مرار الطريق

---

(1) مروج الذهب ٣/٤٠١-٤٠٣
(2) تاريخ الطبري ٥/٧٤-٧٥

رب خـــــــود ذات دل وهـــي كالغصـــن الوريـــق

أخـرجت مــن جـوف دنـيا هـــاو مـــن عـــيش أنـــيق

لم تـــجد مـــــن ذاك بداً أبـــرزت يـــوم الحـــريق

ولما اشتد الأمر استسلم كثير من علية القوم والقواد لطاهر الذي قام بقبض (ضياع من لم يخرج إليه من بني هاشم والقواد وغيرهم وأخذ أموالهم ، فذلوا وانكسروا وضعفوا عن القتال إلا باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش والطرارين ، وأهل السوق فكانوا ينهبون أموال الناس)(١) .

وبايع كثير من بني هاشم وقواد الأمين للمأمون ، وكان من مع الأمين أشد على أهل بغداد من أصحاب طاهر ، فقد وكل الأمين الأمر إلى بعض قواده مثل محمد بن عيسى بن نهيك والهرش فكان من معهما من العيارين والغوغاء والفساق يسلبون من قدروا عليه حتى بلغ الأمر بالناس مبلغاً عظيماً فتعلل من به قوة بالخروج من بغداد بعلة الحج أو بغيرها فكان إذا خرج منها أمن على نفسه وماله ، وفي ذلك يقول علي الأعمى (٢)

أظهـروا الحـج ومـا يـبغونه بل من الهرش يريدون الهرب

كم أنـاس أصبحوا في غـبطة ركض الليـل عليهم بالعطـب

كل مـــن زار ذريـــح بيتـــه لقـي الذل ووافاه الـــحرب

---

(1) المصدر السابق نفسه .

(2) مروج الذهب ٤١٧/٣

واشتدت الحال على أهل بغداد (وأخذت الدعار والشطار أهل الصلاح ،وخربت الديار وثارت الفتنة بين الناس حتى قاتل الأخ أخاه ، والابن أباه)[١] .

ولما طال الأمر على طاهر أمر بهدم دور من خالفه فكان أصحابه إذا هدموا داراً أخذ أصحاب الأمين أبوابها وسقوفها فيكونون أشد على أهلها وأضر على أصحابهم من أصحاب طاهر تعديا .وبعد أحداث دامية تمكن رجال طاهر من قتل الأمين قتلة بشعة.

ولم يكن الأمر بعيد مقتل الأمين مستقراً فقد ضج بالقلق بين قائد يهرب وآخر يخالف وجند يثورون كلما احتاجوا إلى المال وعيارين يروجون الفساد ، ووشاة يسعون بالفرقة .

وكثرت الثورات والفتوق ، فقد قام رجال الجيش في بغداد بالعصيان واستخفوا بأمر المأمون وانتشرت الفوضى وآذى فساق بغداد وشطارها الناس أذىً شديداً (وأظهر الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق ، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع ، وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر أن يمتنع)[٢]، وعاثوا في الأرض فساداً وارتكبوا أشد أنواع المنكرات وجاهروا بالمعاصي، وقد صور المؤرخون في كتبهم كثيراً من بغيهم وعبثهم ، وعندما رأى الناس عجز الحكومة الشرعية عن مقاومة هذا الفساد ومداهنة بعض ذوي السلطان لهم اجتمع قوم منهم وتعاضدوا في محاربة فساق بغداد وشطارها متخذين شعاراً دينياً مبنياً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأول من قام رجل يدعى خالد الدريوش فدعا من حوله لمواجهة الفساق والشطار ثم قام بعده آخر يدعى سهل بن سلامة الأنصاري ، وقد بايع الناس على العمل

---

(1) البداية والنهاية ٩١/١٤
(2) تاريخ الطبري ٥ /١٣٦

بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعلق مصحفاً في عنقه فبايعه خلق كثير على قتال هؤلاء المفسدين ، واستطاع أن يخلص الناس من شرهم [١] .

وعلم المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ مقتل الأمين وبما كان بعض وزرائه يستر عنه من أخبار فتوجه إلى بغداد ورتق بعقله كثيراً من فتوق دولته .

وقد بدأت الخلافة تستعيد نضارتها وقوتها منذ أن وصل المأمون إلى بغداد وظهرت شخصيته التي اختفت في خراسان وراء دسائس حاشيته وتزييفهم الحقائق لـه ، وأخذ في ضبط مملكته وإن كانت الفتوق كثيرة ، لأن الفترة التي قضاها الأمين في الخلافة ، ومدة خلافة المأمون قبل وصوله إلى بغداد أحدثت شرخاً في جسم الدولة العباسية استفحل داؤه وإن كان يخمد حيناً .

وكان من أشد ماواجهه في هذه الفترة تحرك بابك الخرمي في شمال بلاد فارس ، والخرمية هي مزدكية في الأصل ، وهم يبيحون المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم ، ويعتقدون مذهب التناسخ وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره[٢] (ومن رأي البابكيين أن توزع أموال الإقطاعيين على الفقراء ، أما غايتهم الأساسية فهي التخلص من حكم بني العباس)[٣] واجتمع حول بابك عدد كبير من الناس وكان محصناً بالجبال وقوته كبيرة وتأثيره فيمن حوله شديد لذلك فقد أجهد المأمون وأزعجه وكلما أرسل له جيشاً منى بالهزيمة أو عاد دون أن ينجز ما أوكل إليه .

---

(1) تاريخ الطبري ١٣٦/٥ وما بعدها .
(2) الكامل ١٦٣/٤
(3) تاريخ عصر الخلافة العباسية ٩٦

وقد جابه المأمون كثيراً من الثورات التي قامت بين الجيش مرغماً على ذلك بينما كانت سياسته تميل إلى اللين وتجنب سفك الدماء ، وقد سلك هذه السياسة مع بعض الخارجين عليه خاصة العلويين ، وسياسة اللين هذه كان يصحبها شيء غير قليل من الدهاء والفطنة ، فقد ساس شعبه سياسة لين لا يشوبه ضعف ، وقوة لا يشوبها عنف ، وقد اهتم المأمون على الرغم من كثرة الثورات التي شغلته بالنواحي العلمية والثقافية والفكرية (وكان من عظماء الخلفاء ، ومن عقلاء الرجال ، وله اختراعات كثيرة في مملكته منها أنه هو أول من فحص منهم عن علوم الحكمة ، وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها ، وحل إقليدس ، ونظر في علوم الأوائل ، وتكلم في الطب ، وقرب أهل الحكمة)[١]، وقد ألزم الناس أن يقولوا بخلق القرآن ، وجعلها عقيدة رسمية للدولة وامتحن الفقهاء فيها ، وهي مما أخذ على المأمون ، وقد عذب في هذه الفتنة الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – وغيره من الفقهاء[٢] .

وبعد وفاة المأموم عام ٢١١للهجرة تولى الخلافة المعتصم الذي تم في عهده القضاء على بابك الخرمي. وقد سلك المعتصم طريق المأمون في القول بخلق القرآن وتشدد في هذا الرأي تنفيذاً لوصية المأمون ، ولم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأي سديد في هذه المسألة ، وهناك شيء آخر مختلف بزغ في عهد المعتصم ، وكان سبباً فيما بعد في تدهور حال الخلافة العباسية فقد انتبه الفرس أنه لا حلف لهم مع العباسيين ، فقد كان آخر آمالهم التفافهم حول المأمون محاولين بسط نفوذهم السياسي وذهلوا عندما وجدوا المأمون مثل غيره من الخلفاء العباسيين تحين الفرصة المناسبة فأسقط كل حساباتهم ، وأصبح بين الخلافة والفرس فجوة تنبئ عن

---

(1) الفخري ١٧٥

(2) تاريخ الطبري ١٩٣/٥- ١٩٤

شيء غير قليل من الخوف وعدم الاطمئنان ، وكذلك لم يطمئن الخلفاء العباسيون إلى العرب كل الاطمئنان لشغبهم ، وقد (تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال له يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان ! فقال أكثرت علي يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث بنيه من مضر ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا)[١] .

وإذا كان المأمون قد استطاع بدهائه ولياقته السياسية أن يحصن سلطته موازناً بين هذه الأحزاب فإن المعتصم قد رأى أنه بحاجة إلى حزب قوي يصدق في ولائه للخليفة ، ولأنه ذو خؤولة تركية فقد اختار الأتراك واستكثر منهم ، وبالغ في الاستعانة بهم حتى آذوا العامة ، فقد كانوا ينزلون بخيولهم إلى الأسواق فيطأون الصبيان والعجزة فيثور عليهم العامة ويقتلون منهم ويذهب دم المقتولين هدراً .

ولخوف المعتصم على غلمانه من الأتراك رأى إبعادهم عن العامة فأمر لهم ببناء مدينة سامرا في سنة ٢٢٠هـ ، وقد كان لاعتماد المعتصم على الأتراك أثر سيئ في نفوس العرب فثار عليه العباس بن المأمون ، ودخل بعض قواد العرب في هذه المؤامرة للتخلص من المعتصم وقادته والأتراك [٢]، وقد باءت هذه الثورة بالفشل مثلما فشلت الثورات الأخرى التي هدفت إلى إبعاد العنصر التركي ، وإذا كان المعتصم ذا شخصية قوية سيطرت على الوضع ، وظهر الأتراك في عهده بمظهر الجندي المخلص المطيع فإن شخصيات من بعده من الخلفاء قد

---

(1) المصدر السابق ١٩٧/٥ - ١٩٨

(2) البداية والنهاية ٢٥٩/١٤

فسحت المجال لطغيان العنصر التركي وسيطرته على مقاليد الحكم سيطرة ألغت نفوذ الخليفة العباسي منذ خلافة الواثق الذي تصرفوا في حكمه بما شاءوا ، وعندما توفي سنة ٢٣٢هـ بحثوا مع الوزراء فيمن يولونه الخلافة ، فوجدوا ابناً له (ألبسوه ثوب الخلافة فوجدوه كبيراً عليه فخلعوه عنه والتجأوا إلى المتوكل أخي الواثق فجعلوه خليفة ، وهكذا أصبح الأتراك هم الذين يولون الخليفة)[١] .

ولم تجد المتوكل حيله للتخلص منهم ، واستغلوا سوء معاملته لابنه المنتصر فتحالفوا معه وأغروا صدره على والده واجتمع عدد من قوادهم وساروا إلى المتوكل فقتلوه مع وزير الفتح بن خاقان.

وجاء المنتصر ومعه شبهة التآمر وتولى الخلافة على أشلاء أبيه بعد أن أخذ الأتراك البيعة له من الناس ، وبعد أن ضجر من مكائدهم ودسائسهم انقلب عليهم ، وصار يسبهم ويقول : (هؤلاء قتلة الخلفاء) وتهددهم بالقتل والعقاب[٢] ففكروا في التخلص منه وسنحت لهم فرصة فأغروا طبيبه فسمه ومات سنة ٢٤٨هـ .وبعد وفاته ولوا المستعين الخلافة واستبدوا بالأمر وكثرت دسائسهم ومؤامراتهم ضد بعضهم .

وقد كان المستعين مستضعفاً في إدارته لشؤون دولته المضطربة ، وكان الأمر لبغا ووصيف التركيين ، وفي هذا يقول بعض شعراء عصره[٣]:

خليفة في قفص　　　بين وصيف وبغا

---

(1) تاريخ عصر الخلافة العباسية ١٠٤
(2) مروج الذهب ١٣٤/٤
(3) مروج الذهب ١٤٥/٤

يقول ما قالا له		كما يقول الببغـا

وقد قتل قتلة مهينة ، ولم يكن المعتز بن المتوكل الذي تولى الخلافة بعده أحسن حظاً من سابقيه (ولم يكن بسيرته وعقله بأس إلا أن الأتراك قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه)[١] .

ولما رأى أن نفوذ الترك قد استشرى حاول التخلص منهم عن طريق الحيلة والدسائس واستثار ضدهم المغاربة والفراغنة فتخلص من وصيف وبغا الصغير قاتل أبيه .

(ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعمال الحيلة في فنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة دونهم صاروا إليه بأجمعهم وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال)[٢] .

ولما عجز عن دفع رواتبهم (ضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ثم جعلوه في بيت وسدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه)[٣]

وحسبك أن يصل حال الخلفاء إلى هذا السوء وأن يعبث بهم هذا العبث المزري وقد أدى انشغال الخلفاء بالأتراك إلى تطاول أعداء الدولة عليها حيث أخذت بوادر التفكك والتجزؤ تظهر على السطح فضلاً عن الثورات التي كان يقوم بها العلويون من حين لآخر والتي لو

(1) الفخري ص١٩٧
(2) مروج الذهب ١٧٨/٤
(3) الفخري ص ١٩٧

وجدت رجل حرب يحسن تنظيمها وتدبيرها لكان لها شأن آخر لما عرف من ميل الناس إلى العلويين .

وبعد المعتز بويع محمد بن الواثق الملقب بالمهتدي سنة ٢٥٥هـ الذي لم يقبل بالخلافة إلا بعد لقائه للمعتز وإقراره أمامه بالخلع وعجزه عما أسند إليه ، (وكان المهتدي من أحسن الخلفاء مذهباً وأجملهم طريقة وسيرة وأظهرهم ورعاً وأكثرهم عبادة ، كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز ويقول إني أستحيي أن يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني العباس)[١] .

وحاول المهتدي إعمال الحيلة للإيقاع بين قادة الأتراك ولكن هذه الخدعة عرفت فتمالأ الأتراك عليه بعد قتله بابكيال – أحد قوادهم – وبعد حرب تخاذل فيها بعض جند المهتدي استطاع الأتراك أسره وحاولوا خلعه فأبى فقتلوه قتلة خسيسة وذلك في سنة ٢٥٦هـ[٢]، ولم يعمر في خلافته مثله مثل سابقيه الذين وقعوا فريسة لهذه الهمجية الممقوتة ، وهكذا فقد تسلط الأتراك على الدولة وأخذوا يعبثون بالخلفاء ، يولون من شاءوا ويعزلون من شاءوا دون نظام يسيرون عليه أو فكرة تقودهم إلى هدف واضح ، يطلبون السلطة والمال ويغارون من تقدم بعضهم ويخشون تفوق أحدهم ثم يتقاتلون بينهم فتضعف كلمتهم ويتفرقون ثم يعودون مرة أخرى فيتحزبون معاً ، وأدت هذه الفوضى إلى ضعفهم وتشتتهم فيما بعد ، وقبل ذلك أنهكت قوى الخلافة وأشغلت الخلفاء عن مجاهدة الخارجين عليهم فتجزأت الدولة واستقلت أطرافها وكثر الطامعون بها .

---

(1) المصدر السابق ص ١٩٩

(2) المصدر السابق ٤/٤٢٦

جاء الخلفاء بعد المتوكل والدولة بيد الأتراك فاختفت شخصياتهم في ظلال سيطرة قادة الجيوش الذين تفننوا في طريقة عزلهم وقتلهم ، وبعد أن اجتمعت كلمتهم على قتل المهتدي اتفقوا على مبايعة المعتمد بن المتوكل[1] الذي أخرجوه من سجنه وأقاموه خليفة تحيط به الفتن والاضطرابات من كل جانب ، فالزنج أخذت ثورتهم في التفاقم واستطار شرهم واشتد آذاهم ، وابن طولون استولى على مصر وانفرد بحكمها ، وكان بدء السامانيين في أقصى المشرق ، والعلويين هزموا جيش الخليفة وتمكنوا من دخول الري ، والخوارج لا تهدأ لهم ثورة حتى تقوم الأخرى ، وظهرت أيضاً دعوة الإسماعيلية ودعوة القرامطة .

وقد أوكل المعتمد إلى أخيه الموفق إدارة شؤون الدولة ورمى إليه مقاليد الحكم الفعلي ، ثم تباعد ما بين المعتمد والموفق ويبدو أن المعتمد مل من كونه خليفة صورياً مسلوب الإرادة فاحتال للخروج من سامراء بعد أن كاتب ابن طولون نائبه بمصر بالشخوص إليه وسار المعتمد نحو مصر يدفعه إلى ذلك أنه (لم يكن له من الخلافة إلا اسمها ، ولا ينفذ له توقيع لا في قليل ولا في كثير ، وكان الحكم كله للموفق والأموال تجبى إليه فضجر المعتمد من ذلك وأنف منه)[٢]، ولكن خطته لم تنجح فحيل بينه وبين مصر ، وسيطر الموفق على الدولة وضيق على المعتمد وقد ذكر أنه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها ذلك الوقت فقال [٣]:

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شئ في يديه

---

[1] البداية والنهاية ٥٢٤/١٤
[2] الكامل ٥٢٧/٤
[3] المصدر السابق ٥٦٦/٤

إليه تحمل الأموال طـــراً ويمنع بعض ما يجبى إليه

ولعل دافع الموفق إلى هذا ما رآه من تهالك المعتمد على الملذات ، ومات الموفق في سنة ٢٧٨هـ والمعتمد لا يزال خليفة .

وقد خفت صوت الأتراك في عهد المعتمد ، لفشلهم في كبح جماح ثورة الزنج ، إذ لم يستطيعوا أن يقفوا أمامها ، فضعف شأنهم ، وقام بأمر الدولة أبو أحمد الموفق أخو المعتمد .

وكانت أعظم مواقفه وأبعدها أثرًا ، انتصاراته الزاهية على صاحب الزنج حيث استطاع أن يوقف زحف هذه الثورة ، ويقضي عليها قضاءً ساحقًا ، بعد أن عاث الزنج في الأرض فسادًا وزرعوها رعبًا .

وكان صاحب الزنج رجلاً فارسيًا ، من ورزنين إحدى قرى الري بفارس ، وقد زعم في أول الأمر أنه من بنى عبد القيس سكان البحرين ، وأخذ ينشر فيهم آراءه الثورية ضد الدولة العباسية ، ولكنه لم يفلح ، فسار إلى البصرة عام ٢٥٤هـ وادعى أن اسمه علي بن محمد ، وانتحل نسبًا هاشميًا، وزعم أنه من أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب ، مثله مثل غيره من الطامعين الذين يرون في الانتساب لآل البيت تعضيدًا لموقفهم ومصدرًا لقوتهم ، إذ يستميلون به قلوب الناس ويكسبون تعاطفهم. وقد كان هذا الدعي (أجيرًا حاقدًا صاحب أطماع ، وعنده إمكانات التلون)[1]، وفر من البصرة بعد أن علم به واليها قاصدًا بغداد ، وبعد عام عاد إلى البصرة وقد حبك فكرته ورسم خطته (وكان صاحب فكر ونظر ، يعمل عقله أكثر مما يعمل سلاحه ، وكان فنانًا في تحايله ووسائله التي يستعملها، وضع أهداف الثورة ،

---

(1) التاريخ الإسلامي: محمود شاكر ٦٩/٦

ودعا إلى تلك الأهداف ، فإذا هي أولاً:تحرير الزنوج ورفع مستواهم. ثانيًا: تمكينهم من الحصول على الأموال والأرقاء والعبيد .ثالثًا: تمكينهم من الوصول إلى السلطان والقوة والملك)[١]

واستطاع بذكائه أن يجعل مسرح ثورته الجامحة المناطق التي بين البصرة وواسط وهي مستنقعات فيها مياه يستخرج منها الملح ، ومغطاة بالأعشاب والآجام انتبه إليها الأثرياء وأصحاب الأموال الطائلة ، فاشتروها ثم اشتروا العبيد من إفريقية بأسعار رخيصة ، ووضعوهم في تلك الأراضي لاستخراج الملح منها ، وزراعتها وكان هؤلاء الملاك الإقطاعيون ، قد استغلوا هؤلاء العبيد استغلالاً سيئًا ، إذ كانوا يدفعون لهم مقابل هذا الجهد المضني أجرة زهيدة وكساء خشناً .

وقد بلغ عدد هؤلاء الزنوج حوالي خمسة عشر ألفاً اتصفوا بالقوة والشدة وعانوا بؤساً وعيشاً قاسياً .

واستغل هذا الثائر الوضع ولمس الجرح فدعا إلى الثورة لإنقاذ هؤلاء المستضعفين المظلومين وأخذ في إثارتهم ، ولكي يدعم موقفه أضفى على دعوته بعداً دينياً إذ زعم أنه يوحى إليه وأن العناية الإلهية قد أرسلته لإنقاذهم مما يعانون [٢] .

واعتمدت دعوته على تحرير العبيد وإلغاء الرق وناقضها في أنه أباح لمن معه استرقاق الأحرار في أسوأ صور الرق وأبشعها .

وعلى الرغم من انتسابه للعلويين فإنه لم يجهر بعقائد المذهب الشيعي وقد ذكر د.حسن إبراهيم حسن أن نلدكه علل هذه الدعوة الغريبة فقال (لقد بلغ من معرفة هذا الزعيم الثائر

(1) تاريخ عصر الخلافة العباسية ص ١٣٢ - ١٣٣
(2) تاريخ الطبري ٤٤٢/٥ وما بعدها .

بميول أصحابه أنه تظاهر بالدعوة إلى مذهب الخوارج الذي يلائم ميولهم الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة وإن كان هو قد افتخر بأنه من نسل علي وفاطمة لما ينطوي عليه المذهب الشيعي من التوريث الذي لا يلائم عقول مواطنيه)[١] .

وأعلن هذا الدعي مبادئ ثورته التحريرية وبثها بين الناس وجهر سنة ٢٥٥هـ بدعوته (وما زال يدعو غلمان أهل البصرة ويقبلون إليه للخلاص من الرق والتعب ، فاجتمع عنده خلق كثير فخطبهم ووعدهم أن يقودهم ويملكهم الأموال وحلف لهم بالأيمان أن لا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم فأتاه مواليهم وبذلوا لـه على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إليه عبده ، فبطح أصحابهم وأمر كل من عنده من العبيد فضربوا مواليهم أو وكيلهم كل سيد خمسمائة سوط)[٢] .

ووجدت دعوته قبولاً كبيراً عند هؤلاء وغيرهم ، إذ انضم إليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة وخاطبهم (بهذه الأمور الساذجة التي تروج بين أمثال هؤلاء الفقراء المطحونين الضعفاء والذين لا يملكون من العلم ما يفرقون به بين الحق والباطل وتتعلق قلوبهم وآمالهم بكل من يلوح لهم بالنجاة ويبرق لهم ببوارق الآمال)[٣] .

استشرى خطر صاحب الزنج وكثر أتباعه وأخذ في المواجهة وقتال من وقف أمامه فنهب القادسية وهزم أهالي البصرة[٤]، ولم تفلح جيوش الخلافة في ردعه فاقتحم غير مدينة وكان نصيبها منه النهب والحرق.

---

(1) تاريخ الإسلام ٢١٧/٣
(2) الكامل ٤١٢/٤
(3) الأدب في عهد العباسيين: د. محمد زغلول سلام ص: ٤٥
(4) الكامل ٤١٤/٤

وانضم إلى جيشه كثير من الأعراب فداهم البصرة عام ٢٥٧هـ بجيشه وذبحوا أهلها وأحرقوا جامعها واتسع حريق المدينة من الجبل إلى الجبل (وعظم الخطب وعمها القتل والنهب والإحراق ، وقتلوا كل من رأوه بها ، فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيراً قتلوه لوقته)[١] .

وقد ذكر أن عدد المقتولين بلغ ثلاثمائة ألف[٢] بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل ، وقد أدخلت هذه الحادثة الرعب في نفوس المسلمين وذعر من بقي من أهل البصرة واختفى كثير منهم في (الدور والآبار فكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، والفيران والسنانير فأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيء فكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه وعدموا مع ذلك الماء العذب)[٣] .

وقد ذكر المسعودي قصة امرأة أكلت في صورة تقشعر لها الأبدان[٤]، وقدبلغ شر صاحب الزنج مبلغاً عظيماً فاسترق الحرائر وكان عسكره ينادي فيه (على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيره من سائر العرب وأبناء الناس تباع الجارية منهم بالدرهم والدرهمين والثلاثة وينادى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان الفلاني ، لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون ، يطأهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف)[٥] .

---

(1) المصدر السابق ٤٣٦/٤

(2) تاريخ الخلفاء ص:٤٣١

(3) مروج الذهب ٢٠٧/٤

(4) المصدر السابق ٢٠٨/٤

(5) مروج الذهب ٢٠٨/٤

ولما رأى الموفق فشل قواده في استئصال هذه الفتنة العظيمة نهض بنفسه لقيادة الجيش المتوجه لقتال صاحب الزنج ، وقاتله الموفق مدة طويلة أشغلته في أثنائها ثورات أخرى وبعد تفرغ الموفق منها عاد لقتال صاحب الزنج بجد وعزيمة لا تعرف اليأس ، وجهز جيشاً كبيراً أسند قيادته لابنه أبي العباس المعتضد الذي أبلى في هذه الحروب بلاء حسناً وذلك سنة ٢٦٧ هـ .وقد تم القضاء على هذه الفتنة عام ٢٧٠للهجرة ، بعدما ذهب أكثر من مليون ونصف من المسلمين ضحية لها [1] .

وتولى الخلافة أبو العباس المعتضد بالله بن الموفق بعد وفاة المعتمد سنة ٢٧٩هـ نزولاً عند رغبة الجيش له لما أبداه في حروب الزنج من بسالة وشجاعة فائقة وحزم وتدبير وقد كان مهيباً شديداً وافر العقل شديد الوطأة قليل الرحمة ، إذا غضب على قائد أمر بإلقائه في حفرة وردم عليه ، وكان مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه[2] وقد أثنى المؤرخون عليه ووصفوا أيامه بالرخاء والأمن ، فقد أسقط المكوس ، ونشر العدل ، ورفع الظلم عن الرعية ، وكان يسمى " السفاح الثاني " لأنه جدد ملك بني العباس ، وكان قد خلق وضعف ، وكاد يزول ، وكان في اضطراب من وقت قتل المتوكل[3] .

وفي عهد المعتضد ظهرت حركة القراطمة في الكوفة على يد حمدان قرمط ، وفي البحرين على يد أبى سعيد الجنابي ، ولم يكن خروجهما صدفة فقد خطط للأمر مسبقاً وجهد أصحاب هذه الدعوة في غرس مبادئها قبل إعلانها ، وهي حركة سياسية أخذت

---

[1] تاريخ الخلفاء ص: ٤٣١ .
[2] الكامل ٦٠٣/٤
[3] تاريخ الخلفاء ص: ٤٣٧

غطاء دينياً هدفه تمكين هذه الدعوة في نفوس الناس .

ولم يكن توجه أصحاب هذه الدعوة إلى العراق عبثاً ولا صدفة فقد خططوا لما أرادوا واتجهت دعوتهم إلى بسطاء الناس ولعبوا على الوتر الذي لعب عليه صاحب الزنج ، وكأن كل من يريد أن يحقق هدفاً سياسياً في العصر العباسي لا يحتاج إلا إلى انتسابه إلى الطالبيين وأن يرفع شعارات (رفع الظلم عن العامة) .

بث حمدان قرمط دعوته بين الفلاحين في نواحي البصرة والكوفة مثلما نشرها دعاتها في الشام بين الأعراب ، فالدعوة موجهة أساساً إلى الطبقة البائسة التي تحقد على مجتمع الأثرياء الذي استغلها واستفاد مادياً من كدحها وجهدها ، وهذه الطبقة مهيئة لقبول أي فكرة نرى فيها سبيلاً للتحرر من الفقر والبؤس دون تحرٍّ لأبعاد هذه الفكرة ومدى صدقها .

واستطاع حسين الأهوازي ومن بعده قرمط أن يزرعا هذه الدعوة وينشراها في طبقة الفقراء وسواد الناس ثم سعيا إلى الطرق التي يمكن من خلالها دعم هذه الدعوة مادياً وتمويلها فأخذا من كل المنتمين إليها ضرائب وأموالاً بطرق مختلفة ، ولقيت هذه الحركة نجاحاً على يد حمدان قرمط لأنه (كان صاحب علاقات اجتماعية كثيرة ، وناقماً على المجتمع لوضعه وكثير الكلام عن الأوضاع ، وكان المحيط الذي يعيش فيه حاقداً أيضاً على الحكم العباسي فيستمع إلى كل ناقد فتوسعت الدعوة بحيث لم يعد أحد ينكر مركزها)[1] ، وقد بنى حمدان لأتباعه داراً للهجرة في سواد الكوفة سنة ٢٧٧هـ فأصبح للدعوة مركز يؤم وقاعدة يمكن الانطلاق منها ، وقد اختار القرمطي دعاته وأشهرهم ابن عمه وصهره عبدان وزكرويه بن مهرويه

---

(1) التاريخ الإسلامي ٧٩/٦

(الذي أخذ الدعوة عن أبيه كما ورث عنه ما كان يشغل باله في القضاء على الإسلام وتأسيس أسرة فارسية يعود إليها الحكم وتعتمد على المجوسية)[١]، ثم جد قرمط في تنظيم حركته وفرض على أتباعه أموالاً تدفع باسم " الألفة " وهي الشركة في الأموال حيث يكون لهذه الحركة بيت مال تودع فيه أموال المنتسبين لها ، ولا يترتب على المنتمي لهذه الحركة إلا سلاحه وفرسه ، أما أمواله الأخرى فيقدمها إلفة (وينتظر من أصحاب الدعوة – وهم يضعون رجلاً ثقة على هذه الأموال – أن يوزعوها بين الجميع إذن هذه الدعوة – كما ترون – اشتراكية شيوعية)[٢].

(ولما اطمأن إلى نجاح دعوته أخذ يحل لأتباعه ترك الفرائض الدينية وأن يتخذوا بيت المقدس قبلتهم ويحجوا إليه ، وزعم لهم أن الصوم يومان في السنة : يوم عيد المهرجان ، ويوم عيدالنيروز ، وأن النبيذ حرام والخمر حلال ، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه وخالفه يجب أخذ الجزية منه)[٣].

وعندما لم يحقق دعاة القرامطة النجاح الذي يأملونه في العراق ، لفشلهم في مواجهة الجيوش العباسية ، أرسل زكرويه ابنه يحيى إلى الشام وادعى هناك نسباً إسماعيلياً وأن له آيات وأن ناقته مأمورة ومن اتبعها في لقاء عدو انتصر عليه فتبعه بعض الأعراب من بني العليص[٤]، وكانوا في حالة شديدة من الفقر والبؤس ، وقد عرف يحيى في الشام بصاحب الناقة ولقبه أصحابه

(1) المرجع السابق ٨٠/٦
(2) تاريخ عصر الخلافة العباسية ١٥٩
(3) العصر العباسي الثاني ص ٣٥
(4) الكامل ٦٠٠/٤

بالشيخ[١]، وفي عام ٢٨٩هـ هزم جيشه بعض قواد المعتضد وعاثوا في بلاد الشام فساداً وقتلاً وتخريباً ، وكانت بلاد الشام تتبع الدولة الطولونية التي أصبحت في حالة ضعف ولم يستطع عاملها طغج الإخشيدي مقاومة القرامطة فهزم غير مرة[٢] ثم تحصن بدمشق وحاصر يحيى القرمطي دمشق (وضيق على أهلها وقتل أصحاب طغج ولم يبق منهم إلا القليل وأشرف أهلها على الهلكة)[٣] وعلم الخليفة العباسي بذلك فوعدهم بالنجدة وأمد المصريون أهل دمشق الذين صمدوا لحصار القرمطي ، فلما جاءهم المدد استطاعوا هزيمة جيش القرامطة وقتل يحيى على باب دمشق مع عدد كبير من جيشه .

اجتمع من بقي من جيش يحيى فبايعوا أخاه الحسين الذي كان في وجهه شامة زعم أنها آية له وعرف بصاحب الشامة .

اشتد أمر صاحب الشامة بعد أن استجاب لـه كثير من الأعراب فاشتدت شوكته وصالحه أهل دمشق على خراج يؤدونه إليه وغلب على حمص وخطب على منابرها وتسمى بأمير المؤمنين ثم سار إلى حماة ومعرة النعمان فقتل أهلها وقتل النساء والصبيان ثم قتل عامة أهل بعلبك وأعطى الأمان لأهل سلمية بعد أن استعصت عليه ففتحوا له بابها فنقض عهده وأباد من بها مبتدئاً ببني هاشم ولم يستثن أحداً حتى صبيان الكتاتيب بل وصل به الأمر إلى قتل البهائم ، ثم خرج من سلمية وليس بها عين تطرف[٤]، ثم استمر في فساده في بلاد الشام الأخرى يسبي ويقتل ويخيف السبيل وينتهك الحرمات .

---

(1) المصدر السابق نفسه
(2) المصدر السابق ٦٠١/٤
(3) المصدر السابق ٦٠٩/٤
(4) الكامل ٦٠٩/٤

ثار الخليفة المكتفي – الذي تولى الخلافة بعد المعتضد – لما لحق المسلمين من أذى القرامطة وأرسل إليهم جيشاً كبيراً بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ، واستطاع الجيش العباسي أن يهزم القرامطة هزيمة ساحقة عام ٢٩١هـ وفر من نجا من القرامطة إلى الكوفة ، وفي الطريق استطاع بعض عمال المكتفي أسر صاحب الشامة (الحسين بن زكرويه) وأرسل إلى بغداد فأمر الخليفة بقتله ، فقتل قتلة شنيعة[١] .

وبعد أن علم زكرويه بمقتل ابنيه يحيى والحسين أرسل داعيته أبا غانم إلى بادية الشام واستغوى بعض أهلها ثم عاث في بعض مدن الشام فساداً .

علم الخليفة بأمره فأرسل الحسين بن حمدان وجماعة من قواده في طلبه بعد أن انسحب ، فكان القرامطة يغورون المياه أمام جيش العباسيين حتى رجعوا بسبب عدم وجود الماء ، واستغل القرامطة هذه الفرصة فأفسدوا في بعض بلاد الشام وبلغ الخبر المكتفي فأرسل جيشاً آخر إليهم وطلب من الحسين بن حمدان أن ينضم إليهم ولما أحس اتباع أبي غانم بإقبال الجيش وثبوا على أبي غانم فقتلوه وانتهت بمقتله حركة القرامطة في الشام .

لم ييأس زكرويه ولم يهن لما أصابه فواصل دعم حركته إذ أرسل داعية آخر إلى الكوفة وسواد العراق يدعوهم لمشايعته فبايعه عدد كبير من أهل الكوفة وجرت بينهم وبين أهل الكوفة مناوشات واستمد والي الكوفة الخليفة لمناجزة القرامطة فأمده بكبار قواده .وفي هذا الوقت خرج زكرويه من مخبأه الذي مكث فيه عدة سنوات فسجد لـــه أصحابه وغلوا في تعظيمه وسار بهم وهو محجوب يدعونه السيد ولا يبرزونه ، فنازلوا جيش الخليفة وانتصروا عليه

---

[١] المصدر السابق ٦١٣/٤

انتصاراً ساحقاً قتلوا فيه عدداً كبيراً وكسبوا مالاً كثيراً[١] ، واعترض زكرويه طريق الحجّاج فقتل جيشه أكثر من عشرين ألفاً منهم ونهبوا قوافلهم وغنموا منهم مالاً عظيماً ، وعند علم المكتفي بما جرى عظم الأمر عليه فجهز جيشاً كبيراً سحق القرامطة وأسر في هذه المعركة زكرويه ثم مات من أثر جراحه وذلك سنة ٢٩٤هـ[٢] .

وإذا كانت حركة القرامطة في العراق والشام قد اندحرت أمام الجيوش العباسية وقضي عليها قضاءً مبرماً فإن هذه الحركة قد اشتد عودها في الأحساء والبحرين حيث فشلت جيوش العباسيين في وأدها واستطاع أبو سعيد الجنابي أن يؤسس دولة ظلت قائمة إلى منتصف القرن الرابع .

وقد عاث قرامطة البحرين في الأرض فساداً وقاموا بأعمال منكرة ، وعظم أمرهم حتى بلغ بهم عتوهم أن قتلوا الحجاج في الحرم إلى أشياء أخرى ليس هنا موضع ذكرها .

وكما ترى فهذه الحركة قد ظهرت في عهد الخليفة المعتضد وامتدت جذورها إلى عهد الخلفاء بعده ، وقد توفي المعتضد عام ٢٨٩هـ وتولى الخلافة بعده ابنه المكتفي بالله وقد رد المظالم إلى أهلها وعدل بين الرعية (وسار سيرة جميلة أحبه الناس ودعوا له)[٣] .

وفي عهده كثرت الفتوح ، وتم القضاء على زكرويه وبعض أبنائه ، كما قضى قائده محمد ابن سليمان الكاتب على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ ومات المكتفي سنة ٢٩٥هـ ، وقد عهد بالخلافة إلى أخيه المقتدر وهو غر صغير لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة (فكأن كل ما

---

(1) الكامل ٦٢٢/٤
(2) المصدر السابق ٦٢٥/٤
(3) تاريخ الخلفاء ص: ٤٤٥

أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوضه في لحظات ، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم ، وعاد معهما الخلع وسفك الدماء وزادوا سمل الأعين)[1] .

وقد تبين من خلال ما عرضناه من أحداث تاريخية مفصلة ، ما وصلت إليه حال الناس في هذا العصر ، وما قاسوه من صراعات دامية ، ومجازر جماعية ، وقلق لا ينتهي ، ونزيف لا يقف . وقد عجزت الخلافة مراراً ، وتأخرت مراراً في القضاء على هذه الفوضى ، ولم تستطع في أحايين كثيرة استئصال هذه الفتنة ، فعاش الشعب في عذاب ورعب ، ولم ينعموا بالأمن الذي كانوا يصبون إليه إلا بين حين وآخر ، ومن هنا فقد كانت غربة هذا الشعب قاسية ، وكان انفصالهم عن السلطة أمراً طبيعياً ، لأن هذه السلطة لم توفر الحماية الكافية لهم ، وكذلك فإن كثيراً من ذوي النفوذ طغت مصالحهم الخاصة على مصلحة الشعب . فعاش الشعب مغترباً قلقاً .

(1) العصر العباسي الثاني ص: ١٨

ثانياً :العامل الاجتماعي :

اتسعت رقعة البلاد الإسلامية بعد أن توالت الفتوح وأصبحت كثير من الأقطار تحت مظلة الحكم العباسي وانضوت تحت لوائه أمم مختلفة كان لها حضاراتها وثقافتها ودياناتها، فكان لكل أمة من هذه الأمم شخصيتها وخصوصيتها وقد تمازجت هذه الحضارات وذابت هذه الشخصيات في بعضها مكونة الشخصية العباسية .

ولم تكن هذه الشخصية عربية خالصة كما كانت حالها في العصر الأموي بل أصبحت مزيجاً من ثقافات مختلفة انصهرت في بوتقة واحدة .

ونشأت ظاهرة التوليد في هذا العصر وصار مألوفاً أن يتزوج (رجل من أمة وامرأة من أمة أخرى فينشأ بينهما نسل يجري في عروقه دم الأمتين .وقد امتاز العصر العباسي الأول بكثرة هذا الجيل من الناس ، وكان هذا التوليد ظاهرة قوية نتجت عن اختلاط الأجناس ومن نظام الرق والولاء الذي طبق عقب الفتح الإسلامي)[1] .

وصاحب هذا التوليد تمازج عقلي بين هذه الشعوب التي تبادلت التأثير والتأثر ، وكان كثير من الخلفاء من أبناء الإماء ومثلهم كثير من رجال الدولة ، ولم يعد العرب طبقة وراثية مقفلة ، كما إنه لم يعد لهم سلطانهم ونفوذهم الذي تمتعوا به في العهد الأموي فقد اعتمدت الثورة العباسية على الموالي فعلا شأن الفرس وأسند إليهم خلفاء بني العباس مناصب الدولة وقيادة الجيش وبدأ نفوذ العرب يختفي تدريجياً .

ولعل هذه السياسة بدأت مع أول طلائع الدعوة العباسية فكانت وصية إبراهيم

[1] ضحى الإسلام : أحمد أمين ٩/١

الإمام لأبي مسلم الخراساني يأمره فيها (بأن لا يبقي أحداً بأرض خراسان ممن يتكلم بالعربية إلا أباده)[١] .

وفي عهد الرشيد سيطر البرامكة الفرس على زمام الدولة وقربوا إليهم من شاؤوا، ثم دعم الفرس المأمون في حربه مع الأمين ، وعندما تولى الخلافة زاد نفوذهم وكانوا يركبون ومعهم القسي والنشاب بين يديه ، وتبينت نظرته الساخطة على العرب عندما تعرض له رجل من أهل الشام فقال : (يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ! فقال : أكثرت علي يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، وأما اليمن فو الله ما أحببتها ولا أحبتني قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً اعزب فعل الله بك)[٢] .

وفاق نفوذ الفرس حده إذ تجاوز المناصب القيادية إلى فرض الثقافة الفارسية بمعناها الواسع ، وغلبت على الدولة العباسية نظم الحكم الساسانية .

ويلحظ في هذا العصر تحول خطير في القيم السياسية الاجتماعية التي عرفها العرب ورأوا في الإخلال بها عاراً وخروجاً على سنن الخلق العربي الذي دعمه الدين الإسلامي وأقره وأتمه ، فأصبح من أصول الدولة العباسية وقواعدها قتل الموالين لأدنى ريبة أو شك وهي قاعدة فارسية (واقتل من شككت به)[٣] وهي إن كانت من وصايا إبراهيم الإمام إلا إنها

---

(1) البداية والنهاية ٢٤٧/١٣

(2) تاريخ الطبري : ١٩٧/٥-١٩٨

(3) البداية والنهاية : ٢٤٧/١٣

جاءت موائمة للنظم الفارسية مثلما كانت وراثة الخلافة التي دعا لها العباسيون أمراً يسير من الرؤى الساسانية ، فالفرس (يعتقدون في نظرية الحق الملكي المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس منذ أيام آل ساسان)[١] .

وعندما أعلن أبو مسلم دعوته لبني العباس كان من مواثيقه التي ألزم الناس بها قوله (وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأ به ولاتكم ، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم)[٢] .

(وظاهر من هذا الميثاق أن الطاعة للولاة واجبة دون سؤال أو استفهام ، ولا ريب أن شكل هذه الدعوة وشكل هذا الميثاق يتفق مع العقلية الفارسية أكثر مما يتفق مع العقلية العربية فالفرس معتادون على الطاعة لولاتهم دون سؤال أو استيضاح)[٣] .

وقد ألقت هذه النظم بظلالها على المجتمع الذي لم يستوعب هذا التغيير الشديد في ثوابته ، فبعض الخلفاء العباسيين لم يأنفوا من (الغدر بمن ائتمنهم ، وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب في جاهليتهم وفي بدء إسلامهم وفي فتوحهم ، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ، ووصايا أمرائهم في ذلك معروفة مشهورة فلما دخل بينهم هؤلاء الأغنام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته)[٤] .

ولعل أقسى ما واجهه الفرد في المجتمع العباسي بعده عن السلطة الحاكمة وعدم وصول صوته إليهم لأن الخلفاء العباسيين أحاطوا أنفسهم (بنظام تشريفات معقد مختفين عن أعين

---

(1) تاريخ الإسلام : ١٥/٢
(2) تاريخ الطبري : ٣٢٠/٤
(3) تاريخ الخلافة العباسية ص: ٢١
(4) الدولة العباسية ص: ٣١

الناس وراء أستار صفيقة ، ومتخذين كثيرين من الحجاب أو رؤساء التشريفات) [١] ، وكان أكثر هؤلاء من العجم الذين تصرفوا في أمور الناس حسب أهوائهم ورغباتهم ، ومن خالف توجهاتهم أو أبدى رفضاً كان مصيره القتل أو السجن وبذلك (أصبحنا إزاء حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد ، حكم لا يحسب فيه أي حساب للرعية ، فهي أدوات مسخرة للحاكم وليس لها من الأمر أي شيء)[٢] .

ولم يقتصر التأثير الفارسي على الناحية السياسية بل تغلغل في كل مناحي الحياة في هذا العصر ، وقد تلاشى النفوذ الفارسي السياسي منذ خلافة المعتصم الذي استكثر من الأتراك ثم بنى لهم مدينة سامراء لتبدأ مرحلة أخرى ونفوذ آخر سيطر على مقاليد الحكم واقتصر عليها، وهو وإن عانى منه المجتمع العباسي أشد المعاناة فإنه لم يؤثر حضارياً ولا ثقافياً إذ اقتصرت جولاته في الناحية السياسية والعسكرية .

فالترك لم يكونوا (أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة إذ كانوا بدواً لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة ، إنما كانوا سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس) [٣] .

وقد عانى المجتمع منهم منذ دخولهم البلاد وتأذى أهل بغداد منهم أذى عظيماً فشكوهم إلى المعتصم الذي بنى لهم سامراء وازداد تأثيرهم بعد أن استقلوا بأمور الدولة وتلاعبوا بخلفائها ولحق الشعب منهم أذى وويلات .

---

(1) العصر العباسي الأول : شوقي ضيف ص : ٢١
(2) المرجع السابق ص : ٢١
(3) العصر العباسي الثاني : شوقي ضيف ص: ١٠

و (كان النزاع قبل بين الفرس والعرب ، فأصبح بين العرب والفرس والترك ، وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاعهم مع الفرس فجاءت قوة الترك ضغثاً على إبالة)[1] ، وقد نكل قواد الأتراك بكثير من القبائل العربية بالحجاز وغيرها فأثر ذلك في ضعف نفسية العرب أمام الترك وزاد من حقدهم عليهم .

وضاعف المأساة أمر المعتصم والي مصر بإسقاط من (في الديوان من العرب وقطع أعطياتهم)[2] ، ولم يكن هذا المجتمع المكون من العرب والفرس والترك وغيرهم على وئام بل كانت النعرة القومية (بالغة أشدها والعداوة بينهم متغلغلة في أعماق صدورهم)[3] والعصبية شديدة ، فكل قوم يفخرون بمآثرهم وينحازون لبني جنسهم . مما جعل المجتمع العباسي يعاني من تباعد وتنافر بين طبقاته ، وانفصال حاد بين أفراده .

ولم تكن هذه الحضارات المتصادمة حيناً والمتوائمة أحايين أخرى ، ولا تلك الأجناس المتصارعة هي ذات الأثر الكبير في المجتمع العباسي بل كانت عاملاً مؤثراً بجانب عوامل أخرى لا تقل عنها تأثيراً .

فقد تدفقت الأموال على بغداد وغيرها من الأمصار الكبرى وظهر أثرها جلياً إذ أدى الثراء إلى رفاهية مفرطة تمتع بها الخلفاء والأمراء والقواد ومن حظوا عندهم أو نالوا صلاتهم من علماء وأدباء وشعراء ومغنين ، وقد نشأت نتيجة هذا طبقة أرستقراطية ترفل بالنعيم ، وتسكن الأحياء الراقية وتبني القصور الفخمة منفقة عليها مبالغ طائلة . وقد اتخذت دور

---

(1) ظهر الإسلام : أحمد أمين : ص ٥/١

(2) المرجع السابق : ٨/١

(3) المرجع السابق : ١٥/١

بغداد على مثال دور الفرس ، وتطاولوا في بنائها ورصعوها بالذهب وزينوها بالفرش الفاخرة والأثاث الثمين ، وأحاطوها بجنات وحدائق ، وجلبوا لها الرياحين من الهند (وكانت قصور الخلفاء أشبه بمدن كبيرة لاتساعها)[١] .

فالمنصور بنى قصر الذهب في بغداد ، كما بنى قصر الخلد على شاطئ دجلة وتأنق في بنائه وتجميله ، والرشيد فعل قريباً من ذلك ، ولم يكن قصر عيسى بن علي بن عبد الله بن العباس أقل من قصور هؤلاء الخلفاء ، فقد ذكر أن المنصور زاره في أربعة آلاف رجل فوسعهم هذا القصر [٢] .

وقد اهتم المتوكل ببناء القصور حتى أضر بميزانية الدولة ، وتبارى الأمراء والوزراء في هذا الميدان حتى أضحت بغداد وغيرها من الأمصار الكبرى غاية في حضارتها العمرانية .

ولم يكن بذخهم مقتصراً عند بناء القصور وتزيينها إذ كانت موائدهم معرضاً لألوان الطعام والشراب وقد قيل أن طهاة طعام الرشيد (كانوا يطهون ثلاثين لوناً من الطعام وإنه كان ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم في اليوم)[٣] .

وقد عاش ذوو السلطة وأهل اليسار في بغداد عيشة ناعمة ، فقد كانوا (يتفننون في الطعام ويسرفون في اجتلاب ألوانه في غير مواعيدها من صيد وفاكهة وخضروات) [٤]

ومثلما تفننوا في المطعم والمشرب ، تأنقوا في ملابسهم ، ومثلما اقتبسوا طائفة من آداب المائدة عن الفرس ظهر التأثير في لباسهم فأزياؤهم فارسية ، واتبع العباسيون رسم ملوك الفرس

---

(1) تاريخ الإسلام : ٤٤٣/٣
(2) ينظر : تاريخ الإسلام : ٣٤٣/٢-٣٤٤
(3) المرجع السابق : ٣٤٦/٢
(4) تاريخ الاسلام : ٣٤٦ :٢

في الملابس وظهرت الطبقية واضحة فجعلوا لكل طبقة زيها الموحد ، فللخلفاء عمة (وللفقهاء عمة ، وللبقالين عمة ، وللأعراب عمة)[١] ولكل طبقة عمة مختلفة عن الأخرى (ولكل قوم زي ، فللقضاة زي ، ولأصحاب القضاة زي ، وللشرط زي)[٢] ويستغرب المرء عندما يجد أن هذه الطبقية قد تصل إلى حد القسوة إذ أن (لكتاب الجند زي ، ومن زيهم أن يركبوا الحمير وإن كانت الهماليج لهم معرضة)[٣]، وأصحاب السلطان وحاشيته لهم زي خاص ، والشعراء يلبسون الوشي والمقطعات والأردية السود[٤] .

ولم تكن هذه الأزياء الفارسية المفروضة توافق ذائقة كل الشعب ، بل كانت عند بعضهم مجالاً للتندر والتفكه ، فعندما (ألزم المنصور الناس بلبس قلانس سود طوال جداً حتى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب)قال أبو دلامة [٥]:

وكنا نرجي من إمام زيـــادة   فزاد الإمام المصطفى بالقلانس
تراها على هام الرجال كأنها   دنان يهود جللت بالبرانـــــس

وقد حرص ذوو اليسار على إشباع رغباتهم الجامحة ، وأنفقوا أموالاً طائلة في سبيل ملاهيهم .ويذكر أن المتوكل أقام حفلة لختان ابنه المعتز أنفق عليها ستة وثمانين مليون درهم (وعلى هذا النحو كانت ملايين الدنانير والدراهم تنفق بدون حساب وبدون أي رقابة في حفلات القصر وهي حفلات أمدت القصص في كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع في الخيال

---

(1) البيان والتبيين ١١٤/٣
(2) المصدر السابق : ١١٤/٣
(3) المصدر السابق نفسه .
(4) ينظر : المصدر السابق : ١١٥/٣
(5) البداية والنهاية : ٤٢٨/١٣

الواهم من بذخ وترف لا حدود لـــــه ، والشعب يكدح ويشقى ويسيل عرقه مدراراً ويتجرع غصص البؤس والحرمان ليعبث المتوكل وغير المتوكل بأمواله فإذا قصور شماء تبنى وينفق عليها الملايين تلو الملايين ، وإذا هي تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس ، وتنثر حمول الذهب والفضة)[١] .

وبهذا تمايزت طبقات العصر العباسي وانفصلت عن بعضها انفصالاً حاداً ، وغدت الهوة بينها سحيقة فطبقة خاصة ترفل في ثياب النعيم ، وطبقة أخرى تسمى طبقة العامة تشكلت من مختلف الأجناس (ولم يكن لها مكانة بسبب فقر غالبيتها من جهة وجهلهم بالأمور الثقافية والدينية من جهة أخرى ، وقد أطلق عليهم المؤرخون تسميات متعددة ، كالسفلة والغوغاء والسقاط ، والجماهير الدهماء)[٢] ، وقد تميزت هذه الطبقة بالبساطة والفقر ملبساً ومأكلاً ومسكناً فلم يكن لدورهم مثلاً (أسوار تحيط بها وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع حتى إن المار ليستطيع أن يرى من بداخلها)[٣] .

ومثلما حرمت هذه الطبقة من العيش الكريم حرمت من النظرة السامية إذ نظر إليها علية القوم نظرة ازدراء واحتقار ، فقد روي أن ثمامة بن الأشرس حرض المأمون على سب معاوية وأن يكتب بذلك كتاباً يقرأ يوم الدار ، ولم يرض عن ذلك يحيى بن أكثم وخوّف المأمون من العامة فقال ثمامة (وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها ، وقد سواها الله بالأنعام)[٤] .

---

(1) العصر العباسي الثاني ص: ٦٨
(2) دراسات في تاريخ الخلافة العباسية ص: ٣٥٠
(3) تاريخ الإسلام : ٤٤٣/٣
(4) ضحى الإسلام ١٥٢/٣

وحتى يحيى البرمكي وهو من وصف بالسخاء واللين ، وكان مظنة للعطف ، قسم المجتمع العباسي إلى طبقات تصورها من منظوره الأرستقراطي وشكلها بفوقية ممجوجة يقول البرمكي [١] :

(الناس أربع طبقات ، ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط ألحقهم بهم التأدب ، والناس بعد زبد جفاء ، وسيل وغثاء، ولكع ولكاع ، وربيطة اتضاع ، هم أحدهم طعامه ونومه) .

وهؤلاء الذين استحقوا هذا الهجوم العنيف هم من يقع عليهم عبء العمل ويقوم المجتمع على أكتافهم وهم العمال والحرفيون ، وخدمة أرباب القصور وهم من يبذلون فوق طاقتهم لينعم هؤلاء المترفون .

(وكأنما كتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم ، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق ، ومرد ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد)[٢]، وهذا ما جعل عامة الشعب ينقمون على الأوضاع السائدة ويثورون على الدولة ويستجيبون لكل ثائر يلوح لهم بأمل النجاة ، فالتفوا حول صاحب الزنج واندفعوا مع ثورة القرامطة ، وحلموا بالمهدي المنتظر الذي يملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

وعانت هذه الطبقة معاناة مرة ، ودفعها بؤسها إلى أن تسلك شتى الطرق من أجل لقمة عيشها ، فمنهم من كان يعمل في الأرض جاهداً من أجل تأمين قوت يومه ، ومنهم من مارس

---

(1) في الأدب العباسي ص :٦٠
(2) العصر العباسي الأول ص:٤٥.

مهناً حقيرة لكي لا يموت جوعاً فنشأ فيهم كثير من القرادين وأصحاب الملاهي الصغيرة الطوافين والحوائين ، ومنهم من باع نفسه فصار مهرجاً مهمته إضحاك الناس وإن ابتذل مروءته وأسقط قيمته ، ومنهم من كان من الأدباء ولكنه تسوّل بأدبه وانحط به ، وعرف هؤلاء بالمكدين وكانوا يستخدمون حيلاً مختلفة لابتزاز الأموال .

وأدى بؤس هذه الطبقة إلى أن كثر فيها اللصوص ممن عرفوا بخطرهم وشدة فتكهم حتى أزعجوا أهل بغداد وأقضوا مضاجعهم وكانت لبعض رؤسائهم أخلاق الفرسان ، وكأنما كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية [1] .

وإذا كانت طبقة العامة قد استغلت استغلالاً بشعاً ، وقتر عليها رزقها تقتيراً فإنها أيضاً لم تنعم بالأمان في أوقات كثيرة ، ولم تحظ بحماية الدولة لها .

وما ذكره المؤرخون عن حال أهل بغداد أيام فتنة الأمين والمأمون وما جرى لعامة الناس من ويلات ومخاوف دليل على ما وصلت إليه حال هذه الطبقة التي أصبحت عرضة لسيوف السلطة ونهبها واستغلالها فوق ما لاقاته من سطوة العيارين والشطار حتى اضطر من به قوة من عامة أهل بغداد لمغادرتها (وكان أحدهم إذا خرج أمن على ماله ونفسه)[2] .

ولا نجازف إذا قلنا أنه على الرغم من قوة الدولة العباسية وحضارتها وبريقها لم يشعر الناس فيها بالاستقرار والراحة وإن الأمن فيها مفقود أو يكاد أن يكون مفقوداً ، وإذا كانت الطبقة العامة قد عانت كثيراً فإن أشدها معاناة طبقة الرقيق التي تأتي في أدنى الطبقات

---

[1] ينظر : العصر العباسي الثاني ص:٦٤
[2] الكامل : ١٢٧/٤ وما بعدها .

الاجتماعية ونستثني منها من حظوا عند ذوي السلطة وأهل اليسار ، فهؤلاء قد نعموا في بلاط الطبقة الخاصة وقد كان لهم أثر كبير في المجتمع العباسي بما أشاعوه من اللهو والطرب .

وقد استكثر العباسيون من الرقيق ، وضجت بهم قصور الخلفاء وكانت بغداد من أعظم أسواق الرقيق وبها شارع يسمى شارع دار الرقيق .

واشتهر من الرقيق الخدم الذين كان أكثرهم من غير المسلمين والذين يؤسرون في الحرب أو يشترون من الأسواق ، وكانوا من جنسيات مختلفة .

ومنهم من بلغ مرتبة عظيمة مثل الربيع بن يونس مولى المنصور ، أو أمراء الأتراك الذين اشتراهم المعتصم فسيطروا بعد ذلك على مقاليد الحكم وأضحى حكم الخلفاء حكماً صورياً ، وكان رقيق النساء أكثر من رقيق الرجال ، وقد ازدحمت بيوت بغداد بالإماء ، وكان الرجال يفضلونهن على الحرائر لأنهن من مختلف الأمم ، والجمال فيهن أوفر ، والحسن أتم والرجال يرونهن ويعرفون من جمالهن وأخلاقهن ما يريدون معرفته فهن معروضات في أسواق النخاسة ويختلطن بالرجال أما الحرة فهي محجبة ممنعة من نظر الرجال إليها ، ومن أقوال العرب المشهورة "الأمة تشترى بالعين ، وترد بالعيب ، والحرة غل في عنق من صارت إليه "(١) .

وامتلأت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وذوي الثراء بالإماء وترجع كثرتهن إلى أن الإسلام أحل للشخص أن يتملك من الإماء والجواري ما شاء ويقال إنه كان للمتوكل (أربعة آلاف سرية وطئهن كلهن)(٢) .

(1) ضحى الإسلام ١٠/١
(2) مروج الذهب : ١٢٢/٤

وكان في دار الرشيد (من الجواري والحظايا وخدمهن وخدم زوجته وأخواته أربعة آلاف جارية)[١] .

وعرف النخاسون ما يحتاجه السوق وما يرغبه القوم وما تتفق عليه الأذواق فاهتموا بشأن الجواري اهتماماً بالغاً واعتنوا بتنشئتهن تنشئة جامعة لرغبات الذائقة الجامحة التي يدفع أصحابها أموالاً طائلة لشراء أمثال هذه الجواري التي يرون فيهن مثلاً أعلى للجارية التي توافق كل الأهواء .

وقد ترك الخلفاء والسادة لرقيقهم حرية الديانة ، فقد روى الطبري أن المهدي (دخل بعض دوره يوماً فإذا جارية له نصرانية وإذا جيبها واسع وقد انكشف عما بين ثدييها ، وإذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع فاستحسنه فمد يده إليه فجذبه فأخذه فولولت على الصليب فقال المهدي في ذلك :

يوم نازعتها الصليب فقالت ويح نفسي أما تحل الصليبا)[٢]

وكانت بيوت أهل بغداد وغيرها لا تخلو غالباً (من رقيق جارية أو غلام وأنهم من أجناس مختلفة وديانات مختلفة وثقافات مختلفة)[٣] .

ومن هؤلاء الرقيق الخصيان الذين يجلبون إلى الإمبراطورية الإسلامية من البلاد المجاورة لها ، ويباعون في أسواق الرقيق ، ولم يكن الخصاء يتم في البلاد الإسلامية لأن الدين الإسلامي حرمه حفظاً لإنسانية الرجل واحتراماً لآدميته ، وقد كثر هذا النوع من الرقيق في البلاد

---

(1) البداية والنهاية : ٤٣/١٤
(2) تاريخ الطبري : ٥٩٢/٤
(3) ضحى الإسلام ٨٩/١

الإسلامية كثرة مفرطة ، وكانوا يتعرضون لمضايقة بعض الجهلاء وأذاهم ، واستغلهم بعض الفسقة استغلالاً سيئاً يدل على انحراف وشذوذ في الطبيعة .

وأدى ذلك إلى ظهور الجواري الغلاميات ، ويرجع سبب ظهورهن إلى أن زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد لما رأت شغف ابنها الأمين بالخدم واشتغاله بهن (اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق فماست قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن إليه فاختلفن في يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن وأبرزن للناس من الخاصة والعامة ، واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات)[1] .

ولم يكن أثر الرقيق والجواري خاصة أثراً بسيطاً في المجتمع العباسي ، ولعل أبرز هذا الأثر انتشار الغناء في هذا العصر انتشاراً كبيراً حيث اتجه القائمون على أمر الإماء بتعليمهن الغناء وحرصوا على إجادتهن له لأن المجتمع العباسي احتفى احتفاء واسعاً بهذا الفن (فترى المغنين والمغنيات في المحال العامة وفي الشوارع وفي قصور الخلفاء وفي بيوت الأغنياء والفقراء ، ونما ذوق الناس في الغناء نمواً غريباً وملئت الكتب بالحكايات عنه ،وشغف الناس به حتى ليغن مغن على الجسر فيجتمع السامعون حوله ويخاف من سقوط الجسر بهم ، وحتى كان بعضهم يكاد ينطح العمود برأسه من حسن الغناء ، ولم يتحرج الخلفاء ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغني بها)[2] .

---

[1] مروج الذهب : ٣١٨/٤

[2] ضحى الإسلام ٨٩/١

ولم يقتصر أثر الجواري على الغناء وحده بل كانت بيوت القيان هي التي (تقدم الخمر والغناء وتيسر لمرتاديها الكثير من أسباب الفساد والانحلال وتهيئ لهم كل ما يمكن أن يحصل عليه متمرد على القيم الاجتماعية خارج على المبادئ الخلقية في بحر من الفساد أمواجه خمر وقيان وغلمان وعزوف وسكر ورق ومجون)[١] .

واشتد المجون في العصر العباسي وكثرت أسبابه فقد عب القوم الخمر عباً وشربوها خفية وجهراً وقد يكون انتشار الشراب في هذا العصر (بسبب الأثر الفارسي والتساهل الديني إلى حد ما والرغبة في الاستمتاع بمكتسبات الحضارة ولذاتها في وقت ازدهرت فيه الحياة وتدفقت الأموال وعاش الناس في بحبوحة ينشدون اللذات أنى وجدت ، ومنها بل على رأسها لذة الشراب)[٢] .

واهتم الشعراء العباسيون بمجالس الخمر وصفتها والأواني التي تقدم بها وطقوس تقديمها واختيار الندماء .

وإذا كان أبو جعفر لم يظهر لنديم قط ولم يره أحد يشرب غير الماء فقد (كان أصحاب المهدي يشربون عنده النبيذ)[٣] لا يمنعهم من ذلك ولكنه لا يشرب مثلهم .

ولم تفلح محاولات وزيره يعقوب بن داود في صده عن ذلك ، وقد قال لـــه (أبعد الصلوات في المسجد تفعل هذا ؟ فلم يلتفت إليه ، وفي ذلك يقول الشاعر للمهدي :

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً   وأقبل على صهباء طيبة النشر)[٤]

---

(1) الشعر والشعراء في العصر العباسي : د. مصطفى الشكعة ص: ١٨٧-١٨٨
(2) في الأدب العباسي ص : ٩٩
(3) الفخري ص: ١٤٨
(4) المصدر السابق ص: ١٤٨

والهادي أول خليفة عباسي عاقر الخمر[١] ثم نهج نهجه معظم الخلفاء العباسيين ولعلهم كانوا يشربون النبيذ الذي قد أفتى بعض علماء العراق بحل بعض أنواعه ، وإن كان بعض الخلفاء العباسيين قد عكف على شرب الخمر كما فعل الأمين [٢] ، وكان المتوكل يشرب بحضور ندمائه وقد سكر سكراً شديداً في الليلة التي قتل فيها[٣] ، كما كان (المعتمد مشغوفا بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي)[٤] .

وإذا كانت بيوت الخلفاء قد غدت ملاهي ليلية وكأنها مقاصف للشراب والغناء فإن بيوت الأمراء والوزراء وعلية القوم لم تكن أكثر حشمة ولا أقل صخباً ، وكان لمجالس المنادمة والشراب والطرب لون خاص ، فقد ذكر صاحب الفخري أن (جعفر بن يحيى البرمكي جلس يوماً للشرب وأحب الخلوة فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم وجلس معهم وقد هيأ المجلس ولبسوا الثياب المصبغة وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر . . . ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات وخفقت العيدان)[٥] .

وقد بلغ الانحلال والتهتك حداً كبيراً وهذه الفوضى الأخلاقية لم تكن سمة أصيلة من سمات مجتمع عربي كان يمنعه قبل الدين حياء وسعي إلى مثالية طمحوا إليها وتفاخروا بها .

ولكن هذه الحضارات الوافدة قد أثرت أثراً غير قليل في المجتمع العباسي الذي (ورث كل ما كان في المجتمع الفارسي من أدوات لهو ومجون ، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة

---

(1) ينظر الطبري : ٦١٣/٤ وما بعدها .
(2) المصدر السابق : ١١٣/٥ وما بعدها .
(3) مروج الذهب : ١٢٠/٤
(4) المصدر السابق : ٢٢٠/٤
(5) الفخري ص : ١٦٦

العباسية من حرية مسرفة ، فإذا الفرس المتصرون يمعنون في مجونهم ويمعن معهم الناس ، فقد مضوا يعبون الخمر عبّاً ويحتسون كووسها حتى الثمالة ، وحاكاهم من عايشوهم حتى أصبح الإدمان عليها ظاهرة عامة)[١] .

واندفع الشعراء إلى التغني بالخمر والمجاهرة بها إذ وجدوا بيوت القيان تفتح لهم أبوابها وعثروا على بغيتهم في الحانات التي كانت منتشرة في بغداد والكوفة والبصرة والتي كانوا يقصدونها ويقضون فيها أوقاتهم مطرحين الحشمة والوقار ، متهالكين على الشراب مغتربين عن ذواتهم الأصيلة التي فقدوها في لحظة رغبات جامحة انساقوا وراءها حتى الضراعة ، ومثلما وجدوا بغيتهم في بيوت القيان والحانات وجدوها في الديارات وربما وصلوا أيامهم بلياليهم وهم سكارى لا يفيقون ، وعاشوا في جوٍّ أبعد ما يكون عن كرامة الإنسان ورفعته وفقدوا غاياتهم وأهدافهم .

وقد صارت "الخمريات" فنّاً شعريّاً طاغياً احتشد له الشعراء ولونوه برؤاهم وهي رؤى تختلف عن رؤى الشاعر الجاهلي والأموي الذي كانت الخمرة تجعله أسداً لاينهيه اللقاء، وأميراً يجر ذيله خيلاء، لكنه في العصر العباسي ذو رؤية مختلفة فهو يشرب الخمر ليواصل سقوطه واغترابه عن كبريائه وأصالته إذ تقتل الخمرة فيه كل معاني السمو .

وأبو نواس وجماعته دعوا مجاهرة إلى شرب الخمر ومعاقرتها وأعلنوا دعوتهم للملأ ضاربين بكل قيم مجتمعهم عرض الحائط [٢] :

وإن قالوا حرام قل حرام ولكن اللذاذة في الحرام

(1) العصر العباسي الأول ص ٦٥
(2) الديوان ص: ٤٧٦

هـذه الدعـوة الإباحيـة لا تكتمـل خيـوطها في نظر هـؤلاء الماجنين إلا إذا أعلنت للمـلأ وكأنهم في مجتمع لا يحكمه دين ولا يخضع لأخلاق ، ويشعر المتتبع لأخبارهم أنهم يقودون موجة تحد سـافر ضد كل القيم والأعراف السليمة ويعمدون إلى المواجهة دون مواربة ولا خجل ، فأبو نواس يقول [١]:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر   ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهر

وإذا كان الخمر الشرارة الأولى لما بعده من آثام فإنهم لم يتورعوا عن السقوط في كل ما يطفئ لهيب رغباتهم الجامحة خاصـة أن الحضارات الوافدة قد انطوى بعضها على مذاهب إباحية ودعوات إلى التحلل الخلقي ، فالمهدي عندما أوصى الهادي بتتبع الزنادقة ذكر له أن المانوية تبيح (نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق)[٢] .

فالمجتمع العباسي يعج بالزنادقة والملاحدة الذين كانت لهم عقائدهم المنحرفة . وربما كان الأثر الفارسي في هـذا الجانب أكثر من غيره لأن البلاد الفارسية عرفت بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية منذ القدم وبعضها موغل في شذوذه عن الطبيعة السليمة .

ومن هـذه المذاهب ما نجده عن طائفة المحمرة إحدى فرق الخرمية الذين اتبعوا مزدك القديم وقد أمرهم (بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط ، ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ، ولا يمنعه . ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم إذا أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شيء

---

(1) المصدر السابق ص: ٢٠١

(2) تاريخ الطبري : ٦١٢/٤

يلتمسه كائناً ما كان)[1] .

وهناك الخرمية البابكية الذين ينسبون لبابك الخرمي الذي ثار على الخليفة العباسي المأمون وامتدت فتنته إلى أيام المعتصم وهؤلاء يبيحون (المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به)[2] .

وعموماً فهذه المذاهب تبيح النساء كلهن وسائر المحرمات ، ووسط هذا الكم الهائل من الأموال المتدفقة وتراكم الثقافات وتزاحم الحضارات التي وفدت جالبة معها مذاهب إباحية منحرفة لا تقف عند حدود ، اندفع كثيرون إلى ملذاتهم لا يمنعهم منها دين ولا حياء ، وسادت غريزة بهيمية أطلق لها العنان فاجتاح سيلها الجارف كل القيم الإنسانية ، وسهل لهم طريق الشهوات والآثام تلك الفاتنات من الجواري والقيان ، وكن من أمم مختلفة جلبن للخدمة واستخدمن في غير ما جلبن لـه فأصبح طريقهن مملوءاً بالمغريات واتخذن وسائل لصيد الرجال وإغرائهم ، ولم يكن لهن رأي في هذا الأمر إذ دفعن إليه دفعاً وأعددن لهذه المهمة إعداداً يتناسب مع رغبات السوق ، ومنهن من جئ بها من بلدها صغيرة فعلمت كل الفنون التي تجعل منها سلعة ثمينة يتهافت الأثرياء عليها ، ولم يشعرن بإنسانيتهن لأنهن في أيدي وحوش نهمة استغلوا مواهبهن بل أعراضهن أيضاً لتكون مصرفاً يضخ الأموال التي تتكدس في خزائنهم ، وإذا كن في وسط لا يعرف إلا المال واللهو والعبث وهن وسائله ، فلا غرابة إذا لم يشعرن بقيمة إنسانيتهن وكرامتهن إذ أريد لهن أن يصبحن سلعاً تباع وتشترى وانسقن مع هذا التيار فنفذن مهمتهن بنجاح فائق واتخذن كل وسائل الأغراء وتفنن بالحيل التي يجذبن بها قلوب الرجال .

(1) الفهرست : ابن النديم ص: ٤٧٩
(2) الدولة العباسية ص : ١٩٧

وكانت الواحدة من هذه القيان تلعب بمن يصاحبها من الرجال كيف شاءت (وربما شاركت صاحبها في البلوى حتى تأتي إلى بيته فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون من الاجتماع ويتغايرون عند الالتقاء ، فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى وتغمز هذا بذلك ، وتكتب إليهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالآخرين وحرصها على الخلوة به دونهم ، فلو لم يكن لإبليس شرك يقتل به ولا علم يدعو إليه ولا فتنة يستهوي بها إلا القيان لكفاه . . . وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ وهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث . . . وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد و لايرجع منه إلى ثقة لا دين ولا صيانة مروة)[١] . ويرى الجاحظ أن القيان قد أعددن لهذا الغرض ، وتفنن في سبيل الإغراء ، وكل ماهن فيه يدعو إلى الفتن والتحلل ، فالحاذقة منهن تروي (أربعة آلاف صوت فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ، وترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة ، والعشق والصبوة ، والشوق والغلمة)[٢] .

وفي ظل هذه العادات القبيحة والعقائد الدنسة المستوردة وتحلل القيان وما يقمن به من حيل لجذب الرجال الذين تهالكوا على المتع غير الحلال لم يكن غريباً أن نجد فساداً خلقياً يعم

---

(1) رسائل الجاحظ : ٢/١٣٢-١٣٣

(2) المصدر السابق نفسة

بلاؤه هذا المجتمع ، فقد انتشر الغزل الصريح الذي اعتمد على وصف الغرائز البهيمية ودعا إلى الخلاعة والفجر ، فالكوفة يشعل فتيل الفتنة فيها مطيع بن إياس وأصحابه ، والبصرة أضحت مسرحاً للمجون والعبث وكان في نسائها آنذاك (خلاعة وجرأة يرددن الشعر الخليع ويسمحن لأنفسهن أن يترددن على أماكن الشبهات ويخالطن الرجال حتى إن شاعراً مثل بشار بسمعته وفجره ولسانه الذي كان يخشاه الرجال كان يستقبل العديد من النساء في بيته مرتين في الأسبوع لكي يستمعن إلى شعره ، وكان بشار يدس في هذا اللون من الشعر السموم التي تدغدغ الغرائز وتهم الحرائر وتحطم معاني العفة عند المحصنات)[١] .

قاد بشار بن برد ورفقته موكب هذا الشعر الماجن الذي طال الحرائر قبل الإماء ودعا إلى الفساد والانحلال والهجوم على الملذات دون تورع ولا ترقب ، يقول بشار [٢] :

لا خير في العيش إن كنا كذا أبداً	لا نلتقي وسبيل الملتقى نهج
قالوا حرام تلاقينا فقلت لهـــم	ما في التزام ولا في قبلة حرج
من راقب الناس لم يظفر بحاجته	وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

ويقود حملة أخرى أشد خطراً وأبعد أثراً ، إذ يدفع بالفساق إلى الإلحاح في مراوغة الحرائر وعدم اليأس من صمودهن فهو يرى أن صعبهن سهل [٣] :

قاس الهموم تنل بها نجحـا	والليل إن وراءه صبحـــــا
لا يؤيسنك من مخبــــأة	قول تغلظه وإن جرحـــــا

(1) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص:١٣٠-١٣١
(2) الديوان ص: ٢٣٥
(3) الديوان ٢٤٥

عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحا

وتجاوز مجون هؤلاء المتحررين الغزل المكشوف إلى الغزل المذكر ، إذ انصرف مجانهم إلى التعلق بالغلمان وجاهروا بهذه الفاحشة التي تدل على ما وصلت إليه الحال من تحلل أخلاقي وشذوذ ينافي الفطرة ولا تقره الشرائع .

ومكمن الخطورة في هذا التحرر والانحراف أن هذه الظاهرة أصبحت مألوفة عند مجانهم بل تورط فيها بعض من يؤمل فيهم محاربة الفساد والانحراف فقد رأينا أن الأمين وهو من الخلفاء العباسيين الذين استمدوا قوتهم من زعامتهم الدينية تردى في هذه الحفيرة ، وقد فاضت كتب الأدب بذكر القصص المشينة التي تحكي المغامرات الشاذة التي كان أبطالها من ذوي النفوذ ومن الشعراء وغيرهم .

وقد تفشت هذه العادة القبيحة في المجتمع العباسي إلى درجة مخجلة وكان من أسباب انتشارها كثرة الغلمان والخصيان في هذا العصر ، وقاد لواء الغزل بالمرد والبة بن الحباب وتلميذه أبو نواس وأضرابهم من الفساق الذين أشاعوا إثمهم وأفرطوا في تمجيده وقد وجدوا ضالتهم في بعض الغلمان الذين انساقوا وراء ضلالتهم ، وكان منهم من تسقط رجولته حتى إنه يلبس لباس النساء ويتشبه بهن ، وكثر المخنثون الذين فقدوا رجولتهم وحياءهم.

وقد تجد هذه الأخلاق الشاذة من يدافع عنها ويروج لها رغم شناعتها وهذا يدل على ما وصل إليه حال بعض أهل هذا العصر ، وقد كتب الجاحظ رسالة طويلة في مفاخرة صاحب الغلمان على صاحب الجواري ، وجاء فيها ما يخجل ذكره [1]، فهؤلاء المجان لم يكتفوا

---

[1] رسائل الجاحظ ٧٣/٢ وما بعدها .

بجرمهم وإنما دعموا مجونهم بالحجج وزينوا ما قبح من أفعالهم ، وكأن هؤلاء المجان قد سلكوا سبيلاً من سبل المزدكية الإباحية دون أن يشعروا وقد يكون بعضهم زنديقاً أراد ذلك قاصداً هذا المذهب مستبطنناً عقيدته الدنسة التي يخفيها خوفاً من سلطان الدين ، ولكنه يعمل لها كل ما يمكنه فعله .

وإذا علمنا أن (الخلاعة والانحراف والتحلل أولى الخطوات إلى الزندقة ، والمجاهرة بالفاحشة بداية الطريق إليها) لا نستغرب بعد ذلك أن يجرد الخلفاء السيف في الزنادقة ويرفعوا فيهم الخشب لتفاقم دائهم .

ولا شك في أن الزندقة فارسية الأصل والنشأة ، فبلاد الفرس كانت تزخر بعقائد غريبة تأصلت في نفوس أبناء هذه البلاد ونقلوا كثيراً منها معهم بعد أن دخل منهم عدد كبير في الإسلام وأصبحت لهم صولة وجولة في العصر العباسي ، ودعم ذلك أن المسلمين عاملوا المجوس معاملة أهل الكتب السماوية ، وقد عقد ابن النديم باباً في كتابه الفهرست لهذه الديانات المنحرفة والتي يرد معظمها إلى أصل فارسي ، وألمح إلى أن الزنادقة هم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة وأنهم منظمون ولهم رؤساء كابن أبي العوجاء وصالح بن عبد القدوس ولهم كتب مصنفة في نصرة مذاهبهم ، وأن كثيراً من كبار رجال الدولة العباسية منهم ، حتى قيل إن البرامكة بأسرهم إلا محمد بن خالد بن برمك كانوا زنادقة ، وغيرهم كثيرون ، ومن شعرائهم بشار بن برد ، وسلم الخاسر ، وعلي بن الخليل وغيرهم [1]، وقد بلغ المأمون خبر عشرة من أصحاب ماني فطلبهم وحملوا إليه فدعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم صورة ماني

---

[1] ينظر : الفهرست ص : ٤٧٣

فأمرهم بالتفل عليها والبراءة منها فأبوا فقتلهم [١]، وهذا الخبر وإن كان يدعم رأي ابن النديم في أن المانوية زنادقة ، فإن ذلك لا يعني أن كل الزنادقة من المانوية وإن كان أكثرهم منها (غير أنه بجانبهم فئات أخرى كانت تعتنق ديانات فارسية قديمة كالمرقونية والديصانية والمزدكية ، وكان كل من يعتقد بملة من هذه الملل يعد زنديقاً)[٢] .

وقد تطلق كلمة الزنادقة على المانوية وهم يريدون بها أهل ملتين فأكثر من هذه الملل الفاسدة ، وربما خلطوا بينها لأنها تلتقي في بعض انحرافاتها وشذوذها ، فالمهدي عندما شعر بخطرهم الشديد أوصى ابنه الهادي فقال : (يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة – يعني أصحاب ماني – فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين)[٣] .

فالمهدي قد يكون قصد الزنادقة جميعاً ولم يرد أصحاب ماني بعينهم وقد يكون خلط بين هذه الملل المنحرفة فلم يجد بينهم فرقاً كبيراً .

---

(1) ينظر : مروج الذهب ٤/ ٩-١٠

(2) الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول : د. حسين عطوان ص: ١٣-١٤

(3) تاريخ الطبري : ٤/ ٦١٢

فالوصية السابقة جمعت بين المانوية والمزدكية ، لأن المانوية لا تحرم أكل اللحم ولا ذبح الحيوان ولا تدعو إلى الإباحة ، أما المزدكية فهي التي تحل ذلك لمنتحليها [١] ، وتجعله مشاعاً بينهم حتى تصل إلى إباحية مفرطة في تناول اللذات وبلوغ الشهوات ومشاركتهم في الحرم والأهل ، ولا يمنعون ضيفهم من شيء يلتمسه كائناً ما كان [٢]، وجعلوا نساءهم شركة بينهم .

وقد كان سوق الزندقة في البصرة رائجاً ، إذ كانت مرتعاً للأفكار المتحررة ومنبتاً للعقائد الفاسدة وقد عم هذا البلاء مدن العراق الأخرى فعاث فيها فساداً ، وهيأ لها أن العراق يضم أجناساً مختلفة من البشر متناقضة في دياناتها وثقافاتها وعاداتها ، وفوق ذلك اشتدت فيه حركة علمية كانت في بعض جوانبها فكرية فلسفية اعتمدت على الجدل وإثارة الشكوك ، وجرت كثيراً من الذين دخلوا في هذه الدائرة إلى الشكوك والإلحاد، خاصة أن بعضهم لا يملك وعياً دينياً يحميه من الوقوع في مثل هذه المتاهات .

وأغلب زنادقة هذا العصر من الفرس ، وكان منهم بعض الوزراء والكتاب والمثقفين مما ساعد على تغلغل هذه الانحرافات داخل المجتمع العباسي، وقد قال عبد الكريم بن أبي العوجاء لحظة تنفيذ إعدامه لاتهامه بالزندقة (أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام والله لقد فطرتكم في يوم صومكم ، وصومتكم في يوم فطركم)[٣]، ولم يكتفوا بالمجاهرة بانحرافاتهم والوضع في الدين بل حرصوا على نشر دياناتهم الفارسية القديمة والترويج لها عن طريق ترجمتها إلى اللغة العربية ودسها بين الناس مما جعل

---

(1) ينظر: الزندقة والشعوبية ص: ١٤

(2) ينظر : الفهرست ص : ٤٧٩

(3) تاريخ الطبري : ٥٠٨/٤

الخليفة المهدي يقول (ما وجدت كتاب زندقة قط إلا أصله ابن المقفع)[1] ، وكان منهم من عرف بسعة الحيلة فلجأ إلى بث أفكاره الهدامة عن طريق تزيين الشهوات للناس وخاصة الشباب ، وكانت دعوات شعرائهم واضحة في هذا الجانب إذ اندفعوا مجاهرين في إغراء الشباب في الانغماس في المعاصي والتعهر وشرب الخمر والغزل المكشوف واللواط واستباحة الحرمات وغير ذلك ، وإن انتبه الناس إلى خطر الزندقة في الأفكار الدينية وحاربوها فقد خدع أكثرهم في التوصل إلى حقيقة ما هدف إليه هؤلاء الخبثاء في دعوتهم الإباحية وظنوا أن هذه الدعوة المفرطة في تهتكها إنما كانت لإشباع رغبات وشهوات هؤلاء المجان ، بينما كان الهدف الأول منها تحلل المجتمع الإسلامي وتدميره .

وما ذكرناه من مجون وزندقة في المجتمع العباسي كانت (نتيجة حتمية لهذه الثقافات الأجنبية الزاخرة بالفلسفات والمنطق وعلم الكلام المليئة بالمذاهب والنحل المختلفة التي غزت الفكر العربي في القرن الثاني فجعلته في حالة شك مؤقتة أو مستمرة أحياناً عند بعض الشعراء، وانضاف ذلك كله إلى عوامل سياسية واجتماعية)[2]فقويت هذه التيارات المنحرفة .

ولكن المجتمع العباسي لم يكن كله مجوناً وزندقة بل كان في الجانب الآخر منه ورعاً وتقى وعلماً وأدباً رفيعاً ، وكان فيه رجال أخلصوا لأمتهم وباعوا أنفسهم في سبيلها وضحوا بملذاتهم من أجل صلاح آخرتهم ، وكان هناك تيار آخر جاء رد فعل لتيار المجون والزندقة وهو تيار الزهد ، إذ فضل بعضهم الانسحاب من المجتمع وانكفأ على نفسه ، ليعيش في عزلة من ذلك العالم المتحلل ، ويقبع في غربة فصلته عما يدور حوله من أحداث .

---

(1) خزانة الأدب : ١٧٩/٨

(2) ينظر : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ص : ٢٩٩

والزهد في نظر الإسلام (أسلوب من الحياة يحياها المؤمن وموقف خاص من الدنيا وزخرفها وشهواتها ولذاتها ومن النفس ومطامعها ، وأخذ الإنسان نفسه بالمجاهدات الروحية والبدنية)[١] .

وإذا كان الإسلام دعا إلى الزهد في الدنيا وعدم الانغماس في الشهوات والإفراط في حب الدنيا فإنه لم يدع إلى الرهبنة والانقطاع إلى العبادة والتواكل وهجر الحياة الاجتماعية ولم يحرم التمتع بالحلال من أمور الدنيا[٢] .

ولأن هذا التيار جاء ردة فعل قوية لموجة المجون والزندقة والعبث التي اجتاحت المجتمع العباسي فقد جاء قوياً مس كل الطبقات فقيرها وغنيها ، صالحها وماجنها .

وإذا كان الزهد في أساسه دينياً فإن هناك عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية ساهمت في انتشاره كما أشار إليها الدكتور محمد مصطفى هدارة [٣] ، فالصراع السياسي وتطاحن الأحزاب في العصرين الأموي والعباسي جعل شريحة كبيرة من الناس تبحث عن النجاة في عزلة بعيدة عن هذا الصراع ولم يكن التطور الاجتماعي الذي حدث في القرن الثاني أقل شأناً في تطور حركة الزهد التي جاءت ردة فعل عنيفة على تمادي كثير من الناس في اللهو والمجون والزندقة .

كما كان للوضع الاقتصادي أثر لا ينكر في حركة الزهد فلم تكن الفروق الطبقية طفيفة ولا متقاربة ، إذ وجدت طبقة فقيرة قنعت بالكفاف وزهدت بما في أيدي الناس في هذا

---

(1) شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة : د. علي نجيب عطوي ص: ٢٩
(2) ينظر المرجع السابق ص:٣٠
(3) ينظر : اتجاهات الشعر العربي ص: ٣٠٧-٣٠٨

العصر ، وكان سوء توزيع الثروة في البصرة أوضح منه في غيرها فكثر الزهاد فيها، كما أن تدفق الثروة على طبقات معينة أدى إلى ظهور الترف والإباحة والانغماس في اللذات المحرمة فكان (من الضروري أن توجد فئة تنعى على هذه الحياة الشاذة وترى مثلها الأعلى في الفضيلة الإنسانية وفي تجرد النفس من الشهوات والبعد عن مصادر الإغراء والفتنة)[١] .

ومما تقدم نجد أن المجتمع العباسي مجتمع حضاري التقت فيه حضارات وثقافات شتى أثرت فيه تأثيراً واضحاً إيجاباً وسلباً ، ففي جانب نجد هذا المجتمع يزخر بالعلم والعلماء والمثقفين وأرباب الفكر ويروج فيه الأدب وتدون فيه المؤلفات ويكثر فيه الفقهاء ، وفي جانب آخر نجد مجوناً وعهراً وزندقة وانحرافات شأنه في ذلك شأن أي مجتمع راقٍ تتجه إليه الأنظار من كل صوب وتتدفق عليه الأموال تدفقاً مغرياً .

ولأن كل ذي نعمة محسود فقد سعى الحاقدون إلى نفث سمومهم في صفوف هذا المجتمع ، وإذا كنّا قد ألمحنا سابقاً إلى أن المجون والزندقة استهدفتا تدمير المجتمع الفارسي فإن وراءهما حركة خطيرة خططت لشيء كثير من هذا القبيل واستهدفت العرب فرمتهم بكل معيب وذهبت في عدائهم مذاهب بعيدة . هذه الحركة عرفت بالشعوبية وهي من الوجهة التاريخية (فرقة تتعصب على العرب وتحقرها)[٢]، وهي (فكرة سياسية أدبية اتخذت الدين شعاراً لها ونشأت عنها حركات بعضها أدبي وبعضها ديني وبعضها ثوري وقد كان مبعث تلك النزعة الصراع المتصل بين العناصر الجنسية التي كانت تؤلف الدولة العربية حينذاك)[٣] .

---

(1) المرجع السابق ص: ٣٠٩

(2) الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول: د. زاهية قدورة ص: ٢٠

(3) المرجع السابق ص: ٢٢-٢٣

وإذا شاعت هذه الحركة عند الفرس الذين تولوا كبرها فإنها لم تكن قصراً عليهم (فقد امتدت إلى سائر الأمم التي أذعنت للعرب كالنبط والقبط والأندلسيين والزط من أهل السند والزنج من أهل أفريقية)[١]والهنود أيضاً .

وقد ساهم العرب في إشعال جذوة هذه النزعة الناقمة لأن بعضهم لم يتقيد تقيداً تاماً بتعاليم الإسلام التي كانت تدعو إلى المساواة بين المسلمين ، وما إن تفاجأ العربي بسيادته لقطبي العالم في ذلك الوقت فارس والروم ، حتى تبجح وتعزى بشيء من عزاء الجاهلية ونظر إلى من حوله نظرة ازدراء واحتقار ، وإذا كانت الأوساط الدينية والعلمية في العصر الأموي قد نظرت إلى هذه الشعوب نظرة مساواة ، وكان التفاضل فيها بالتقوى ، والشرف بالعلم فإن الخلفاء والولاة وأصحاب النزعات القبلية قد شعروا (بأن الدم الذي يجري في عروقهم دم ممتاز ليس من جنسه دم الفرس ، والروم ، وأشباههم وتملكهم هذا الشعور بالسيادة والعظمة فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيد إلى المسود)[٢] ، وطبقوا هذه النظرة واقعاً وكلفوا الموالي شططاً من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، وانتظر الموالي فرصة سانحة للثأر، وإذا كانوا قد أخفوا هذا الشعور في عهد بني أمية خوفاً فقد أتتهم الفرصة في العصر العباسي الذي نهض سلطانه بسيوفهم فجاهروا بشعورهم الحاقد لأنهم يرون أن (حكم العرب لهم ضرب من سخرية القدر وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم القديم وعزهم التالد ، وأنهم أهل الحضارة العظيمة ومن عرفوا كيف يسوسون الملك ويدبرون الحكم) [٣] .

(1) الزندقة والشعوبية ص: ١٤٩
(2) ضحى الإسلام ص: ٢٢
(3) المرجع السابق ص:٢٨

ومكمن خطورة هذه الحركة أنها ليست حرباً مسلحة مكشوفة يتنبه الناس لها بل هي حرب ثقافية اعتمدت على تاريخ لم يدون قبل ذلك العصر الذي اشتدت فيه هذه الحركة مما سهل مهمة الشعوبين في تزوير تاريخ العرب وتلفيق التهم واختلاق القصص المشينة وإلصاقها بالقبائل العربية ، ومن يستطع نفي التهمة إذا كان كاتب التاريخ الأول مزوراً ومصدر القصة الأصلي هو صاحب الاختلاقات . ومما ساعد على دفع حركة الشعوبية حتى (تحولت إلى ما يشبه المنظمات التي كان يشرف عليها ويخطط لها ويتعهدها ويساعدها رؤساء من الوزراء والأدباء والكتاب والشعراء من الموالي الفرس)[١] ويعلق أحمد أمين بعد أن أورد قول ابن قتيبة (ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصباً للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى) يقول أحمد أمين (يظهر أنه اقتصر على من يتظاهر بالشعوبية وهؤلاء كانوا كما ذكر ابن قتيبة أما الأشراف فكانت حركتهم سرية خفية لا يجرأون أن يظهروا بها لكبر مراكزهم وخشية من الشك فيهم عند الخلفاء فهم يؤيدون – من وراء حجاب – هذه الحركة فلا يراهم ابن قتيبة وأمثاله)[٢] فقد كان هناك من يدعم أدباء الشعوبية وشعراءها سراً بجاههم وبمالهم ، فقد ذكر أن طاهر بن الحسين أجاز علان الشعوبي بثلاثين ألفاً لأنه ألف كتاباً في مثالب العرب [٣] .

وإذا كان منهم معتدلون دعوا إلى التسوية بين العرب وغيرهم من الأمم فإن هؤلاء قد لا يصدق عليهم مسمى " الشعوبيين " وإنما هذا خاص بمن تجاوزوا الحد في بغضهم للعرب ودعوا

---

(1) الزندقة والشعوبية ص:١٤٩

(2) ضحى الإسلام ص: ٦٢

(3) ينظر : المرجع السابق ص: ٦٣

إلى احتقارهم والحط من شأنهم وعمدوا إلى مناقبهم فهدموها منقبة منقبة وقارنوهم بالأمم الأخرى فأسقطوهم وزعموا أن هذه الأمم متقدمة على العرب في كل شيء وساعدهم ما وجدوه من مهاجاة القبائل العربية بينها، فجمعوا هذه المثالب وألفوا فيها كتباً ووضعوا أحاديث مختلفة تمجد فارس [١] .

وكان منهم جهابذة قد أتقنوا العربية وحفظوا الأخبار فوظفوها لصالح نزعتهم وعلى رأس هؤلاء أبو عبيدة الذي جد في عدائه للعرب فألف الكتب في مثالبهم بل تجاوز إلى الطعن في بعض أسباب النبي صلى الله عليه وسلم [٢] ، فكان الأمر كما يقول الجاحظ (أن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات به حتى ينسلخ من الإسلام)[٣] .

وغيره كثير ممن افتخروا بأنهم أبناء الأكاسرة وأصحاب الحضارة ونعوا على العرب خشونة عيشهم وسذاجة أسلحتهم، وقد وضع الجاحظ باباً كاملاً سماه "كتاب العصا" في كتابه البيان والتبين ذكر مطاعنهم في العرب ورد عليها رداً عنيفاً [٤] .

وقد تفرغ بعض الشعوبيين لهذه النزعة وكرس جهده في هذا الجانب ، فالهيثم بن عدي ألف كتاب "المثالب الصغير" ، وكتاب "المثالب الكبير" ، وكتاب "مثالب ربيعة" ، وكتاب "من تزوج من الموالي في العرب" ، وكتاب "أسماء بغايا قريش في الجاهلية وأسماء من ولدن"[٥] .

---

(1) المرجع السابق ص:٧٤ وما بعدها
(2) الفهرست ص: ٧٩
(3) الحيوان: الجاحظ : ٧ / ٢٢٠
(4) البيان والتبين : ٣/٥-١٢٤

أما شعراء الشعوبية فقد مضوا في تحقيرهم للعرب وتمجيد الفرس ، وكان بشار بن برد (أكبر ممثل للشعوبية بينهم إذ يرسم في شعره التطور التاريخي لحركتهم مصوراً انبثاق شعورهم القومي وانبعاث تطلعهم إلى الظهور والتميز من العرب والتخلي عن الولاء فيهم)[1] ويأتي أبو نواس ليحمل معه شحناء شديدة وبغضاً للعرب جره إلى التهكم بهم وتحقيرهم مستهزئاً ببداوتهم مزدرياً حضارتهم عاقداً مقارنة تهكمية بين خيمهم وإيوان كسرى ، وربما جرته شعوبيته إلى أن يكون غزله بفتيات العرب وفتيانهم نكاية بهم وإمعاناً في طعنهم .

وغير بشار وأبي نواس شعراء كثيرون تغنوا بمجد فارس وازدروا العرب واحتقروهم .ومما تقدم نجد أن هذه الأحداث والتطورات والانحرافات التي شهدها العصر العباسي ، أدت إلى انفصال الفرد عن مجتمعه ، وتباعد ما بين هذه الأجناس ، وتنافرها ، وأوجدت هوة سحيقة تفصل طبقات هذا المجتمع عن بعضها ، فقد كان عصراً قلقاً سريع التغير ، كثير التقلبات ، شديد المفاجآت . وكان كل ما يدور فيه يدعو إلى الغربة ويدفع إلى الهاوية .

---

(5) الفهرست ص : ١٤٥-١٤٦

(1) الزندقة و الشعوبية ص: ١٦٩

ثالثاً :العامل الاقتصادي :

اتسعت رقعة البلاد الإسلامية وتزايدت مواردها المالية وتدفقت الثروات الطائلة التي كانت تأتي عن طريق الخراج والضرائب .

وقد حملت الدولة العباسية معها شعارات الدعوة إلى الإصلاح ورفع المظالم وتحقيق آمال العامة التي التفت حول دعاة الدولة العباسية رغبة في حياة أفضل ، وطامحة إلى التحرر والخلاص من ربقة الفقر التي كان عامة الناس يعانون منها .

ولا شك في أن خلفاء بني العباس الأوائل حققوا شيئاً من الإصلاح الاقتصادي خاصة في عهد المهدي والرشيد ولكن هذا الإصلاح يبقى أقل كثيراً مما ينبغي ولا يعد شيئاً مقارنة بما يصل إلى خزينة الدولة من إيرادات ضخمة ، وما حدث من تباين طبقي شديد في بنية المجتمع

ومما يحمد لخلفاء بني العباس الأوائل حرصهم على مراقبة عمال الخراج والسيطرة عليهم وعزلهم إذا كان هناك أية شبهة في اختلاس مالي ، وهذا ما لا نجده في عصر الخلفاء العباسيين الذين جاءوا بعدهم وخاصة في فترة سيطرة الأتراك على مقاليد الدولة .

وإذا كانت الثورة العباسية حققت أمل بعض أنصارها ممن كان لهم في هذا العصر نفوذ وسيطرة فإنها لم تحقق أمل الجماهير العريضة التي لم تجد فرقاً كبيراً بين هذه الدولة وسابقتها[1]:

فليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

فلم (تكن أموال الدولة موزعة توزيعًا متقاربًا ، ولا كانت الفروق الطبقية طفيفة، إنما كانت هناك هوات سحيقة بين الطبقات، فكثير من مال الدولة ينفق على تطور الخلافة والأمراء

---

(1) الأغاني ٣٣٣/١٧ والبيت لأبي عطاء السندي .

ورؤساء الأجناد، وعمال الدولة. وهم ينفقون منه جزافًا على المقربين من أدباء وعلماء ومغنين وجوار وأتباع، وطبقة تجار ومن إليهم هؤلاء في درجة من الثروة دون الأولى. وعامة الشعب يفشو فيهم الفقر والبؤس)[1].

وقد انقسم المجتمع العباسي إلى طبقتين متمايزتين كل التمايز:

طبقة خاصة مرفهة مترفة استبدت بأموال الدولة، وانغمست في الترف إلى حد البذخ، واستأثرت بمختلف الخيرات.

وهذه الطبقة تضم الخليفة والوزراء والأمراء وقادة الجيش والتجار. وقد عاشت هذه الطبقة عيشة ناعمة لاهية، وتفننت في بناء القصور التي أنفق عليها أموالاً طائلة أرهقت خزينة الدولة كما صنع المتوكل، أو بعض الوزراء مثل جعفر البرمكي.

ولأن المال بيد هذه الفئة فقد بذلته في ملاهيها وملذاتها غير متورعة، وكأنما أموال الدولة ملك للخلفاء ووزرائهم وحاشيتهم، وغابت قاعدة (من أنى لك هذا؟).

وتبارى الخلفاء وأعوانهم في سباق عجيب في إنفاق هذه الأموال على قصورهم وموائدهم وملابسهم وفي شراء الجواري بأثمان باهظة، وفي منح المادحين والمقربين. فقد كان الشاعر ينمق قصيدته في مدح الخليفة أو الوزير أو القائد ويأخذ مقابل البيت الواحد مالاً طائلاً وتعد أبيات قصيدته ليتشكل مبلغاً خيالياً نتيجة مجموع هذه الأبيات. وتغني الجارية فيعجب بها، ويدفع لقاء شرائها ما يخجل ذكره.

---

(1) ضحى الإسلام: أحمد أمين: ١/١٢٧

وتسجل كتب التاريخ قيمة موائد رجال السلطة فترى شيئًا عجبًا ، وسرفًا يبلغ حد الهوس، كماتجد بذخًا فاحشًا في حفلات أعراسهم.

جاء هذا كله على حساب الشعب وعامة الناس الذين يشكلون الطبقة الأخرى في المجتمع العباسي ، وهذه الفئة كانت تكدح وتجهد لتحصل على لقمة عيشها من دون جدوى . وقد تتعجب إذا عرفت أن هذه الفئة قد تضم أساطين العلم والفكر في هذا العصر كالفقهاء والعلماء والأدباء، فأحمد بن حنبل جاع حتى غارت عيناه، وكان يتعفف عن الأموال التي تأتي من الخليفة لأنه يراها أخذت في غير حق.

ومن يذهب إلى تصنيف المجتمع العباسي إلى فئتين من الناحية الاقتصادية سيكون مجبرًا بدون شك على أن يضم طبقة العلماء والفقهاء وكثيرًا من الأدباء إلى الطبقة الثانية في المجتمع العباسي جنباً إلى جنب مع عامة الناس .

وقد صور ابن المعتز ما بين هاتين الطبقتين من تباين في قوله [1] :

أفما ترى بلداً أقمت به   أعلى مساكن أهله خص

وولاته نبط زنــادقــة   ملأى البطون وأهله خمص

امتلك الخلفاء ثروات أسطورية يدل عليها عطاؤهم الذي فاق الوصف ومنحهم التي يشك المرء في مصداقيتها لضخامتها لولا أن مدوني ذلك العصر يكادون يجمعون على تسجيل هذه المواقف ، ولا شك في أن خلفاء بني العباس الأوائل أغنى الملوك الذين عرفهم عالم العصور الوسطى .

---

(1) الديوان ص : ٢٨٥

وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل إن هؤلاء الخلفاء مكنوا وزراءهم من أموال الدولة فعبثوا بها كيف شاءوا ، فالثروات التي حازها البرامكة وبنو سهل وبنو طاهر لو وزعت على الشعب كله لأغنته ، ولم تكن هذه الثروة التي حصل عليها هؤلاء الوزراء والأعوان لتجارة جنوا ربحها بل هي أموال الدولة التي كانت حقاً لعامة الشعب ولكن هذه الفئة استأثرت بها لأنفسها بمباركة من الخلفاء ، ومن الطريف ماروي عن المأمون أنه قد قلّ المال عنده حتى ضاق ، فجاءه بعض خراج ولاياته وكان أكثر من ثلاثة ملايين فوزعه على أصحابه ورجله في الركاب (١) ، ومثل هذا الموقف كثير .

وقد يستأثر رجل واحد بالأموال ، ففي عهد المستعين أخذ أتامش أكثر ما في بيوت الأموال وكانت الموالي تنظر إلى الأموال تؤخذ وهم في ضيقة فأغراهم ذلك بقتله .

ويتعدى الأمر رجال الدولة إلى النساء فقد أغتنت قبيحة والدة الخليفة المعتز غنى فاحشاً وضنت بمالها على ولدها عند مساومة قادة الأتراك له مما كان سبباً في مقتله ، وقد عثر على أموال طائلة قد ادخرتها وجواهر ثمينة (٢) .

وقد ظهرت في هذا العصر إقطاعيات عظيمة ملكت مساحات كبيرة من الأرض تدر عليها أموالاً طائلة ، وجلبت لها رقيقاً يعمل فيها فوق طاقته مقابل قوت يومه ، وقد منح الخلفاء هذه الإقطاعيات للطبقة التي مكنت من أموال الدولة مكافأة لهم على بعض أعمالهم أو رغبة في تكريمهم ، وكانت من حظ الوزراء والأمراء وسادة القوم .

---

(1) تاريخ الطبري : ١٩٨/٥
(2) الكامل : ٣٥٩/٤

وقد كان لبعض الوزراء من هذه القطائع نصيب الأسد حيث ذكر أن للبرامكة ولأصحابهم الذين أنعموا عليهم من القرى والضياع ما لم يكن لأبناء الخلفاء[١] ، ولم يكن الأمر في القرن الثالث أحسن حالاً منه في القرن الثاني فقد بلغ الأمر بعد سيطرة الأتراك مبلغاً سيئاً حيث اعتاد الخلفاء في هذا العهد (على إقطاع الأتراك ورجال الدولة إقطاعاً واسعاً فأصبحت معظم الأراضي في يد هؤلاء الكبار من رجال الدولة ، وهم لا يؤدون ما عليهم من ضرائب ، بل هم طامعون في أكثر مما بأيديهم)[٢] .

وقد أضر ذلك بالشعب بل وصل تأثيره إلى الأتراك أنفسهم فقد انفرد قادتهم بهذه الإقطاعات فساءت حالتهم وتأخرت رواتبهم فتحركوا وشكوا سوء حالهم إلى الخليفة المهتدي ، وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم التي قد أجحفت بالضياع والخراج وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا كثيراً من أموال الخراج[٣] ، وهذه المظاهرة السلمية كانت تعبيراً عن استيائهم من تدهور الحالة الاقتصادية لعامة الشعب ، وقد سبقها ولحقها تحركات تجاوزت المظاهرات السلمية إلى شغب حاد أو إضراب يقوم به عادة الجيش عندما تتأخر الرواتب عدّة أشهر .

ولكثرة نفقات الخلفاء وحاشيتهم وإسرافهم في صرف الأموال إسرافاً تجاوز الحد الذي يتواءم مع إيرادات الدولة على الرغم من ضخامتها لجأ الخلفاء إلى حيل يستطيعون عن طريقها إيجاد غير باب أو مصدر للدخل ، وكان من هذه الأبواب فرض ضرائب طارئة يدفعها الشعب

---

(1) مروج الذهب : ٣٩٢/٣
(2) تاريخ الخلافة العباسية : ١١٢
(3) الكامل : ٤٢١/٤

لسد ثغرة عجزت عنها خزينة الدولة ، وقد قام أبو جعفر المنصور عندما عزم على بناء سور الكوفة وحفر خندق لها بجعل ما أنفق فيها من الأموال على أهلها ، ولما أراد معرفة عددهم أمر أن يقسم فيهم خمسة دراهم لكل فرد فلما علم عددهم أمر بجبايتهم أربعين درهماً لكل واحد .فقال شاعرهم [١] :

يا لقومي ما لقينـــا   من أمير المؤمنينـا

قسم الخمسة فينا   وجبانا الأربعينـا

وقد يثور بعض أهل الأمصار احتجاجاً على ثقل الخراج كما فعل أهل قم عندما خلعوا المأمون فكانت ضريبة فعلتهم أن دفعوا أضعاف ما رسم عليهم[٢] .

وقد وصل الأمر إلى أبعد من هذا فقد احتاج الخليفة المتوكل في سنة ٢٤٥هـ مالاً كبيراً لبناء قصره الجعفري ومدينته المتوكلية فسمى لـــه كاتبه نحواً من عشرين رجلاً ليستخرج منهم الأموال لبناء هـذه المدينة [٣] ، وكان كاتبه يقصد الإيقاع بهم ، وهـؤلاء كانوا على دواوين الدولة. وهـذه الحادثة (تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجانهم الأموال لأنفسهم ووقيعتهم بعضهم ببعض ، وكل ذلك سببـه عدم الضبط في الإدارة المالية)[٤] .

ولجأ الخلفاء أيضاً إلى مصادرة أموال من ينقمون عليه من الوزراء أو القادة أو الكتاب الذين علا شأنهم في القرن الثالث وأصبحوا يعبثون في الأموال كيفما شاءوا .

---

(1) تاريخ الطبري : ٥٠٧/٤
(2) المصدر السابق : ١٧٤/٥
(3) المصدر السابق : ٣٣١/٥
(4) الدولة العباسية : ٢٥٧

ومثل ذلك فعل الوزراء والقادة ، فكلما احتاجوا إلى المال أوقعوا بأحد خصومهم بحجة أو أخرى وصادروا ماله أو حملوه غرماً ثقيلاً .

وإن كانت هذه الظاهرة في عهد الخلفاء الأوائل تعني تنكيلاً وحطاً للمنكوب فهي منذ عهد الواثق أخذت شكلاً مادياً بحتاً واعتبرت مصدراً من مصادر دخل الدولة والخليفة وبعض ذوي السيطرة .

وقد صادر الواثق ما قيمته ألفا ألف دينار (١) ، وهو مبلغ ضخم في تلك الفترة فكان الثراء مغرياً للساعين والوشاة ، وذنباً ينتظر صاحبه عقابه .

وقد ذكر أن الموفق قبض على لؤلؤ غلام ابن طولون وصادره بأربعمائة ألف دينار وسجنه فكان لؤلؤ يقول: ليس لي ذنب إلا كثرة مالي (٢) .

وهذه المصادرات كانت تهدف في العصر الأول إلى القضاء على قوة الخصم وإحباطه ، وقد أمر أبو جعفر المنصور قائده عيسى بن موسى أثناء محاربة محمد بن عبد الله بن الحسن بقبض مال من يلقاه من آل أبي طالب ، وكان جعفر الصادق قد تغيب عنه فقبض ماله ، ولما قتل محمد قبض عيسى أموال بني الحسن كلها (٣) .

وقد طال هذا العقاب أقرب الناس إليهم فقد عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغضب عليه وغرمه مالاً (٤) .

---

(1) تاريخ الخلافة العباسية : ١١٤

(2) البداية والنهاية : ٦٠٦/١٤

(3) الكامل : ٥٧٣/٣

(4) المصدر السابق : ٥٧٩/٣

وكان المنصور قد شرع هذا الباب على مصراعيه لمن بعده واستكثر فيه حتى أفرط ، ولم يسلم منه أحد سواء أكان خصماً أم مقرباً غضب عليه .

وقد ألزم خالد بن برمك بثلاثة آلاف ألف درهم ونذر دمه فيها ، وأجله ثلاثة أيام بها ، وكان يهدف من ذلك إلى تعجيزه وقتله [١] ، ورغم معارف ابن برمك وعلاقاته الواسعة فقد عجز عن تأمين هذا المبلغ كاملاً فسامحه الخليفة بما تبقى منه بعد أن احتاجه لسد إحدى ثغرات الدولة .

وكان إذا عزل عاملاً أخذ ماله وتركه في بيت مال مفرد سماه بيت مال المظالم [٢] وسلك من بعده من الخلفاء مسلكه .

ومن أكبر المصادرات التي تمت في هذا العصر تصفية أموال البرامكة عند نكبتهم في عهد الرشيد، وكانوا قد حازوا أموال الدولة ، وأنفقوا منها على أصحابهم وعلى الشعراء الذين لزموا أبوابهم وعلى لذاتهم أموالاً طائلة ، وكانت خزائنهم تزدحم بالأموال الضخمة ، فلما نكبهم الرشيد أخذ أموالهم وضياعهم [٣] .

ولم يكن هذا الأمر وقفاً على الخلفاء فقد كان الوزراء والقواد يسلكون هذا الطريق ، فعندما حاصرت جيوش طاهر بن الحسين بغداد أثناء تضييقه على الأمين قبض طاهر ضياع من لم يخرج إليه من بني هاشم والقواد وغيرهم وأخذ أموالهم [٤]، واستمرت هذه الظاهرة حتى

---

(1) تاريخ الطبري : ٥٠٧/٤

(2) الطبري : ٥١٣/٤

(3) الكامل : ٦٨/٤

(4) المصدر السابق : ١٢٦/٤

أوشكت أن تكون عادة ولكنها في القرن الثالث نحت منحى آخر فالمصادرة ليست من أجل حط قيمة الخصم وإنما كان هدفها مادياً بحتاً .

ففي هذا العهد اضطربت خزينة الدولة ولم يدخلها من الضرائب التي تجبى إلا أقلها لأن كتاب الخراج كانوا يستولون عليها ويوزعونها بينهم ، وقصر الخلفاء في مراقبة كتاب الخراج وتلاشت سيطرتهم عليهم مما أدى إلى إرهاق مواطني الدولة الذين يدفعون هذه الضرائب التي ضوعفت عليهم لأن الكتاب كانوا يتسابقون إلى الثراء على حسابهم .

وعندما احتاج الخلفاء إلى الأموال ووجدوا الخزينة خاوية بحثوا عن سبل تعزيز ميزانية الدولة فرأوا أن هؤلاء الكتاب قد أثروا ثراء فاحشاً في مدة قصيرة وكانت البراهين تشير إلى تورطهم في سرقة الدولة ، وطالما سمعوا من الشعب من يصرح أو يلح إلى هذه القضية [١] :

قل للخليفة يا ابن عم محمـــــد اشكل وزيرك إنه ركـال

اشكله عن ركل الرجل فإن ترد مالاً فعند وزيرك الأموال

وكانت النتيجة تعرض هؤلاء الكتاب للنكبات والتعذيب ومصادرة أموالهم[٢]، وكان حظهم عناءً بعد راحة وفقراً بعد غنى .

وقد يسلكون في تعذيبهم سبلاً شتى ، فقد غضب القائد التركي صالح بن وصيف على أحمد ابن إسرائيل وضربه واستصفى ماله واستمر في تعذيبه حتى مات [٣] ، وتجاوز صالح بن وصيف حداً بعيداً في مثل هذه الأساليب ، فقد طارد أم المعتز لما علم بثرائها الفاحش حتى

(1) مروج الذهب : ١٣٢/٤
(2) الفخري : ١٩٢
(3) الفخري ص ١٩٨

استطاع أن يصل إليها فصادر أموالها بعد أن سلك معها مسلكاً شائناً وقد سمعت وهي تدعو عليه فتقول [١] : (اللهم أخز صالح بن وصيف لما هتك ستري ، وقتل ولدي ، وبدد شملي ، وأخذ مالي ، وغربني عن بلدي ، وركب الفاحشة مني) .

ولم تعد المصادرات غريبة لأن ذلك أصبح دأب ذوي السيطرة وكان من يثري أو يرتقي هذه المناصب ينتظر دوره مصادراً أو مصادراً منه .

وشاع هذا الأمر حتى احتال بعض الوزراء والكتاب للخلاص منه بأساليب ملتوية فقد روي أن العباس بن الحسن وزير الخليفة المكتفي عندما أحس بثقل مرض الخليفة فكر فيمن يصلح للخلافة فاستشار أبا الحسن بن الفرات فأشار عليه بألاّ يولي (بخيلاً فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعاً فيشره في أموالهم فيصادرها ويأخذ أموالهم وأملاكهم ، ولا يول من عرف نعمة هذا ، وبستان هذا وضيعة هذا وعرف وجوه دخلهم وخرجهم)[٢] . وأجمع أمرهم على ترشيح المقتدر للخلافة وهو صبي صغير ولكنه وافق شرطهم .

وقد اضطرب النظام الاقتصادي خاصة في القرن الثالث مما أدى إلى انتشار الرشوة التي جلبت مفاسد اجتماعية واقتصادية كان لها ضررها البالغ .

وكان المال في العصر العباسي جديراً بحل ما استعصى من القضايا التي تواجه رجال هذا العصر ، وحرياً بفك مغاليق أسراره ، وكافياً لشراء ضمائر بعض الناس وتضحيتهم بأقرب الناس إليهم .

---

(1) البداية والنهاية : ٥٠٩/١٤
(2) الكامل : ٦٢٩/٤

يروى أن طاهر بن الحسين ارتاب من المأمون في أمر أسره عنه فرشى خادمه حسيناً بمائتي ألف درهم وكاتبه محمد بن هارون بمائة ألف لكشف ما ضن به المأمون عنه من أمره فاحتال له حسين حتى عرف له سر المأمون [١] .

ومن طريف ما يروى أن المتوكل غرم إسحاق بن سعد مبلغاً كبيراً وعندما سئل عن ذلك قال : إنه أخذ مني في أيام الواثق خمسين ديناراً حتى أطلق أرزاقي [٢] .

ومن أغرب ما في هذا التاريخ أن يرتشي العامل من أخي الخليفة حتى يطلق له أرزاقه فما الظن بغيره من أصحاب الأرزاق ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكوكهم بقبض تلك الأرزاق ؟[٣]

وقد فشت الرشوة وأحدثت فتقاً اقتصادياً من الصعب رتقه وقد أسهم في تفاقم هذه الظاهرة الخطيرة قلة ورع الكتاب وجرأتهم على المجاهرة في أخذ الأموال بهذه الطريقة الملتوية وانتحال الأعذار لتبرير هذا الخطأ الفادح ، فقد ذكر أن سليمان بن وهب – وهو أحد الكتاب المشهورين – دخل على المهتدي فقال له المهتدي : نعم الرجل أنت لولا المؤجل والمعجل ، وكان سليمان إذا ولى عاملاً أخذ منه مالاً معجلاً وأجل له مالاً إلى أن يتسلم عمله فقال سليمان (يا أمير المؤمنين هذا قول لا يخلو من أن يكون حقاً أو باطلاً فإن كان باطلاً فليس مثلك من يقوله ، وإن كان حقاً وقد علمت أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمني من عمالي على بعض ما يصل إليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال)[٤] .

---

[1] الكامل : ١٨٣/٤

[2] الطبري : ٣٣٠/٥

[3] الدولة العباسية ٢٨٥

[4] المرجع السابق :٢٩١

وإذا كان وزير المهتدي قد برر خيانته بتبريرات واهية فإن هذا يدل على أن هذا العصر ، خاصة بعد منتصف القرن الثالث ، قد وصل الخلل الاقتصادي فيه إلى حدٍّ أضر بالدولة والمجتمع (وما هذا المعجل والمؤجل أليس هو رشوة ، ومع ذلك نراه احتج له وأقنع خليفته بأنه لا ضرر فيه) [١].

وفي آخر القرن الثالث تولى الوزارة أبو علي الخاقاني وذلك في عهد المقتدر وكان الخاقاني كثير التولية والعزل (قيل: إنه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة)[٢].

وهجاه أحد الشعراء معبراً عن استياء الناس من هذا الوضع المخزي فقال :[٣]

وزير لا يمل من الرقاعـــــة ... يولي ثم يعزل بعد ساعـــــــة

ويدني من تعجل منه مـــال ... ويبعد من توسل بالشفاعـــــة

إذا أهل الرشا صاروا إليـه ... فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

فالوزراء والكتاب والولاة (كانوا يختلسون أموال الدولة والأمة ويخيل إلى الإنسان أنه لم يعد هناك موظف كبير في الدولة لا يقترف هذه الجريمة النكراء ، وكان الولاة يرشون الوزراء ليظلوا في ولاياتهم)[٤].

بل وصلت الحال إلى أخطر من ذلك إذ قام بعض رجال الحسبة الذين أوكلت إليهم مهمة المراقبة بالاختلاس والرشوة ، فقد قبض المقتدر على أحمد بن الطيب السرخسي والي الحسبة

---

(1) المرجع السابق نفسه

(2) الفخري ص: ٢١٥

(3) المصدر السابق نفسه .

(4) العصر العباسي الثاني ص:٢١.

بغداد بسبب هذه الجناية[١] .

والعصر العباسي عصر مادي تغيرت فيه كثير من الثوابت وانهارت كثير من القيم أمام طغيان المال ونفوذه حيث أصبح غاية لا وسيلة ، فقد رخصت المبادئ أمام بريق الدراهم وغدت الدراهم وسيلة إغراء يقتل بها ولاء الموالين ، فكلما أطيح بمنافس قوي وخصم له حزبه كممت أفواه أصحابه بالدراهم فانقلبوا رأساً على عقب .و حتى بعض من كان يظن بهم التقى ، ويخف مع الناهين عن المنكر استغلت حاجته فأعطي الدراهم الكثيرة لينصرف عن موقفه كما حدث مع بعض أصحاب سهل بن سلامة الذين تخلوا عنه[٢] .

ولأمر ما اتهم المأمون بعض خصومه من الفقهاء الذين خالفوا مذهبه في القول بخلق القرآن بأنهم مرابون مرتشون [٣]

وقد كان الخلفاء يعرفون جيداً تأثير المال وسيطرته على كثير من نفوس رجال عصرهم وتضاؤل القيم الأخرى في مواجهته وهذا ما جعل المأمون يقول لوزيره الفضل بن سهل عندما أشار عليه بملازمة خراسان وخوفه من القرب من الأمين (لا يمكنني مخالفته وأكثر القواد والأموال معه ، والناس مائلون إلى الدرهم والدينار لا يرغبون في حفظ عهد ولا أمانة) [٤] .

وقد كان هذا الطوفان شديداً لا يقف في وجهه شيء تهاوت أمامه أسمى الصلات الإنسانية فقد باعت قبيحة ابنها المعتز رخيصاً ولم تبال بما لاقاه إذ طلب منها خمسين ألف دينار ليدفعها إلى الأتراك تصرف في أرزاقهم وتنجيه من قبضتهم ، ورفضت أمه أن تقرضه هذا المبلغ مع أن

---

(1)مروج الذهب :٢٥٩/٤

(2)الكامل :١٧٤/٤

(3)الطبري :١٩٢/٥-١٩٣

(4)الكامل : ١٠٢/٤

ثروتها تقارب ألفي ألف دينار غير الجواهر الثمينة التي لا تحصى ، وقتله الأتراك وهي تنظر إلى مصرعه ولم يرق قلبها له، لأن المال كان عندها أحب من ابنها .

وفي مثل هذه الأوضاع التي كان المال يقود فيها دفة الأمور ظهرت الطبقية بوضوح في المدن الكبرى عامة وفي بغداد خاصة حيث أنها تروق للأثرياء والموسرين (فأما الفقراء وذوو الحاجة فضاقت عليهم بغداد بما رحبت ولم يستطيعوا العيش فيها ولا المقام بها)[١]:

بغداد دار طيبها آخـــذ ... نسيمها مني بأنفـــــاس

تصلح للموسر لا لامـرئ ... يبيت في فقر وإفـــــلاس

لو حلها قارون رب الغنى ... أصبح ذا هم ووسـواس

هي التي نوعد لكنهـــــا ... عاجلة للطاعم الكاسي

حور وولدان ومن كل ما ... تطلبه فيها سوى النـــاس

وبقدر ما بلغت الطبقات الثرية من العيش المرفه هوت الطبقات الفقيرة في القاع واحتاجت إلى لقمة العيش فلم تجدها . حتى أن بعض علماء العصر مكث ثلاثاً لا يأكل حتى استقرض من بعض أصحابه نصف دينار .

وبلغ غيره أشد من هذه الحال ففي البصرة عاث الزنج قتلاً وتدميراً وساءت حال من بقي من أهلها وبلغ بهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يأخذون (الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، والفيران والسنانير فأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيء فكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه ، ويراعي

---

[١]ضحى الإسلام : أحمد أمين : ١٢٧/١

بعضهم موت بعض ، ومن قدر منهم على صاحبه قتله وأكله ، وعدموا مع ذلك الماء العذب)[١] .

وقد ذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة تنازع ومعها أختها (وقد احتوشوها ينظرون أن تموت فيأكلوا لحمها ، قالت المرأة : فما ماتت حتى ابتدرناها فقطعنا لحمها وأكلناها ، ولقد أحضرت أختها وقد جاءت وهي تبكي ومعها رأس أختها ، فقيل لها ويحك ! ! مالك تبكين ؟ قالت : اجتمعوا على أختي فما تركوها تموت موتاً حسناً حتى قطعوها فظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئاً إلا رأسها هذا ، وهي تشتكي ظلمهم في أختها)[٢] .

وهذه القصة وإن كانت غريبة وأقرب إلى الخيال منها إلى الواقع الإنساني إلا أنها تدل على ما وصلت إليه حال أهل البصرة من سوء وفقر شديد .وقد تردت الحال في بغداد غير مرة وغلت الأسعار فيها غلاء شديداً .

وكانت مع كل فتنة بين ذوي السلطة تضيق بأهلها ويسوء حالهم وترتفع الأسعار فيها ارتفاعاً شديداً ، وهذا الغلاء وإن احتمله الأغنياء فإنه ثقل على الفقراء حتى جهدوا وجاعوا[٣] .

ولم تكن موجات الغلاء محصورة في بغداد والبصرة فحسب، ففي عام ٢٥١ للهجرة ظهر إسماعيل العلوي بمكة وأساء السيرة في أهلها وحصرهم حتى (هلكوا جوعاً وعطشاً فبيع الخبز ثلاث أواق بدرهم ، واللحم الرطل منه بأربعة ، وشربة الماء بثلاثة دراهم)[٤] .

---

(1) مروج الذهب : ٢٠٧/٤
(2) المصدر السابق : ٤ / ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .
(3) الكامل : ٤٨٤/١٤ .
(4) البداية والنهاية : ١٤ / ٤٨٦ .

وفي سنة ٢٨١هـ (تكامل غور المياه ببلاد الري وطبرستان ، وغلت الأسعار جداً وجهد الناس ، وقحطوا حتى أكل بعضهم بعضاً ، فكان الرجل يأكل ابنه وابنته) [١] .

وفي هذا الوقت كان أصحاب النفوذ والتجار يتسابقون في الانغماس في ملذاتهم ينفقون عليها أموالاً طائلة ، وعمرت موائدهم بأصناف المأكولات والمشروبات ، وكانت فئات كبيرة من شعبهم تموت جوعاً وتأكل بعضها ، وكانت هذه الأوضاع السيئة داعية لتعلقهم بكل من يلوح لهم بأمل نجاة ، ويرفع لهم شعارات العدل والأمان فهبوا زرافات مع صاحب الزنج واندفعوا مسرعين مع دعاة القرامطة .

وكان عندهم استعداد للثورة فخرجوا مع أصحاب الثورات الجماعية وتمرد بعضهم فردياً حتى تشكلت منهم في بعض فترات هذا العصر عصابات عدوانية أخذت مسمى الشطار والعيارين وبقي سوادهم الأعظم مستسلماً يطحنه جشع الأثرياء وتنهشه أنياب العيارين والشطار وتكويه سياط الجوع .

وقد صور أبو العتاهية حال الشعب تصويراً دقيقاً وذلك في قصيدته المشهورة التي مطلعها [٢] :

مـــن مبلغ عني الإمـــــام   نصـــــــائحا متـــــوالية .

ومن هنا فقد كان العامل الاقتصادي عاملاً هاماً في تردي حال الشعب ، وفي الطبقية الواضحة التي ظهرت في هذا العصر ، وقد أدى هذا العامل دوراً خطيراً في انسحاق بعض الطبقات الاجتماعية وانفصالها وبؤسها ، وكان سبباً مؤثراً في تغريب أفراد هذا المجتمع وإيجاد فجوة كبيرة على الصعيدين الفردي والطبقي .

---

(1) المصدر السابق : ١٤/ ٦٥٥ .
(2) الديوان ص :٤٣٨

رابعاً : العامل الثقافي :

ألقت الحضارات المتداخلة في العصر العباسي والانتماءات الفكرية المختلفة التي تعايشت فيه بظلالها على الجو الثقافي العام حيث رحب هذا المجتمع بامتداد القديم وفتح ذراعيه لاستقبال الجديد .

ونشأ كثير من العلوم في هذا العصر وازدهرت وتلقف المثقفون ما يترجم من علوم وافدة وهضموه حتى ظهر ذلك مبكراً في نتاجهم العلمي والفكري والأدبي . ولم تقف عبقريتهم عند حد وكأنهم في سباق مع هذا السيل المتدفق من العلوم ، فقد كان المجتمع العباسي يخطو خطوات سريعة في تطوره وتحرره ، والثقافة تنمو نمواً مذهلاً (ولئن كان الأمويون ينقلون إليهم بعض العادات مع صبغها بصبغتهم ، فالعباسيون كانوا هم الذين ينتقلون بجذافيرهم إلى العادات الجديدة والتقاليد الجديدة)[1] .

وإذا كان القرن الثاني قد شهد حركة عقلية ضخمة في العلوم الدينية والأدبية واللغوية وغيرها ، فإن القرن الثالث قد شهد نضج هذه العلوم وأثر الثقافات الأجنبية الواضح فيها ، كما شهد تسرب كثير من العلوم الدخيلة إلى الثقافة العربية واستفحال شأن المنطق والفلسفة حتى دخلا في كل باب .

وهذه الحركة الثقافية الهائلة التي شهدها المجتمع العباسي في هذين القرنين خلفت لنا تراثاً كبيراً . ويجد المرء كثيراً من المصادر اللغوية والأدبية والدينية والفكرية بل العلمية أيضاً وليدة هذا العصر الذي عاش فيه كثير من الأسماء اللامعة في سماء ثقافتنا العربية، وقد دعمت

---

(1) ضحى الإسلام ١٠٢/١

هذه الحركة الثقافية ووجدت تشجيعاً كبيراً من خلفاء بني العباس الذين أغدقوا على طائفة كبيرة من العلماء أموالاً طائلة وصلات جزيلة (وكان أول من سن ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدي فإنه أكثر من مكافآته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون إليه الرحال من كل بلدة ، واحتذاه في ذلك ابنه الرشيد ، ويقال إنه وصل الأصمعي يوماً بمائة ألف درهم ،وكان المأمون سحابة منهلة على العلماء والمتكلمين)[١] وحظي أبو إسحاق الزجاج عند المعتضد حظوة كبيرة وجعل لـه (رزقاً في الندماء ورزقاً في الفقهاء ورزقاً في العلماء ثلاثمائة دينار)[٢] .

ولم تكن حظوة غير ه من العلماء عند خلفاء بني العباس أقل شأناً ، فقد ذكر أن هارون الرشيد رأى ابنيه المأمون والأمين يتسابقان على تقديم نعلي معلمهما الكسائي ولم يغير عليهما بل أذاع ذلك وكأنه معجب بفعلتهما إذ سأل من في مجلسه (أي الناس أكرم خادماً ؟ قالوا : أمير المؤمنين – أعزه الله – قال : بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون وحدثهم الحديث)[٣] . ولم يقف الرشيد عند منح العلماء والأدباء الصلات الكبيرة بل تجاوز إلى أبعد من ذلك إذ كان شديد التواضع مع العلماء فقد (قال أبو معاوية الضرير – وكان من علماء الناس – أكلت مع الرشيد يوماً فصب على يدي الماء رجل ، فقال لي : يا أبا معاوية أتدري من صب الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، قال : أنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم ؟ قال : نعم)[٤] .

---

(1) العصر العباسي الأول ص: ١٠٢
(2) الفهرست ص : ٩٠
(3) المصدر السابق ص : ٩٧
(4) الفخري ص : ١٥٦

واهتم البرامكة وغيرهم من وزراء العباسيين بالعلماء والمثقفين وأجزلوا لهم الصلات والعطايا فكان ذلك دافعاً لتقدم هذه المسيرة الثقافية .

ومما أسهم في نشر الثقافة ورواجها استخدام الورق إذ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكي في عهد الرشيد مصنعاً للورق ببغداد ففشت الكتابة فيه لخفته [١] .

ومما لـــه أثر كبير في دعم الحركة العلمية في هذا العصر ، المكتبات الخاصة التي انتشرت عند كثير من المهتمين بهذا الجانب .

وأنشأ بعض الوراقين دكاكين لبيع الكتب وأحياناً كانوا يؤجرونها للقراء مقابل مبلغ زهيد ، وشغف الناس بالكتب وهرعوا إلى اقتنائها وقراءتها ، ورأوا أن الإنسان (لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولابد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من إنفاق عشاق القيان ، والمستهترين بالبنيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله)[٢] .

وقد فهم علماء هذا العصر سر الكتاب والنقلة العلمية السريعة التي ينقلها لأنه قد (يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه)[٣] لسيرورته وكثرة تداوله ، وفطنوا إلى أن هذه الكتب تعجل شهرة صاحبها وترفع قيمته العلمية فقد (تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يعد فقيهاً ، ولا يجعل قاضيا ، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين

---

(1) ينظر: العصر العباسي الأول ص: ١٠٣

(2) الحيوان ١/٥٥

(3) المصدر السابق : ١/٨٥

حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحرا ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان)[١] .

وكانت مجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم مسرحاً للمناقشات العلمية الجادة التي تعتمد على أصول وفروع ينطلق منها المتناظرون ويحتكمون إليها وتكون غاية في الحرية ، وقد يبقى الخليفة مستمعاً ولكنه يشارك أحياناً عندما يرى مشاركته لصالح المناظرة [٢] .

وتأخذ المناظرة أحياناً منحنى آخر هدفه الإمتاع والتشويق فقد ذكر أن مجالس البرامكة كانت تحتفل بهذه الندوات أو المناظرة الجادة والشائقة ، وكان ليحيى بن خالد البرمكي مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل ، ومثلما كانوا يتجادلون ويتناظرون في المسائل المهمة كانوا يتجادلون في العشق وما يتعلق به [٣] .

ومما كان له دور في نشر العلم الحلقات التي كانت تعقد في المساجد وكان يزدحم فيها طلاب العلم ،وكان لكل عالم حلقة يدرس فيها فرعاً من فروع العلم والمعرفة .

وقد كان للترجمة دور خطير في ازدهار الثقافة العربية بل في كثير من التغيرات التي تعرضت لها العقلية في هذا العصر .

وقد نقل المترجمون كثيراً من علوم الفرس واليونان والهند وكانت أكثر الكتب المترجمة عن اليونان ، وهذا النقل جاء عن طريق اليونانية مباشرة أو عن طريق السريانية أو الفارسية .

---

(1) المصدر السابق : ٨٧/١
(2) ينظر: تاريخ الطبري : ١٥٢/٥
(3) مروج الذهب : ٣٧٩/٣

وعرف الخلفاء العباسيون أهمية تراث الأمم فتباروا في تشجيع المترجمين ، وأجازوهم بجوائز ضخمة وأول من قرب أصحاب علم الفلك والتنجيم أبو جعفر المنصور ، وكان (أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية منها كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب السند هند ، وترجمت لـه كتب أرسطاليس من المنطقيات وغيرها ، وترجم لـه كتاب المجسطي بطليموس ، وكتاب الارتماطيقي ، وكتاب إقليدس ، وسائر الكتب القديمة من اليونانية . . .)[١] وغيرها كالفارسية والسريانية .

وخطت الترجمة خطوة كبرى في عهد الرشيد ساعد على ذلك إنشاء دار الحكمة التي كان يعمل فيها عدد كبير من المترجمين وحملت إليها الكتب من بلاد الروم وغيرها ، وكان للبرامكة يد كبيرة في دعم حركة الترجمة [٢] .

وجاء المأمون ليحمل جذوة الترجمة وتبلغ في عهده أشدها ، وقد بعث إلى ملك الروم بعد أن استظهر عليه يسأله الأذن في جلب العلوم القديمة المدخرة ببلد الروم فأجابه ملك الروم بعد تمنع، فبعث إليه المأمون وفداً حمل معه ما اختاره من ذلك التراث فأمر المأمون بنقله فنقلوه [٣] ، واستمر الخلفاء في تشجيع الترجمة حتى آتت أكلها ، وترجم كثير من الكتب اليونانية في الطب والمنطق والفلسفة وغيرها من الفنون ، كما ترجم كثير من التراث الفارسي والهندي ، وكانت هذه الترجمة قد جاءت بكثير من ضروب المعرفة والثقافة الأمر الذي جعل الجاحظ يقول : (وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب ،و الطب ، والمنطق ،و

---

(1) المصدر السابق ٤ / ٣١٤ .
(2) ينظر : الفهرست ص : ٣٧٤
(3) الفهرست ص : ٣٣٩

الهندسة ، ومعرفة اللحون ، والفلاحة ، والتجارة ، وأبواب الأصباغ ، والعطر ، والأطعمة ، والآلات) [1] .

وهكذا كانت الحياة العباسية خلية علمية ثقافية أثرت في الثقافات الأخرى وتأثرت بها وظهر تأثرها واضحاً سلباً وإيجاباً .

وأكثر الثقافات التصاقاً بالثقافة العربية وأشدها امتزاجاً بها هي الثقافة الفارسية ، فقد كان للجوار أثر في هذا التأثير ، كما كان عدد الفرس الذين دخلوا في الإسلام واستوطنوا البلاد العربية كبيراً جداً ، وقد امتزجوا مع العرب مصاهرة ولغة ، وهذا ما جعل تأثير الثقافة الفارسية كبيراً خاصة وأن كبار رجال الدولة العباسية في عصرها الأول كانوا من الفرس الذين غرسوا ثقافتهم وفرضوا كثيراً من هويتهم الحضارية ومنهم العلماء والأدباء والمفكرون الذين كان تأثيرهم بعيداً .

أما التبادل اللغوي فقد وجد قبل العصر العباسي وإن كان أسلوب المولدين المتأثر بالفارسية ظهر واضحاً في هذا العصر إلا أن التأثر اللغوي بدأ مبكراً ونجد مقدماته في القرن الأول مبثوثة في شعر بعض شعراء تلك الحقبة [2] .

ولعل التأثير الفارسي كان في النواحي الفكرية والحضارية أشد منه في الألفاظ والمعاني وأكثر وضوحا أيضاً .

بدأ التأثير الفارسي من بدء قيام الدولة العباسية إذ جد إنشاء منصب الوزارة وأعطي صاحبه سلطة وصلت في بعض عهود خلفاء بني العباس إلى السيطرة الكاملة على أمور الدولة

---

(1) الحيوان ١/٨١

(2) ينظر : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ص : ٨٥ وما بعدها .

وتسييرها وفق هوى هؤلاء الوزراء، وكان أبو سلمة الخلال أول من شهر بالوزارة في هذه الدولة (ولم يكن من قبله يعرف بهذا النعت لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول)[١] .

وهؤلاء الوزراء كانوا من الفرس ، وكان لهم أعوان من الكتاب الذين حُرص على أن يتم اختيارهم من أصحاب الثقافات الموسوعية والمعارف الشاملة ولهذا الهدف ألفت الكتب لهم فكانت جامعة تهدف إلى زيادة تثقيفهم ، وهؤلاء تسلقوا بعد ذلك إلى سلم الوزارة فنتج من هذا أن (هؤلاء الوزراء والكتاب نشروا الثقافة العامة وضموا إلى الآداب العربية الآداب الفارسية ، فأصبح مما يتطلبه الأدب أن تعرف حكم بزرجمهر كما تعرف حكم أكثم بن صيفي ، وتعرف تاريخ الفرس كما تعرف تاريخ العرب ، وتعرف أقوال كسرى وسابور وأبرويز وموبذموبذان كما تعرف أقوال الخلفاء الراشدين والأمويين) [٢] .

ولأن للفرس أدباً وفكراً وحضارة ضاربة في التاريخ فإن أثر ذلك لابد أن يكون واضحاً في غيرهم من الأمم، وكان المجتمع العباسي أوفر المجتمعات حظاً وأكبرها نصيباً من هذا التراث الفارسي إذ نشط مثقفو الفرس الذين اتقنوا العربية في ترجمة تراثهم المكتوب فضلاً عما نقلوه مشافهة ، وبلغوا مبلغاً جعل ابن النديم يعقد فصلاً في كتابه الفهرست لأسماء النقلة من الفارسية إلى العربية[٣] .

وقد ترجموا كتبهم التاريخية وسير ملوكهم وكتبهم الدينية ذات النحل المختلفة ، كما ترجموا آدابهم المختلفة .

---

(1) وفيات الأعيان ١٦٧/٢
(2) ضحى الإسلام ١٧٢/١
(3) الفهرست ص : ٣٤١

وتسربت الثقافة الفارسية أيضاً عن طريق الذين أجادوا اللغتين العربية والفارسية (وعكفوا على قراءة الكتب الفارسية يتثقفون بها ويرقون أفكارهم وعقولهم ثم هم يخرجون باللغة العربية أدباً وشعراً وعلماً وليس ما يخرجونه نقلاً تاماً لكلام فارسي ولكنه منبعث عنه ومتولد منه)[١] ، ومثلهم بل يفوقهم في التأثير كثير من الفرس (الذين حذقوا الفارسية والعربية ، وتثقفوا الثقافتين وأنتجوا في الأدب العربي نتاجاً جديداً كالفضل بن سهل ، وسهل بن هارون ، وابن المقفع)[٢] .

ولأن اللغة العربية كانت حينئذ لغة الدولة الإسلامية ذات الجنسيات المختلفة فلم يكن بدعاً أن نجد نتاج مثقفي الفرس باللغة العربية التي أجادوها وأبدعوا فيها ، ولم يكن مستغرباً أن نجد أن شعراء العصر ذوي الأصل الفارسي قد فاقت إبداعاتهم الشعرية كثيراً من شعراء العرب الأقحاح حتى عدّ مؤرخو الأدب كبار شعراء العربية في هذا العصر من هؤلاء الفرس دون أن يفرقوا بين الجنسيات وكأنما هم عرب صرحاء ، وتأثر الشعر العربي (بالمعاني والأخيلة الفارسية وطرق التعبير)[٣] .

وإذا كانت طرق الغناء وفنون الإيقاع والآلات الموسيقية ، وهي ذات أصل فارسي قد شاعت في المجتمع العربي وأثرت فيه تأثيراً بعيداً فإنها قد أثرت في الأدب الذي هو ظل الحياة الاجتماعية تأثيراً عميقاً (فالموسيقى قد رققت النفوس وهذبت الأذواق إلى أبعد حد ، ومن هنا جاءت محاولة شعراء القرن الثاني للخروج على الأوزان التقليدية أو على الأقل هجر

---

(1) ضحى الإسلام ١٧٩/١
(2) المرجع السابق نفسه .
(3) اتجاهات الشعر العربي ص : ٩٨

الأوزان المعقدة إلى البحور الرشيقة القصيرة . أما الغناء فقد استلزم هذه الأوزان الرشيقة القصيرة كما استلزم المقطعات الصغيرة ، ولذلك طغت هذه المقطعات على القصائد الطويلة القديمة)[١] .

ولأن الغناء فارسي الأصل فقد ارتبط به كثير من العادات الفارسية ، فمجالس الغناء ترتبط بها مجالس الشراب واللهو والإفراط فيهما يجر إلى إباحية مسرفة كانت ذات أثر سئ في المجتمع العباسي ، إذ أصبحوا لا يكنون عن فحش ولا يتعففون عن مجاهرة داعرة . وإذا كان الخمر قد ذكر في شعر طرفة والفحش في شعر امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة فإنه يختلف عما نجده في شعر الشعراء العباسيين الماجنين مثل بشار ومطيع بن إياس وأبي نواس الذين ظهرت الثقافة الفارسية واضحة في أشعارهم إذ كان (فجور الأولين ساذجاً بسيطاً في ألفاظه ومعانيه كمعيشتهم ، وكان فجور الآخرين مركباً ممعنا في الوصف شاملاً لكل المظاهر ومشاعر الشهوة يتخير أقبح اللفظ لأقبح المعنى) [٢] .

ولم يكن العرب يندفعون في هذا الطريق ولا يعرفونه لولا الفرس . وحتى النزعة الأخرى المناوئة لهذا التيار وهي نزعة الزهد ذات المغزى الديني لم تسلم – حسب رأي بعض الباحثين – من صبغة فارسية ، فهذا الشعر لم يخل من نزعة ثنوية كان ينزعها الفرس قديماً ، وإذا كان في نزعة (بشار الإباحية عنصر مزدكي ، ففي نزعة أبي العتاهية الزاهدة عنصر مانوي)[٣] .

---

(1) المرجع السابق ص: ٩٦
(2) ضحى الإسلام ١٨٤/١
(3) المرجع السابق : ١٨٧/١

وقد تجاوز بعض المؤرخين في وصف تأثير الفرس في الثقافة الإسلامية حتى وصل به الأمر أن أنكر فضل العرب وتأثيرهم ، يقول ابن خلدون : (من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم وليس في العرب حملة علم ، لا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبه فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته)[١] .

ومن المؤكد أن أثر الثقافة الفارسية في المجتمع العباسي كان كبيراً ، فقد وجدنا ذلك واضحاً يبدأ في المائدة العباسية وينتهي في الفكر الذي حمل كثيراً من هذا التأثير وخاصة الفكر الديني لأنه عندما (تحول أصحاب النحل والديانات المختلفة إلى الإسلام فقد تحولوا إليه بتر اثهم العقدي بل بكل تراث آبائهم الثقافي)[٢] .

وكان من نتائج هذا التأثير ظهور حركة الزندقة (تلك الحركة التي كانت جزءاً من ثقافة العصر وشخصيته والتي أثرت في شعره تأثيراً خطيراً)[٣] .

ولم تكن الثقافة الفارسية منفردة في تأثيرها فقد كانت هناك ثقافات أخرى كان لها أثرها في تكوين الشخصية الثقافية المركبة في العصر العباسي ، فالثقافة الهندية شاركت في غرس شيء من هويتها الثقافية ، إذ أثرت في الثقافة الإسلامية عن طريق اتصال المسلمين بالهنود بعد الفتح أو عن طريق التجارة ، وعن طريق الفرس الذين استفادوا من الثقافة الهندية استفادة كبيرة ونقلوها إلى العرب مع ثقافتهم .

---

(1) مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ص :٥٤١

(2) العصر العباسي الأول ص :٩٤

(3) اتجاهات الشعر العربي ص : ١٠٢

ففكرة تناسخ الأرواح فكرة هندية ، بل لعلها تمثل علم النحلة الهندية إذ هي راسخة في معتقداتهم ، وقد أثرت في بعض الفرق الدينية تأثيراً كبيراً ، وقال بها أحمد بن حائط ، وأبو مسلم الخراساني ، والقرامطة ومحمد بن زكريا الرازي [١] وغيرهم .

ومن النحل الهندية التي تسربت إلى الثقافة العربية (السمنية) وهي مذهب يقول بالتناسخ ولا يؤمن بشيء سوى الحس ، وقد ناقش علماء المسلمين أفكار هذا المذهب وجادلوا أصحابه كثيراً، ومن اللافت للنظر أن نجد عربياً من الأزد من أهل البصرة يعتنق السمنية [٢] .

وقد يخفى على بعض الناس أحياناً تأثير النحل الهندية لأنها لم تأت مباشرة إلى المجتمع العباسي بل حملتها إليه الثقافة الفارسية التي تشبعت بعض دياناتها بأفكار هندية منحرفة ، فالمانوية تأثرت كثيراً بزهد البوذيين ونسكهم وحظرهم لذبح الحيوان ،وربما كانت هذه التعاليم وراء موقف أبي العلاء المعري الذي حرم على نفسه اللحم وكره ذبح الحيوان [٣] .

وقد أخذ العرب عن الهنود كثيراً من نظرياتهم في الهندسة والحساب ومعارفهم في علم الفلك والتنجيم واستفادوا من علومهم الطبية ، وقد ذكر ابن النديم أسماء كتب الهند في الطب التي نقلت إلى العربية[٤] .

كما ذكر أسماء كتبهم في الخرافات والأسماء والأحاديث والتي استفاد منها العرب في أدبهم وزعم أن كتاب كليلة ودمنة هندي فسره عبد الله بن المقفع، وذكر من كتبهم الأخرى

(1) ينظر : ضحى الإسلام ٢٤٠/١
(2) ينظر : الأغاني : ١٣٩/٣
(3) ضحى الإسلام ٢٥٢/١
(4) الفهرست ص : ٤٢١

كتاب السندباد الكبير ، وكتاب السندباد الصغير ، وكتاب حدود منطق الهند وغيرها [1] .

وقد أثرت الحكم الهندية في الأدب العربي بل في الثقافة العربية ، ويجد المرء هذه الحكم مبثوثة هنا وهناك في كتب الأدب .

ومهما تحدثنا عن أثر الثقافة الهندية فإن تأثيرها لا يوازي تأثير الفارسية ولا اليونانية التي تأتي في عمق تأثيرها بعد الفارسية مباشرة بل قد تكون في مستوى الفارسية ، فقد أثرت اليونانية في الفكر العباسي تأثيراً عميقاً وكان أثر ذلك يزداد يوماً بعد يوم ونتائجه تظهر بقوة في هذا الفكر .

ويرى بعض الباحثين أن المسلمين دفعوا إلى الثقافة اليونانية دفعاً وذلك أنهم وجدوا بعد امتداد حركة الفتوح مللاً ونحلاً مختلفة وقفت عقبة في طريق نشر الإسلام لأن أصحاب هذه الديانات قد مرنوا على أساليب الجدل والمحاجاة والمنطق وعندئذ (أحس المسلمون بحاجتهم إلى وسائل هذا المنطق وإلى التدرب على أساليب الجدل للدفاع عن الإسلام ضد خصومه وإقناع المنكرين له من أصحاب الديانات الأخرى ولهذا لم ير المتكلمون المسلمون مندوحة لهم عن التلمذة في مدرسة المنطق الهليني)[2]، فجدوا في دراسة المنطق والفلسفة اليونانيين وقارعوا أصحاب النحل وجادلوا اليهود والنصارى الذين هضموا الفلسفة والمنطق اليونانيين ، ولعل المعتزلة ومن كان على شاكلتهم وجدوا في دراسة الفلسفة متعة جرتهم إلى التعمق في هذا الجانب .

---

(1) المصدر السابق : ٤٢٤-٤٢٥

(2) اتجاهات الشعر العربي ص: ١٠٢

وكانت الثقافة الهلينية بما فيها من فلسفة ومنطق قد استقرت في بعض مناطق فارس والعراق وسورية وقامت لها مدارس مختلفة في الإسكندرية وقيسارية وأنطاكية والرها ونصيبين وحران وجنديسابور .

وقد غلب عليها النصارى النساطرة الذين نقلوا الكتب اليونانية إلى السريانية ثم بعد اتصال العرب بهم ترجموا هذه الكتب إلى العربية ولم تكن ترجمتهم دقيقة في بعض الأحيان وبعد أن تقدم العصر العباسي تقدمت الترجمة وأصبحت أكثر دقة .

وقد نقل إلى العربية أهم ما وصل إليه العقل اليوناني في العلم والفلسفة مثل كتب أرسطو [١] ، وأفلاطون[٢] وفي الطب مثل كتب جالينوس [٣] وغير هذا من التراث اليوناني .

وقد كان اهتمام الخلفاء العباسيين بالطب وعلم النجوم واضحاً بل كان ذلك أول عناية هؤلاء الخلفاء كما ذكر المسعودي عن المنصور الذي (قرب المنجمين وعلم بأحكام النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وكان معه نوبخت المجوسي المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء النوبختية وإبراهيم الفزاري المنجم صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علم النجوم وهيئة الفلك)[٤] .

واقتفى من بعد أثره حتى بلغ الطب وعلم النجوم مبلغاً كبيراً نتيجة الكتب التي ترجمت في هذين العلمين وتدفقت سيول الترجمة ناقلة معها تراث هذه الأمم المختلفة (وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حملت هذه السيول، وقد مضى العقل العربي يسيغهما

[1] الفهرست ص : ٣٤٧ وما بعدها .
[2] المصدر السابق ص : ٣٤٣ وما بعدها .
[3] المصدر السابق ص : ٤٠١
[4] مروج الذهب : ٣١٤/٤

ويتمثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة، والمتكلمون وعلى رأسهم المعتزلة هم أهم من تعمقوا هذه الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها، وقد عرضوها على بساط البحث واستطاعوا أن ينفذوا على كثير من النظريات والأفكار والآراء التي لم يسبقهم إليها سابق)[١] .

وظهر أثر المنطق في كثير من العلوم والفنون إذ كان له سلطان كبير على العقول في العصر العباسي يجده المرء في تعبيرات الفقهاء وفي ترتيب وتبويب كتب النحو [٢]، (وكان من نتيجة دخول المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية محيط الثقافة العربية عن طريق متكلمي النصارى وغيرهم ظهور فرق إسلامية متأثرة في منهجها وفي برامجها بهذا المنطق وبهذه الفلسفة)[٣] .

وقد لحظ الجاحظ أثر تأثير النصارى فقال في رسالته " الرد على النصارى " : (فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحد اثنا شيء من كتب المنانية ، والديصانية ، والمرقونية ، والفلانية ، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ومخلاة في أيدي ورثتها ، فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها)[٤]

ولم يقف تأثير النصارى عند هذا الحد فقد أثرت الثقافة النصرانية في العصر العباسي ، فالأديرة التي كانت تمتلئ بها بلاد العراق والشام كانت مصدراً لأمرين متناقضين فهي منبع للزهد الذي كان يصدر عن الرهبان ، وأيضاً للهو حيث كانت مقصد المجان الذين كانوا يعمرون الحانات التي تحيط بهذه الأديار ويمارسون فسقهم ومجونهم وهم في سكر وعربدة .

(1) العصر العباسي الأول ص: ١١٧
(2) ينظر : ضحى الإسلام ٢٧٦/١
(3) اتجاهات الشعر العربي ص : ١٠٣
(4) رسائل الجاحظ ٢٤٣/٣

كما احتفل العباسيون بأعياد النصارى كعيد الشعانين، وتسرب إلى الثقافة العربية غير قليل من النصرانية .

ولم تكن اليهودية أقل تأثيراً خاصة في بعض الفرق الدينية فقد عقد الشعبي مقارنة بين الرافضة واليهود ورأى أنهم قد شابهوهم في كثير من أمرهم [١] ، وانتقل إلى المسلمين بعض أفكار اليهود الفاسدة ، كما (أن كثيراً من المسائل الكلامية وغيرها كان منبعها اليهود وأنها قيلت على مثال ما قالوا)[٢] .

والقول بخلق القرآن الذي أصبح مذهباً رسمياً للدولة في عهد المأمون والمعتصم والواثق وكان يعاقب من لم يتبعه ، كان كما يقول ابن الأثير قد جاء من أصل يهودي لأن أحمد بن أبي دؤاد الذي كان داعية إلى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة قد أخذ ذلك عن (بشر المريسي ، وأخذه بشر من الجهم ابن صفوان ، وأخذه جهم من الجعد بن درهم وأخذه الجعد من أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم وختنه ، وأخذه طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لبيد يقول بخلق التوراة وأول من صنف في ذلك طالوت وكان زنديقا فأفشى الزندقة)[٣] .

ومما لا شك فيه أن كثيراً من الفرق الدينية ذات المذاهب المختلفة تأثرت في نشأتها وفي امتدادها بهذه الثقافات الوافدة . وكثرة هذه الفرق واختلاف وجهات نظرها أدى إلى عدائها، وجر هذا العداء إلى حرب كلامية أحياناً ومسلحة أحياناً أخرى ، مما جعل هذا العصر حزبياً

(1) ينظر العقد الفريد : ابن عبد ربه ٤٠٩/٢
(2) ضحى الإسلام ٣٣٧/١
(3) الكامل : ٣٣١/٤

تغلب عليه مظاهر التعصب الطائفي والمذهبي فأصحاب هذه النزعات في جدل مستمر وكل يرى فريقه محقاً ويبحث عن وأد الرأي الآخر أكثر من بحثه عن الحقيقة .

وقضية أخرى ألهبت هذه الصراعات تمثلت في أن عامة الناس في المجتمع العباسي نالوا شيئاً من التعليم وعرفوا خواطر من هذه الثقافات فنصبوا أنفسهم لمطارحة الحجج ومجادلة المخالفين (ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد)[١] .

وعندما تقدم بنا العصر وجدنا الخلاف يشتد بين أصحاب هذه النزعات ، والفقهاء يخالف بعضهم بعضاً ، وبين السنة والشيعة حرب طاحنة وعداء شديد، وهذا (الخلاف بين أتباع المذاهب من جهة وبين الشيعة والسنة جعل البلاد الإسلامية ناراً مشتعلة)[٢] .

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن هذه النار المشتعلة قد خلّفت وراءها أشكالاً شتى من المآسي الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي كان لها تأثير حاد في اغتراب الفرد عن المجتمع عموماً وعن هذه الثقافة التي تسوّغ إذكاء تلك النار .

ولا تفوتنا الإشارة أيضاً إلى أن ذلك الاغتراب قد يتعمق أكثر فأكثر كلما انحازت الثقافة وانحاز المثقفون إلى تعميق الهوة بين الطوائف والشرائح الاجتماعية المتخالفة حيناً والمتصارعة أحياناً .

ومن أثر الثقافات في هذا العصر أن حركة الاعتزال التي نشأت بتأثير الفلسفة اليونانية أثرت تأثيراً عميقاً في الحياة الأدبية بل في العقل العباسي يقول أحمد أمين : (لقد أغنى المعتزلة

(1) رسائل الجاحظ ٢٤٣/٣
(2) ظهر الإسلام ٦/٢

الأدب من حيث المعاني وقوة العقل وسعة الذهن وتوليد الأفكار العقلية والنظر إلى الكون وإلى الطبيعة وإجراء التجارب عليها ودلالتها على خالقها وغاصوا على المعاني غوصاً ونقلوا الأدب من لفظ رشيق إلى معنى عميق ، ومن عبارات مجملة منمقة إلى موضوعات واسعة مسهبة وبعد أن كان خلواً من الموضوع جعلوا له موضوعاً)[١] .

هذه الثقافات المتشابكة التي صبت في نهر الثقافة العربية أحدثت تطوراً خطيراً في العقل العباسي وزادت في نمو وعي الناس وشدة الوعي تدفع الإنسان إلى رغبة ملحة في تجاوز الواقع ، وطموح مفرط إلى المثال ، وإذا لم يتحقق ذلك أحس المثقف الواعي والشاعر المرهف بفجوة عميقة ربما ترمي به إلى خارج أسوار مجتمعه وإن كان بينهم بجسده وهذا هو الاغتراب .

ومجتمع كالمجتمع العباسي يسوده غير قليل من الأنانية ، وينفرد فيه الأقوياء بالسلطة والمنافع ، يصعب أن تتحقق فيه المثالية المأمولة وهنا يحدث الاغتراب ، وكثير من الشعراء كانت ثقافتهم (نبعاً ثراً لصورة الحياة الأفضل ، لقد قادته تطلعاته إلى الأمام بينما شده واقع مجتمعه إلى الخلف ومن هنا كان إحساسه بالاغتراب وما يصحب ذلك من قلق وتمزق وضياع)[٢] .

ولم تقف عجلة الثقافات التي دفعت إنسان هذا المجتمع إلى الاغتراب عند هذا الحد فقد جاءت الفلسفة بما جعل بعض العقول يقف حائراً يشك في كل شيء فعاش قلقاً مغترباً ضل طريق الحقيقة .

---

(1) ضحى الإسلام : ٣١٤/٣

(2) الاغتراب في الشعر العباسي في القرن الرابع ص :١١٩

وعقول أخرى عربية بهرتها تلك الحضارة الطاغية ولم تتمكن من استيعاب هذه الثقافة المركبة التي كانت بعيدة عن سذاجة بعض الأعراب وبساطتهم فصدموا بها ووجدوا بينهم وبين مجتمعهم الجديد هوة سحيقة فعاشوا غرباء .

يروي الأصفهاني أن الشاعر ناهض بن ثومة حضر حفلة عرس أقيمت في حلب فبهره ماراٰه وارتبك أمام هذا الموقف وكأنما شاهد شيئاً خيالياً وشدته ألوان الملابس وجهل ما قدم من ألوان الطعام والشراب وآلات الغناء حتى ضحك الناس من جهله [1] وكأنه قادم من عالم آخر .

---

(1) الأغاني : ١٣/١٩٩

الفصل الثاني

الاغتراب المكاني في الشعر العباسي

أولاً : أهمية المكان .

ثانياً : الحنين إلى الوطن .

ثالثاً : الحنين إلى الأهل والأحبة .

أولاً : أهمية المكان :

لا يشكل المكان الحاضن الجغرافي للإنسان وحسب، بل يشكل الحاضن الطبيعي والاجتماعي والنفسي أيضاً .

ولهذا جاء ارتباط الإنسان ببيئته لأنه مكمل لها (وهي مكملة له، في نشأته وتطوره، ومن هنا كان للإقليم الذي يعيش فيه الإنسان وينشأ أثر كبير في أخلاقه، وتكوينه النفسي، واستعداده الفكري ، وإبداعه العقلي)[1] .

وبذلك أصبح التعلق بالمكان دفاعاً عن الوجود الطبيعي للإنسان، وحين يرتبط المكان بالقيم والعادات والتقاليد فإنه يتحول إلى جملة من المعاني ، منها ما هو ديني واجتماعي وأخلاقي ونفسي واقتصادي وسياسي . أي أن الغربة عن المكان قد يكون لها كل تلك الأبعاد مجتمعة أو متفرقة .

والإنسان عندما يرفض البعد عن وطنه فإنما يرفض أن يتخلى عن جذوره المرتبطة بهذه البيئة التي كان لها أثرها البالغ في تكوينه ونشأته ، وهو لا يتقبل بسهولة التغييرات التي تعترضه في أثناء رحيله من مكانه الذي ألف كل ما فيه فالصلة الشديدة بين الإنسان وبيئته ليست صلة بسيطة بل هي رباط محكم وعلاقة معقدة وطيدة ضاربة في أعماقه ، راسخة بما حملته من عادات وتقاليد .

وقد تنبه الباحثون في الأجناس البشرية إلى (أثر البيئة، وصلة الإنسان بها فقالوا: إن صلة الإنسان ببيئته وأرضه أكثر ارتباطاً وتعقيداً من صلة الحيوان والنبات بالبيئة والأرض.

---

(1) الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي : محمد إبراهيم حور : ص ١٢.

ويقولون إنك لا تستطيع أن تقول إن ابن الصحراء، يمكنه أن يعيش في القطب، وإن ابن القطب يمكنه أن يعيش في الصحراء إلا إذا استطعت أن تقول: أن الجمل - وهو ابن الصحراء - يستطيع أن يعيش في القطب، وأن دببة القطب في استطاعتها أن تعيش في الصحراء)[١] .

ولقد صور القرآن الكريم هذه الظاهرة تصويراً يدل على مدى تغلغلها في النفس الإنسانية، إذ سوى بين قتل النفس وبين الخروج من الوطن فقال تعالى : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم، أو اخرجوا من دياركم، ما فعلوه إلا قليل منهم)[٢] . فحب الديار والوطن إذاً ظاهرة إنسانية عامة، ولا يخلو تراث أمة من الأمم القديمة من رصد هذه الظاهرة أو تصويرها أو تسويغها .

وقد شعر العرب، خاصة، بأن الكرامة والعز مرتبطان بالبقاء في الوطن والعيش بين الأهل، فشبهوا الغريب باليتيم اللطيم،ونهوا عن مفارقة الوطن لأن الغربة تنقص، والوحدة تصمت، وقيل لأعرابي : ما الذل ؟ فقال التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان [٣].وقد قيل أيضاً إن الغريب كغرس ذابل ماتت أرضه ونفد شربه[٤] ، وقالوا : إذا كنت في غير بلدك ، فلا تنس نصيبك من الذل [٥].

والبلاد عزيزة على أهلها ، وإن كانت صحراء قاحلة ، لا يكاد يجد المرء فيها ظلاً ولا مأوى ، فقد قيل لأعرابي : (كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله ؟

[١] الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي : محمد إبراهيم حور : ص ١٣ .
[٢] - سورة النساء آية ٦٦ .
[٣] - المحاسن والأضداد: ص ٦٨ .
[٤] - بهجة المجالس وأنس المجالس : أبو عمر يوسف بن عبدالله القرطبي : ٢٢٥/١ .
[٥] - المصدر السابق ٢٢٤/١ .

فقال : وهل العيش إلا ذاك ! ! يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجمان ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى)[١] .

وقد أحسن من قال : (لو قنع الناس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكى عبد الرزق) [٢] .

فهم لا يؤثرون على وطنهم وطناً ، ولولا هذا العشق لم ير هذا الأعرابي بلده الجدب ومحله القفر، وشمسه الشديده تلفح وجهه في حمارة القيظ، كإيوان كسرى ! !

وكأن في الوطن سراً ، جعل الطائر يحن إلى وكره، والأسد يهفو إلى غابه والعليل في البلد النازح يشفى بشربة من ماء موطنه أو بشمة من تربة أرضه.

ويرى الجاحظ أن ملوكاً اغتربوا عن بلادهم إلى بلاد أخرى أمهد منها وأخصب، وقد نالوا من السؤدد ما جعلهم سادة العرب. وأنجاد العجم يخضعون لهم، ومع هذا فلم ينسهم هذا المجد وطنهم ، فكانوا إذا ذكروا التربة والوطن حنوا إليها حنين الإبل إلى أعطانها[٣] .

وقد روي أن اسفنديار . أحد قواد الفرس . لما غزا بلاد الخزر، اعتل بها ، فقيل له: ما تشتهي ؟ قال شربة من ماء دجلة، وشميماً من تراب اصطخر فأتي بها بعد أيام ، فشفى من مرضه [٤] . ويرى بزر جمهر أن من أمارات عقل الرجل ((حنينه إلى أوطانه))[٥] .

وسابور ذو الأكتاف اشتكى وهو في أسره بالروم، فتمنى شربة من ماء أرضه وقبضة من ترابها، فلما جئ بها نقه من مرضه [٦] .

---

[١] ـ المحاسن والأضداد ص : ٦٨ .
[٢] ـ رسائل الجاحظ : الجاحظ : ٢٨٧/٢ .
[٣] ـ ينظر : رسائل الجاحظ ٢ / ٢٨٣ .
[٤] ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء : الراغب الأصفهاني : ٦٢١/٤ .
[٥] ـ ديوان المعاني : أبو هلال العسكري : ٢ / ١٨٧ .
[6] ـ رسائل الجاحظ : ٢ / ٣٠٤ .

وقد أوصى الإسكندر المقدوني أن ينقل جدثه إلى بلده[١] . وهؤلاء (الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة، ولا غادروا في أسفارهم شهوة، حنوا إلى أوطانهم، ولم يؤثروا على تربهم ومساقط رؤوسهم شيئاً من الأقاليم المستفادة بالتغازي والمدن المغتصبة من ملوك الأمم. وهؤلاء الأعراب مع فاقتهم وشدة فقرهم يحنون إلى أوطانهم، ويقنعون بتربهم ومحالهم)[٢] .وهذه الحوادث تجعلنا نتأكد من صدق مقولة الفلاسفة من أن فطرة الرجل معجونة بحب الوطن [٣] . وأن العليل يتروح بنسيم أرضه ، كما تنبت الحبة ببل القطر . وأن كل عليل يداوى بعقاقير أرضه ، لأن الطبيعة تتطلع لهوائها ، وتنزع إلى غذائها [٤] . فغذاء الطبيعة من أنجع أدويتها [٥] .

والحنين إلى الأوطان ظاهرة إنسانية عامة ، وهو جزء لا يتجزأ من كيان الإنسان وإذا كانت هذه الظاهرة واضحة عند العرب ، فذلك لأنهم أمة شاعرة ، تجل الوفاء ، وتؤثر فيها الكلمة والذكرى ، ويخلد في ذهنها المكان الذي احتضنها . والبيئة التي احتوتها . ومن أجل ذلك كان العربي يستبسل في الدفاع عن أرضه ، ويقاتل حتى الموت .

وهذا التعلق بالوطن جعله يحمل معه في سفره من تربة بلده رملاً وعفراً يستنشقه عند نزلة أوزكام أو صداع [٦] . وكأن بين الإنسان وأرضه أو وطنه حبلاً سرياً لا ينقطع حتى بالموت . فكثير من الذين عانوا الغربة عن الوطن كانوا يوصون بأن يدفنوا في أرض أوطانهم وكأن أرواحهم

---

(١) ـ ينظر :رسائل الجاحظ ٢/٣٠٤.
(٢) ـ المصدر السابق ٢ / ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .
(٣) ـ ينظر : محاضرات الأدباء : ٤ / ٦٠٦ .
(٤) ينظر : ديوان المعاني : ٢ / ١٨٨ .
(٥) ـ ينظر : ديوان المعاني : ٢ / ٢٩٠ .
(٦) ـ رسائل الجاحظ ٢ / ٢٩٠ .

لا تهدأ إلا بتراب الوطن . وكل الأخبار والقصص والروايات تؤكد أن ما بين المهد واللحد حبلاً سرياً متيناً يشد الإنسان إلى أرضه التي هي في واقع الحال وجوده النفسي والاجتماعي والطبيعي ... الخ .

ومن أعجب ما يروى عن حب الوطن والحنين إليه ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني من قصة جبهاء الأشجعي ، إذ قالت لـــــه زوجته : لو هاجرت بنا إلى المدينة وبعت إبلك وافترضت في العطاء كان خيراً لك ، قال : أفعل . فأقبل بها وبإبله حتى إذا كان بحرة واقم من شرقي المدينة ، شرعها بحوض واقم يسقيها ، فحنت ناقة منها ثم نزعت ، وتبعتها الإبل ، وطلبها ففاتته ، فقال لزوجته : هذه إبل لا تعقل ، تحن إلى أوطانها ، ونحن أحق بالحنين منها ، أنت طالق إن لم ترجعي ، وقال [1]:

قالت أنيسة دع بلادك والتمس ... داراً بطيبة ربة الآطام
تكتب عيالك في العطاء وتفترض ... وكذاك يفعل حازم الأقوام
فهممت ثم ذكرت ليل لقاحنا ... بلوى عنيزة أو بقف بشام
إن المدينة لا مدينة فالزمي ... حقف الستاد وقبة الأرجام
يحلب لك اللبن الغريض وينتزع ... بالعيس من يمن إليك وشام
وتجاوري النفر الذين بنبلهم ... أرمي العدو إذا نهضت أرامي

وإذا كان حاضرة عرب الجاهلية قد استوطنوا المدن والقرى ، فإن باديتهم . ومنهم أغلب الشعراء . قوم رحل لا يعرفون الاستقرار (في مكان معين إلا أنهم يحصرون تنقلهم في محيط

---

[1] ـ الأغاني ١٨ / ١٠٢ .

محدود ، لا يخرجون عن نطاقه ، إلا في حالات قليلة نادرة ، وظروف طارئة قاهرة . فكان هذا المحيط هو وطنهم الكبير ، الذي يكنون له الحب في قلوبهم ، والتقدير في نفوسهم ، ولما كان البدوي رقيق العاطفة ، مرهف الشعور ، فإننا نراه يتمسك بكل بقعة حل فيها ، ويحن إلى كل ديار أقـــام بين جنباتها ، ويبـكي ويستبكي ـ حينما يمر بأطلال ، وديار أهـله ـ على أيامه السالفة)[١] .

وتجدر الإشـارة، هنا، إلى أن الانتماء القبلي الذي كان بارز الوضوح لدى الشاعر الجاهلي، لم يكن يلغي انتماءه إلى أرضه أو الديار التي كان يتنقل بينها، وما البكاء على الأطلال إلا دليل على التمسك بالوطن، وإن يكن مفهوم الوطن لم يتضح لديه بالشكل الذي ظهر في العهود التالية .

وبعد الفتوح الإسلامية بدأ العرب يستوطنون الأمصار، وجاء العصر العباسي حاملاً معه ثقافات متمازجة طبعت الخلافة بطابع إسلامي أكثر من الصفة العربية واستقر الناس في المدن، وأصبحوا يتنقلون في حدود هذه الخلافة الواسعة بحرية ، فتطور مفهوم الوطن حيث لم (يعد هو الجزيرة العربية وحدها ، ولم يعد الحنين إلى الوطن هو الحنين إلى هذه الجزيرة فقط ، بل غدا الوطن تلك البقعة من الأرض التي يعيش عليها الشاعر ، وترتبط بها حياته بل ظل أولاً هو المدينة)[٢] .

فالوطن في العصر العباسي لا يختلف مفهومه عن مفهومنا في العصر الحاضر إذ تطور مفهوم الوطن في هذا العصر (من أماكن النزول والاستقرار، وأماكن تنقل القبيلة، إلى مفهوم

(1) ـ الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي ص : ٣٩.
(٢) ـ الوطن في الشعر العربي : وهيب طنوس : ص : ٣٧٠ .

المدينة الجديدة ، والمكان الجديد ، حيث نزل ، واستقر العربي ، وأصبح إنساناً مستقراً لا رحالة متنقلاً . وفي كل مراحل التطور، كان مفهوم ((الوطن)) . ((مكان الاستقرار الدائم)) . مرتبطاً بحفظ كرامة الإنسان، وتأمين الحياة المرضية اللائقة)[1] .

فالعربي لا يغادر أرضه إلا مكرهاً، وهو إذا غادرها لا ينساها . ولا يوازي الوطن عنده إلا كرامته. فإذا تصادما كانت الكرامة أولاً.

ومن يفتش تاريخنا العربي يجد أن كل الذين هجروا أوطانهم، إنما دفعوا إلى ذلك دفعاً . فمنهم من أحس بالذل فخرج حاملاً معه عزة نفسه التي لا يساوم عليها ، وهو لا يرى الوطن وطناً بدون كرامة . وقد لا يكون الذل مباشراً، فالفقر سبب من أسباب الذل التي تجعل العربي يغادر أرضه باحثاً عن عيش شريف ، وقد يثور من أجل مبدأ ثابت جاهد من أجله فيكون عقابه النفي والتشريد .

ومن هنا نجد أن مغادرة العربي لأرضه لا تدفعه إليها إلا أسباب قهرية ، فلم يهجر وطنه رغبة ، ولم يتركه جفاء . ولهذا فاضت قريحته حنيناً ، فبكى واستبكى ، ووقف واستوقف .

وعند استعراضنا للشعر العباسي ، في الفترة المدروسة ، وجدنا أنفسنا أمام كم شعري هائل يتعلق بالاغتراب المكاني موضوعاً أو معنى أو شعوراً وقد توزع شعر الاغتراب المكاني فنياً على جملة من الأشكال الشعرية ، منها القصائد المطولة ، ومنها المقطعات الشعرية التي لا تتجاوز سبعة أبيات ، ومنها البيت والبيتان ومنها القصيد والرجز . وذلك علاوة على مطالع

---

[1] ـ الوطن في الشعر العربي : وهيب طنوس : ص : ٣٧٦ .

القصائد المدحية التي غالباً ما كان الشاعر يتناول فيها موضوع الغربة والحنين والشوق إلى الديار . غير أن هذه لمطالع قلما عبرت عن شعور اغترابي أصيل أو صادق . فغالباً ما كانت الغربة فيها عبارة عن تقليد فني يتوسل به الشاعر لإجادة المدح من جهة أو لمطاولة الشعراء القدامى في طللياتهم وبكائياتهم من جهة أخرى . ولعل البحتري يكون في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين كانوا يصطنعون الغربة لأسباب فنية وارتزاقية في الوقت نفسه . ولهذا لا غرابة في أن تقصر غربة المطالع في القصائد المدحية عن تقديم مادة ذات بال للباحث ، وذلك على الرغم من كثرة أشكال هذه الغربة التي يمكن أن نرى فيها غربة تقليدية لا غربة حقيقية أصيلة .

ولقد وجدنا أمام هذا الكم الشعري الهائل أن نوزّع حديث الاغتراب المكاني على فقرتين رئيستين هما الحنين إلى الوطن ، والحنين إلى الأهل والأحبة وقد يبدو أن هذا التوزيع فيه بعض الغلوّ . غير أننا وقعنا على قصائد ومقاطع وأبيات تحصر همّها بالوطن والديار والطبيعة الجغرافية للوطن من دون أن تعرّج إلا قليلاً على ذكر الأهل والأحبة ، والناس في الوطن . في حين أن شطراً آخر من القصائد والمقاطع والأبيات صرف همّه إلى ذلك من دون التوقف إلا قليلاً أيضاً عند الوطن والديار : أي أن طبيعة المادة الشعرية قد فرضت علينا هذا التوزيع . غير أنه لا بد من القول إن الحنين إلى الوطن هو في واقع الحال حنين إلى الأهل والأحبة والعكس صحيح أيضاً . ففي الحالتين ثمة اغتراب مكاني غير أن بعض الأشعار تركّز حيناً على هذا الجانب ، ويركز بعضها الآخر على ذاك . وليس أمام الباحث إلا أن يأخذ هذا بالاعتبار . أما

الأشعار التي تتناول الجانبين معاً فقد صنفناها بحسب الجانب الأغلب فيها ، وذلك انسياباً وراء التصنيف بحسب السمة الغالبة .

ثانياً : الحنين إلى الوطن :

لا يحتاج الباحث إلى وقفة طويلة عند المقدمة الطللية في القصيدة العباسية ليتمحل اغترابا ً مصنوعاً ، دعا إليه التقليد الفني الذي تهالك الشعراء عليه سيراً على نهج القصيدة الجاهلية . وعلى الرغم من ذلك فإن شعراء هذا العصر أصبح لهم عزف منفرد ، وأخذت القصيدة العباسية ـ غالباً ـ في التعبير المباشر عن الحدث ، أو بمعنى آخر أصبحت أكثر التصاقاً بحالة الشاعر الذاتية ، وعبرت عن جرحه دون أن تبحث عن هدفها من خلال طرق بعيدة . ولم تعد مرتبطة بمكان وزمان محددين بل خرجت إلى معان أكثر رحابة ، يشترك الناس جميعاً فيها ، وظهر (اتجاه إنساني كان قليل الظهور في الشعر القديم . وأول خطوة نحو هذا الاتجاه تمثل في ظهور الإحساس بالوطن في شعر القرن الثاني . وهذه الظاهرة هامة جداً ، لأنها علامة على اقتراب الشعر العربي من المشاعر الإنسانية الرحيبة التي يسعها الوطن الكبير) [1] .

ولعل هذا الشاعر المنفلت الذي لم يقبل أن يكون صورة كاملة الملامح للشاعر القديم قد رأى أن من حقه المشروع أن يعبر عن معاناته بالصورة التي يراها ، وبجرية مقبولة نوعاً ما ، واستطاع أن يقرأ الحدث جيداً ، وأن ينظر باستقلالية تامة ، فالغربة عنده لها لون مختلف لأن إحساسه أصبح أيضاً مختلفاً .

وقد يفاجأ قاريء الشعر العباسي ببعض النظرات الشعرية الخاصة التي نظر فيها الشاعر إلى الأشياءبعينه هو لا بعيون الآخرين أو بعيون السابقين وراح يتعامل مع الأشياء تعاملاً شعرياً يكاد يكون خاصاً به وحده .

---

(1)ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : د . محمد هدارة ص : ٢٠٧ .

فهذا أبو الشيص محمد بن عبدالله بن رزين ، يثور على من لام الغراب وزعم أنه سبب من أسباب الفرقة والبين ، ويرى أن الإبل هي السبب الحقيقي في هذه الغربة ، لأنها هي التي تحمل المسافرين إلى الأماكن البعيدة وتغرّبهم عن أوطانهم [1]:

ما فرق الأحباب بعـــــــــد الله إلا الإبـــل

والناس يلحون غرا ... ب البين لما جهلــوا

وما على ظهر غرا ... ب البين تطوى الرحل

ولا إذا صاح غرا ... ب في الديار ارتحلوا

وما غراب البين إلا ... ناقـــة أو جمـــل

ولا شك في أن هذه النظرة فيها الكثير من الجدّة . حيث راح الشاعر يلوم الوسائل المؤدية إلى الغربة ، فيصب جام غضبه على الناقة والجمل ، وإن كان جام غضبه منصباً في واقع الحال على الغربة التي تفرّق الأحباب وتباعد بينهم ، وليس الهدف من وراء ذلك تبرئة الغراب من " دم الغرباء "كما قد يبدو للوهلة الأولى .

وطالما شكا الراحلون غربتهم ، وبكوا ديارهم ، ولم يجدوا سبباً واضحاً لهذا الحب ، ولا وجدوا علة لهذا الشغف حتى جاء علي بن العباس بن الرومي ، فأوضح العلة التي أوجبت ذلك [2]، في قصيدته التي وجهها لسليمان بن عبدالله بن طاهر يستعديه على رجل اغتصب داره منه [3]:

---

(1) ـ بهجة المجالس ١/٢٥١ـ٢٥٢ .
(2) ـ ينظر زهر الآداب: لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني : ٣ / ٧٠١
(3) ـ الديوان ٥ / ١٩ .

ولي وطـــن آلـــيت ألا أبـــيعه وألا أرى غيري له الدهر مالكا

عهدت به شرخ الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا

فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكـــروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وكثيراً ما علل ابن الرومي سبب هذا العشق الدائم ، وأشعر من حوله بأهمية الوفاء لهذا الحضن الكريم الذي يفتح ذراعيه لأهله ، فقد تشوق مرة إلى بغداد ، وقد طال مقامه في سر من رأى ، فقال [1]:

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست فيه العيش وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته وعليه أفنان الشباب تميد

وقبله بشار بن برد أجمل علة هذا التعلق ، حتى جاء ابن الرومي ففصلها ، يقول بشار [2]:

متى تعرف الدار التي بان أهلها بسعدى فإن الدمع منك قريب

تذكر من أحببت إذ أنت يافع غلام فمغناه إليك حبيب

ويدور في هذا الفلك أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فيقول بلغة آمرة متحدية (نقّل) ، وكأن نسيان وطن الشباب من المستحيلات التي لا تكون أبداً [3]:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ماالحـب إلا للحبيب الأول

---

(1) ـ الديوان ٢ / ٢٧٠ .
(2) ـ الديوان ص: ٧٠ .
(3) ـ الديوان ٢ / ٢٩٠ .

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينـــه أبـــداً لأول منـزل

ويحن رجاء بن هارون العكي إلى وادي الأراك ، لأنه يحمل ذكريات الصبا المحببة إلى النفس[1]:

أحن إلى وادي الأراك صبابة لعهد الصبا فيه وتذكار أول

كأن نسيم الريح في جنباته نسيم حبيب أو لقاء مؤمل

وهكذا نلاحظ أن الشاعر العباسي استطاع أن يحدّد مفهوم الوطن ، ويحدّد من ثمّ شعوره تجاهه ، فهو المهد والمغاني والمنازل والمناخ مثلما هو الصبا والشباب ، وهو الحب الأول والهوى الأول أي أن نظرة الشاعر العباسي إلى الوطن تشمل مختلف الجوانب الموضوعية والذاتية . وهذا يؤكد أن مفهوم الوطن لدى هذا الشاعر لا يختلف كثيراً عن المفهوم الحديث للوطن . وفي ذلك الكثير من الوعي بأهمية الوطن وأهمية العيش فيه ، إضافة إلى أهمية المشاعر الإيجابية المتعلقة به . فلم يعد الشاعر العباسي شاعراً قبلياً ، يرحل مع قومه باحثاً عن الماء والكلأ ، بل أصبح مستقراً أو شبه مستقر . إلا في النادر . وهذا ما عمق مفهوم الوطن لديه (ولم يصبح عصبية للجزيرة العربية كما كان. . . ولكن تغير مفهوم الوطن فأصبح البقعة الجديدة التي يعيش فيها الإنسان وترتبط حياته بها . ولهذا اختفى شعر الحنين إلى الجزيرة العربية ، وحل محله حنين إلى البصرة والكوفة أو خراسان في أية بقعة منها ، ما دامت هذه الأماكن قد أصبحت وطناً جديداً للشعراء)[2] .

والحق أن الحنين إلى الجزيرة العربية لم يختف تماماً ، ولكنه تراجع كثيراً ، وبما أن الشاعر العباسي أصبح مواطناً يعيش استقراراً مكانياً واجتماعياً ، فإنه عندما يترك أرضه أو يهاجر

---

(1) ـ زهر الأدب ٣ / ٧٠٣ .
(2) ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص: ٢٠٨ .

منها ، فإنه هجرته تلك مسببة ، وقد يكون مضطراً إليها ، أو مرغماً عليها . وقد يكون من أسباب هذه الغربة القسرية ، الهرب من وجه السلطة الحاكمة ، لأن هذا المغترب فار بنفسه من يدها ، مطلول دمه ، أو ينتظره سجن طويل الأمد .

فقد قام بنو العباس منذ استلامهم لدفة الحكم بتصفية خصومهم ، وعلى رأس هؤلاء الخصوم الأسرة الأموية كافة ، ولم يكن أمام بني أمية إلا الفرار بحثاً عن سبل النجاة ، وكان أبرز هؤلاء الفارين عبدالرحمن الداخل الذي يمم شطر المغرب واستقر في الأندلس ليؤسس الإمارة الأموية في هذه البلاد .

ولم ينس هذا الأمير ، في زحمة الأحداث الجليلة ، مسقط رأسه ، فكان كل شيء يذكره بالشرق ، وقد رأى مرة نخلة منفردة في رصافة قرطبة ، فرأى نفسه فيها ، وغدت هذه النخلة الغريبة التي جئ بها من الشرق لتغرس في المغرب معادلاً موضوعياً لهذا الأمير الشاعر ، فهو غريب منفرد في هذه البلاد . على الرغم من وهج الإمارة وبريقها . يقول(١):

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسح ويستمري السماكين بالوبل

وتشده مرة أخرى غربة هذه النخلة وانفرادها ، ويسائلها أتبكي هي أيضاً (٢):

يا نخل أنت فريدة مثلي ... في الغرب نائية عن الأصل

(1)ـ الحلة السيراء : ابن الأبار : ١ / ٣٧ .
(2)ـ المصدر السابق نفسه .

فابكي وهل تبكي مكبسة عجماء لم تطبع على خبل

ولو أنها تبكي إذا لبكت ماء الفرات ومنبت النخل

لكنها ذهلت ، وأذهلني بغضي بني العباس عن أهلي

ولا بأس من الإشارة إلى أن النخلة قد احتلّت موقعاً هامّاً في هاتين المقطوعتين ليس على المستوى الفني حيث تحوّلت إلى معادل موضوعي لشخصية الشاعر المغتربة وحسب ، بل أيضاً على المستوى النفسي ، حيث شكلت شرارة الإحساس بالاغتراب مثلما شكلت شرارة الإبداع الشعري وذلك إضافة إلى أنه يمكن رؤية الوطن في النخلة بالنسبة إلى الشاعر ، من منطلق أن المحرّ ض على التذكر والشوق والحنين لا بدّ أن يحمل معنى جزئياً أو كلياً يرمز إلى موضوع التذكر وبهذا فالنخلة ، في لحظة من لحظات الشاعر ، كانت وطناً صغيراً ذكرّه بالوطن الكبير .

إن غربة هؤلاء المطاردين المبعدين غربة نفي وتشريد ، ومعنى النفي تطور لمعنى الخلع في العصر الجاهلي الذي كانت قامة المخلوع تتقزم أمامه ، لأنه يفقد بفقده كل وسائل الحماية والأمان ، والنفي لـــــه شأن آخر (فالشاعر المنفي يراوده الأمل في العودة إلى وطنه حين تتبدل الظروف السياسية ، ولكنه لايدري متى تتبدل هذه الظروف : أيمتد به العمر حتى يشهد هذا التبدل ، أم يخترمه الموت ؟ ومن هنا كان هذا الإحساس العنيف بالقلق) [1] الذي نجده عند الشعراء المنفيين والمشردين ، فهذا أبو عدي عبدالله بن عمر العبلي ينضم إلى العلويين في ثورتهم ضد الدولة العباسية ، وبعد أن علم بهزيمة العلويين ومطاردة بني العباس لأنصارهم ، هرب إلى اليمن

---

(1)ـ شعر الاغتراب في الأدب العربي: د . ماهر حسن فهمي ، مجلة مجمع اللغة العربية ص: ١٤٠ .

خائفاً يترقب ، تجلده الغربة بسياطها وترعبه جلجلة خيول بني العباس التي لا تكاد تفلت مطارداً ، وفي ذلك يقول (١):

هيجت للأجزاع حول عراب ... واعتاد قلبك عائد الإطراب
وذكرت عهد معالم بلوى الثرى ... هيهات تلك معالم الأحباب
هيهات تلك معالم من ذاهب ... أمسى بجوضي أو بجقل قباب
قد حل بين أبارق ما إن له ... فيه من إخوان ولا أصحاب
شطت نواه عن الأليف وساقه ... لقرى يمانية حمام كتـــاب

وحنين هذا الشاعر لوطنه ، لم يتعده ، وإن توهم أحد أن ذكره لأهله وأحبابه حنين لهم ، فذاك أمر بعيد ، لأن غربته غربة منفي مطارد همه وطنه ، وإن حديثه عن أصحابه تعزية لنفسه لأنه يبحث عن مصدر أمان واطمئنان وسط هذا الخوف الذي ملأ نفسه وأحس معه أن كل من حوله يبحث عنه ليتقرب به إلى السلطان ، وكأنه يتمنى أصدقاء صادقين وقد وصل به القلق إلى الاغتراب الذاتي الذي لم يعد يحس معه بجمال الأشياء حتى جمال المرأة (٢):

يا أخت آل أبي عدي أقصري ... وذري الخضاب فما أوان خضاب
أتخضبين وقد تخرم غالباً ... دهر أضربنا حديد الناب
والحرب تعرك غالباً بجرانها ... وتعض وهي شديدة الأنياب
أم كيف نفسك تستلذ معيشة ... أو تنقعين لها ألذَّ شـــراب

(1) الأغاني ١١ / ٣٠٢ .
(2)ـ المصدر السابق نفسه .

وتضاعف هذه الغربة عندما يكون المطارد المغترب صعلوكاً ، تقتله وحدته ويمزقه إحساسه بالضياع ، فإذا أضفنا إلى ذلك ملاحقة السلطان له كان الأمر أشد وطأة ، فقد جاء الأحيمر السعدي إلى العراق فقطع الطريق ، وطلبه سليمان بن علي أمير البصرة ، وأهدر دمه ، فهرب وحن إلى وطنه [1]:

لئن طال ليلي بالعراق لربما ... أتى لي ليل بالشآم قصير

أيا نخلات الكرم لازال رائحاً ... عليكن منهل الغمام مطير

سقيتن ما دامت بكرمان نخلة ... عوامر تجري بينهن بحور

وما زالت الأيام حتى رأيتني ... بدورق ملقى بينهن أدور

تذكرني أطلالكن ، إذا دجت ... علي ظلال الدوم ، وهي هجير

وإذا كان المغترب شاعراً عرف بشفافيته وحبه لمن حوله وتضحيته لهم ثم صدم فيهم ، إذ قلبوا له ظهر المجن ، وخذلوه في ساعة الضيق ، فلا بد أن يحس بغربته بينهم ، وعندما تتفاقم مأساته ببعده عن بلده الحبيب وبسبب تضحيته لهؤلاء النكرة ، فإن ذلك سيضاعف في نفسه لهيب الغربة والألم . ويحيى بن طالب الحنفي كان شيخاً ديناً سخياً يقرئ أهل اليمامة ويقربهم ، وقد فرق ماله بين الناس في ضائقة أصابتهم . وباع عامل السلطان أملاكه ، وعزه الدين فهرب إلى بغداد . وكان له ضيعة كتبها لبعض قومه لئلا يبيعها السلطان ، فكابره القوم عليها فاشتد عليه ذلك .

(1) ـ معجم البلدان: ٢ / ٤٨٥ .

وكان يحيى شديد التعلق بوطنه ، كثير الحنين إليه ، وله في هذا قصائد باكية في غاية الجمال والتأثير . وفي مرة وهو في بغداد ، أراد رجل الشخوص إلى اليمامة ، فشيعه يحيى فلما جلس الرجل في الزورق ذرفت عينا يحيى وقال [١]:

أحقاً عباد الله أن لست ناظراً ... إلى قرقرى يوماً وأعلامها الغبر
كأن فؤادي كلما مر راكب ... جناح غراب رام نهضاً إلى وكر
إذا ارتحلت نحو اليمامة رفقة ... دعاك الهوى واهتاج قلبك للذكر
أقول لموسى والدموع كأنها ... جداول ماء في مسار بها تجري
ألا هل لشيخ وابن ستين حجة ... بكى طرباً نحو اليمامة من عذر ؟
يزهدني في كل خير صنعته ... إلى الناس ما جربت من قلة الشكر
فيا حزنا ماذا أجن من الهوى ... ومن مضمر الشوق الدخيل إلى حجر
تغربت عنها كارها فتركتها إذا ما ... وكان فراقيها أمر من الصبر
أتيت العرض فاهتف بجوه ... سقيت على شحط النوى سبل القطر
فإنك من واد إليّ مرجب ... وإن كنت لا تزداد إلا على عفر

وعلى الرغم مما لاقاه هذا الرجل النبيل من قلة شكر معروفه ، وتنكر الناس له ، وإحساسه بغربته الاجتماعية وانفصاله عن الآخرين في بلاده ، على الرغم من كل ذلك ظل وطنه همه الأول ، وبقيت أرضه حلمه الغالي الذي يتمنى تحقيقه ، ويظل الوطن دائماً فوق كل الاعتبارات الأخرى .

---

[1] ـ الأمالي : أبو علي القالي : ١ / ١٢٣ ، والحماسة البصرية : صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري ٣ / ١٠٨٥ .

ويواصل يحيى بن طالب بكاءه المر، وتلذعه أشواقه مع هبوب كل نسيم، ولا يملك إلا أن يدعو ربه [١]:

يهيج علي الشوق من كان مصعداً ... ويرتاع قلبي أن تهب جنوب
فيارب سل الهم عني فإنني ... مع الهم محزون الفؤاد غريب
ولست أرى عيشاً يطيب مع النوى ... ولكنه بالعرض كان يطيب

وتمتد رحلته فيصل إلى قومس ، وهو في طريقه إلى خراسان ، ويحس أن كل خطوة يخطوها تزيده بعداً ، وتئد آمال عودته ، يقول في ذلك [٢]:

أقول لأصحابي ونحن بقومس ... نراوح أكتاف المحذفة الجرد
بعدنا وعهد الله من أهل قرقرى ... وفيها الألى نهوى وزدنا على البعد

وعندما وصل خراسان تلاشت أحلام رجوعه ، واشتد حنينه ، وهاجت ذكرياته ، وأخذ في مخاطبة وطنه الذي غدا عنده كائنا يموج بالحياة ، فالتصق به التصاقاً شديداً ، وكأنه يحدث صديقاً حميماً يسمع ويجيب [٣]:

أيا أثلاث القاع من بطن توضح ... حنيني إلى أطلالكن طويل
ويا أثلاث القاع قد مل صحبتي ... مسيري فهل في ظلكن مقيل
ويا أثلاث القاع قلبي موكل ... بكن وجدوى غيركن قليل
ألاهل إلى شم الخزامى ونظرة ... إلى قرقرى قبل الممات سبيل

(1) ـ معجم البلدان ٤ / ١٠٣ .
(2) ـ الأغاني ٢٤ / ١٢ .
(3) ـ الأمالي ١ / ١٢٣ .

فأشرب من ماء الحجيلاء شربة يداوى بها قبل الممات غليل
أحدث عنك النفس أن لست راجعاً إليك فحزني في الفؤاد دخيل
أريد هبوطاً نحوكم فيردني إذا رمته دين علي ثقيل

ويزداد شوق يحيى بن طالب ويشتد حنينه ، ويتمنى أن يضطجع في تلك الأرض واضعاً يده وسادة له ، وذلك عنده غاية المنى [1]:

يا صاحبي فدت نفسي نفوسكما عوجا عليَّ صدور الأبغل السنن
ثم ارفعا الطرف ننظر صبح خامسة لقرقرى ياعناء النفس بالوطن
ياليت شعري والإنسان ذو أمل والعين تذرف أحياناً من الحزن
هل أجعلن يدي للخد مرفقة على شعبعب بين الحوض والعطن ؟

لقد بدأ واضحاً في الأبيات السابقة مجتمعة أن الأشياء والأماكن التي ذكرها الشاعر هي الوطن أوهي رموزه الجغرافية من جهة والنفسية والاجتماعية من جهة أخرى . فكل من قرقرى واليمامة وجداول الماء والعرض وأهل قرقرى وأثلاث القاع والخزامى وماء الحجيلاء والحوض والعطن ... الخ كل هذه تشكل موضوع الاغتراب لأنها تشكل الوطن . فهي ليست مجرد أشياء وأماكن بل هي عوالم ممتلئة بالوجدان الذاتي والاجتماعي والوطني عامة .

ويشكل العامل الاقتصادي سبباً قويّاً من أسباب الغربة القسرية التي عانى منها الشاعر في هذه الحقبة ، لأنهم يقولون " من لم يرزق ببلدة فليتحول إلى أخرى " [2] .

(1) ـ الأغاني ٢٤ / ١١٧ .
(2) ـ بهجة المجالس ١ / ٢٣٠ .

وطوف كثير منهم في الآفاق بحثاً عن العيش الكريم ، وفراراً من ذل الحاجة وقد عبر كلثوم ابن عمرو العتابي عن غربته التي قضاها ساعياً وراء رزقه ، واستقر أمره على أن الغنى في القناعة ، والراحة في الاستقرار [1]:

حتى متى أنا في حل وترحال ... وطول سعي وإدبار وإقبال

ونازح الدار لا أنفك مغترباً ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي

بمشرق الأرض طوراً ثم مغربها ... لا يخطر الموت من حرصي على

ولو قنعت أتاني الرزق في دعة ... بالي إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وتضيق الحال بمحمد بن عبدالملك الكلثومي بخراسان فيقصد خوارزم ، ويشتاق إلى العراق ، وكل شئ يذكره بهذا الوطن ، لأنه محزون ، فالطائر إذا غرد على فننه أثار كوامنه ، وأحس بغربته التي لا يشعر معها إلا بالآمه المبرحة ، وخوف من القادم المجهول جعله متخوفاً قلقاً [2]:

تقول سعاد ما تغرد طائر ... على فنن إلا وأنت كئيب

(أجارتنا إنا غريبان ها هنا ... وكل غريب للغريب نسيب)

أجارتنا إن الغريب وإن غدت ... عليه غوادي الصالحات غريب

أجارتنا من يغترب يلق للأذى ... نوائب تقذي عينه فتشيب

يحن إلى أوطانه وفؤاده ... له بين أحناء الضلوع وجيب

سقى الله ربعاً بالعراق فإنه ... إليَّ وإن فارقته لحبيب

أحن إليه من خراسان نازعاً ... وهيهات لو أن المزار قريب

---

(1) ـ المصدر السابق ١ / ٢٣١ .

(2) ـ معجم الأدباء : ياقوت الحموي ٦ / ٢٥٥٥ .

وإن حنيناً من خوارزم ينتهـــي إلى منتهى أرض العـــراق عجيب

وعوف بن محلم الخزاعي عاش بعيداً عن وطنه فترة طويلة ، وعندما شعر بضعف قواه وعجزه أفاق على صوت وطنه الغالي .

وقد أظهر عوف هذا الحب العميق لوطنه بعد أن علت به السن وتراكمت على ظهره السنون ، فاشتاق أن يستريح من رحلة الحياة بالإياب إلى أحضان وطنه الحبيب إلى نفسه ، يقول [١]:

إن الثمانين . وبلغتها . قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وابدلتني بالشطاط انحنا وكنت كالصعدة تحت السنان
وعوضتني من زماع الفتى وهمه هم الهجين الهدان
وهمت بالأوطان وجداً بها وبالغواني أين مني الغوان
فقرباني . بأبي أنتما . من وطني قبل اصفرار البنان
وقبل منعاي إلى نسوة أوطانها حران فالرقمتان
سقى قصور الشاذياخ الحيا من بعد عهدي وقصور الميان
فكم وكم من دعـوة لي بهـا أن تتخطاها صروف الزمـــان

ولم يكن عوف بن محلم الوحيد الذي جذبه بريق البلاط السلطاني ، فغربه عن بلاده وأهله ، فالعباس بن الأحنف عاش فترة طويلة يعاني من ألم الغربة ، وهو يرافق الخليفة هارون الرشيد في رحلاته وغزواته ، يقول العباس معبراً عن حاله [٢]:

---
[١] ـ طبقات ا بن المعتز ص: ١٨٧ .
[٢] ـ الديوان ص: ٢٣١ .

ما أنخنا حتى ارتحلنا فما نفرق بين المناخ والارتحال

سألونا عن حالنا إذ قدمنـــا فقرنا وداعهم بالســـــؤال

وعلى الرغم من تنقله المستمر وشحطه عن وطنه ، فإن حبه لأرضه ، لا ينقطع وعبرته لا تتوقف ، ووفاءه لا يتغير [١]:

ونازح الدار أفنى الشوق عبرته أمسى يحل بلاداً غيرها الوطن

يزداد شوقاً إذا دار به نزحـــت فما يغيره عن عهده الزمــــن

والعربي لا يستغني عن بلده أبداً، ولا يقبل عوضاً عنها ، لأن علاقته بأرضه علاقة سامية ، وبينهما أنبل ما يكون من الحب، وهذا الرابط روحي نفسي ، بل وعضوي أيضاً ، فلم يبعد جالينوس عن الحقيقة عنـدما قال: يتروح العليل بنسيم أرضه ، كما تنبت الحبة ببل القطر [٢]. فهواء الوطن يصلح للاستشفاء . وبهذا المعنى يقول الإمام الشافعي [٣]:

وإنـــي لمشــــتاق إلى أرض غـــزة وإن خـــانني بعـد التفرق كتمانـي

سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربهـــا كحلت به من شدّة الشوق أجفانـي

وابن أبي عاصية السلمي يتشوق إلى المدينة ، وهو عند معن بن زائدة باليمن ، ويرى أن هواء أرضه يشفيه [٤]:

أهل ناظر من خلف غمدان مبصر ذرى أحد ، رمت المدى المتراخيا

فلو أن داء اليأس بي ، وأعانـــني طبيب بأرواح العقيــق شفانيـا

---

(١) ـ المصدر السابق ص : ٢٦٤ .
(٢) ـ رسائل الجاحظ ٢ / ٢٨٦ .
(٣) ـ الديوان ص : ١٤٢ .
(٤) ـ معجم البلدان ١ / ١١٠ .

هذا الحب المتغلغل في النفوس ، لا تنسيه حفاوة السلطان ، ولا سيل الدراهم المتدفقة على الشاعر الذي يسعى الأمير لصحبته ، وهو يأبى إلا وطنه ، وإن حباً بهذا الحجم لجدير بأن يقف المرء عنده طويلاً .

وقد قصد الشاعر محمد بن وهيب الحميري والي الموصل ومدحه ، وكان صديقاً له ، حفياً به .وقد وصله هذا الأمير وأحسن جائزته ، ثم استأذن ابن وهيب منه ، بعد أن أقام عنده مدة ، فلم يأذن له ، وزاد في إكرامه وصلاته ، فقال متشوقاً إلى وطنه [1]:

ألا هل إلى ظل العقيق وأهله	إلى قصر أوس فالحزير معاد
وهل لي بأكناف المصلى فسفحه	إلى السور مغدى ناعم ومراد
فلم تنسني نهر الأبلة نية	ولا عرصات المربدين بعاد
هنالك لا تبني الكواعب خيمة	ولا تتهادى كلثم وسعاد
أجدي لا ألقى النوى مطمئنة	ولا يزدهيني مضجع ومهاد

ولم يكن للأمير أمام هذه الرغبة الجامحة إلا السماح للشاعر بعد أن قال له : أبيت إلا الوطن والنزاع إليه [2] .

والبحتري من الشعراء المتكسبين الذين لا تسعهم أرض ، ولا يقر لهم قرار ، فهم في ارتحال دائم ، وها هو يصور نفسه كالجمل الشرود الذي تتقاذفه الفيافي ، ويجعل سجع الحمام حلقة اتصال بينه وبين من يسأل عنه ، ولا يعرف خبره [3]:

---

(1) ـ الأغاني ١٩/ ٩٧ ـ ٩٨ .
(2) ـ الأغاني ١٩ / ٩٨ .
(3) ـ الديوان ١ / ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

أشــرق أم أغــرب يــا ســعيد وأنقــص مــن زماعــي أم أزيــد
عــدتني عــن نصيبين العــوادي فنجحــي أبلــه فــيها بلــيد
أرى الحــرمان أبعــده قــريب بهــا والــنجح أقــر بــه بعــيد
تقــاذف بــي بــلاد عــن بــلاد كأنــي بيــنها جمــل شــرود
إذا ســجع الحمــام هــناك قالــوا لفرط الشوق : أين ثوى الوليد ؟
وأين يكــون مرتهن بدهــر شريـد في حوادثـه طــريد

وهذه القصيدة عامرة بالاغتراب النفسي فالشاعر مشتت ، فقد توازنه ، وتضاءلت آماله ، وأضحى طريداً مشرداً ! !

ويبقى الوطن رمزاً خالداً ، تتقزم أمامه كل وسائل الجذب والإغراء ، ويبقى الإنسان محتاجاً إلى وطنه ، لا تشغله عنه الملهيات ، ولا تنسيه إياه الأماكن الأخرى ، وإن كانت أكثر بهجة وأشد بريقاً .

فبغداد كانت مركز الخلافة العباسية ، وأكثر مدنها شهرة ، وأشدها أنساً ولهواً ، ومع هذا فقد ملّها كثير من الشعراء الذين وفدوا إليها تاركين بلادهم ، على الرغم مما فيها من المغريات التي تجذب الشاعر . وإذا عذرنا من كان حنينه إلى الحجاز ؛ لأن في تلك البلاد روحانية لا تغيب ، فإننا لن نجد عذراً لمن يحن إلى سواها إلا حب التربة الذي لا يعلل . وممن ورد على بغداد محمد بن عبدالملك الفقعسي فلم ير مما فيها إلا مساوئها ، ولم يرق لــه جوها ، وتذكر

أحياء المدينة وجبالها ، فشده الحنين إليها ، ورأى أن شفاءه من آلامه وأوجاعه ، نظرته إلى جبل أحد والحرتين [١]:

نفى النوم عني ، فالفؤاد كئيب ... نوائب هم ما تزال تنوب
وأحراض أمراض ببغداد جمعت ... علي، وأنهار لهن قسيب
وظلت دموع العين تمرى غروبها ... من الماء ، دارات لهن شعوب
وما جزع من خشية الموت أخضلت ... دموعي ، ولكن الغريب غريب
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بسلع ، ولم تغلق علي دروب
وهل أحد بادٍ لنا وكأنه ... حصان ، أمام المقربات ، جنيب
يخب السراب الضحل بيني وبينه ... فيبدو لعيني تارة ، ويغيب
فإن شفائي نظرة ، إن نظرتها ... إلى أحد ، والحرتان قريب
وإني لأرعى النجم ، حتى كأنني ... على كل نجم في السماء ، رقيب
وأشتاق للبرق اليماني ، إن بدا ... وأزداد شوقاً أن تهب جنوب

وقدم ابن المولى إلى العراق في بعض سنيه فأخفق ، وضجر من بغداد ، وكره أهلها ، وشعر بوحدته الشديدة بينهم ، فكان يقلب وجهه في السماء شوقاً إلى بلاده [٢]:

ذهب الرجال فلا أحس رجالا ... وأرى الإقامة بالعراق ضلالا
وأرى المرجي للعراق وأهله ... ظمآن هاجرة يؤمل آلا

---

(1) ـ معجم البلدان ١ / ١٠٩ .
(2) ـ المنازل والديار : أسامة بن منقذ ص : ٢٤٥ .
والأغاني ٣ / ٢٨٩ .

وطـربت إذ ذكـر المديـنة ذاكـر ... يـوم الخمـيس فهـاج لي بلـبالا
فظللـت أنظـر في السـماء كـأنني ... أبغـي بناحـية السـماء هـلالا
طـرباً إلى أهـل الحجـاز وتـارة ... أبكـي بدمـع مسـبل إسـبالا
فيقال قد أضحى يحدث نفسه ... والعين تذرف في الرداء سجالا
إن الغـريب إذا تذكر أوشـكت ... منه المدامع أن تفيض عـلالا

ويتشوق علي بن محمد الحماني إلى بلاده ، وهمه أن يظفر بنظرة تحيا بها نفسه [1]:

ألا هـل سـبيل إلى نظـرة ... بكـوفان يحـيا بهـا الناظـران
يقلـبها الصـب دون السـدير ... حـيث أقـام بهـا القائمـان
وحـيث أنـاف بأرواقـه ... محـل الخورنـق والماديـان
وهـل أبكرن ، وكثبانهـا ... تلوح كأودية الشاهجـان

وإذا كان المغترب يشعر بوحشة غربته وهو يتمتع بقوته ، فإن هذا الشعور يبلغ أقصاه عندما يحس هذا المغترب بدنو أجله ، وهذه الغربة أبعد صور الاغتراب خوفاً وقلقاً ، وكفى بالموت نأياً واغترابا . وناهيك إذا اجتمعت غربة المكان والموت في مواجهة شاعر رقيق كالعباس بن الأحنف ، الذي اتخذ من طائر مغرد معادلاً موضوعياً لحاله ، وكأنما لمح أيضاً جانب الرقة والضعف في هذا الطائر الصغير [2]:

يا غريب الدار عن وطنه ... مفـرداً يبكي علـى شجنه
شـفه مـا شـفني فبكـى ... كلـنا يبكي علـى سـكنه

---

(1) ـ معجم البلدان : ٤ / ٤٩٠ .
(2) ـ الديوان ص: ٢٧٣ .

ولقـــد زاد الفـــؤاد شـــجا طائــر يبكــي علــى فنــنه

كلمـا جــد البـكاء بـــــه دبت الأسقام في بدنــــه

ثالثاً : الحنين إلى الأهل والأحبة :

العربي إنسان عاطفي ، رقيق المشاعر ، شديد التأثر ، يسمع كلمة جميلة فتملك مشاعره ، ويصنع له معروف فلا يجد جزاء له في بعض الأحيان إلا أن يجود بنفسه .

وهو اجتماعي لا يطيق الوحدة ، ولا يأنس بالانفراد ، لهذا فقد التصق بقبيلته في العصر الجاهلي التصاقاً شديداً ، فكانت وطنه الذي لا يرضى منه بدلاً .

وبعد أن جاء الإسلام وألف بين الناس ، تغير كثير من المفاهيم ، وحلت روابط كثيرة بدلاً من الروابط القديمة . وما أن تقدم بنا العصر حتى وجدنا الوطن يحتل مساحة كبيرة في قلب هذا العربي المرهف ، وقد شاركه في هذا الشعور إخوانه في الدين من مختلف الأجناس . وامتزج حنينه إلى وطنه بحنينه إلى أهله وأحبته وأصدقائه وعُد اغترابه في العصر العباسي على أنه (اغتراب عن الإخوان من الأصحاب والألاف وأكبر الظن أن تلك هي الرابطة الجديدة التي حلت محل الرابطة القبلية . . وعلى أية حال ساقه التطور الحضاري إلى هذه الرابطة ، كما كان يسوق الوضع الحضاري القديم شاعرنا الجاهلي إلى الحديث عن رابطة الدم) [(١)] .

ولعل أكثر ما يشدهم في أثناء اغترابهم ، في هذا العصر ، أحبتهم ورفاقهم في بلادهم التي غادروها ، فكان حنينهم إليهم شديداً ؛ لأنهم يرون أن شر البلاد بلاد لا صديق بها .

وقد يصرحون بأن ما يجذبهم إلى أوطانهم تعلقهم بأحبتهم لا بتلك الأرض ، ويعلنون ذلك مكاشفة دون مواربة ، فالعباس بن الأحنف يقض مضجعه ذلك الرحيل الذي لا يهدأ ، وما يؤلمه في رحلته الطويلة مفارقته لمن يهواه ، وشحطه عن ديار ألافه[(٢)]:

---

(1)ـ شعر الاغتراب في الأدب العربي : د . ماهر حسن فهمي ص : ١٤٤ .
(2)ـ الديوان ص : ٢٧٥ .

أقمـــنا مكـــرهين بهـــا فلمـــا ألفـــناها خـــرجنا مكـــرهينا

ومـا شـغف الـبلاد بـنا ولكـن أمـرُّ العـيش فـرقة مـن هويـنا

خرجـت أقر ما قد كنت عيناً وخلفت الفـؤاد بها رهينـا

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن مثيرات الشوق في هذا العصر قد اختلفت نوعاً ما عن مثيرات الشوق في العصور السابقة ، ولعل مرد ذلك إلى أن الشاعر العباسي لم يعد شاعراً بسيطاً ، يهتم بالأشياء الساذجة ، ولا تستوقفه المظاهر الأولية . بل تعمق شعوره ، وبدا تفاعله مع الظواهر المركبة أكثر من ذي قبل ، فنواح الحمام كان أعمق تأثيراً في نفسيته من المثيرات الأخرى كالأطلال والدمن ، فهو يوحي لـه إيحاءً قوياً بالكآبة والغربة لأن صـوته الحزين ، وهو بجانب إلفه ، يوحي بغربة متجذرة قد لا يعرف لها سبباً ظاهراً ، كما هي حال الشاعر العباسي الذي صدمه هذا العصر بكل ما فيه من تصادم الحضارات ، واختـلاف القيم ، وطغيان المادية ، والمؤثرات الفكرية ، فأضحى مغترباً حتى وهو بين أهله .

ولون آخر لحظوه في موقفهم من نواح الحمام ، وهو أنه كثيراً ما ناح وهو حر طليق ، وإلفه بجانبه ، فرأوا أنهم أحق منه بالنوح والحزن لبعدهم عن أهليهم وذويهم . وهذا ما نجده عند شعراء الغربة المكانية بصفة خاصة . فقد أثارهم نواح الحمام ، ومعه إلفه ، وكأنهم يرون أنه لا يجتمع الحزن وحضور الأحباب . وهذا ما يجعلنا نفهم أبعاد تعلق شاعر هذا العصر بأهله وأحبته ، فمع حضورهم لا مكان للأحزان ، وفي غيابهم لا قيمة للفرح أو لامكان له .

ومثير آخر من مثيرات شوق شعراء هذا العصر وهو النخلة ، فكم وقفوا عند النخلة المنفردة وشكوا إليها شوقهم وحنينهم ، وكأنما أثارهم انفرادها ووحدتها ، تلك الوحدة التي أصحبت مغروسة في أعماقهم ، وكثيراً ما كانوا يرون في النخلة معادلاً موضوعياً لذواتهم .

وإذا كان الشاعر الجاهلي يخشى الوحدة لأنه بحاجة إلى قوة الجماعة ، فإن الشاعر العباسي يخشى الوحدة لأنه بحاجة إلى دفء مشاعر الآخر وصدقه ، فهو لم يفقد الجماعة ولكنه فقد الألفة والصدق ، والمشاركة الحقيقية .

ولعل هذا هو السبب الرئيسي في حنين الشاعر الطاغي إلى أهله وأحبته ، حتى امتزجت صورتهم عنده بصورة الوطن ، ولم يعد يفرق بينهما إلا نادراً .

وتتعدّد أسباب الاغتراب المكاني عن الأهل والأحبة في الحقبة العباسية بحيث تشمل مختلف جوانب الحياة الاجتماعية . فمن تلك الأسباب ما هو سياسي ، سواء ما كان منه على صعيد المعارضة أم ما كان منه على صعيد الموافقة والموالاة . فنجد في الصعيد الأول عدداً من

الشعراء يقف في مقدمتهم عبدالرحمن الداخل ودعبل الخزاعي ولعل شعراء الصعيد الثاني هم الأكثر عدداً ، يدخل في عدادهم حتى بعض الشعراء الأمراء أو المتنفذين الذين اغتربوا عن أهليهم وأحبتهم لأسباب السلطة والإمارة ، كما يدخل في عدادهم بعض الشعراء الذين يصاحبون الخلفاء والأمراء في حلهم وترحالهم ، وهو ما يجعلهم يعانون الاغتراب أيضاً ، على الرغم من الحظوة التي كانوا يتمتعون بها لدى " أولياء نعمتهم " وهو ما يعني أن كثيراً من الشعراء المدّاحين قد وقعوا فريسة الشعور بالغربة ، وإن كان بعضهم يصطنع ذلك الشعور استدراراً

للمال أو متابعة لتقليد شعري قديم أو لكليهما معاً . غير أن هذا لا ينفي وجود ذلك الشعور لديهم . ولا سيما أن كثيراً منهم كان يغترب عن أهله وأحبته كي يصل إلى ممدوحه .

لقد أرغم عبدالرحمن الداخل على الغربة حفاظاً على حياته ودمه من السفك الذي وقع فيه غيره من البيت الأموي، فراح يعاني الغربة بأقسى أشكالها ، فتفطر قلبه بمقطوعات شعرية تفيض نواحاً وحنيناً إلى الوطن والأهل والأحبة . وقد مرّ بنا سابقاً وقوفه أمام نخلة وحيدة مفردة ، رأى فيها الوطن ، مثلما رأى فيها ذاته المغتربة المفردة . وها هو يحن إلى أهليه وأحبابه بقوله [١]:

أيها الراكب الميمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما تراه بأرضٍ وفؤادي ومالكيه بأرض

قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن عيوني غمضي

قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

أما دعبل الخزاعي الذي ما كان يستقر في موضع حتى يرحل إلى سواه توارياً عن الأنظار، وعن بطش الأمراء الذين أكثر من هجائهم السياسي فيسوّغ غربته بقوله [٢]:

وقائلة لما استمرت بها النوى ومحجرها فيه دم ودموع

ألم يأن للسفر الذين تحملوا إلى وطن قبل الممات رجوع

فقلت ولم أملك سوابق عبرة نطقن بما ضمت عليه ضلوع

تبين ، فكم دار تفرق شملها وشمل شتيت عاد وهو جميع

(١) ـ الحلة السيراء ١ / ٣٦ .
(٢) ـ الديوان ص: ١٢٨ .

كذاك الليالي صرفهن كما ترى لكل أناس جدبة وربيع

وهناك من اضطر إلى الغربة نزولاً عند رغبة الخليفة في صحبته ، ورضوخاً لرفض الأمير مغادرته لأنه أحد سماره . وفي هذه قد يكون للدراهم المتناثرة في حجر هذا الشاعر دورٌ آخر في بقائه بعيداً عن بلاده وأهله .

فهارون الرشيد ألف العباس بن الأحنف ، فكان يصطحبه معه في أسفاره ، ولما خرج الرشيد إلى خراسان خرج العباس معه ، وطال مقامه بخراسان ، ثم خرج إلى أرمينية ، فعارضه العباس في طريقه وأنشده متشوقاً إلى أحبابه [1]:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا
متى يكون الذي أرجو وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يدني على شحط جيران دجلة من جيران جيحانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت وعذبت بفنون الهجر ألوانا
ياليت من تتمنى عند خلوتنا إذا خلا خلوة يوماً تمنانا

وعوف بن محلم الخزاعي يخرج من الجزيرة ، ويصحب الأمير طاهر بن الحسين ويتنقل معه ثلاثين عاماً ، ثم يصحب ابنه عبدالله بن طاهر ، وكان يشهد معهما الحروب ولا يغيب عنهما في حل ولا ترحال . وعندما اشتاق إلى دياره وأهله ، استأذن ، فلم يؤذن له ، وبعد أن دهمته الشيخوخة ازداد إحساسه بالغربة ، ولعله كان (من أعمق شعراء القرن الثاني إحساساً بوطنه ، فهو يتشوق إليه في أبيات عميقه حزينة ، حين ذكرته به حمامة تنوح ، وهو لم يذكر

[1] - الديوان ص: ٢٧٤ .

وطنه فحسب ، بل ذكر أطفاله الذين تركهم في وطنه وأظهر هذا الإحساس النبيل بالبنوة ، أو الشعور الأبوي الرحيم) [١] . يقول [٢]:

أفي كـل عـام غـربة ونـزوح ... أمـا للـنوى مـن ونـية فتريـح

لقـد طلـح الـبين المشـت ركـائبي ... فهـل أريـن الـبين وهـو طلـيح

وأرقـني بالـري نـوح حمامـة ... فـنحت وذو اللـب الحـزين يـنوح

على أنهـا ناحـت ولم تـذر عـبرة ... ونحـت وأسـراب الدمـوع سـفوح

وناحـت وفرخاهـا بحيث تـراهما ... ومن دون أفراخـي مهامه فيـح

ونُصّب إبراهيم بن المدبر والياً على الثغور الجزرية ، فاشتاق إلى أحبابه بمنبج وقال[٣]:

ولـيلة عـين المـرج زار خـياله ... فهـيج لي شـوقاً وجـدد أحزانـي

فأشـرفت أعلـى الديـر أنظـر جامحـاً ... بـألمح آمامـي وأنظـر إنسـاني

لعلـي أرى أبـيات منـبج رؤيـة ... تسكن من وجدي وتكشف أشجاني

فقصـر طـرفي واسـتهل بعـبرة ... وفـديت مـن لـو كـان يـدري لفدانـي

ومثله شـوقي إلى مقابلـي ... وناجاه عني بالضمير وناجـاني

وقلد عبيدالله بن عبدالله بن طاهر اليمن ، فلم يرق له ذلك ، لأنه آثر البقاء ببغداد وفضلها ، وكأن هذه الولاية التي يطمح لها الكثير بلاء على هذا القائد ؛ لأنها ستبعده عن أحبابه ، ولا عجب إذا بحث عن فرج قريب ينقذه من مفارقة ألافه [٤]:

---

(١) ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري / د . محمد هدارة ص : ٢٠٨ .
(٢) ـ طبقات ابن المعتز ص : ١٨٧ . و الحماسة البصرية : ٣ / ١١١٨ .
(٣) ـ معجم البلدان : ٥ / ٢٠٦ .
(٤) (4) المصدر السابق ١ / ٤٦٣

أيــرحل آلــف ويقــيم إلــف — وتحـيا لـوعة ويمـوت قصـف
علـى بغـداد دار اللهـو مـني — سـلام مـا سـجا للعـين طرف
ومـا فارقـتها لقلـى ، ولكـن — تـناولني مـن الحـدثان صـرف
ألا روح ألا فـــرج قـــريب — ألا جـار مـن الحـدثان كهـف
لعل زمـاننا سيعـــود يوماً — فيرجع آلف ويســـر إلف

ونلحظ في هذه الأبيات معلماً أسلوبياً طريفاً ، وهو التجزيئية ، أي أن ثمة جملاً مستقلة عن الأخرى ، وهو ما يتكامل مع الفراق : أيرحل آلف / ويقيم إلف / وتحيا لوعة / ويمـوت قصف ... وكأن الفراق فرق بين التراكيب والجمل الشعرية ، أي كأن الأسلوب الشعري جاء تعبيراً عن الشعور النفسي تجاه الغربة ، فقطعت التراكيب مثلما تقطعت البلدان ، وتباعدت الجمل الشعرية مثلما تباعد الأهل والأحبة .

أما مطيع بن إياس فتمزّقه الغربة ، ويكويه ألم الفرقة ، وتستوقفه نخلتان في الطريق ، وكأن اجتماعهما يوحي بقرب فرقتهما ، فقد أشعلا لهيب شوقه ونكأا جرحه ، فقال هذه القصيدة التي يتشوق فيها إلى الري وأهلها [1]:

أســعداني يــا نخلــتي حلــوان — وابكيالي من ريب هـذا الزمان
واعلمـــا أن ريـــبه لم يـــزل — يفـــرق بـــين الألاف والخـــلان
ولعمـــري لـــو ذقـــتما ألم الفـــر — قـــة أبكاكمـــا الـــذي أبكانـــي
أســـعداني وأيقـــنا أن نحســـاً — ســـوف يلقاكمـــا فـــتفترقان

---

[1]- الأغاني ١٣ / ٣٥٦ .

كم رمتني ظروف هذي الليالي بفراق الأحباب والخلان

غير أني لم تلق نفسي كما لا قيت من فرقة ابنة الدهقان

جارة لي بالري تذهب همي ويسلي دنوّها أحزاني

فجعتني الأيام أغبط ما كنت بصدع للبين غير مدان

وبرغمي أن أصبحت لا تراها العين مني ، وأصبحت لا تراني

إن تكن ودعت فقد تركت بي لهباً في الضمير ليس بوان

كحريق الضرام في قصب الغا ب رفته ريحان تختلفان

فعليك السلام منى ماسا غ سلاماً عقلي وفاض لساني

ومرّة أخرى نواجه بالنخلة ، مثلما ووجهنا في أبيات محلم الخزاعي (أفي كل عام . .) بالحمامة ونوحها . وهذا مما يؤكد تأكيداً لا ظنّ فيه إن ثمة تغيراً في مثيرات الشوق ، في الحقبة العباسية ، عنه في العهود السابقة . حيث حلت النخلة والحمامة محل الأطلال والدمن التي كثيراً ما أثارت كوامن الشوق لدى الشاعرين الجاهلي والأموي والتي تحولت إلى تقليد فني في مطالع قصائد المديح العباسية ، من دون أن تحمل ألق الشوق القديم ، أو صدق التجربة الشعورية التي نلحظها قوية وعنيفة أمام النخلة والحمامة ، كما مر بنا في مختلف القصائد والأبيات السابقة .

ويبكي أبو نواس فراق أصحابه الذين قضى في صحبتهم زمناً عامراً ، ولم يجد لهم أنداداً ولا أمثالاً ، وهو يندبهم ، ويندب حظه ، لأنهم لن يعودوا إليه أبداً [1]:

---

[1] ـ الديوان ص : ٣٢ ـ ٣٣ .

عفـا المصـلى فأقـوت الكـثب — مـني فالمـربدان فاللـبب
فالمسجد الجامع المـروءة والمجـد — عفـا فالصـحان فالـرحب
مـنازل قـد عمـرتها يفعـاً — حتى بدا في عـذاري الشـهب
في فتـية كالسـيوف هـزهم — شـرخ شـباب وزانهـم أدب
ثـم أراب الـزمان فاقتسـموا — أيـدي سـبا في الـبلاد فانشـعبوا
لـن يخلـف الدهـر مـثلهم أبـداً — علـيّ ، هـيهات شـأنهم عجـب
لمـا تيقـنت أن روحـتهم — لـيس لهـا مـا حيـيت مـنقلب
أبليت صبراً لم يبله أحـد — واقتسمتني مـآرب شعـب

ومن الطريف أنه يذكر أماكن ، لم يتطرق إليها أحد قبله ، فقد جرت عادة بعض شعراء عصره على بكاء المنازل والديار ، التي كان يبكيها الشعراء القدماء .أما البكاء على الأحبة الذين عمروا الجامع والمصلى ، فبعض حظيات أبي نواس ، وهذا مما يمكن اعتباره جديداً . وذلك بسبب الاختلاف الحضاري ، ومنه العمراني الذي عايشه أبو نواس وكان من أكثر الداعين في شعره إلى تمثله والتعبير عنه ، وهجر الماضي الذي لم يعد لـه من حضور حقيقي أو فاعل في الحياة الجديدة .

وها هو ينتقل إلى الطرف النقيض ، فيحن إلى الكرخ وأيامه اللاهية فيه ، متشوقاً إلى صويحباته اللاتي أبطأ به عنهن مكثه عند الخصيب بمصر ، إذ أشغله عنهن أن له من هذا الأمير ، كل يوم ، سماء ثرة ، تستهل بالعقيان [١]:

---

[1] ـ الديوان : ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨ .

ذكـر الكـرخ نـازح الأوطـان فصباصـــــــبوة ولات أوان

ليس لي مسعدٌ بمصر على الشو ق إلى أوجــه هــناك حســان

نازلات من السراة فكرخـــا يا إلى الشط ذي القصور الدواني

ومما تداوله الناس من الأشعار التي تبكي الأحباب ، وتقف عند منازلهم أبيات علي بن أحمد ابن أبي أمية الكاتب التي اشتهرت في العصر العباسي ، وكثر الغناء فيها ، وتلقفها الشعراء معارضة وتضمينا ، يقول فيها [1]:

يـا ريـح مـا تصنعين بالـدمن كـم لـك مـن محو منظر حسـن

محـوت آثارنـا وأحـدثت آ ثـاراً بـربع الحبـيب لم تكـن

إن تك يا ربع قد بليت من الر يـح ، فإنـي بـال مـن الحـزن

قد كان يا ربع فيك لي سكن فصـرت مـذبان بعـده سـكني

شـبهت مـا أبلت الـرياح مـن آثـار حبيـبي النائـي إلى بدنـي

حاشاك ياريح أن تكوني على العاشـق عـوناً لحـادث الزمـن

ويعدّ العباس بن الأحنف من أغزر شعراء العصر نتاجاً في الاغتراب المكاني فهو نموذج للشاعر المغترب المعذب ، لا يكاد يجتمع مع أحبابه حتى يؤذن بينهم ناعب الرحيل ، فهو في ترحل مستمر ، وإن استقر رحل أحبابه . فهو تارة مقسم بين العراق والحجاز ، يعاني من الحرمان والشقاء ، ويبكي من اللوعة والحسرة [2]:

---

(1) ـ المنازل والديار ص: ١٦٤ .
(2) ـ الديوان ص: ٢٣٢ .

أصبح القلب بالعراق وأمسى		بالحجاز الهوى فكيف النعيم
إن فيما بين البقيع وبطحا		ن لداراً فيها الهوى مكتوم
لست أنسى بكاءها يوم ساروا		بأبي دمع عينها المسجوم
حفظ الله معشراً فارقوني		لا يطيعون في الهوى من يلوم
ليت شعري أيرجعون إلينا		فنراهم أم قصدهم أن يقيموا
إن يكن ينفع البكاء عليهم		فابك حتى تموت يا محروم

وتارة يفارق بغداد فيبكي أحبته فيها ، ويستبد به الشوق ، ويضنيه الهوى ، فيكابد همومه ساهراً لا ينام[1]:

بلغي يا ريح عنا		أهل بغداد السلاما
بأبي من حرم النو		م على عيني وناما
بأبي من كان مشغو		فاً بقربي مستهاما
فقضى الله علينا		أن شحطنا وأقاما
اذكري من ليس ينسا		ك ولو لاقى الحماما
إن من نام لعمري		يحسب الناس نياما

وتدفعه شدة وجده إلى كثرة البوح والبكاء إثر صاحبته الراحلة التي لا يرى العيش حلواً بدونها ، ولا العراق عامراً إذا لم تكن فيه . ولعل فراقها بلغ منه مبلغاً لم يعد معه شاعراً متأملاً ، يهتم بالصورة والتركيب ، إذ جاءت بعض بكائياته قريبة من الكلام

(1) ـ الديوان ص : ٢٣٧ .

العادي لا تشد ولا تدهش [1]:

أزين نساء العالمين أجيبي   دعاء مشوق بالعراق غريب
أيا فوز لو أبصرتني ما عرفتني   لطول شجوني بعدكم وشحوبي
سأحفظ ما قد كان بيني وبينكم   وأرعاكم في مشهدي ومغيبي
وكنتم تزينون العراق فشانه   ترحلكم عنه وذاك مذيبي
وكنتم وكنا في جوار بغبطة   نخالس لحظ العين كل رقيب

وقد يحلو للشاعر ذكر بلد غير بلده ، ولا يمل ترديد اسمه لأنه غدا موطن أحبابه ، ومحط الالفه ، وبأهلها تسمو الديار وترخص ، يقول العباس متشوقاً للحجاز [2]:

خبروني عن الحجاز فإني   لا أراني أمل ذكر الحجاز
وانعتوا لي ما بين بطحان فالمسجد   ما حوله وماذا يوازي
إن في بعض ما هناك لشخصاً   كان يشفي الموعود بالإنجاز

وموقف العباس بن الأحنف مع الغربة موقف لا يحسد عليه ، فإذا لم يبعد هو عن دياره فأحبابه راحلون لا ريب ، فهذا الشاعر المعذب لم يهدأ رحيله قط ، وهو في صراع مستمر مع الفراق [3]:

سلام على النازح المغترب   تحية صب به مكتئب
غزال مراتعه بالبليخ   إلى دير زكى فقصر الخشب

---

(1) ـ الديوان ص: ٢٥ .
(2) ـ الديوان ص: ١٦١ .
(3) ـ الديوان ص: ٥٦ .

أيا من أعان على نفسه بتخليفه طائعاً من أحب

سأستر، والستر من شيمتي هوى من أحب لمن لا أحب

والغربة عند شاعر عباسي محض تختلف عن الغربة عن شاعر عباسي مخضرم أدرك الدولتين الأموية والعباسية ؛ لأن مثيرات الشوق عند الأخير لا تزال بسيطة لامحة لا تحتاج إلى توقف وإعمال نظر ، فالبرق يثيره ، والنجم يذكره ، والصبا العليلة تحرك أشجانه ، وهذا لا يقلل من إبداعه ، فشاعر كابن الدمينة يجذبك إليه جذباً ، فتعيش مشاعره ، وتشاركه آماله وآلامه .

وها هو في موقف جميل مع سهيل وصورة أجمل في مشهد حي [1]:

إذا ما سهيل أبرزته غمامة على منكب من جانب الطور يلمح

دعا بعضنا بعضاً فبتنا كأننا رأينا حبيباً كان ينأى وينزح

وذلك أنا واثقون بقربكم وأن النوى عما قليل تزحزح

ومقطوعة أخرى تفوح برائحة شيح نجد ، وتنبض بإحساس هذا المحب المخلص ، الذي يعشق بعنف ، ويقع عليه الفراق عنيفاً . فيقف حائراً بين عذاب بعد الدار وبين عذاب قربها مع الهجر [2]:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد

أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى على فنن غض النبات من الرند

بكيت كما يبكي الوليد ، ولم تكن جليداً وأبديت الذي لم تكن تبدي

وقد زعموا أن المحب إذا دنا يَمَلُّ ، وأن النأي يشفي من الوجد

---

(1) ـ الحماسة البصرية : ٣ / ٩٩٢ .
(2) ـ المصدر السابق : ٣ / ٩٩٥ .

بكل تداوينا ، فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي ود

ونلحظ غربة أخرى عند بعض العباسيين ، قد نتجاوز في تسميتها بالغربة المترفة فهي لا تحمل روح المغترب الجاد ، ولا تعاني من حرقة البعد ، ولا لوعة الفراق . هي بعد عن حانات الخمر وأديرة العربدة ، ومحال اللهو والمجون ، ولا طائل من ذكر أمثلة عليها لأنها لا تكاد تدخل في عمق الاغتراب الذي ندرسه ، وغالباً ما تخلو أشعارها من التعبير الصادق وقريب منها تلك الأشعار التي تبكي بُعد رفاق أنس عابرين ، ولحظة متعة وترف ، وفي مثل ذلك يقول جحظة [1]:

سلام على تلك الطلول الدواثر ... وإن أقفرت بعد الأنيس المجاور
غرائر ، ما فترن في صيد غافل ... بألحاظهن الساجيات الفواتر
سقى الله أيامي برحبة هاشم ... إلى دار جرجير محل الجآذر
ألا هل إلى فيء الجزيرة بالضحى ... وطيب نسيم الروض بعد الظهائر
وأفنانها والطير تندب شجوها ... بأشجارها بين المياه الزواخر
ورقة ثوب الجحر ، والريح لدنة ... تساق بمبسوط الجناحين ماطر
سبيل وقد ضاقت بي السبل حيرة ... وشوقاً إلى أفيائها بالهواجر

وفي جانب آخر نجد إحساس كثير من الناس بالغربة في هذا العصر عميقاً ، لا تنسيهم ملهياته ولا مغرياته حسرتهم التي تكاد تفتت أكبادهم . فشخصية قيادية ذات نفوذ كبير مثل عبدالله

(1)- معجم البلدان ٢ / ٤٢١ .

ابن طاهر ، يستغرب المرء منه هذا الشعور الحزين الذي يظهر عنيفاً مفاجئاً ، في كل موقف يثير الشجن ، فقد ذكر أنه اجتاز بباب الطاق ببغداد ، فرأى قمرية تنوح فأمر بشرائها وإطلاقها ، فامتنع صاحبها أن يبيعها بأقل من خمسمائة درهم ، فاشتراها بذلك وأطلقها وقال[1]:

ناحت مطوقة بباب الطاق ... فجرت سوابق دمعي المهراق
كانت تغرد بالأراك ، وربما ... كانت تغرد في فروع الساق
فرمى الفراق بها العراق ، فأصبحت ... بعد الأراك تنوح بالأسواق
فجعت بأفرخها فأسبل دمعها ... إن الدموع تبوح بالمشتاق
تعس الفراق وبت حبل وتينه ... وسقاه من سم الأساود ساق
ماذا أراد بقصده قمرية ... لم تدر ما بغداد في الآفاق
بي مثل مابك يا حمامة فاسألي ... من فك أسرك أن يفك وثاقي

وهي أبيات تتحدث عن اغتراب عميق بدأ بالبعد عن المكان الذي جر إلى مستويات اغترابية أخرى .

وقد اتخذ الشاعر على عادة شعراء عصره من الحمامة معادلاً موضوعياً له ، حيث نجد أن ثمة تداخلاً بين المطوقة وذات الشاعر ، وكأنه شخص إحساسه الاغترابي بها ، فباتت تمثّله خير تمثيل ، في نواحها واغترابها ومعاناتها عامة ، كما بات يحلم أن يكون مصيره كمصيرها بعد تحرّرها وانطلاقها إلى موطنها الأصلي . وبهذا فالحمامة مثّلته في الحالتين : حالة

---

[1] ـ معجم البلدان : ١ / ٣٠٨ .

الفراق والنواح ، وحالة الانطلاق والحرية ، وهي حالته النفسية أو ربما الأصح أن نقول هي حالة رغبته الملحّة في العودة إلى الأهل والأحبة أو إلى الوطن عامة . وقد يكون من الطريف الإشارة في هذا المجال ، إلى أن الشاعر ، في البيت الأخير ، يدعو الحمامة أن تسأل من فكّ أسرها أن يفكّ وثاقه . وبما أنه هو الذي فكّ أسرها فكأنه يخاطب نفسه ، على طريقة المونولوج الداخلي ، أن عليه أن يتحرّر من الغربة مثلما حرّر الحمامة المطوّقة . فهو المحرّر لها ، ويجب أن يكون هو المحرّر لذاته .

وهذه الغربة الموغلة في نفوس شعراء هذا العصر ، نجد صداها عند أبي تمام فقد تملكه الاغتراب ، وأصبح الفراق ملازماًله ، وكأنما كتب عليه أن يكون مشتتاً لا يكاد يلتقي بإخوانه وأصحابه حتى يفارقهم ، ولا يطمئن في وطن حتى يغادره مكرها [1]:

ما اليوم أولَّ توديع ولا الثاني	البين أكثر من شوقي وأحزاني
دع الفراق فإن الدهر ساعده	فصار أملك من روحي بجثماني
خليفة الخضر من يرْبع على وطن	في بلدة فظهور العيس أوطاني
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا	بالرقتين وبالفسطاط إخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت	حتى تطوح بي أقصى خراسان
خلفت بالأفق الغربي لي سكناً	قد كان عيشي به حلواً بحلوان
غصن من البان مهتز على قمر	يهتز مثل اهتزاز الغصن بالبان

(1)ـ الديوان : ٢ / ١٥٨ .

ويصور إسحاق بن إبراهيم الموصلي إحساسه الدقيق بالغربة في لحظة من أشدّ اللحظات كثافة شعورية وهي لحظة الدنوّ والاقتراب من الأهل ، بعد فرقة طويلة ، حيث تزداد دقات قلبه وتتصاعد المشاعر وتضطرب انفعالاته النفسية كلما دنت الديار ، يقول[1]:

طربت إلى الأصيبية الصغار   وهاجك منهم قرب المزار
وكل مسافر يزداد شوقاً   إذا دنت الديار من الديار

وتبلغ الغربة غايتها عندما يحس الشاعر بدنو أجله في أرض بعيدة عن أهله وأحبته ، وحسرة المغترب المحتضر لاتدانيها حسرة ، وهذا علي بن الجهم يتعرض لمداهمة اللصوص قرب حلب ، ويخوض معركة يخرج منه جريحاً مطروحاً على الطريق [2]:

أسال بالليل سيل   أم زيد في الليل ليل ؟
ياإخوتي بدجيل   وأين مني دجيل

وفي تصوير الحالة النفسية للمغترب الذي ينفث آلامه وتتساقط نفسه حسراتٍ ، بحيث يبدو الوطن والروح وكأنهما توأمان ، يقول ابن الجهم [3]:

وارحمتا للغريب في البلد النا   زح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا   بالعيش من بعده ولا انتفعا
كان عزيزاً بقرب دارهم   حتى إذا ما تباعدوا خشعا
يقول في نأيه وغربته   عدلٌ من الله كل ما صنعا

(1) - بهجة المجالس : ١ / ٢٢٧ .
(2) - الديوان ص: ١٨٣ .
(3) - الديوان ص: ١٥٩ .

وهكذا نلحظ أن شعراء هذا العصر قد وقفوا أمام الاغتراب المكاني وقفات مطولة عبروا فيها عن صورة الوطن في ذواتهم كما عبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، جرّاء الاغتراب ، تجاه الأهل والأحبة بأساليب شعرية متقاربة ، ولغة شعرية تنهل من معجم المشاعر والمعاناة، تلك المفردات النابضة بالشوق والحنين والحزن والنواح والوحشة ... الخ، وهو ما يتكامل وطبيعة التجربة الاغترابية التي عايشها شعراء هذا العصر وعانوها بدرجات متفاوته ، ولكنها في مجملها تحمل معاني التمسك بالوطن أرضاً وأهلاً وأحباباً .

الفصل الثالث

الاغتراب الاجتماعي في الشعر العباسي

أولا : الاغتراب عن القيم الاجتماعية .

ثانياً : الاغتراب عن القيم السياسية .

ثالثا : الاغتراب عن القيم الجمالية .

عندما يحس الفرد ببعده عن الناس من حوله، وعندما يصعب عليه التواؤم مع مجتمعه والعالم المحيط به، فإنه يعيش تجربة الاغتراب التي تهدد ذات الفرد مثلما تهدد النسيج الاجتماعي، وتؤدي إلى تصدعه وانشقاقه.

ويمكن تعريف الاغتراب عن المجتمع بأنه (شعور الفرد بالانفصال عن جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، كالشعور بالانفصال عن الآخرين، أو عن القيم والأعراف والعادات السائدة في المجتمع أو عن السلطة السياسية)[١].

ولهذه الظاهرة دواع وأسباب أدت إلى تفاقمها. وقد لخص بعض الباحثين أهم مسببات الاغتراب فيما يلي:

(١ ـ الظلم الاجتماعي مما يسبب العزلة.

٢ ـ الانحطاط الخلقي المتجلي في الحسد والكسل والنهم والتهالك على الشهوات والمكاسب المادية.

٣ ـ الظلم الاقتصادي الذي يجعل إحدى طبقات المجتمع تستغل الطبقات الأخرى)[٢].

ولا شك في أن هناك أسباباً أخرى تقف وراء هذا الانفصال الذي يسبب تصدعاً خطيراً في ذات الفرد وفي المجتمع.

والمجتمع العباسي مثله مثل أي مجتمع حضاري آخر، كان عرضة لانتشار هذه الظاهرة بشكل كبير، والشعراء بصفتهم أرق الناس مشاعر، وأشدهم حساسية، استطاعوا أن

---

[1]ـ الاغتراب في الشعر العباسي (القرن الرابع الهجري) ص: ١٥١ .
[2]ـ الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب : أحمد عوده الله الشقيرات ص: ١٤ .

يرصدوا لنا الاغتراب في هذا العصر ، ففاضت أشعارهم باللوعة والحزن والإحباط والبعد عن الآخر، وصوروا ذلك أدق تصوير .

ومجالات الاغتراب الاجتماعي، في هذا العصر، جاءت في ثلاثة محاور هي:

١ . الاغتراب عن القيم الاجتماعية .

٢ . الاغتراب عن القيم السياسية .

٣ . الاغتراب عن القيم الجمالية .

أولاً : الاغتراب عن القيم الاجتماعية :

ونعني بالاغتراب عن القيم الاجتماعية ما يسمى عامة ، بالاغتراب الاجتماعي وينطوي تحته جانبان هما :

١ . الاغتراب عن قيم المجتمع وما يصحب ذلك (من إحساس بالألم والحسرة أو بالتشاؤم واليأس ، وما يرافقه أحياناً ، من سخط أو تمرد أو نقمة أو ثورة)[1] .

٢ . الاغتراب عن الآخرين والانفصال عنهم .

١ - الاغتراب عن قيم المجتمع والإحساس بالظلم والحرمان :

على الرغم من بريق الخلافة العباسية ، وقوة سيطرتها في عصورها الأولى إلا أن هذا لا يعني أن الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، كانوا يتمتعون بالعدل الاجتماعي ولا يرفلون بثياب النعيم التي جاءت بها تلك الثروة المتدفقة فقد كان النظام الاجتماعي يعاني من خلل واضح ، مثلما كان

---

[1]- الاغتراب في الشعر العباسي (القرن الرابع) ص ١٥١ .

النظام الاقتصادي سيئاً للغاية إذ لم يحقق للناس البسطاء جزءاً من أحلامهم ، ولم يوفر لهم الحياة الكريمة التي يتمنونها ، بل وصل الحال بكثير منهم إلى الجوع الشديد حتى غدت كسرة الخبز حلماً غالياً بالنسبة لهؤلاء الفقراء . ولم تكن الثروة موزعة توزيعاً عادلاً ، ولم يكن الفرق بين طبقات المجتمع طفيفاً ، إذ استأثر بالثروة الخلفاء وأقرباؤهم وأعوانهم ومن يتصل بهم . وطغى عمال الخراج في جبايته وكثرت الخيانة وفشت الرشوة ، ومثلما كان الخلفاء يغدقون هباتهم على قوادهم ومغنييهم وشعرائهم ، كان الوزراء والعمال ينهبون بيت المال ويتمتعون به ، ويحرمون الشعب من أدنى حقوقه وأبسطها .

وكانت النتيجة ثورات متصلة ، وجوعاً قاتلاً ، وطبقة تسف التراب ، بينما طبقة أخرى تسرف في موائدها حتى البذخ ، وتضع تحت أقدام المهرجين والمادحين والجواري أموالاً خيالية .

انقطعت الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وطغت الطبقة المتنفذة على حساب الشعب ، وخفتت أصوات الجائعين لأن أبواق السلطة كانت تغني عالياً وتملأ الأرض دجلاً ونفاقاً . هؤلاء الشعراء المثرون من ألسنتهم ، غيروا وجه الحقيقة ، وأرضوا أنانيتهم وجشعهم ، من أجل كسب جديد . ولولا بعض الأصوات التي وصلت إلينا شاكية لتخيلنا أن المجتمع العباسي ينعم بالرفاهية والرخاء قياساً على حال الطبقة الثرية .

وهذه الأصوات على قلة ما حفظ من نتاجها إلا أنها ترسم صورة واضحة لتلك المعاناة القاسية . وقد جاءت أشعارهم صدى لسلسلة إحباطاتهم وسخطهم على الحياة والناس ، واضطر هؤلاء الفقراء لمجابهة هذه الأوضاع السيئة فجاءت ردة فعلهم عنيفة ، إذ تمردوا

وثاروا ، وخرجوا على المجتمع والسلطة ، فنهبوا الأسواق وقطعوا الطرق وهم في نظر السلطة (خارجون على النظام ، عابثون بالقانون ، ثائرون على السلطان ، وهم على التحقيق لم يكونوا كذلك ، وإنما كانوا يحققون وجودهم ، ويكسبون أقواتهم برماحهم وسيوفهم ، لأن الدولة أهملتهم وظلمتهم ، ولم توفر لهم شيئاً من وسائل الحياة)[١] .

وصعاليك هذا العصر الثائرون تكونوا من ثلاث طبقات : (طبقة الفقراء المعدمين البائسين ، وطبقة اللصوص الثائرين ، وطبقة من العيارين والفتيان والطفيليين)[٢] .

وقد اعتمد الصعاليك الفقراء على قوة بيانهم ، فاستخدموا النقد اللاذع والتشهير والهجاء ، واستطاعوا عن طريق ذلك توفير شيء مما يأملونه .

أما اللصوص فكانت لهم عصابات منظمة لها مبادئها التي تشبه مبادئ الصعاليك القدماء ، أما العيارون فقد عاثوا في الأرض فساداً ، وقد حدث منهم أيام فتنة الأمين والمأمون شر كثير أشرنا إليه سابقاً .

ولجأ الطفيليون إلى رمي أنفسهم على موائد الأثرياء ، دون دعوة ، فكانوا يصيبون لذائذ المآكل ، ويعوضون ما حرموا منه من المتع .

وقد وصف أبو العتاهية حال هؤلاء الفقراء وصور مأساتهم في قصيدة وجهها إلى أحد الخلفاء العباسيين ، شاكياً من غلاء الأسعار وبؤس حياة الشعب [٣]:

من مبلغ عني الإما ... م نصائحاً متوالية

---

(1)- الصعاليك في العصر العباسي الأول: د. حسين عطوان ص: ٣٨ .
(2)- المرجع السابق ص: ٦٧ .
(3)- الديوان ص : ٤٣٨ .

إنـــــي أرى الأســـــعا ر ، أسـعار الـرعية غالـية
وأرى المكاســـب نـــزرة وأرى الضـــرورة فاشـــية
وأرى همـــوم الدهـــر را ئحـــة ، تمـــر وغاديـــة
وأرى المراضـــع فـــيه عـــن أولادهـــا متجافـــية
وأرى اليتامـــــى ، والأرا مـــل في البـــيوت الخالـــية
مـــن بـــين راجٍ لم يـــزل يســـمو إلـــيك وراجـــية
يشـــكون مجهـــدة بأصـــوا ت ضـــعاف عالـــية
من مصبيات جـــوع تمسي ، وتصبح طـــاوية

وتشتد كربة هؤلاء المعسرين الذين اضطرتهم ظروفهم للانفصال عن قيم مجتمعهم ، فعاشوا في عزلة أو ما يشبه العزلة ، وتعالت أصواتهم أسى على حظهم التعيس ، فجاءت أحاسيسهم نزفاً دامياً يرسم أبعاد غربتهم وكآبتهم . وعمرو بن الهدير واحد من أفراد هذه الفئة المهزومة ، وجد في الشعر متنفساً له ، فصور حاله البائسة ، في سخرية مريرة ، وألم ممض ، يقول [1]:

وقفت فلا أدري إلى أين أذهب وأي أمـــوري بالعـــزيمة أركـــب
عجـبت لأقـدار علـي تـتابعت بنحس ، فأفني طول عمري التعجب
ولما التمست الرزق فانجد حبله ولم يصف لي من بحره العذب مشرب
خطبت إلى الإعدام إحدى بناته لـرفع الغنـى إيـاي إذ جـئت أخطـب
فـزوجنيها ثـم جـاء جهازهـا وفـيه مـن الحـرمان تخـت ومشـحب

(1)- العقد الفريد : أحمد بن محمد عبد ربه ٢١٦/٦ - ٢١٧ .

فأولـدتها الحـرف النقـي فمالـه | على الأرض غيري والد حين ينسب
فلو تهت في البيداء والليل مسبل | علـي جناحـيه لمـا لاح كـوكب
ولـو جـاد إنسـان علي بـدرهم | لرحت إلى رحلي وفي الكف عقرب
ولـو يمطـر الـناس الـدنانير لم يكـن | بشيء سوى الحصباء رأسي يحصب
ولو لمست كفاي عقـداً منظماً | من الدر أضحى وهـو ودع مثقب

ومثلما حمل ابن الهدير حظه مسؤولية إخفاقه ، حمل أمثاله من صعاليك هذا العصر حظوظهم مسؤولية فشلهم في الحياة ، وسوء حالهم ، وما يعانونه من أزمة مستمرة ، وفقر ملازم ، وأبو الشمقمق من أشقى شعراء تلك الحقبة ، ومن أشدهم فقراً وأكثرهم إخفاقاً يقول [١]:

لو ركبت البحار صارت فجاجاً | لا ترى في متونها أمواجـا
ولو أني وضـع ياقـوتة حمـراء في راحـتي لصـارت زجاجا
ولو اني وردت عذباً فراتـاً | عاد لا شك فيه ملحاً أجاجا
فإلى الله أشتكـي وإلى الفضـل فقـد أصبحت بـزاتي دجـاجا

ويشكو أبو فرعون الساسي من سوء حظه ، فقد تخيله شيخاً عاجزاً معوقاً لا يرجى منه نفع [٢]:

رأيـت في الـنوم بخـتي | في زي شـيـخ أرت

[١] ـ المصدر السابق نفسه ص : ٢١٦ .
[2] ـ طبقات ابن المعتز ص : ٣٧٦ .

أعمـــى أصـــم ضـــئيلاً أبـــا بـــنين وبـــنت

فكيف لي بـــــدواء يلين لي بطن بختي

وكرس هؤلاء الفقراء معظم شعرهم في وصف بؤسهم وتعاستهم ، وما يعانونه من الحرمان والشدة ، واستقر في أذهانهم أنهم طبقة محرومة مظلومة ، وجاء إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه الشهير بالحمدوني ليجسد ذلك الإحساس ، ويصور ما يرزحون فيه من ضيق ومرارة ، وكأنهم يعيشون على هامش الحياة [١]:

من كان في الدنيا أخا ثروة فنحن من نظاره الدنيا

نرمقها من كثب حســرة كأننا لفظ بلا مـــعنى

وكان أقصى ما يأمله هؤلاء الصعاليك أن يؤمنوا لأبنائهم وأسرهم رغيف خبز وكساء يستر عريهم ، واندفعوا متظلمين من قسوة ظروفهم ورسموا لأهليهم صوراً مزرية موجعة تصف أحوالهم السيئة ، وغربتهم عن مجتمعهم الذي لفظهم ، وفتح ذراعيه لذوي الثراء والجاه .

يقول أبو فرعون الساسي ناقلاً لنا صورة بنيه الذين مسهم الضر ، وأحرقتهم سياط الجوع [٢]:

وصـــبية مـــثل فـــراخ الـــذر ســـود الوجـــوه كســواد القـــدر

جـــاء الشـــتاء وهـــم بشـــر بغـــير قمـــص وبغـــير أزر

حتـــى إذا لاح عمـــود الفجـــر وجاءني الصبح غدوت أسري

وبعضـــهم ملتصـــق بصـــدري وبعضـــهم منحجـــر بحجـــري

فارحم عيالي وتولى أمـــري كنيت نفسي كنية في شعـــري

(1)ـ د. حسين عطوان : الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ٨٦ .

(2)ـ طبقات ابن المعتز ص : ٣٧٦ .

أنا أبو الفقر وأم الفقر .

وعندما تضيق بهم السبل ، يبحثون عمن يواسيهم في شدتهم فيتضاءلون أمامه ، ويتسولون حتى الطعام ، ويصفون حال أهلهم بأسوأ الأوصاف التي يحاولون من خلالها استعطاف قلب هذا الثري أو ذاك ، فأبو الشمقمق يختلق الأحلام أمام أحد ممدوحيه طمعاً في نيل ما يسد رمق أبنائه [١]:

إنـــي رأيـــتك في المـــنا — م وعـدتني مـنك الـزيارة
فغـدوت نحـوك قاصـداً — وعليك تصـديق العبارة
إن العـــيال تـــركتهم — بالمصر خبزهم العصـارة
وشـــرابهم بـــول الحمـــا — ر مـزاجه بـول الحمـارة
ضجـوا فقلـت تصـبروا — فالنجح يقـرن بالصبـارة
حتـى أزور الـهـــاشمـــي أخـــا الغضـــارة والنضـــارة
ولقـد غدوت وليس لي — إلا مديحـك مـن تجـارة

ويبلغ بهم الأسى غايته ، فينفصلون عن مجتمعهم ، وتنقلب عندهم القيم ، فيصبح رغيف الخبز سيداً ممدوحاً عزيز المنال ، تتهافت عليه قصائد التبجيل ، وأبو المخفف عاذر بن شاكر أفرد كثيراً من أشعاره لوصف الرغفان ، في سخرية لا تخلو من المرارة ، ولعل من الطريف أن المرء يلحظ في بعض قصائده التي يصف بها الرغفان ، أنه يضفي عليها شيئاً من التقديس الذي حظيت به خمرة أبي نواس ، يقول [٢]:

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ١٢٧ .
(2)- الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ص: ٨٨ .

جانبت وصل الغانيات		وصحوت عن وصل اللواتي
نعمت بهن عيون من		واصلنه حتى الممات
فدع الطلول لجاهل		يبكي الديار الخاليات
ودع المديح لأمرد		ولخادم ولغانيات
وامدح رغيفاً زانه		حرف يجل عن الصفات
يدع الحليم مدلها		حيران يغلط في الصلاة
منع الرغيف سفاهة		بذل الرغيف من الهبات

ومثلما عانوا من الجوع والعري ، عانوا من السكن الذي يقي أسرهم حر الصيف وبرد الشتاء ، وعندما يجدونه فإن وجوده والعدم سواء ، إذ إن منازلهم تفتقر إلى أبسط مقومات الحياة ، ومن هنا كثرت شكواهم من بيوتهم الموحشة الكئيبة التي نفرت منها نفوسهم ، ولم تجد فيها الفئران ما تأكله ، فهجرتها . ولأن أبا الشمقمق عاش حياة بائسة وإخفاقات متصلة ، فقد جاء شعره صورة لمعاناته ، وكان من أكثر الشعراء الذين وصفوا سوء حالهم وكآبة منازلهم ، وهروب السنانير منها لأنها لم تجد فيها ما يسد رمقها . وكثيراً ما تحدث عن حرمانه وإقلاله بشكل ساخر يحمل كثيراً من الحسرة والآهات .

وقد وصف منزله الذي غدا سجناً كئيباً ، يفر منه حتى الذباب ، فهو قفر خاوٍ [1]:

ولقد قلت حين أجحرني البر		د كما تجحر الكلاب ثعالة

---
[1] - الحيوان ٥/٢٦٦ .

في بيـيت مـن الغضـارة قفـر — لـيس فـيه إلا الـنوى والـنخالة
عطلـته الجـرذان مـن قلـة الخيـر — وطـار الـذباب نحـو زبالـة
هاربـات منه إلى كـل خصـب — حـين لم يـرتجين منه بلالـة
وأقـام السـنور فـيه بشـر — يسـأل الله ذا العـلا والجلالـة
أن يـرى فـأرة فلـم يـر شـيئاً — ناكسـاً رأسـه لطـول الملالـة
قلـت لمـا رأيـته نـاكس الـرأ — س كئيباً يمشي على شر حالة
قلـت صـبراً يـا نـاز رأس السنانير — وعللـته بحسـن مقالـة
قال : لا صبر لي، وكيف مقامي — في قفار كمثـل بيد تبالـة

وأبو فرعون الساسي آلمه وضعه البائس ، فأغلق بابه رأفة بنفسه لكي لا يشمت به حاسد ، أو يرثي له شامت ، فبيته خالٍ من كل ما يسرق، ولا يسكنه إلا الفقر والشقاء [(1)]:

لـيس إغلاقـي لبابـي أن لي — فيه ما أخشى عليه السرقا
إنمـا أغلقـته كـي لا يـرى — سوء حالي من يجوب الطرقا
منـزل أوطـنه الفقـر فلـو — دخـل السـارق فـيه سـرقا
لا تـراني كاذباً في وصفـه — لو تـراه قلت لي : قد صدقا

وظلت هذه الطبقة الفقيرة ترسف في فقرها بينما تباهى ذوو النفود وأعوانهم بما ينفقونه من الأموال الطائلة ، وما يقدمونه على موائدهم من ألوان الأطعمة الباذخة . ولقد ولد التفاوت الاقتصادي انفصالاً حاداً بين السلطة وهذه الطبقة المطحونة ، وبين أثرياء هذا المجتمع وفقرائه ،

(1)- طبقات ابن المعتز ص: ٣٧٦ .

فكانت ظاهرة الاغتراب أشد ما تكون في هذا العصر ، يقول روسو في كتابه العقد الاجتماعي (إن المساواة تحت ظل الحكومات الفاسدة لا تكون إلا مساواة ظاهرية وخداعة ، لأنها لا تستخدم إلا لإبقاء الفقير في فقره ، والغني في الوضع الذي اغتصبه . فالقوانين تنفع دائماً أولئك الذين يمتلكون ، وتضر دائماً أولئك الذين لا يمتلكون)[1] . ولهذا فقد كانت أصوات هؤلاء المعوزين مبحوحة ، لا تجد صدى ، وطالما عادت إليهم مخنوقة ، فضاعفت آلامهم وحسراتهم .

ولعل هذا البون الشاسع بين هذه الطبقات أدى إلى غليان الطبقة الفقيرة وسخطها فغلت مراجل الشعراء المنكوبين ، وارتفعت أصواتهم المحتجة ، وظهر حقدهم الدفين على ما يتمتع به هؤلاء المغتصبون ، ولا شك في أن الجرح يكون أشد نكاة عندما يجدون أنفسهم حفاة عراة بينما أولئك ينعمون ويبذخون على حسابهم ، ولا نستغرب أن نجد أبا الشمقمق ثائراً حنقا من حاله البائسة وحال أولئك الغارقة في النعيم [٢]:

الحمـــد لله شـــكراً   أمشـي ويـركب غـيري

قـد كنت آمـل طرفاً   فصـرت أرضى بعـير

وتغدو أمانيهم البسيطة ، في عيونهم أحلاماً صعبة التحقيق ، وغاية ما يتمناه أبو الشمقمق راحلة تحمله ، فهو لا يعرف من الحمولات سوى حذائه ، لأنه خفيف المؤونة ، مجهد الحال [٣]:

أتراني أرعـى مـن الدهـر يـوماً   لي فـيه مطـية غـير رجلـي

---

(١) ـ الاغتراب (سيرة مصطلح) ص: ٨٢ .
(٢) ـ طبقات ابن المعتز ص : ٢٨ .
(3) ـ العقد الفريد ٦/٢١٥ .

كلمـا كـنت في جمـيع فقالـوا		قـربوا للـرحيل قـربت نعلـي
حيثما كنت لا أخلف رحــلاً		من رآني فقـد رآني ورحلـي

وتشتد غربته ، ويحس ببعده الشديد عن طبقة الموسرين ، وتحمله ضغائنه تجاههم على أن يرفع صوت التظلم عالياً ، فالدنيا لا تعطيهم عطاءً محدداً ، وإنما تغدق عليهم إغداقاً فهي تسلح الرزق على من ليس أهلا للنعمة [١]:

مـناي مـن دنياي هاتـي الـتي		تسلح بالـرزق على غـيري
الجـردق الحاضـر مع بضـعة		من ماعز رخص ومن طير
وجــبة دكـنـاء فضفاضــة		وطيلســان حســن الخـير
ومنــزل في خـير مـا جـيرة		قـد عـرفوا بـالخير والمـير
وصــاحب يلــزمني دهــره		مـثل لـزوم الكـيس للسـير
مســاعد يعجــبني فهمــه		مــرتفع الهمــة في الخـير
كم من فتى تبصر ذا هيـئة		أبلد في المجلس من عــير

ويعلو هدير الحمدوني فيصرخ محتجاً على وضعه المسف ، وفقره المدقع ، ويدفعه حقده على المثرين إلى الشتم والسباب [٢]:

تسامى الرجال على خيلهم		ورجلـي مـن بيـنهم حافـية
فإن كنت حاملنا ربنــا		وإلا فأرجـل بني الزانيـة

(1)- شعراء عباسيون : غرنباوم ص: ١٥٥ .
(2)- الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ص : ٩١ .

هذه الطبقة المطحونة لازمها الشؤم ، وأحست بالخيبة والضياع ، وأغلقت الطرق في وجهها ، فعاشت على هامش الحياة ، ومارست دور المتفرج في كثير من الأحيان ، صمتت كثيراً وانفجرت كثيراً وفي كلتا الحالتين عاشت جائعة غرثى ، مغتربة ، وغربة هؤلاء الفقراء من أشد وأقسى أنواع الاغتراب ، إذ عاشوا منبوذين ، وإن لم يكن هذا النبذ عنصرياً ، إلا أن طريقة تنفيذه لا تختلف كثيراً فقد كان اغترابهم (نوعاً من أنواع النفي والطرد من عالم الأهداف والدفء العاطفي والمغزى الاجتماعي . فالحياة في واقع المنبوذين هي فراغ لا حدود له)[1] .

وإذا عانى هؤلاء الصعاليك من شظف العيش والحرمان ، فإن غيرهم من الشعراء تعرض لأزمات مختلفة ، جعلتهم يحملون الدنيا والزمن مسؤولية إخفاقهم وسوء تكيفهم ، وطالما رموا على كاهل الدنيا كل أخطائهم الفردية وتجاوزات مجتمعهم وظلمه ، فكثرت شكواهم وعلت نغمة التشاؤم في أشعارهم .

وبقدر ما ضحك العباسيون بكوا ، وبحجم رفاهية المثرين وذوي النفوذ كانت معاناة الطبقات الدنيا ، بل ومعاناة كثير ممن اتصلوا بالسلطة وأعوانها ، ممن لم يستطيعوا أن ينالوا كل ما كانوا يطمحون إليه .

وأبو العتاهية أحد المترددين على البلاط السلطاني ، وممن نال مكانة وحظوة عند الخلفاء العباسيين ، ولكنه لم يحقق كل ما يصبوا إليه ، فسلك طريقاً آخر ، ولجأ إلى الزهد ، وكثرت شكواه من الحياة ومن الناس ، إذ كان (يستشعر في كل لحظة أنه إنسان على الهامش ، وكان يحس أن مركزه الاجتماعي لا يتعدى كونه مسلياً للخليفة بنظمه شعر الغزل . وحتى حينما

[1] ـ الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً : قيس النوري ص : ٣٣ .

أقبلت الدنيا عليه ، وكان من المنتظر أن يقبل عليها كما أقبلت عليه ، وأن يستمتع بها بقدر ما أقبلت عليه ، ولكن حدث غير هذا . . فإذا به يثور على الحياة وعلى الدنيا ومن عليها ، وينفر منها)[١]، لأنه أحس بتلك المآسي المتكررة ، من قسوة الخليفة عليه عندما امتنع من الغزل ، وما لقيه في سجنه من الجلد والإهانة ، ونظر حوله فرأى حال الفقراء البائس ، وبذخ الموسرين ، ووجد من المفارقات ما جعله يكره الدنيا وأهلها . فتصدى لها يحملها كل إخفاقات الحياة من حوله ، وربما كانت الجرأة تخونه أحياناً ، فيرمي على كاهل الزمن أخطاء الخلفاء ووزرائهم ، وهو في عتبه عليه إنما يعتب ضمناً على الدولة ، ويرى أنها بتجاوزاتها وراء حرمان شعبها ومأساته الدامية .

فأبو العتاهية وهو يعلن انفصاله عن مجتمعه وساسته ، ويرزح تحت وطأة غربته القاسية ، لم يواجه هذا النظام المستبد صراحة ، بل اتجه إلى الدنيا لائماً ومعاتباً وشاجباً ، وحقده على الذين حفظوا هذا النظام وصانوه ، غدا موجها مكاشفة إلى الدنيا ، بينما هو في الحقيقة موجه إلى هؤلاء المتسلطين وإلى تلك الطبقة المستغلة التي نغصت حياة الشعب ، واستأثرت بخيرات الدولة ، ولم ترع إلاً ولا ذمة . وعبثت بالثروة مثلما عبثت بالقيم والأخلاق ، فكانت ملونة زائفة . يقول أبو العتاهية [٢]:

فنون رداك ، يادنيا ، لعمري فوق ما أصف
فأنت الدار فيك الظلم، والعدوان والسرف
وأنت الدار فيك الهم ، والأحزان والأسف

---

[١] ـ ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي : د. عفيف عبدالرحمن :ص: ١٥٧ .
[2]ـ الديوان ص ٢٤٥ .

وأنت الدار فيك الغد ر ، والتنغيص والكلف

وفيك الحبل مضطرب وفيك البال منكسف

وملكك فيهم دول بها الأقدار تختلف

ولن يبقى لأهل الأر ض لا عز ولا شرف

ويخفق في حياته مراراً ، وتبوء محاولاته الكثيرة في التكيف مع مجتمعه بالفشل ، ويجد الدنيا شماعته التي يعلق عليها أخطاءه كل مرة [١]:

طلبتك يادنيا ، فأعذرت في الطلب فما نلت إلا الهم والغم والنصب

فلما بدالي أنني لست واصلاً إلى لذة ، إلا بأضعافها تعب

وأسرعت في ديني ، ولم أقض بغيتي هربت بديني منك ، إن نفع الهرب

تخليت مما فيك جهدي ، وطاقتي كما يتخلى القوم من عرة الجرب

فما تم لي يوماً إلى الليل منظر أسربه ، إلا أتى دونه شغب

فالدنيا في نظره هي أم كل هذه المصائب والمحن [٢]:

إنما الدنيا بلاء وكد واكتئاب قد يسوق اكتئابا

ما أرى الدنيا على كل حي نالها ، إلا أذى وعذابا

وهي التي توصد في وجهه الأبواب ، وتتلاعب به كيفما شاءت ، حتى غدت في عينيه شبحاً مخيفاً وغولاً مرعباً ، يتهدده في كل حين [٣]:

---

(1)- المصدر السابق ص : ٥٣ .

(2)- الديوان ص ٥٦ .

(3)- المصدر السابق ص ٨٧ .

أيا عجب الدنيا لعين تعجبت ويا زهرة الأيام كيف تقلبت
تقلبني الأيام بدءاً وعودة تصعدت الأيام لي ، وتصوبت
وعاتبت أيامي على ما يروعني فلم أر أيامي من الروع أعتبت
بليت من الدنيا بغول تلونت لها فتن قد فضضتها وذهبت

وقد اتسع خرقه على الراتق ، فأحس بتشعب مصائبه ، إذ تفتقت عليه من كل جانب [١]:

أرقع من دنياي دنيا دنية ودارا كثيراً وهنها ، وخروقها

وشعر بضياعه في خضم الحياة ، وفقد اتجاهه ، فمزقته غربته ، وغدا كالتائه الذي تتلاعب به الأمواج [٢]:

أصبحت والله في مضيق فهل سبيل إلى طريق
أفٍّ لدنيا تلاعبت بي تلاعب الموج بالغريق

ونبت به الأرض ، وضاق عليه منها ما اتسع ، فلم يهنأ بعيش ولم يقر به وطن [٣]:

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرا

وفقد خلانه وأحبابه ، وعاش في شقاء الوحدة ، ووحشة الغربة [٤]:

أيا دهر قد قللتني بعد كثرة وأوحشتني من بعد أنس ومجتمع

---

(1)- المصدر السابق ص ٢٥٦ .
(2)- المصدر السابق ص: ٢٥٨ .
(3)- الديوان ص : ١٤٧ .
(4)- المصدر السابق ص: ٢٣٠ .

ويشكو أحمد بن أبي فنن من ذهاب نعمه ، وتوالي مصائبه [١]:

أرى الدهـر يخلقني كلما   لبست من الدهـر ثوباً جديداً

ويتخيل الزمن حيواناً مفترساً تمزق مخالبه جسد هذا الشاعر ، ويغرس أنيابه فيما تبقى من أشلائه ، فيستنجد وهو في آخر أنفاسه ، بعد أن أغلقت الآذان عن صرخته الأولى ، حينما كان به رمق ، وقبل أن يضحي فريسة ممزقة [٢]:

هل أنت منقذ شلوي من يدي زمن   أضـحى يقـد أديمـي قـد منـتهس

دعوتك الدعوة الأولى وبي رمـق   وهذه دعوتي ، والدهـر مفترسي

ويشكو البحتري زمنه شكوى مرة ، ويجعله وعاء لكل مخالفات مجتمعه ، فالزمن في رأيه سبب لكل ما يحدث لهم من عذاب ووصب ، وغدر وتشريد [٣]:

ورب صـابي نفـس إلى سـكن   يسـوم إتـواء نفسـه سـكنه

يغـتر بالدهـر ذو الإضـاعة   والدهـر عـدو ، مطلوبة إحنه

في زمـن رنقـت حـوادثه   أشـبه شـئ بحـادث زمـنه

رضيت من سيئ الزمان بـأن   يعشره ، غيـر زائـد حسنـه

ومنصور الأصبهاني ساح في البـلاد طلباً للرزق ، فأعيته مذاهبه ، وعاش مغبوناً يمضه الحرمان ، وتوجعه الهزيمة ، فتمنى العودة ، ورضي من غنيمته بالإياب ، بعد أن طوحت به السبل ، وعانى غربة المكان ، وغربة الانفصال [٤]:

---

(1)ـ شعراء عباسيون : د ـ يونس أحمد السامرائي ص : ١٥٠.
(2)ـ المصدر السابق ص: ١٥٩ .
(3)ـ الديوان ٢ / ١٢٠٣ ـ ١٢٠٤ .
(4)ـ طبقات ابن المعتز ص: ٣٤٦ .

فدهـــري دؤوب بـــين حـــل ورحلـــة يطوف بي ما عشت أرضاً إلى أرض
كأنـــي بتعـــبير الـــبلاد مـــوكل لأبلـغ مـنها مـبلغ الطـول والعـرض
فـإن يقـض لي يـوماً رجـوع فـإنني سـأكفر بالديـوان والقـرض والفـرض
وأبعـد نفسـي عـن أمـور تشـينها وألـزم بـيتي وافـر الـدين والعـرض
فإن دام لي عز القناعة سـرني وإلا فبعض الشـر أهون من بعض

ويشكو بشار بن برد من الزمن ، ويتوقع نوازله ، ويعاني من قسوة غربته و (يجعل للدهر طعماً ثالثاً ، غير ما ورد الشعراء من حلوه ومره ، وربما يعني بهذه الحالة الثالثة ، فقدان الإحساس بالألم أو بالأمل ، وعدم الشعور بما يجري ويدور)[١] . فقد تبلد حتى أشبه صخرة المتنبي ، يقول [٢]:

لا تذكـري ما مضـى وشـأنك بي اليـوم فـإن الزمان ينقلب
حلـواً ومـراً وطعـم ثالـثة في كل وجه من صرفه عجب
ديـني لدهـر أصـم مندلث يهرب من ريبـه ولا هـرب
فالآن أسمحت للخطوب فلا تلقى فؤادي من حادث يجب
قلبني الـدهر في قوالبـه وكل شـيء لكونه سبب

ويفقد بشار الثقة في الناس ، ويفارقه الإحساس بالأمان ، فيضع ذلك على عاتق الزمن ، ويراه متقلباً معضلاً [٣]:

---

[1]- زهد المجان في العصر العباسي : د. علي إبراهيم أبو زيد ص: ٢٥٦ .
[2]- الديوان ص ١٠٥ - ١٠٦ .
[3]- المرجع السابق ص: ٥٣٤ .

يـا خليلـي أصـيبا أو ذرا   لـيس كل الـبرق يهـدي المطـرا
لا تكـونا كامـرئ صـاحبته   يـترك العـين ويبغـى الأثـرا
ذهـب المعـروف إلا ذكـره   ربمـا أبكـى الفتـى مـا ذكـرا
وبقينا في زمـان معضـل   يشرب الصفو ويبقى الكدرا

ولم يبلغ شاعر من شعراء هذه الحقبة ، ما بلغه ابن الرومي من مرارة المعاناة ، وشكوى الزمن ، وندب الحظ العاثر ، فقد استفرغ كثيراً من أشعاره في رثاء نفسه وسوء حاله حتى بدا أمام الحياة كريشة في مهب الريح ، ولم يكن لديه من الجلد ما يوهمنا بتماسكه ، وبكى حظه بكاءً مريراً ، محملاً الزمن فشله وخيبة آماله ، وكل ما يحدث لهم من مصائب وكوارث في الحياة [1]:

إلى الله أشكو سخف دهري فإنه   يعابثني مـذ كنت غـير مطايـب
أبى أن يغيث الأرض حتى إذا ارتمت   برحلـي أتاهـا بالغيوث السـواكب
ولم أسـقها بـل سـاقها لمكيدتـي   تحامق دهـر جـد بـي كالملاعب
وجربت حتى ما أرى الدهـر مغرباً   علـي بشـيء لم يقـع في تجاربـي
أرى المـرء مـذ يلقـى الـتراب بـوجهه   إلى أن يـوارى فـيه رهـن الـنوائب
إلى الله أشكـو غمة لاصباحهـا   ينير ولا تنجـاب عني بجائب

وقد أرقه حرمانه وإخفاقاته المتصلة ، وغاظه ما يجده من الهوان والضيم ، ومن ضياع القيم في هذا الخضم الهائل [2]:

كم نسـام الأذى كأنا كلاب ؟   كم إلى كم يكون هذا العتاب

---

(1) الديوان ١/٢٢١ـ ٢٣٥ .
(2) ـ الديوان ١/٣٨٦ .

ويشكو قسوة زمنه ، وتواصل عذابه ، وما يلقاه من المكاره والآلام [١]:

نبكي على زمن ومن زمن ... فبكاؤنا موصولة مدده
ونرى مكارهنا مخلدة ... والعمر يذهب فانياً عدده

ويرتفع صوته بالتضرع إلى الله ، والشكوى من وضعه المتردي ، ومن زمنه الذي يحارب الأحرار ، ويغتال آمالهم [٢]:

فإلى الله اشتكي ما ألاقي ... من زمان يكلف الحر جهدا

ويندب حظه العاثر ، ويرتفع نحيبه أمام وطأة ظروفه ، وتعثر أحلامه [٣]:

حتى متى يوري سواي وأقتدح ... حتى متى يعطى سواي وأمتدح؟
حتام لا شعري أمام المجتني ... فأحظ منه ، ولا وراء المطرح
كم أستميح المقرفين وأغتدي ... صفر الدلاء كأنني لم أستمح
تالله ما سمع الأنام بطالب ... مثلي ، ولا رأوا أمرأ مثلي اطُّرح

ويرثي حظه التعيس ، ويهاجم الدنيا لأنها أباحت نفسها لمن لا يستحقها وضنت على الأكفاء بخيراتها [٤]

عفاء على الدنيا تفاحش عكسها ... فخاب بها مثلي ، وفاز بها عمرو

والدنيا عند الشعراء العباسيين حمالة أوجه ، من منطلق أنهم حملوها أسباب حرمانهم وتعاستهم وغربتهم وأخطاء مجتمعهم وناسه وساسته . فغدت في أعينهم مصدر كل شقاء

(1)- المصدر السابق ١٧٦/٢ .
(2)- المصدر السابق ٢٢٥/٢ .
(3)- المصدر السابق ٩٢/٢ .
(4) الديوان ٢٠٨/٣ .

وعذاب ، وكأنها مسؤولة عن أنانية البشر ، وهمجية الناس ، يقول ابن الرومي باكياً شاكياً [(١)]:

غـدا الدهـر لي خصـماً وفي محكمـاً — فكيف بخصم ضالع وهو الحكم
عذيـري مـن دهـر غشـوم لأهلـه — يرى أنه إذ عم بالغشم ما غشم
غـدا يقسـم الأسـواء قسـم سـوية — وما عدل من سوى وسواء ما قسم
أمـال عروشـي ثـم ثنـى بهـدمها — وكم من عروش قد أمال وقد هدم
وأصبح يهدي لي الأسـى متنصلاً — فمن سوقة أردى ومن ملك قصم

وابن الرومي فقد كل وسائل الاتصال بمجتمعه ، وغدا منفرداً ، منبتاً ، يعيش بلا جذور ، تتلاعب به أمواج الحياة وتنسفه هواجسه نسفاً ، فحمل من الحقد على مجتمعه ما جعله يشعر بأن كل من حوله أعداء له ، يسعى لتمزيقهم ، ويتخيل أنهم يسعون لمثل ذلك . ويتوهم أنهم يحسدونه على مصائبه ، فكثرت شكواه منهم ، وتعالى نواحه ، وفسر لنا سر اغترابه وعزلته في قوله [(٢)]:

أيها الحاسـدي على صحبـتي العسر وذمـي الزمان والإخـوانا
ليت شعري ماذا حسدت عليه — أيهـا الظالمـي إخائـي عـيانا
أعلـى أنـني ظمـئت وأضحى — كل من كان صادياً ، ريانا
أم على أنـني أمشـي حسـيراً — وأرى النـاس كلـهم ركـبانا
أم على أنني ثكلت شقيقـي — وعـدمت الثراء والأوطانا

---

(١) المصدر السابق ٦/٦٥ .
(٢)- المصدر السابق ٦/٢٠٧ - ٢٠٨ .

وتمر بالمغتربين فترات ضيق تجعلهم يزهدون بأثمن ما يملكونه ، وعبدالله بن المعتز مرت به فترة إحباط وتشاؤم جعلته لا (يأبه لحسبه ولا يهتم لأدبه ولا يلتفت إلى عبقريته وإنما يتمنى أن يكون واحداً من الخاملين في ظل الأمـان ، أو صاحب حظ في ظل الجهل ، فيعبر عن ذلك أدق تعبير)[1] في قوله [2]:

مـن يشـتري حسـبي بـأمن خمـول   مـن يشـتري أدبـي بحظ جهـول

سـاء الزمـان وأوجعتـك صروفه   وعسـى الزمـان يسر بعد قليل

وعبدالله بن أبي الشيص عبر عن سخطه وغضبه من زمنه الذي يقف للأحرار بالمرصاد ، وكأنما بينه وبين هؤلاء الشرفاء ثأر لا ينقطع ، وترات دامية تنزف حقداً وكرها ، إذ غدا سيفاً على عنق كل حر كريم ، حتى هد قواهم وأطاح بهم [3]:

أظـن الدهـر قـد آلى فـبرا   بـألا يكسـب الأمـوال حـرا

لقـد قعـد الـزمان بكـل حـر   ونقـض مـن قـواه المسـتمرا

كـأن صـفائح الأحـرار أردت   أبـا فحـارب الأحـرار طـرا

فأصـبح كـل ذي شـرف ركـوباً   لأعـناق الدجـى بـراً وبحـرا

فهـتك جـيب درع اللـيل عـنه   إذا مـا جـيب درع اللـيل زرا

يراقب للغنى وجها ضحـوكاً   ووجهاً للمنيـة مكفهـرا

ويبلغ القهر بأبي تمام شأوا بعيداً ، ويتفجر غيظاً من سياسة زمنه القاسية لـه ، وتجئ كلماته

(1)- الشعر والشعراء في العصر العباسي ص: ٧٦١ .
(2)- الديوان ص: ٣٩٠ .
(3)- بهجة المجالس ١/٢٣٠ .

وهجاً محرقاً ، وهجاء موجعاً ، أقرب ما يكون إلى الشتم ، ويصوغ غربته في شكوى مريرة [١]:

لقد ساسنا هذا الزمان سياسة ... سدى لم يسسها قط عبد مجدع
تروح علينا كل يوم وتغتدي ... خطوب كأن الدهر منهن يصرع
حلت نطف منها لنكس ، وذو النهى ... يداف له سم من العيش منقع
فإن نك أهملنا فأضعف بسعينا ... وإن نك أجبرنا ففيم نتعتع

والعصر العباسي عصر متغيرات ، وملتقى حضارات ، وموطن أجناس متباينة، طغت فيه سلطة المال ، وهدرت فيه أبواق الملذات ، وعلا فيه صوت الشهوة ، فرخصت القيم ، وانقلب كثير من المفاهيم رأساً على عقب ، وأحس العقلاء بانفصالهم القيمي ، وغربتهم العميقة ، وشعروا بأنهم موجودون في زمن غير زمنهم ، وفي عصر لم يتهيأوا له ، إذ إن ذلك النمو التاريخي السريع فاجأهم ، واخترق المسافات بسرعة هائلة ، فكان بين هؤلاء المغتربين وبين بعض القيم المستوردة أو المختلقة آنياً ، فجوة كبيرة ، ورتق يتسع على الراقع . ومن هنا فقد شعر (الكثيرون بالاغتراب نتيجة حسهم التاريخي بضياع كثير من القيم السلفية التي ألفوها وتأثروا بها ... وبديهي أن الأفراد المتمسكين بهذه الأمور التي تحذف أو تستبدل يشعرون بالحزن لفقدانها)[٢] .

والبحتري واحد من هؤلاء الذين صدمتهم الحياة بمتغيراتها ، ولم يستوعبهم مجتمعهم بنقائضه ، ولا أوطانهم ذات القيم المعكوسة [٣]:

---

(١) ـ الديوان ١/٣٩٩ ـ ٤٠٠ .
(2) ـ الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً : د. قيس النوري : ص ٣٤ .
(3) ـ الديوان ٢/١٠٧٧ .

ولوا أنصفتني سرا من راء لم أكن | إلى العيس ، من إيطانها ، أتظلم
لقد خاب فيها جاهد ، وهو ناطق | وأعطي منها وادع وهو مفحم

ويرى البحتري تلك المفارقات العجيبة ، إذ ساد الغدر ، وقل الوفاء ، وأهدرت قيمة ذوي العقول النيرة ، وكسدت بضاعتهم الثمينة ، وتعلق الناس بأرباب الجهل ، وتنصب ذوي الهمم الدنيئة في هذا العصر المضطرب [١]:

أضن أخلاء ، وضن أحبة | فلا خلة تصفى ، ولا خلة تجدي
أيذهب هذا الدهر لم ير موضعي | ولم يدر ما مقدار حلي ولا عقدي
ويكسد مثلي ، وهو تاجر سؤدد | يبيع ثمينات المكارم والمجد

(ولا نستغرب في ذلك الجو المشحون بالمنازعات السياسية والعرقية والاستغلال الاقتصادي أن يقول أبو تمام :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا | هلكن إذن من جهلهن البهائم)[٢]

معبراً عن انقلاب المفاهيم واختلال القيم ، حتى علا من لا شأن له ، وصار التحامق مصدراً للغنى ، ومفتاحاً للسعد .

وهذه القيم المنقلبة التي جعلت المغفلين الكبار سادة أثرياء أثارت حفيظة الشعراء المغتربين ، فندودا بهذه الأوضاع الغريبة ، وارتفعت أصواتهم المقهورة ، وسخروا من هذه التناقضات

---

(1)- الديوان ٣٨٣/١ .
(2)دراسات فنية في الأدب العربي : د. عبدالكريم اليافي ص : ٣٦٩ .

التي لم يطيقوا السكوت عليها ، وابن المعتز واحد ممن آلمهم هذا الوضع المتردي ، فبكوا حرقة ومرارة [1]:

كن جاهلاً أو فتجاهل تفز ... للجهل في ذا الدهر جاه عريض

والفضل محروم يرى ما يرى ... كما يرى الوارث عين المريض

ويثيره تغير العادات السامية ، ويزعجه أن يرى مادية الحياة وهي تقتل أسمى مبادئها ، ويشعر بغربة ذات أبعاد ، وهو يرى عرى المودة تنبت ، والروابط الإنسانية تتمزق فينقل لنا هذه الصورة الموجعة بأسى وحزن [2]:

وسكان دار لا تواصل بينهم ... على قرب بعض في التجاور من بعض

كأن خواتيماً من الطين بينهم ... فليس لها حتى القيامة من فض

وتجلت (مظاهر التباين والخلل وطغيان العجمية على العربية ، فبدت هذه العناصر المختلفة مثيرة للتعجب والتخوف والسخر أيضاً . وهذا ما نشعر به ونحن نقرأ أبيات ابن المعتز واصفاً هذا الخلل الديموغرافي الطاغي في عصره)[3] يقول [4]:

والدهر يخبط أهله بيد ... في كل جارحة لها قرص

أفما ترى بلداً أقمت به ... أعلى مساكن أهله خص

وولاته نبط زنادقة ... ملأى البطون ، وأهلها خمص

ولهم مسالخ يسلخون بها ... لا يتقي سطواتها اللص

(1)- الديوان ص: ٢٩٢ .

(2)- الديوان ص ٢٩٢ .

(3)- الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي د. رياض قزيحة ص : ٢٠٠.

(4) - الديوان ص : ٢٨٥ .

أسـيافها خشـب معلقـة		مصـنوعة ، وقـرابها جـص
وجـنودهم تحمـي رعيـتهم		ولهـا علـى أكبادهم رقـص
غلـبت خيانـتهم أمانـتهم		وطغـى على تقـواهم الحـرص
فتـيانهم في كـل رابـية		ولهـم بكـل قـرارة شـخص
وأمـيرهم متقـدم بهـم		نحو الحرام ، وسـيره نـص

ودعبل الخزاعي رمز من رموز الثورة البيانية في العصر العباسي ، إذ استفرغ كثيراً من أشعاره في محاربة الفساد السياسي ، والخلل الاجتماعي ، وقد غاظه ما رآه من اضطراب في الأعراف ، واختلاف في الموازين ، يقول شاكياً ، متألماً [١]:

ما أعجب الدهر في تصرفه		والدهـر لا تنقضـي عجائـبه
فكم رأينا في الدهر من أسد		بالت على رأسـه ثعالبه

(وأكثر ما أثار غضب الشعراء وسخطهم ، ذلك الانحراف الذي رفع من قيمة الحمق والغباء ، ليحط من قيمة العقل والعلم والأدب والفضل)[٢] ولم تعد قيمة الإنسان في جوهره ومثله العليا ، بل صار المال يرتب مقامات الناس على قدر ما يملكونه . وحينئذ ارتفعت الأصوات الحرة منددة بهذا الوضع المعوج ، وهذا التقييم الشاذ .

يقول أبو العيناء [٣]:

مـن كـان يملـك درهمـين تعلمـت		شـفتاه أنـواع الكـلام فقـالا

---

[1] الديوان ص : ١٩٣ .
[2]ـ الاغتراب في الشعر العباسي (القرن الرابع) ص : ١٧٥ .
[3]ـ الديوان ص : ٤٠ .

وتقدم الفصحاء فاستمعوا لـــه		ورأيــته بــين الــورى مخــتالا
لــولا دراهمــه الــتي في كيســه		لـــرأيته شـــر الـــبرية حـــالا
إن الغـــني إذا تكلـــم كاذبـــاً		قالوا : صدقت وما نطقت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا : لم تصب		وكذبت ، يا هذا ، وقلت ضلالا
إن الـــدراهم في المـــواطن كلـــها		تكســو الـرجال مهابـة وجـلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحـــة		وهي الســلاح لمن أراد قتــالا

وقد كان الفقراء أكثر الناس إحساساً بسطوة المال ، وما يملكه من سلاح فعال في هذا العصر المادي ، إذ قلب القواعد الصحيحة ، ووضع مكانها موازين زائفة ، وذلك ما جعل هؤلاء الفقراء (ينادون بقسمة الحظوظ بين الناس بالعدل والإنصاف . فمن كان أهلاً للشقاء استحقه ، ومن كان أهلاً للرخاء استوجبه ، أما أن يشقى الكريم ، وينعم اللئيم، وييئس صاحب العقل والفضل ويسعد الغبي الجاهل ، فهذا مما لم يحتملوه ولا أطاقوه)[١] .

وقد عبر أبو الينبغي عن هذا التناقض ، وما يحسه هؤلاء الفقراء المعذبون من ظلم اجتماعي وفرص غير متساوية ، وجاء صوته ساخراً ساخطاً [٢]:

صبراً على الذل والصغار		يا خالق الليل والنهار
كم من حمار على جــواد		ومن جواد على حمار

---

(1)ـ الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ص : ٩٣ .
(2)ـ طبقات ابن المعتز ص ١٣٠ .

وفي مثل هذه الأوضاع المقلوبة ، وفقدان الاستقرار ، واضطراب الحياة ، عاش الشعراء في غربة متأصلة الجذور ، ودوامة لا يعرفون لها مخرجاً ، إذ غدت الأوضاع غير محتملة. والعيش ممل (إنها حالة تفقد فيها الحياة معناها ، ويصبح الاكتراث لها ضرباً من الغفلة ، ويصير تقبلها مستحيلاً . إنها العبث بعينه ، وهي بعد ذلك أو قبله الانهيار مجسماً)[١] .

ومنهم من تمرد على هذا المجتمع ، وهرب من غربة إلى غربة ، فبشار بن برد رفض (التقاليد الاجتماعية السائدة ثائراً عليها ، ومشككاً فيها ، فنادى باللذة وأباحها . في معظم حياته . بحيث خلق شعره جواً من الصراع بين التمرد الأخلاقي ، والتقاليد الاجتماعية ، مما جعل كثيراً من الناس يحاربونه ويحرضون عليه)[٢] .

وسبق أن ذكرنا أمثلة من شعره الإباحي ، وديوانه مليئ بمغامراته الجنسية الصريحة والتي تخدش الحياء والذوق .

ويأتي أبو نواس في أعلى قائمة الشعراء المتمردين على القيم والعادات والأعراف ، مستهتراً بذوق المجتمع ، رامياً أناسه خلف ظهره ، غير آبه برأيهم (وكلما أمعنوا في إنكارهم له واستهجانهم لما يقتنع به كلما زاد إمعاناً في تحديهم وتجاوزهم حين يخرج على السائد من أعرافهم وتقاليدهم وموروثهم)[٣]ضارباً بكل ما تعارف عليه القوم عرض الحائط ، مستهتراً حتى بالقيم الدينية ، يقول[٤]:

دع عنك ماجدوا به ، وتبطل   وإذا مررت بربع قصف فانزل

---

(1)ـ في الأدب العباسي ، الرؤية والفن : د. عز الدين إسماعيل ص : ٢٨٩ .
(2)ـ شعر المكفوفين في العصر العباسي : د. عدنان عبيد العلي ص: ٢٥٣ .
(3)ـ أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد : د. أحلام الزعيم ص : ٣٦ .
(4)ـ الديوان ٤٢٣ ـ ٤٢٤ .

لا تـركبن مـن الذنـوب خسيسـها　　　واعمـد إذا قارنـتها للأنـبل
وخطيـئة تغلـو علـى مسـتامها　　　يلقـاك آخـر طعمهـا بـالأول
حللت لا حرجاً عليّ حرامهـا　　　ولربما وسعت غير محـلل

وفي تحدٍ سافر لمجتمعه ، يقول [١]:

اسقياني الحرام قبل الحلال　　　ودعاني من دارس الأطـلال

وقد آثرنا ذكر كثير من اغترابيات أبي نواس في الاغتراب الذاتي .لأنها وإن كانت تدل على غربة اجتماعية ، إلا أنها وليدة انفصال الشاعر عن ذاته الأصيلة .

ومن أبعد الأصوات العباسية صدى في التنديد بضياع القيم ، واختلال الموازين الاجتماعية ، ابن الرومي الذي شجب وأنكر حتى بح صوته ، واحتج على انحراف وشذوذ مجتمعه ، وسخر سخرية مرة منه . لأنه حارب النبلاء وجابه العقلاء ، وسالم الحمقى والجهلة ، وساد فيه المثرون ، وغدا المال سيداً مطاعاً تحنى له الهامات [٢]:

والفلس رب يخر الساجدون له　والمال منصرف عنه ومصروف

ويجهده اغترابه في زمن ارتفع فيه الأغبياء والأوغاد ، وهان فيه الشرفاء والكرام [٣]:

رأيت الدهـر يـرفع كل وغـد　　　ويخفض كل ذي قيم شـريفة
كمثل البحـر يغرق فيه حـي　　　ولا يـنفك تطفـو مـنه جـيفة
كـذلك دأبــه فيــنا وإنــا　　　على ما كان في حصن منيفة

(1)ـ المصدر السابق ص ٤٢٤ .
(2)ـ الديوان ٢١٣/٤ .
(3)ـ المصدر السابق ٢٣١/٤ .

بـــناها أولـــونا فاعتصـــمنا   بهـــا وبـــأنفس فيـــنا عفـــيفة

إذا مـا جهلـه أربى عليـــنا   حملنـــاه بألبـاب حصيـــفة

ويلح كعادته على المعنى الواحد حتى ينهيه ، ولعل مرد ذلك إلى قسوة معاناته وشدة غربته في هذا المجتمع الذي يؤكد لنا كل مرة أنه مجتمع منكوس ، فهو يرغب في ترسيخ هذه الفكرة وإن أملّ [١]:

دنـيا عـلا شـأن الوضيع بهـا   وهـوى الشـريف يحطه شـرفه

كالبحـر يرسـب فيه لؤلـــؤه   سفلاً وتطفـــو فـوقه جيفه

وسبب مهم يثير غضب هذا الشاعر ويحفظه ، وهو أنه يقرن فشله بنجاح الآخرين الذين يراهم دونه في كل شيء ، ولا فضيلة لهم ، وهو يعاني (من عدم التكافؤ الاجتماعي وينعى العدالة الاجتماعية ، وبؤسه ومصيره في مجتمع لا يأخذ بحق الجدارة بل بالاغتصاب الذي يقوم على الاحتيال والتملق والكذب)[٢] يقول [٣]:

نحـن أحـياء علـى الأرض وقـد   خسـف الدهـر بـنا ثـم خسـف

أصـبح السـافل مـنا عالـياً   وهــوى أهــل المعـالي والشـرف

رب أنصـفني مـن الدهـر فمـا   لي إلا بـــك مـــنه منتصـــف

يسـفل الـناس ، ويعلـو معشـر   قارنـوا الأقـراف مـن كـل طـرف

ولعمـــري ، إن تأملـــناهم   مـا علـوا لكـن طفـو مـثل الجيف

---

(1)ـ المصدر السابق ٤ / ٢١١ ـ ٢١٢ .
(2)ـ التشاؤم في الشعر العربي ص :١٩٧ .
(3) الديوان ٤/ ٢١٦ .

جيف تطفو على بـحر الغـنى حين لا تطفو خبيئات الصـدف

وابن الرومي يصر على تكرار فكرة رسو الدّر ، وطفو الجيف ، ويردّد هذه الفكرة في كثير من قصائد ذات المغزى الاجتماعي ، فالفاصل بين الفريقين شاسع جداً ، والظلم في عدم تكافؤ الفرص شنيع للغاية .

ولعل إحساسه الشديد بضياع القيم ، وسيادة غير الأكفاء حمله ما لا يحتمل ، فتفجر حقداً وغيظاً ، ورأى التفاوت الكبير بين نيل من لا يستحق وحرمان من يستحق في عالمه المنكوس الذي لم يحفل بجوهر الإنسان ومثله العليا ، بينما فتح صدره رحباً لهذه الجيف . حسب تعبيره . فقد كان ابن الرومي يتآكل حسداً لأن نجاح هؤلاء المزيفين يوحي لـه بفشله الذريع .

وفي بائيته الشهيرة صور لنا نفسه ومجتمعه ، واختلال القيم أدق تصوير وأوفاه ، ولو كانت هذه القصيـدة منفردة لأغنت في إيصـال ذلك الخلل الاجتماعـي الذي دفع بكثير من شعـراء العصـر العباسي إلى غربة لا حدود لها ، يقول ابن الرومي [1]:

طـار قـوم بخفـة الـوزن حتـى لحقـوا رفعـة بقـاب العقـاب

ورسـا الـراجحون مـن جلـة الـنا س رسـو الجبال ذات الهضـاب

ولمـا ذاك للئـام بفخـر لا ، وذاك للكـرام بعـاب

هكذا الصخـر راجح الوزن راس وكذاك الذر شائل الـوزن هاب

(1)ـ الديوان ١/٣١٤ وما بعدها .

ففي هذه القصيدة ينعى حظوة بعض القوم الخفيفي العقول ، وغربة الراجحين من الناس ، وانفصالهم عن قيم مجتمعهم ، ولأن الشاعر لا يملك التغيير ، فقد دفعه يأسه إلى خلق المبررات التي تطمئنه ، وتهديء ثائرته من هذا الظلم الاجتماعي القاسي ، محاولاً إيهام نفسه بقبول الوضع المر لأن الحياة هكذا ، يعلو فيها الخفيف ، ويرسو فيها الراجح ، ومهما حاول التصبر فإن حقده ينبعث قوياً يجتاح من أمامه ، فهؤلاء اللئام غير جديرين بما هم فيه من الحظوة والنعمة ، وتبدو نقمته ظاهرة ، وهو يتجه إلى مخاطبة هؤلاء المزيفين ، لأنه لا يراهم إلا بأسفل مقدار ، ولا يرى علوهم حقيقياً ، بل هو علو مزيف آئل للسقوط [١]:

فليطر معشر ويعلو فإني لا أراهم إلا بأسفل قاب

جيف أنتنت فأضحت على اللجة والدر تحتها في حجاب

وغثاء علا عباباً من اليم وغاص المرجان تحت العباب

ولا يرى ابن الرومي هؤلاء المتسلقين أكثر من جيف منتنة ، ولغت في هذه الحياة ، وهؤلاء الأغبياء غير جديرين بالحظوة ، وهذه قضية أشغلت بال ابن الرومي لأن (المتنعمين المترفين ، ليس لديهم فضائل أو جدارة دونه ، فيحقد ويتذمر إذ يرى أن حقه واستحقاقه (مغصوبان) إنه يضيع عمره سدى ، بينما يتخم وينعم سواه ، أولئك هم الحياة والواقع)[٢] وهذه قسمة مجتمعه الضيزى . (فكأن مأساته بذلك ، تصبح مأساة الكفاءة التي

---

[1]- المصدر السابق نفسه .

[2]- ابن الرومي ، فنه ونفسيته ، من خلال شعره ص: ٨١ .

لا تقدر ، ولا تتحقق ، مأساة الإنسان القادر العالم . . وبصورة أعمق تصبح مأساة الإنسان المتحضر الذي يجتاحه ويعبث به وحش البربرية والفتك)[١] .

وتبقى غربة ابن الرومي غربة مبادئ ومثل ، وغربة فشل وإحباط ، وتظل مشكلته مشكلة إنسان مفكر واع في عصر تكالب على الشهوة والمال .

وتظل مأساته مأساة قيم معكوسة ، وسوء تقدير في تقييم كفاءات الرجال ، في زمن يحس فيه أن قيمة الإنسان في مركزه وثراه ، لا عبقريته واستحقاقه . وهو ينعى حياة أولئك الكتاب والشرطة ، وما هم فيه من نعمة ظاهرة ، وعيش مرفه على الرغم من غباوتهم وجشعهم وسخفهم ، بينما غيرهم محروم ، جائع وهو أهل للنعمة ، مؤهل للمناصب .

وابن الرومي وهو يصف بهيمية هؤلاء التجار وأنانيتهم ، ويشبههم بالحيوانات كأنما ينتصر ويثأر للإنسانية والرقي أمام جشع التجار الذين يرون قيمة الإنسان بقدر ما يكتسب من المال ، لا بجوهره ومثله . يقول ابن الرومي [٢]:

أتراني دون الألى بلغوا الآ ... مال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا ... بالمنى في النفوس والأحباب
فيهم لكنة النبيط ولكن ... تحتها جاهلية الأعراب
أصبحوا يلعبون في ظل دهر ... ظاهر السخف مثلهم لعاب
غير مغنين بالسيوف ولا الأقلام ... في موطن غناء ذباب
ليس فيهم مدافع عن حريم ... لا ولا قائم بصدر كتاب

---

[١]- المصدر السابق ص: ٨٢ .
[٢]- الديوان ١/٣١٨ - ٣١٩ .

متســــمين بالأمانـــــة زوراً والمـناتين أخـرب الخـراب

خير ما فيهم ولا خيـــر فيهم أنهم غيـر آثمي المغتــاب

ثم يصف ما يمرحون فيه وما ينعمون به من الملذات والنساء ، حتى غدت حالهم في غاية النعيـم والسرور ، بينما الطبقة المطحونة تعاني الجوع والحرمان ، والأكفاء مبعدون عن المناصب والحظوة ، وكذا الدنيا تتصدى دائماً لا لأم خطابها [1]:

مـن أنـاس لا يرتضـون عبـيداً وهـم في مـراتب الأربــاب

حـالهم حـال من لـــه دارت الأفـلاك واستوسـقت علـى الأقطـاب

وكـذاك الدنـيا الدنـية قـدراً تتصـــدى لا لأم الخطــــاب

مكنوا من رحـال ميس وطيـئا ت وأصـحابنا علـى الأقـتاب

لهـف نفســي علـى مـناكير للنكــر غضـاب ذوي سـيوف عضـاب

تغسل الأرض بالدماء فتضحي ذات طهـر تــرابها كـالملاب

مـن كـلاب نـأى بهـا كـل نـأي عن وفـاء الكلاب عدو الذئاب

واثـبات علـى الظـباء ضعـاف عـن وثـاب الأسـود يـوم الوثـاب

شـــــرط خولوا عقائل بيضا لا بأحسـابهم بل الاكتســــاب

(من خلال هذه الصيحات اللامباشرة ، تظهر ثورة ابن الرومي على نظام المجتمع الذي يقوم على الإقطاع والاغتصاب . إنها ثورة جماعية تدعو إلى أن يحل المرء في المحل الذي تؤهله له كفاءته ،

---

[1] الديوان ١/ ٣٢٢ - ٣٢٣ .

وهي ثورة حضرية فلسفية ، لأنه إذا استعبد عبد الحر ، فإن ذلك رمز لسيطرة الوحش البربري القديم على إنسان الحضارة والتمدن والرقي)[1] .

والظلم الاجتماعي الذي عانته الطبقة الفقيرة في المجتمع العباسي فانفصلت عن قيم هذا المجتمع ، هو الظلم الذي قاسى منه ابن الرومي وعانى منه أشد المعاناة ، وإن كانت بعض فئات تلك الطبقة قابلت هذا الانفصال بثورة مسلحة ، فإن ابن الرومي واجهه بهجاء مر حاقد يشبه أسنة رماح أولئك الثوار ، وصار هجاؤه شتيمة ولعنات يصبها على ذلك المجتمع ، وعلى رؤوس أولئك المنتفعين ، وانفجر بحقد ماجن ، افتقدت فيه الأخلاق كل سلطة .

وعندما أعجزه الشتم دعا إلى الثورة والشغب لرد الظلامات وإنصاف الفقراء ، وتصحيح الوضع المائل ، ولم يرو غله إلا أن يرى الأرض مغسولة بدماء هؤلاء السقطة من الكتاب ومن الشرطة الذين انشغلوا عن أحوال الناس بملاحقة أهوائهم وشهواتهم ، وتركوا أمر الناس في اضطراب [2]:

أصبحوا ذاهلين عن شجن النا ... س وإن كان جلهم ذا اضطراب

في أمور وفي خمور وسمو ... ر وفي قاقم وفي سنجاب

لم أكن دون مالكي هذه الأملاك لو أنصف الزمان المحابي

قاتل الله دهرنا أو رماه ... باستواء فقد غدا ذا انقلاب

الأجلال

يعلف الناطقين من جوره ... والناهقين محض اللباب

لا يعد الصواب أن تغمر الثر ... وة إلا ذوي العقول الخراب

---

(1)- ابن الرومي : إيليا حاوي ص : ١٠٥ .
(2)- الديوان ٣٢٣/١ .

(لا جرم يكون ذلك العصر عصر الحيرة والانتظار ، ولا جرم تتأهب فيه النفوس لدعوة الجماعات السرية وتتعلق الآمال بالمهدي المنتظر والمصلح الأكبر الذي يغسل الأرض بالدماء . . ولا جرم يكون ذلك العصر هو عصر بابك الخرمي وداعية الزنج والقرامطة وغيرهم من الثوار)[١] أولئك النفعيون الدجالون الذين (كانوا يمزجون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة والتمرد على الحكام)[٢] . وفي ظل ضياع القيم وفقدان العدالة الاجتماعية ، لا عجب أن يعيش الشعراء الأصيلون في غربة موجعة ، وانفصال لا التئام له . ولا عجب أن نسمع تلك الأصوات المائجة الهائجة التي احتجت على هذا الخلل الذي لم يرتق ، وعلى فوضوية الفرص التي لم توزع توزيعاً عادلاً ، وفقدان العادات والأعراف السليمة التي سقطت تحت أقدام سلطة المال وطغيان القيم المادية الوافدة .

٢ .الاغتراب عن الآخرين :

إذا كان الاغتراب هو وعي الفرد بالصراع القائم بينه وبين بيئته ، وبينه وبين الناس في مجتمعه ، وشعوره بالانفصال وعدم الانتماء . فإن ذلك تجسد بصورة واضحة في العصر العباسي ، إذ انفصل الإنسان عن الآخرين انفصالاً حاداً ، وغدا الآخر في نظره خصماً لدوداً ، يسعى إلى الإطاحة به ، لأنه يمثل حجر عثرة في طريقه . وفقدت العلاقات الجميلة بين الناس ، لتحل

---

(1)- ابن الرومي حياته من شعره : عباس محمود العقاد ص : ٢٤ .
(2)- المرجع السابق نفسه .

محلها علاقات زائفة مبنية على المصلحة والنفعية . وصار للمال سلطة في تحديد علاقة الناس ببعضهم . وقد سمع (رجل أبا العتاهية ينشد :

فانـــظر بعـينـك حيـــث شئـت فـلـن تـــرى إلا بخيـــلا

فقال الرجل يا أبا العتاهية بخلت جميع الناس ، قال فأكذبني بواحد)[1] . هكذا أصبح الناس في عيون بعضهم صورة للؤم والأنانية والعدوان ، والغدر والتقلب ، يقول أبو العتاهية [2]:

ما الـناس إلا مع الدنيا وصـاحبها ... فكيف مـا انقلبت يـوماً بـه انقلبوا

يعظمون أخا الدنيا ، فإن وثبت ... عليه يـوماً بمـا لا يشـتهى وثـبوا

لا يحلبـــون لحـــي در لقحته ... حتى يكون لهم صفو الذي حلبوا

وشـاور رجـل أبـا العتاهـية فـيما ينقشـه على خاتمـه فقـال : انقـش لا بـارك الله في الـناس وأنشد [3]:

بـرمت بالـناس وأخلاقهـم ... فصـرت أسـتأنس بالـوحدة

ما أكثر الناس لعمـــري وما ... أقلهم في حـاصل العـــدة

ويصيب أبا العتاهية يأس شديد من خير الناس ، ولا يجد أمامه إلا الله ، حيث رجاؤه لـه لا ينقطع [4]:

وصيرني يأسي من الناس راجياً ... لسرعة لطف الله ، من حيث لا أدري

ويلح على الفكرة نفسها ، لتمكنها منه ، وإحساسه ببعده عمن حوله [1]:

---

[1] ـ طبقات ابن المعتز ص ٢٣٢ .
[2] ـ الديوان ص: ٤١ .
[3] ـ الأغاني ٤/٤١ .
[4] ـ الديوان ص ١٧٤ .

لقـد هـان علـى الـناس	مـن احـتاج إلى الـناس
فصـــن نفسـك عمـا كا	ن عند النـاس باليـــاس

وينكر أبو العتاهية أخلاق الناس ، وما عرفه فيهم من الخسة والغدر ، ويصعب عليه أن يجد بينهم صاحباً صادقاً ، وقد أعوزه ذلك على كثرة الخلق ، فعاش غريباً (٢):

طلـبت أخـاً في الله في الغـرب والشـرق	فأعوزنـي هـذا ، علـى كثـرة الخلـق
فصـرت وحـيداً بيـنهم متصــبراً	علـى الغـدر مـنهم ، والملالـة والمـذق
أرى مـن بهـا يقضـي علـي لنفسـه	ولم أر مـن يرعـى علـي ، ولا يبقـي
وكـم مـن أخ قـد ذقـته ذا بشاشـة	إذا سـاغ في عيني ، يغـص بـه حلقـي
ولم أر كالدنيا ، وكشفـــي لأهـــلها	فما انكشفوا لي عن وفـاء ، ولا صـدق

ويقلق أبا العتاهية غدر الناس ، ونفاقهم ، وكذبهم ، ويخرج من علاقته بهم خالي الوفاض ، ويتصدق بنصيبه منهم على الشيطان ، ويتمنى ألا يراهم ولا يرونه (٣):

يــا خليلـــي لا أذم زمانـــي	غـير أنـي أذم أهـل الـزمان
لسـت أحصـي كـم مـن أخ لي منـهم	، قليل الـوفاء ، حلـو اللسـان
لم أجـده مؤاتـيا ، فتصـدقـت	بحظـي مـنه علـى الشـيطان
ليت حظي منه ، ومن مثله أن	لا تـراه عـيني ولا أن يرانـي
أحمـد الله كيف قـد فسـد النا	س ، وقـل الـوفاء في الإخـوان

---

(1)- الديوان ص : ١٩٨ .
(2)- المصدر السابق ص: ٢٤٩ .
(3)- المصدر السابق ص : ٣٧٥ .

ويشكو غربته بينهم ، وما من تقلب أهوائهم ونفعيتهم [1]:

لله در أبيك ، أي زمان يجده أصبحت فيه ، وأي أهل زمان
كل يوازنك المودة دائباً يعطي ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

ويرى الخزيمي الناس حوله حشرات سامة وحيوانات مفترسة ، تضر ولا تنفع ، وقربهم مصيبة وأذى ، وقد قلبوا المفاهيم فخانوا الأمانات ، وسموا الأشياء القبيحة بغير أسمائها ليتجوزوا في انتهاكها [2]:

يا للرجال لقوم قد مللتهم أرى جوارهم إحدى البليات
ذئب رضيع وخنزير تعارضها عقارب وجنت وجناً بحيات
ما ظنكم بأناس خير كسبهم مصرح السحت سموه الأمانات

(ويؤكد الشاعر الكفيف السبب الاجتماعي في انطوائه ، وسوء توافقه مع المجتمع ، فصالح ابن عبد القدوس يرى في وحدته شعوراً بالأنس :

أنست بوحدتي ولزمت بيتي فتم العز لي ونما السرور
ولست بقائل ما دمت حيّاً أقام الجند أم نزل الأمير)[3]

وينقم على رجال عصره ، ويشبههم بالحيوانات ، معلنا اغترابه عن مجتمعه وأناسه [4]:

ومن يك جاهلاً برجال عصر فإني عالم بهم خبير

---

[1] الديوان ص : ٣٧٥ .
[2] ـ الحيوان ١ / ٣٥٤ .
[3] ـ شعر المكفوفين في العصر العباسي: عدنان عبيد العلي ص : ٧٩ .
[4] ـ المرجع السابق ص: ٧٩ ـ ٨٠ .

كأنهم إذا فكـــــــرت فيـهم ذئاب أو كـلاب أو حميــــر

وقد ظل هذا الشاعر مفجوعاً بالناس ، منفصلاً عنهم ، لما عاناه من كذبهم ونفاقهم [١]:

فأكثـــر مـــن تلقـــى يســـرك قـــولـه ولكـن قلـيل مـن يسـرك فعلـه

وقد كان حسن الظن بعض مذاهبي فأدبني هذا الزمـان وأهــــــله

وبشار بن برد من أكثر الشعراء العباسيين شقاء بالناس ، فقد كرههم وكرهوه ، وقد صرخ في وجههم أكثر من مرة متبرماً بهم ، حتى خف عليه مصابه بفقدان بصـره لأنه لا يرغب في رؤيتهم ، يقول ساخراً متضجراً [٢]:

قالوا العمى منظر قبيح قلـنا بفقـدي لكـم يهـون

تالله مـافي البلاد شيء تأسـى على فقده العيون

وقد (كان كرههم له أشد نوع من الكره يستطيعه القلب الإنساني ، وهو الكره الممزوج بالخوف والرهبة . .صار لديهم أكثر من إنسان مكروه مخوف ، صار بعبعاً، صار وحشاً ممسوخاً غير إنساني)[٣] .

ولم يدع الناس كرهه حتى بعد خبر وفاته ، ولما (مات بشار ونعي إلى أهل البصرة تباشر عامتهم وهنأ بعضهم بعضاً وحمدوا الله كثيراً وتصدقوا ، لما كانوا منوا من لسانه)[٤] وعندما خرجت جنازته ما تبعها (أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح)[٥] ومثلما حقدوا

---

(1)- المرجع السابق ص: ٢٢١ .
(2)- الديوان ص: ٦١٦ .
(3)- شخصية بشار ص: ٨٥ .
(4)- الأغاني ٣/٢٤٥ .
(5)- المصدر السابق نفسه .

عليه ، حقد عليهم فسلط لسانه على أعراضهم فمزقها كل ممزق ، ورأى أقرب الناس وبالاً عليه ، وفقد ثقته بهم وبأخلاقهم [١]:

خير إخوانك المشارك في المر وأين الشريك في المرأينا
أنت في معشر إذا غبت عنهم بدلوا كل ما يزينك شينا
وإذا ما رأوك قالوا جميعاً أنت من أكرم الرجال علينا
ما أرى للأنام وداً صحيحاً عاد كل الأنام زوراً ومينا

وقد (كان ضيق الصدر متبرماً بالناس ، فكان يقول : اللهم إني قد تبرمت بنفسي وبالناس جميعاً ، اللهم فأرحني منهم)[٢] .

وغربته عن أهل عصره غربة فكر ، وغربة إحباط وفشل ، وتتناوبه هاتان الغربتان ، فيعيش في دوامة لا تهدأ ، وقلق لا ينقطع ، ومثلما يحسون بنقصه في أصله وعاهته ، يحس هو بقصور تفكيرهم وسخفهم ، وكلما زاد شعور الطرفين ازدادت المسافة بينهما ، ومن هنا فهو يرى أن رجال عصره ، حتى أقربهم إليه ، لا يفوقون الحمار في عقله وقدراته [٣]:

كثر الحمير وقد أرى في صحبتي منهن أقمر منعجاً بالراكب
خليت مركبه ورحت لحاجتي مشياً يكلفني لغوب اللاغب
وأرى الصحابة شيعتين فمنهما أنس وبعضهم غبورة حالب
ولقد مشيت عن الحمار تكرماً والمشي أكرم من ركوب الصاحب

---

(1)- الديوان ص: ٦٢١ .
(2)- الأغاني ٣/٢٠٤ .
(3)- الديوان ١٧٨ - ١٧٩ .

وهو يضيق بمن حوله ذرعاً حتى يختنق بوجودهم ، ويثقل ذلك عليه لإحساسه بعدم الانسجام معهم ، ولبعدهم عن بعض ، لاختلاف الرؤى والأفكار ، مع أنهم يلازمونه ملازمة الغريم [1]:

وكيف يخف لي بصري وسمعي وحولي عسكران من الثقال

قعوداً حول دسكرتي وعندي كأن لهم علي فضول مالي

ويبحث عن الناس ، ولا يجدهم ، ويفتش كثيراً فلا يعثر على أحد من الأحياء [2]:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

ويلجأ إلى السخرية الموجعة ، ويهون في عينه من كبر من القوم ، ولا يرى أمامه أحداً ، فيستهتر بهم وبمبادئهم ، مستخدماً الشعر مرة والكلمة اللاذعة الساخرة مرة أخرى ، حتى تحاشاه الناس واتقوا شره ما استطاعوا، وهو يصنفهم في صنفين : أثرياء بخلاء ، والصنف الآخر فقراء ، وكلاهما أرض بوار لا تثمر [3]:

الناس اثنان في زمانك ذا لو تبتغي غير ذين لم تجد

هذا بخيل وعنده جدة وذا جواد بغير ذات يد

وكلثوم بن عمرو العتابي أحد شعراء العصر العباسي الذين عرفوا بوعيهم وتنوع ثقافتهم ، وعمقها . كان من أكثر الشعراء إحساساً بالغربة والانفصال . فقد شعر باختلافه عن أبناء مجتمعه ، وبعدم انسجامه معهم ، وقد روى صاحب الأغاني خبراً غريباً في سخرية العتابي الشديدة من الناس ، واستهتاره بعقولهم ، وعندما عنفه بعضهم على أكله الخبز بقارعة

---

(1) ـ الأغاني ١٦٢/٣ .
(2) ـ الديوان ٤٣٤ .
(3) ـ المصدر السابق ٤٠٤ .

الطريق ، قال له العتابي (أرايت لو كنا في دار فيها بقر ، كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك)[١]، ودلل على ذلك واقعاً .

وقد عاش هذا الشاعر الغربة بكل أبعادها ، يقول [٢]:

لو رأتني بذي المحارة فرداً　　وذراع ابنة الفلاة وسادي
أطفئ الحزن بالدموع إذا ما　　حمة الشوق أثرت في فؤادي
خاشع الطرف قد توشحني الضر　　فلانت له قناة قيادي
ترب بؤس أخا هموم كأن الحزن　　والبؤس وافيا ميلادي

ثم يخلص إلى نفوره من الناس ، وغربته بينهم ، فيقول [٣]:

أوحش الناس جانبي فما آ　　نس إلا بوحدتي وانفرادي
قد رددت الذي به أتقي النا　　س وأبرزت للزمان سوادي

وتلفظه البلاد ، ويمله العباد ، فيشعر بوحدته ووحشته ، فهو غريب في الأرض ، غريب بين الناس ، محروم ، منكسر [٤]:

لفظتني البلاد ، وانطوت الأكفاء دوني ، وملني جيراني
والتقت حلقة علي من الدهر فماجت بكلكل وجران
نازعتني أحداثها منية النفس وهدت خطوبها أركاني

---

(١) ـ الأغاني ١٢٨/٣ .
(٢) ـ زهر الآداب ٦٤٣/٣ .
(٣) ـ المصدر السابق نفسه .
(4) ـ زهر الآداب ١٠١٣/٤ .

خاشع للهموم ، معترف القلب ، كئيب لنائبات الزمـــان

وغربة العتابي ، غربة مثقف واع بين جهلة طامعين ، وبين سخفاء عابثين ، ويظهر ذلك من قوله (وانطوت الأكفاء دوني) .

ولم يسلم من ألم الغربة حتى الشعراء الذين باعوا أنفسهم للشهوات ، لأن نار الانفصال عن الآخرين أشد من أن تطفئها الخمر والعربدة واللهو . وحماد عجرد واحد ممن اكتووا بهذه النار ، إذ يقول [١]:

كم من أخ لك لست تنكره — ما دمت من دنياك في يسر
متصنع لك في مودته — يلقاك بالترحيب والبشر
يطري الوفاء وذا الوفاء — ويلحى الغدر مجتهداً وذا الغدر
فإذا عدا . والدهر ذو غير . — دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض بإهمال أخوة من — يلقي المقل ويعشق المثري

و (يصرخ حماد أنه في محنته ، يستجير الحجر والتراب لأنه لا يجد بين الناس من يجيره)[٢]، يقول [٣]:

لم أجد من العباد مجيراً — فاستجرت التراب والأحجارا

وارتاب ابن المعتز من جميع الناس في عصره ، فلم ير في أحد منهم خيراً ، يقول [٤]:

---

(1)- طبقات ابن المعتز ص: ٦٨ .
(2)- ديوان الشعر العربي : أدونيس ٢ / ي .
(3)- المصدر السابق ٢/٤٤ .
(4)- الديوان ص: ١٧٦ .

لا خـــير في العـــالمين كلـــهم ولا مـــن العـــالمين منفـــردا

لا يسلم المـرء حين يصلح من ذم حسـود ، فكيف إن فسدا

وعلى الرغم من مكانة ابن المعتز الاجتماعية ، وبريق نسبه العباسي ، وتفوقه الأدبي ، إلا أنه عانى من غدر الآخرين وعبثهم ، وظهورهم بمظهر المرائي الكذاب الذي يتقلب مع الأحداث ، يقول [١]:

بلـــوت أخـــلاء هـــذا الـــزمان فأقللت بالهجـــر منهم نصيبي

وكلـــــــــهم إن تصفحتـــهم صديق العيـان عـدو المغيب

ويتخذ هذا الشاعر الحذر وقاية من مخالب هذه الوحوش التي تأكل لحوم بعضها ، بعد أن تخلت عن إنسانيتها ، وعاشت شريعة الغاب [٢]:

نفــس كونــي ذات خــوف واتقـــــاء ، واجتـــــناب

لا تظنــــي النـاس ناســاً أي أســــــد في الثيـاب

ويتضاعف عناء هذا المغترب بفقدان من كان يراه أهلاً للقرب ، ويغدو كالسيف المنفرد الذي ضاعت حمائله ، فغدا بعدها عرضة للضياع [٣]:

سـقياً لمن في الثرى أمست منازله ومـن بـدار البلـى قـرت رواحلـه

أمسـيت خلوا من الأحباب منفرداً والسيف يبقى ، ولا تبقى حمائله

(1)- الديوان ص: ٦٩ .
(2)- المصدر السابق ص : ٦٩ .
(3)- المصدر السابق ص: ٣٨٩ .

وعندما أجهدته شقوته بالناس ، وتقطعت بينه وبينهم الصلات ، عاد إلى ربه ضارعاً ، وراغباً [١]:

دع الناس ! قد طال ما أتعبوك   ورد إلى الله وجه الأمل

وفي بائيته (من يذود الهموم عن مكروب) تجفوه دنياه ، ولا يأخذ من دولة بنصيب ، فغربته عن مجتمعه ضيقت في عينيه من الدنيا ما اتسع ، وصار الناس عنده رمزاً للغدر والخيانة والتقلب ،ورمزاً للشقاء والتعاسة ، فالآخرون عند ابن المعتز هم الجحيم ، يقول [٢]:

وجفاه الإخوان حتى ، وحتى   سم من شئت من حبيب قريب

وأرى ودهم كلمع سراب   غر قوماً عطشى بقاع جدوب

آه من ذكر آخرين رماهم   قدر الموت من شباب وشيب

بدع من مكارم الفعل والقو   ل وإخوان محضر ومغيب

لست من بعدهم أرى صورة الأنس يقينا إلا خلائق ذيب

ولعل أشد ما كان يعانيه ابن المعتز ، ألمح أو صرح ، انفصاله عن أهله وأبناء عمومته ، الذين طالما آذوه وألموه ، وظلم ذوي القربى أشد مضاضة من وقع السيف ، وتتضخم المعاناة عندما تكون ممن يرجى منه المؤازرة والمساعدة . ولم تفلح محاولات ابن المعتز مع قومه في رتق فتقهم ، فهم يصرون على قطيعة الرحم ، ويقابلون إحسانه بالإساءة [٣]:

ومن عجب الأيام بغي معاشر   غضاب على سبقي ، إذا أنا جاريت

---

(1)ـ الديوان ص: ٣٩٠ .
(2)ـ المصدر السابق ص: ٨٢ .
(3)ـ الديوان ص: ٩٦ .

لهـــم رحـــم دنـــياهم يعـــرفونها　　إذا أنهكـــوها بالقطـــيعة أبقـــيت

يصدون عن شكري وتهجر سنتي　　على قرب عهد مثل ما يهجر البيت

فـــذلك دأب البـــر مـــني ومـــنهم　　إذا قـتلوا نعمـاي بالكفـر أحيـيت

يغـيظهم فضـلي عليهم ، ونقصـهم　　كأنـي قسـمت الحظـوظ ، فحابـيت

وكـم كـربة أخـــاذة بحلوقـــهم　　مصممة البلـــوى ، كشفت وجليت

(ولا شيء يرضي ابن المعتز غير السخط ، فكل ما يحيط به يولد في نفسه الشعور بالغربة ، غربة الشباب في عالم شائخ ، غربة الشعرة السوداء في رأس أشيب)[١] يقول [٢]:

إنـي غـريب بـدار لا كـرام بهـا　　كغـربة الشـعرة السـوداء في الشـمط

ما أطلق العين في شيء أسربه　　ولست أبدي الرضا إلا على سخط

(لذلك لا يشعر بوجود أحد، فيحيا على هواه ، ممارساً اللذة التي يشاء ، لحظة يشاء ، دون اعتبار للناس ، إذ ليس في الناس إنسان) كما يقول [٣]:

وما خفنـا مـن النـاس　　وهـل في النـاس إنسـان

ويشتم أبو نعامة الدنقعي أهل عصره ، ولا يرى فيهم شريفاً [٤]:

تولى زمـان بني المحصنـات　　وهـذا زمـان بني الزانيـة

ويركب أبو هفان حمار مكار ، لأنه لم ير في مجتمعه نبيلاً يأوي إليه [٥]:

---

(1)- ديوان الشعر العربي ٢ /ل .
(2)- الديوان ص: ٢٩٣ .
(3)- المصدر السابق ص: ٣١٧ .
(4)- طبقات ابن المعتز ص: ٣٩١ .
(5)- المصدر السابق ص: ٤٠٩ .

ركـــبت حمـــار الكـــرا لقلـــة مـــن يعـــترى

وإن ذوي المكـــــرما ت قد أصبحوا في الثرى

وفي العصر العباسي صار المجتمع (كتلة كثيفة معتمة تحول بين الشاعر والضوء ، فازداد شعوره بأنه منبوذ ، محاصر ، مخنوق . لكن ردود فعله كانت قوية تتراوح بين الوحدة والسخرية والتعالي والرفض . وفي هذا كله كان يشعر أنه في زمن القرود كما يعبر أبو نواس)(١) .

وقد ضرب هذا الشاعر بقيم مجتمعه وأعرافه عرض الحائط ، كما كان موقفه من الناس لا يقل عن موقفه من القيم .

وأبو نواس لا يجامل أحداً ، فما يريده يفعله ، وما يرغب فيه يقوله ، في تحد سافر لا يعرف الخفاء ولا المواربة . وكان موقفه من الناس يحمل شيئاً غير قليل من الاستهتار بهم والسخرية منهم . وطالما ألمح في شعره (عن اتساع الهوة بينه وبين مجتمعه .. معبراً عن عمق اغترابه ووعيه لمأساته)(٢) يقول ساخراً من رجال مجتمعه وساسة عصره (٣):

هذا زمان القرود فاخضع وكن لها سامعاً مطيعاً

ويعلن بكبرياء وتمرد رفضه للتبعية ، وانعتاقه من كل القيم الاجتماعية والدينية ، لأنه يعيش عالمه الخاص الذي لا تؤطره حدود ، ولا يخضع إلا لصوت الشهوة والغريزة (٤):

مالي وللناس ، كم يلحوني سفهاً ديني لنفسي ودين الناس للناس

(1)- ديوان الشعر العربي ٢ (ي)
(2)- أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد ص: ٦٩ .
(3)- الديوان ص: ٣٤٩ .
(4)- المصدر السابق ص: ٣١١ .

وينفصل ما بينه وبين الناس ، وتتقطع أسباب الاتصال ، فيهونون عنده ، ولا يختلق الأعذار ليرضيهم [1]:

غدوت على اللذات منهتك الستر ... وأفضت بنات السر مني إلى الجهر
وهان علي الناس فيما أريده ... بما جئت ، فاستغنيت عن طلب العذر

ويعزو انفصاله عن الآخرين ، إلى أن هؤلاء يشبهون الناس وليسوا منهم ، فقد ذهب الذين يعاش في أكنافهم [2]:

ذهب الناس فاستقلوا ، وصرنا ... خلفاً في أراذل النسناس
كلما جئت أبتغي النيل منهم ... بدروني قبل السؤال بياس
وبكوا لي حتى تمنيت أني ... مفلت عند ذاك رأساً برأس
في أناس تعدهم من عديد ... فإذا فتشوا فليسوا بناس

ويحس البحتري بفاصل كبير يبعده عن أهل عصره ، فهو لا يرى ناساً ، وإنما يرى صوراً وأشباحاً ، جمعت بين اللؤم والجهل ، هذه الصور لا تحس ولا تشعر ولا تستحق أن تحيا ، وهؤلاء الناس لا يفهمون الشعر ، ولا يهتزون له ، وإذا كان الشاعر غريباً بينهم ، فلا عجب ألا تفهمه البقر [3]:

لم يبق من جل هذا الناس باقية ... ينالها الفهم إلا هذه الصور
جهل وبخل ، وحسب المرء واحدة ... من تين ، حتى يعفى خلفه الأثر

---

(1)- المصدر السابق ص: ٢١٥ .
(2)- الديوان ص: ٣٢٦ .
(3)- الديوان ١ / ٤٨٧ .

إذا محاسني اللاتي أدل بها كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر

علي نحت القوافي من مقاطعها وما علي إذا لم تفهم البقر

وعلي بن الجهم شاعر قاسى من أهل عصره آلاماً ونكبات ، فقد سعوا به إلى المتوكل حتى غضب عليه وسجنه ، وعندما خرج من السجن (وخلص من تلك المحنة الشديدة ، وقد اسود رأيه في الناس والحياة فزهد بهما ، ورأى أنه لم يبق له صديق ، وأنه إن كان في الناس من يوثق به ويعتمد عليه فقد مات . فصار يذهب من حين إلى آخر وهو في خراسان إلى المقابر ، ويجلس بها منفرداً)[١] وعندما عاد إلى بغداد وابتعد عن مجلس المتوكل (ولم يبق له تلك المنزلة التي كانت له عند الخليفة ، فانصرفت عنه الوجوه ، وتنكر له الناس بعد أن كانوا يتوسلون إليه ، فازداد رأيه سوءاً في الناس والحياة)[٢] وفي هذا يقول مبيناً أسباب غربته وعزلته [٣]:

وأنكر إغفال العيون مكانه وقد كن من أشياعه حيث يمما

خليلي من فرعي قريش رزيتما فتى قارع الأيام حتى تثلما

إذا رفع السلطان قوماً ترفعوا وإن هدم السلطان مجداً تهدما

ويصرخ ابن الجهم من أعماقه برأيه السيء في الناس ، وغربته فيهم ، إذ كانت خيانة المقربين له أشد عليه وقعاً من السجن ، وهو يحذر أخاه من أن يثق بأحد منهم ، فهم مراءون ، منافقون ، نفعيون [٤]:

---

(1)- الديوان ص: ١٧ .

(2)- المصدر السابق ص: ١٨ .

(3)- المصدر السابق ص: ١٩٩ و ٢٠١ .

(4)- المصدر السابق ص: ٥٩ .

توق الناس يا ابن أبي وأمي | فهم تبع المخافة والرجاء
ولا يغررك من وغد إخاء | لأمر ما غدا حسن الإخاء
ألم تر مظهرين علي غشاً | وهم بالأمس إخوان الصفاء
بليت بنكبة فغدوا وراحوا | علي أشد أسباب البلاء
أبت أخطارهم أن ينصروني | بمال أو بجاه أو ثراء
وخافوا أن يقال لهم خذلتم | صديقاً فادعوا قدم الجفاء
عليهم لعنة الله ابتداء | وعوداً في الصباح وفي المساء

وابن الرومي يرى الآخرين جحيماً لا يحتمل ، ويتخيل أنهم غرسوا صفاتهم القبيحة في الطبيعة من حوله ، فقد ذم شجراً غير مثمر ، وفي ذلك ترميز جميل يدل على تلك الهوة السحيقة التي تفصل ابن الرومي عن أهل عصره [1]:

أيا شجراً بين الرسيس فعاقل | منحتك ذمي صادقاً غير كاذب
نديت ولم تورق ولست بمثمر | فكن غرضاً مستهدفاً للنوائب
فما فيك من ظل لغل ظهيرة | وما فيك من جدوى لجان وحاطب
وفيك على حرمان خيرك كله | من الشوك ما لا وكن فيه لآئب
وأحسب ذاك الشوك لا شك بينه | أفاعٍ ، فلا أسقيت صوب السحائب

حاول ابن الرومي أن ينسجم مع الآخرين فعاد مهزوماً مخذولاً ، فقد فشل في علاقاته فشلاً ذريعاً ، يقول [2]:

---

(1)- الديوان ١ / ٣٣٣ .
(2)- المصدر السابق ٤ / ١٢٧ - ١٢٨ .

ولي أصـدقاء كـثيرو السـلا م علـي ومـا فـيهم نافـع

إذا أنـا أدلجـت في حاجـة لهـا مطلـب نـازح شاسـع

فلـي أبـداً معهـم وقفـة وتسـليمة وقـتها ضـائع

أولئـك لا حيهم مؤنسـاً صديقاً ولا ميتهم فاجـع

ويذمهم ذماً شنيعاً ، لأنهم قليلو النجدة ، كثيرو المن [١]:

رأيـت الأخـلاء في دهـرنا بظهـر المـودة إلا قلـيلا

بطـاء عـن المبتغـي نصـرهم إلى أن يغـادر شـلوا أكـيلا

فإن حشـدوا لأخ مـرة أدلـوا عليـه دلالاً ثقيـلا

وابن الرومي يربط غربته بالآخرين بقضية الاستحقاق والجدارة ، وكأن بينه وبينهم ثاراً لا ينقطع وترات لا تندثر (لهذا يشعر أن أحلامه وأمانيه ومبادئه ليست سوى غربة فيهم وفي عصرهم)[٢] ، يقول [٣]:

ورجـال تغلـبوا بـزمان أنـا فـيه وفـيهم ذو اغـتراب

غلبـوني به على كل حـظ غير حـظ يفوت كل اغتصـاب

ويصف دعبل الخزاعي غربته بقم وشقاءه بالآخرين ، فقد انعدمت وسائل الاتصال بينه وبينهم [٤]:

ظلـت بقـم مطـيتي يعـتادها همـان : غـربتها وبعـد المـدلج

(1)- المصدر السابق ٥ / ١٩٦ - ١٩٧ .
(2)- ابن الرومي : إيليا الحاوي ص: ٨٠ .
(3)- الديوان ١ / ٣١٥ .
(4) الديوان ص : ٧٧

ما بين علج قـــد تعرب ، فانتمى أو بيـن آخر معرب مستعلـــج

(وقيل له : ما الوحشة عندك ؟ قال : النظر إلى الناس ! ثم قال :

مـا أكثـر الـناس ! لا بـل مـا أقلـهم الله يعلـــم أنـــي لم أقـــل فـــندا

إني لأفتح عـــيني حـــين أفتحهـا على كثير ، ولكن لا أرى أحدا)[١]

ولا غرابة أن ينفصل هـذا الثائر القلق عن الناس ، فطالما شقوا به ، وشقي بهم ، وكم أفرحته عيوبهم فمزق أجسادهم بمخالب هجائه القاسي ، وكم تلقف مصائبهم فأوجعهم وأمضهم .

ومن هنا فلا عجب أن يفتح عيونه فلا يجد أحداً ، لأنه يحتقر الجميع .

ومرة أخرى ينظر فلا يجد حراً كريماً ، ولا شريفاً ـ كما يزعم ـ يعول عليه ، يقول [٢]:

قد بلـوت النـاس طـرا لم أجـد في الناس حـرا

صـار أحـلى الناس في العيــــــــن إذا ما ذيـق مـــرا

ويشتد شقاء الأحيمر السعدي بالناس ، ولا يطمئن لبني البشر ، فأصواتهم ترعبه ، بينما يستأنس بأصوات الوحوش ، لأنها أرحم من الناس [٣]:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ وصـوت إنسـان فكـدت أطـير

عـوى رأى الله إنـي للأنيس لشـأني وتبغضـــهم لي مقلـــة وضـــمير

فلليـل إذ واراني الليل حكمه وللشمس إن غابت علي نـــذور

---

(1)ـ الديوان ص : ٨٥ ـ ٨٦ .
(2)ـ المصدر السابق ص: ١٠٢ .
(3)ـ معجم البلدان ١ / ٤٨٥ .

فهو ناقم على الجنس الآدمي ، كاره لهم حاقد عليهم ، وقد انقلبت مفاهيمه رأساً على عقب إذ أنس بالوحوش الضارية وألفها ، وكأنها على ضراوتها أرحم من الناس وأرق . وهذا الشاعر الصعلوك المنفصل أنكر بني جنسه ومقتهم فغدوا رمزاً للغربة الاجتماعية والبعد عن الآخرين والانفصال عن قيم مجتمعه ، وقد أوجد لنفسه مجتمعاً آخر لا ينفر إلا من البشر ولا يزعجه إلا سماع أصواتهم ورؤية صورهم .

ومحمد بن حازم الباهلي يحس بغربته لعدم مقدرته على الانسجام والتوافق مع الناس حوله ، ويرى كبيرهم أخس من صغيرهم ، يقول [١]:

بلوت خيارهم فبلوت قوماً ... كهولهم أخس من الشباب

وما مسخوا كلاباً غير أني ... رأيت القوم أشباه الكلاب

لقد أحس الشاعر العباسي (بأن هناك هوة بين الشاعر والآخر ، بأنه وحيد والآخر جدار في وجهه، وقد عمل التطور الاجتماعي وتزايد السكان وتكاثفهم وتجمعهم في المدينة على إضعاف الصلات الحميمة بين الشاعر والآخر . . ساعد أيضاً على تنمية الصلات التي تمليها الحاجة المادية وجملة الضرورات التي تنشأ من تشابك الحياة الاجتماعية وتعقدها)[٢] لقد أصبح بين الشاعر وبين الآخر هاوية ، كان الآخر عدواً مناوئاً ، أو عدواً يلبس ثياب الصديق ، باختصار ، تفتت العلاقات الإنسانية السامية بين الناس ، وحل محلها علاقات براقة زائفة ، فاغترب الشاعر عن الآخرين الذين غدوا حجر عثرة في طريقه .

---

(1)- ديوان الشعر العربي ٢ / ١٧٩ - ١٨٠.

(2)- المرجع السابق ٢ / ط .

ثانيا :الاغتراب عن القيم السياسية :

الاغتراب السياسي هو (شعور المرء بعدم الرضا أو عدم الارتياح للقيادة السياسية والرغبة في الابتعاد عنها وعن التوجهات السياسية الحكومية والنظام السياسي برمته)[1] وما يصحب ذلك من ثورة وتمرد ونقمة وسخط .

والمغترب سياسياً يشعر بعجزه وعدم قدرته على التأثير في إصدار القرارات أو صنعها ، وأن صناع القرار لا يضعون له أدنى اعتبار ولا يعملون له حساباً . وباختصار يشعر بأنه ليس جزءاً من العملية السياسية ، هو يعيش على الهامش ، والدولة لا تسعى إلى إسعاده ، ولا تعني بحاجاته .

وعندما يفقد الفرد انتماءه للدولة يصبح من السهل عليه أن ينضم إلى الأحزاب المناوئة لها ، والتي غالباً ما تحمل شعارات براقة من المساواة والعدالة الاجتماعية ، وكثيراً ما توهم بتحقيق كل ما يطمح له الفرد المغترب في هذا النظام .

وعند دراستنا للاغتراب السياسي في العصر العباسي ، وجدنا محوراً آخر . لم يكن مرتبطاً بالسلطة قدر ارتباطه بعلاقة الشعب فيما بينه ، وقد تمثل ذلك في الشعوبية التي خلقت هوة سحيقة بين عنصرين يحمل كل منهما من سماته الشخصية والثقافية والحضارية حواجز تمنع كثيراً من أسباب الاتصال بين هذين العنصرين ، على المستوى العاطفي خاصة ، لأن التقاءهما على المستوى العقلي والثقافي كان قوياً وتأثيرهما في هذا الجانب لا يحتاج إلى سياق البراهين .

---

(1)ـ الاغتراب والتطرف نحو العنف ص: ٣٥ .

ولم يكن الفرس والعرب على وئام واتفاق ، فتعالي العرب ، وإحساس الفرس بتفوقهم الحضاري ، أوجد بين هذين الفريقين مسافات كبيرة ، وشحناء وتباغض أدت إلى اغترابهما عن بعض ، ومن ثم كانت مسألة تعايشهما قضية صعبة ، تحمل معها عداوات وترات ، وتشكل لكل منهما قلقاً واستفزازاً .

ومثلما كانت علاقة الشعب ببعضه علاقة متوترة فقد كانت علاقته بالدولة علاقة مشحونة تقوم على عدم الرضا ، وتأخذ شكل المعارضة السلمية أحياناً والمسلحة أحياناً . جاء ذلك على المستوى الفردي والجماعي . ومن هنا كثرت الثورات ، ولجأ الفقراء المضطهدون إلى دعاة العدل الذين أوهموهم بتحقيق طموحاتهم وآمالهم ، كما حدث مع دعاة الزنج والقرامطة .

ويمكن لنا تصنيف حالات الاغتراب ، في هذا العصر في **ثلاثة أصناف هي** :

١. اغتراب جماعي عنصري عند الشعوبيين .
٢. اغتراب جماعي مذهبي عند الشيعة .
٣. اغتراب فردي .

وسبق أن تحدثنا عن الشعوبية وأثرها في العصر العباسي ، وما أنتجته من توترات وانفصال على مستوى الشعب ، ودعم بعض الوزراء الفرس المتمكنين لهذه الحركة الثقافية الحضارية السياسية .

وإذا كانت بعض الشعوب غير العربية شاركت الفرس في مناهضة العرب فإن أثرهم كان قليلاً بجانب الأثر الفارسي الخطير . وقد أنتجت هذه الحركة أدباً اغترابياً يحمل من النعرات والأحقاد شيئاً كثيراً . ولا شك في أن العرب بتعاليهم واعتدادهم بصراحة أنسابهم اعتداداً مصحوباً بالاستهانة بالجنس الآخر دفع الفرس إلى أخذ موقف مضاد حاد . وهو شعور قد

صحبه تطبيق عملي إذ اضطهد بعض العرب مواليهم ، وتملكهم طغيان الشعور بالسيادة فاحتقروا هؤلاء الموالي ولم يروهم شيئاً .

ولم يكن الفرس أسمح نفساً إذ جاءوا وهم يحملون عداواتهم ، وينقلون كثيراً من مذاهبهم المنحرفة ، سعياً منهم إلى هدم الدين وتشويش عقائده . وسعوا إلى الطعن بالأنساب العربية ، ولفقوا دسائسهم حتى شوهوا كثيراً من الحقائق التاريخية .

وانبرى شعراؤهم الذين أحسوا بالانفصال الكبير عن العرب يتغنون بأمجاد الفرس وحضارتهم ، مصرحين من خلال هذا التمجيد أو ملمحين إلى العرب والسخرية منهم . و (لعل أنكر شعراء العصر العباسي . . من الموالي الذي تعمقتهم النعرة الجنسية والعصبية الحضارية هو بشار بن برد ، فهو أكبر ممثل للشعوبية بينهم ، إذ يرسم في شعره التطور التاريخي لحركتهم ، مصوراً انبثاق شعورهم القومي ، وانبعاث تطلعهم إلى الظهور والتميز من العرب)[1] .

إذ كان بشار من أكثر الفرس إحساساً بالانفصال والغربة ، فقد رأى أنه في مجتمع يزدريه أشد الازدراء لعاهة عماه ، ولقبح هيئته ، ولكونه مولى . ولهذا فقد اندفع في تمجيد الفرس وتحقير العرب وازدرائهم ازدراء يخيل للمرء معه أن هذا الشاعر يتحدث من مكان آخر ، بعيداً عن بلاد العرب ، إذ جعله شعوره القاسي باغترابه يتهجم على العرب بقسوة وبمرارة ، وكأن نقمته ليست خاصة بالمواطنين العرب بل بقادة العرب ، وعلى رأسهم الخلفاء ، ومن خلال شعره تحس بتهكمه بهذا المجد الذي فاجأ العربي بعد أن كان أضحوكة . كما يتصوره الشاعر . وهذا العربي غير جدير بالرفعة والحضارة ، لأنه وافد عليها ، ضيف على هذه الحياة التي لم

---

(1) ـ الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول ص: ١٦٩ .

يستوعبها بعد ، وبشار يريد أن يصل من خلال ذلك إلى أن هذا العربي غير مؤهل أيضاً للقيادة ولا الملك ، وهو في هذا الموقف يواجه مستويين من الاغتراب السياسي : اغتراب عن المواطن العربي ، واغتراب عن السلطة العربية .

وعندما لمزه أحد الأعراب في مجلس أمير عربي ، تفجر هذا الشاعر غيظاً ، واشتد في السخرية من العرب والتهكم بهم ، فهم عبيد صيرهم حظهم سادة ، فلم يحسنوا تصرف السادة ، وأنّى لهم ذلك ، وهم أعراب حفاة عراة ، كانوا يلغون مع الكلب في إنائه ، ويلبسون أخشن اللباس ، ويصيدون أسوأ ما يصاد . يقول بشار في سخرية مرة [1]:

إذا انقلب الزمان علا لعبد	وسفل بالبطاريق الكبار
ملكناكم فغطينا عليكم	ولم ننصبكم غرضاً لزار
أحين كسبت بعد العري خزاً	ونادمت الكرام على العقار
ونلت من الشبارق والقلايا	وأعطيت البنفسج في الخمار
تفاخر يا ابن راعية وراع	بني الأحرار حسبك من فخار
لعمر أبي لقد بدلت عيشاً	بعيشك والأمور إلى مجاري
وكنت إذا ظمئت إلى قراح	شركت الكلب في ذاك الإطار
تريغ بخطبة كسر الموالي	وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو في الكراء لنيل زاد	وليس بسيد القوم المكاري
وفخرك بين يربوع وضب	على مثلي من الحدث الكبار

[1]- الديوان ص: ٤٨٣ - ٤٨٤ .

مقامك بيننا دنـــس علينا فليتـــك غائب في حـــرنار

(ولولا أنه كان يطوي نفسه على بركان هائج من الغيظ والمقت والبغض للعرب لما انفجر هذا الانفجار ، ولما تهور هذا التهور)[١] .

هذا الانفصال الذي كان يعيشه هؤلاء المغتربون لم يكن قصراً عليهم ، فقد عانى منه أبناؤهم الصغار مثلما عانى منه كبارهم ، وفي مثل هذا الجو المشحون بالبغضاء والنزعة العنصرية المقيتة ، لا يمكن أن يحدث انسجام ولا تناغم بين هذين المتنازعين . ولو لم تكن هذه النزعة مؤثرة في محيطها شديدة الخطر ، لما نهى الإسلام عنها ذلك النهي الشديد . ولهذا فقد تعلم صغار القوم ملاحاة الأنساب والتفاخر وبشار بن برد عندما يتعرض لـــه أحد في هذا الجانب ينقلب وحشاً كاسراً يفترس هذا الملاحي افتراس الحاقد الضاغن . وقد تعرضت أعرابية فقيرة لمنافسة ابنته ، فانهال على الأعراب لوماً وشتماً ، حتى نزل بهم عن مستوى البشر إلى مستوى الحيوانات ، لأنه لا يرى لهم قيمة ، ولا يحس لهم فضلاً .

ولعل مثل هذه القصائد توحي بانفصال الفريقين عن بعضهما انفصالاً حاداً ، لا تبدو معه خطوط التقاء ، يقول بشار ساخراً متهكماً [٢]:

تقـول ابـنتي إذ فاخـرتها غـريبة مــؤزرة بالوبــر في شـــوذر قـــدد

لهــا والــد راع إذا راح عــندها بأشوية من قلب ضب ومن كبد

أبـي نجــل أمــلاك وزور خلـيفة يلـين لـــه بـاب الهمـام إذا وفـد

---

[1]- الزندقة والشعوبية ص : ١٧٥ ـ ١٧٦ .
[2]- الديوان ص: ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

وأنت لقاة بين خلف وأكلب		متاع لمن جاز السبيل ومن قصد
وإنك من قوم عليهم غضاضة		ترى غيراً بالنفس من عيشها النكد
معاودة حمل الهشيم بكفها		على كاهل قد كاد يأود أو أود

ويشكل الجنس العربي لبشار أزمة متأصلة ، تذكره بجرحه الدفين ، وتثير أحقاده ، وتشعره بأنه دخيل على هذا المجتمع الذي يرتب الناس ويفاضلهم تبعاً لرفعة أنسابهم لا جوهرهم ومثلهم .

وبشار عندما يحس باغترابه يتحول كعادته إلى سياط حامية ومخالب دامية تنهش محامد العرب ، وتمزق شرفهم ، وكأن ثائرته لا تهدأ حتى يرمي بهم إلى الدرك الأسفل ، ولا يترك هذه الفريسة إلا وهي أشلاء ، يقول ثالباً القبائل العربية [١]:

إذا لم تر الذهلي أنوك فالتمس		له نسباً غير الذي يتنسب
وأما بنو قيس فإن نبيذهم		كثير وأما خيرهم فمغيب
وفي جحدر لؤم وفي آل مسمع		صلاح ولكن درهم القوم كوكب
وأنذل من يمشي ضبيعة إنهم		زعانف لم يخطب إليهم محجب
ويشكر خصيان عليهم غضارة		وهل يدرك المجد الخصي المجبب

ويبلغ ببشار الحقد حداً بعيداً ، إذ لا يكتفي بمفاخرة العرب الأحياء ، فيناوئ من مات منهم ، ويتطاول عليهم ، ويحقرهم ، يقول [٢]:

---

(١) ـ الديوان ص : ١٥٩ .
(٢) ـ الديوان ص : ١٨١ـ ١٨٢ .

هــل مــن رســول مخــبر عـــني جمـــيع العـــرب
مــن كــان حــياً مــنهم ومـــن ثـــوى في الـــترب
بأنـــــي ذو حســب عالٍ على ذي الحســـب

وفيهم يقول ساخراً متهكماً [١]:

ولا حـــدا قـــط أبـــي خلــف بعــير أجــرب
ولا أتـــى أتـــى حـــنظلة يثقـــبها مـــن ســـغب
ولا شــــــوينا ورلاً منضنضَـــاً بالـــذنب
ولا تقصـــــعت ولا أكلـــت ضـــب الحـــزب
ولا أصـــطلى قـــط أبـــي مفحجـــاً للـــهب
كــلا ، ولا كان أبـــــي يــركب شرجـــي قتب

ولم يكن أبو نواس أقل سخرية بالعرب من بشار ، إذ أخذ ينفث سمومه ، ويعلن غربته عن هذا المجتمع العربي وعن كل قيمه ، يقول في سخرية مقذعة وتحقير شديد [٢]:

إذا مـــا تميمـــي أتـــاك مفاخـــراً فقل : عد عن ذا كيف أكلك للضب
تفاخـــر أبـــناء الملـــوك ســـفاهة وبولك يجري فوق ساقك والكعب
إذا ابتدر الناس الفعال فخذ عصا ودعدع بمعزى يا ابن طالقة الذرب
فنحن ملكنا الأرض شرقاً ومغـــرباً وشيخك ماء في الترائب والصــلب

(1)- الديوان .
(2)- الديوان ص: ٧٨ .

فقد سلب العربي كل قيم الرجولة والمروءة وصيره أضحوكة لا هدف لـــه في الحياة ، ولا غاية يسعى إليها ، وقمة مجد العربي أن يرعى الغنم وينذر حياته لها .

وأبو نواس لا يغترب عن المجتمع العربي أفراداً فحسب ، وإنما يغترب عن كل القيم الحضارية العربية . وموقفه من الجنس العربي موقف متشدد يحمل من البغضاء لهم ما يجعله يتهكم بالجنس والقيم معاً ، إذ يبدو الإنسان العربي في عيني أبي نواس من الدرجة الثالثة ، فهو أعجوبة صيرتها الظروف آمرة ناهية ، وهو تافه لا يحمل معه إلا تراث جده البالي ، وقد جمع سوء المظهر وسوء المخبر .

وشعوبية أبي نواس تبدو أخطر من شعوبية غيره من الشعراء ، إذ تمتزج بكثير من السخرية والتحقير والاستهتار بهذا النوع حتى حد الضحك ، يقول [1]:

ولا تأخذ عن الأعراب لهواً ... ولا عيشاً فعيشهم جديب
دع الألبان يشربها رجال ... رقيق العيش بينهم غريب
إذا راب الحليب فبل عليه ... ولا تحرج فما في ذاك حوب
فأطيب منه صافية شمول ... يطوف بكأسها ساق أديب
يكاد من الدلال إذا تثنى ... عليك ، ومن تساقطه يذوب
فهذا العيش لا خيم البوادي ... وهذا العيش لا اللبن الحليب

[1] ـ الديوان ص: ٣٥ ـ ٣٦ .

ويستمر أبو نواس في موقفه العدائي للعرب ، رامياً كل قيمهم الإنسانية تحت قدميه ، فهو يجردهم من كل الأشياء الجميلة. ويشعر المرء وهو يقرأ قصائده أن الجنس العربي في عيني هذا الشاعر لا يعدو أن يكون حشرة قذرة ، لا تحب ، لا تستمتع ، لا تتذوق ، لا تملك أحاسيس البشر ولا عقولهم أيضاً [٢]:

فـذاك العـيش لا سـيدا … بقفـــرتها ولا وبـــرا

إذا مــا كــنت بالأشــيا … ء في الأعــراب معتــبرا

فإنـك أيما رجـــــــل … وردت فلم تجد صـدرا

ومـــن عـجـــب لـعشــقــهم الـجـفـاء الجلف والصحرا

فقـــيل مـــرقش أودى … ولم يعجـز وقـد قـدرا

تعد الشيـــح والقيصو … م والفقهاء والسمــــرا

جـــني الآس والنســريـن والسوســـــــان إن زهـــرا

ويغنـــيها عـــن المـــرجا … ن أن تـــتقلد البعـــرا

أمـــا والله لا أشـــراً … حلفـت بـه ولا بطـرا

لو أن مرقشاً حـــــي … تعلـق قلبـه ذكـــــرا

(ويحاول أبو نواس أن ينال من مروءة صبية العرب وشبابهم بأن يتغزل في غلمانهم . . . إن أبا نواس يحاول أن يشفي غلته ويروي شعوبيته فيعمد إلى هذا الهدف الذي تصور أنه من خلاله يكيد للعرب ويعرض بهم)[١] فيقول [٢]:

---

(2)ـ الديوان ص : ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

إنمـــا همتـــى غـــزا ل وصـــهباء كالـــذهب

إنمـا العـيش يـا أخـي حب خشف من العرب

فـإذا ما جمعتــــــه فهـو الدين والحسـب

وتختلف لغة أبي إسحاق المتوكلي عن لغة رفاقه من الشعوبيين ، إذ تحمل لغته صيغاً من التهديد والتنديد ، وترتفع لهجتها السياسية المتمردة لتأخذ نمطاً هجومياً عنيفاً ، لا يأبه ببردة فعل الخلافة العربية التي طلب منها التنحي عن مقاليد الحكم قبل الندم . ولعل جرأة الشاعر في المواجهة ، ولهجته الاستفزازية ، وقوة طرحه لرأيه السياسي ، تدل دلالة كافية على مابين هذه الأجناس من تباين ونزعات عنصرية حاقدة ، أدت إلى قطع حبال الود والانسجام والتكيف بين هذه الأطراف المتنازعة . يقول المتوكلي [١]:

أنا ابن الأكارم من نسل جم وحائـز إرث ملـوك العجـم

ومحي الذي باد من عزهم وعفـى عليه طـوال القـدم

وطالـب أوتـارهم جهـرة فمـن نـام عـن حقهـم لم أنم

معـي علـم الكابـيان الـذي بـه أرتجـي أن أسـود الأمـم

فقـل لـبني هاشـم أجمعـين هلمـوا إلى الخلـع قـبل الـندم

ملكـــناكم عـــنوة بالـــرما ح طعناً وضرباً بسيف حذم

وأولاكـــم الملـــك آباؤنـــا فمـا إن وفيـتم بشـكر الـنعم

---

[١] ـ الشعر والشعراء في العصر العباسي ص: ١٧٨.

[٢] ـ الديوان ص : ٦٦ .

[١] ـ معجم الأدباء ١٢٩/١ .

فعودوا إلى أرضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعي الغنم

فإني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام وحرف القلم

ويجسد شعراء الشيعة غربتهم السياسية ، وانفصالهم عن سلطة الخلاف العباسية التي يرونها حكومة مغتصبة ظالمة ، ويشعرون بعدم الرضا والارتياح لهذا الحكم الاستبدادي الذي لا يتعامل مع معارضيه إلا بإراقة دمائهم ، والعبث بهم قتلاً وتعذيباً .

ولم ينس شعراء الشيعة ، لحظة واحدة ، استيلاء العباسيين على الخلافة بعد أن أوهموا شيعة آل البيت بأنها للرضا منهم ، ثم تنكروا لهم بعد نجاح ثورتهم ، وعثوا في العلويين قتلاً وسجناً حتى أنهكوا قواهم . وقد ظل العلويون وأشياعهم مستفزين ، لا تكاد تهدأ ثورة لهم حتى تقوم الأخرى ، وكأنما استحلوا الموت ، واستلذوا العذاب في سبيل هدفهم الذي يسعون إليه .

ولم تهدأ ثائرة شعراء الشيعة على الرغم من ألوان القمع والتنكيل التي تعرضوا لها . وتبدو في أشعارهم نغمة حزن لا يكاد ينطفئ ، ولوعة تتأجج وتزداد لهباً مع مر الأيام .

وقد واجهت الشيعة سلسلة من الإرهاب السياسي وأعمال الإبادة والعنف ، ودفعوا ثمن هدفهم ضحايا كثيرين ، وضيق الخناق عليهم ، ورصدت حركاتهم ، لأن الخلفاء العباسيين يعلمون التعاطف الشعبي الذي يحظى به أبناء فاطمة من الناس عامة . وجاءت أشعارهم صدى لهذه الحالة القلقة التي يعيشونها كما عبرت عن الأسى الشديد الذي يملأ حياتهم ، أسفاً على شهدائهم ، وقهراً لضياع حقهم المغتصب . كما يعتقدون . وفشل محاولاتهم المستمرة في إعادته .

وتبدو أغلب قصائد الشيعة مكتمة يجتهدون في عدم ظهورها خوفاً من سطوة الخلفاء وبأسهم ، فهم لا يتورعون عن قتل معارضيهم ، ولا يتراخون في عقاب الخارجين على سيادتهم ، ولا شك في أن هناك من جاهر بقصائده المتشيعة مجاهرة أخذت شكلاً عنادياً معلنا كما كان يفعل دعبل الخزاعي .

وعندما ثار محمد بن عبدالله المعروف بالنفس الزكية في الحجاز ، وأرسل أبو جعفر المنصور جيشاً لقتاله ، وبعد أن ضيق عليه الخناق ، وتشدد قائد هذا الجيش في طلبه ، وحاصره في شعب رضوى ، فسقط ابن صغير لـه فمات ولقي منهم عنتاً كثيراً ، قال معبراً عن غربته السياسية وعذابه وشقائه [١]:

منخرق السربال يشكو الوجى	تنكبه أطراف مرو حداد
شرده الخوف فأزرى به	كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان في الموت له راحة	والموت حتم في رقاب العباد

وقد بدا شعر العلويين (وكأنه حشرجة المريض التي تترك أشد الآثار في النفس ، على أن هذا الصوت الخافت لا بد وأن يوحي بالكثير)[٢] .

وتعد مراثي شعراء الشيعة لآل البيت (المعبر الحقيقي لمشاعر الحزن والاضطهاد ، وهي أيضاً خطوة نحو التعبير عما يعانيه الفرد من اغتراب وضغط شديدين نتيجة سياسة تكميم الأفواه الاستبدادية) [٣] .

---

(1) ـ تاريخ الطبري ٤١٢/٤ .
(2) ـ شعر الصراع السياسي في القرن الثاني: د. إبراهيم شحاده الخواجة ص: ٢٥٧ .
(3) ـ شعر الاغتراب في العصر الأموي ص : ٥١ .

وتعد تائية دعبل الخزاعي الشهيرة مثالاً حياً على الاغتراب السياسي الذي عاني منه شعراء هذا الحزب ، وهي تبكي العلويين وتمجدهم وتصور ما أصابهم من قتل وتشريد على أيدي خصومهم ، وقد اتسمت بحزن مفرط وألم وحسرة ، والقصيدة بركان يغلي وحسرات متتالية ، يقول دعبل [١]:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات
ديار علي والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذي الثفنات
ديار عفاها جور كل منابذ ... ولم تعف للأيام والسنوات
قفا نسأل الدار التي خف أهلها ... متى عهدها بالصوم والصلوات
وأين الألى شطت بهم غربة النوى ... أفانين في الآفاق مفترقات
هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا ... وهم خير قادات وخير حماة

والقصيدة باكية ، مليئة بالدموع والآهات، وهي تدل دلالة واضحة على غربة العلويين ومعاناتهم ، وأبيات القصيدة ، على طولها ، لا تخلو من رنة حزن ، ولوعة مغبون .

ويواصل دعبل تحسره فيقول [٢]:

ألم تر أني من ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم في غيرهم متقسماً ... وأيديهم من فيئهم صفرات

(1) ـ الديوان ص: ٥٩ ـ ٦٠ .
(2) المصدر السابق ص ٦٣ ـ ٦٤ .

سأبكيهم ما ذر في الأرض شارق | ونادى منادي الخير بالصلوات
وما طلعت شمس وحان غروبها | وبالليل أبكيهم وبالغدوات

ويعتصر الألم قلب دعبل مما يحسه ويعانيه من فجائع آل البيت ، فيقف وقفة شجاعة في مواجهة الخلافة العباسية ، ويحملها مسؤولية المشاركة في المجازر الدموية التي تعرض لها العلويون ، ويرى الأمة كلها مشاركة في هذه الكارثة [1]:

يا أمة السوء ما جازيت أحمد عن | حسن البلاء على التنزيل والسور
خلفتموه على الأبناء حين مضى | خلافة الذئب في أبقار ذي بقر
وليس حي من الأحياء نعلمه | من ذي يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم | كما تشارك أيسار على جزر
قتلاً وأسراً وتحريقاً ومنهبة | فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إن قتلوا | ولا أرى لبني العباس من عذر
أربع بطوس على قبر الزكي بها | إن كنت تربع من دين على وطر
قبران في طوس : خير الناس كلهم | وقبر شرهم ، هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا | على الزكي بقرب الرجس من خطر

(ومن يدرس شعر دعبل يلاحظ أنه قصر مديحه على العلويين كما رثاهم وندب قتلاهم ، ولم يسلم من هجائه غيرهم ، ومما يلاحظ أنه كان يتخذ حبهم عبادة وقربى إلى الله ولذلك لم نعثر له على شيء من المديح في خلفاء بني العباس)[2] إلا في النادر .

---

(1) ـ المصدر السابق ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

ولعل دعبل أبرز الأصوات المنادية بحق آل البيت وأجرأها ، وأشدها اغتراباً ، بل وأكثرها مواجهة وعنفاً .

وديك الجن أحد شعراء الشيعة الذين علا نحيبهم ، فرثوا آل البيت رثاء حاراً معبراً عن تلك الغربة السياسية التي أحيطت بسياج من الصمت الرهيب والألم الدفين ، فلم تكن الأصوات التي أعلنت إلا ضوءاً خافتاً لعالم يمتلئ بالضجيج ، وعيون تغرق في الدموع . ولم تمثل هذه الأشعار إلا جزءاً بسيطاً من تلك العاطفة المشحونة التي التزمت الصمت خوفاً من قسوة العقاب .

ولديك الجن قصيدة مشهورة يقول فيها[١] :

يـاعين لا للغضـا ولا الكـثب	بكا الرزايا سوى بكا الطرب
يا عـين في كربلاء مقابر قـد	تـركن قلـبي مقابـر الكـرب
مقابـر تحـتها منابـر مـن	علـم وحلـم ومنظـر عجـب
مـن البهالـيل آل فاطمـة	أهـل المعـالي والسـادة النجب
لا تبعـدوا يا بني النبـي على	إن قد بعدتم والدهر ذو نوب

ويبكي ديك الجن العلويين بكاء حاراً ، ويحزنه ما يتعرضون له من مآس متكررة ، فيقول [٢]:

ردوا هنيـئاً مـريئاً آل فاطمـة	حوض الردى فارتضوا بالقتل واصطبروا
أبكـيكم يـا بـني آل الرسـول ولا	عفـت محلكـم الأنـواء والمطـر
في كـل يـوم لقلـبي مـن تذكـركم	تغـريبة ولدمعـي فـيكم سـفر

---

(2) - شعر الصراع السياسي ص: ٢٦٥ .

(١) - الديوان ص : ٣٥ - ٣٦ .

(٢) - المصدر السابق ص: ٧٤ - ٧٥ .

موتاً وقتلاً بهامات مفلقة　　من هاشم غاب عنها النصر والظفر

ومنصور النمري أظهر الولاء للعباسيين ، وجادل معهم خصومهم ، ظاهراً ، ولكنه أبطن تشيعه ، وله في آل البيت قصائد جيدة . وفي إحدى هذه القصائد غلى مرجله ، واشتد حزنه على ضحايا العلويين ، وأخذ في تحريض الناس على الثورة ، حيث وصفهم بالشاء الرائع الهامل . وقد صرح مجاهرة بالثورة ورفض هذا المجتمع المستكين الخاضع ، وكأنه يريد مجتمعاً ثورياً منتفضاً يسقط النظام الحاكم ، ويطيح بهذه الحكومة التي يراها ظالمة مستبدة يقول النمري[1]:

شاء من الناس راقع هامل　　يعللون النفوس بالباطل

تقتل ذرية النبي ويرجون　　خلود الجنات للقاتل

ويلك يا قاتل الحسين لقد　　بؤت بحمل ينوء بالحامل

أي حباء حبوت أحمد في　　حفرته من حرارة الثاكل

ما الشك عندي في حال قاتله　　لكنني قد أشك في الخاذل

مظلومة والنبي والدها　　نذير أرجاء مقلة حافل

ألا مصاليت يغضبون لها　　بسلة البيض والقنا الذابل

ولم يكتف شعراء الشيعة بالرثاء السلمي ، إذ فاض بهم الكيل وعجزوا عن إخفاء عواطفهم ،فأعلنوا ماكتموه ، وأظهروا ما أسروه .

[1]- طبقات ابن المعتز ص : ٢٤٢ - ٢٤٣ ، والشعر والشعراء ص: ٥٨٤ .

وشعر المكتمات (ظهر بين حجري رحى التفجر النفسي والضغط الخارجي ،إذ لا بد أن تفجر النفوس بالنقمة والندم دفع بشعراء الشيعة إلى بث هذه المشاعر بعد أن ضاقت بها النفوس رغم أن ساسة ذلك العصر لن يتوانوا في اضطهاد مخالفيهم وأعدائهم)[٢] .

وسديف بن ميمون الذي أجهز بشعره على من تبقى من الأمويين في مطلع العهد العباسي ، انقلب بعد أن اطمأن إلى التخلص من بني أمية ، فكاشف العباسيين العداء ، وأظهر ميله إلى العلويين وولاءه لهم ، وعندما اشتعلت ثورة النفس الزكية ، أعلن سديف براءته من الحزب السياسي ، وخاطب المنصور بلغة غليظة قاسية ، تزخر بكل ألوان التهديد والتعنيف ، وتنم عن غربة الحزب العلوي في ظل الخلافة العباسية ، يقول سديف [١]:

أسرفت في قتل الرعية ظالماً   فاكفف يديك أضلها مهديها

فلتأتينك غارة حسنية   جرارة يقتادها حسنيها

حتى يصبح قرية كوفية   لما تغطرس ظالماً حرميها

ويجهر بولائه للعلويين ، ويناهض بني العباس ، ويدعو إلى الثورة عليهم والإطاحة بنظامهم ، ويغلظ في دعواه حتى يقطع على نفسه كل خطوط الرجعة ، مما يدل على غربته السياسية عن السلطة العباسية ، يقول [٢]:

إنا لنأمل أن ترتد ألفتنا   بعد التباعد والشحناء والإحن

وتنقضي دولة أحكام قادتها   فيها كأحكام قوم عابدي وثن

---

(2) - الاغتراب في العصر الأموي ص : ٥٣ .
(1) - العقد الفريد : ٥ / ٨٨ . وشعر الصراع السياسي ص : ٣١٧ .
(2) - العقد الفريد: ٥/٨٧ - ٨٨ .

فـانهض ببيعــتكم نـنهض بطاعتــنا ... إن الخلافـة فـيكم يـا بـني حسـن
لا عـز ركـن نـزار عـند نائـبة ... إن أسـلموك ولا ركـن لـذي يمـن
ألسـت أكـرمهم يـوماً إذا انتسـبوا ... عـوداً وأنقـاهم ثـوباً مـن الـدرن
وأعظم النـــاس عنــد الله منزلة ... وأبعد الناس من عجز ومن أفـن

ويتألم دعبل لمصاب العلويين ، ويتبرم بالحكام الذين اشتركوا في دم قتلى آل البيت . ويهاجم الخلفاء العباسيين هجوماً شديداً ، وكأنه لا يخشى سطوة أحد ، ولا يداري سلطاناً ، فغربته السياسية تبدو جلية في كل مواقفه ، وفي كثير من أشعاره [1]:

أضـربهم إرث الـنبي فأصـبحوا ... يسـاهم فـيهم ميـتة ومـنون
دعـتهم ذئـاب مـن أمـية وانتحت ... عليهم دراكـاً أزمـة وسـنون
وعاثت بنو العباس في الدين عيثة ... تحكـم فـيه ظـالم وظـنين
وسموا رشيداً ليس فيهم لرشده ... وهـا ذاك مأمـون وذاك أمـين
فما قبلت بالرشـد منهم رعايــة ... ولا لــولي بالأمانـة ديــــن

وقد بدا الاغتراب السياسي واضح الملامح عند شعراء الشعوبية وشعراء الشيعة ، وكان لكل حزب لونه الاغترابي المميز ، وإذا كان الاغتراب السياسي أظهر ما يكون جماعياً في هذا العصر ، فإننا أيضاً نجد اغتراباً سياسياً يحمل ملامح فردية لا حزبية ، ويمثل اغتراب شخصية لا اغتراب جماعة ، وقد يكون بعض هؤلاء المغتربين من المنتمين إلى هذه الأحزاب السياسية ،

[1]- الديوان ص: ١٦٩ - ١٧٠ .

ولكنه في اغترابه الفردي كان يمثل نفسه لا حزبه ، أو هو صوت شعبي يتحدث عن موقف الناس عامة من هذا النظام .

وإذا كانت الطبقة الحاكمة وأعوانها ومن يحظى بالاتصال بها ، تتمتع بألوان النعيم وتستأثر بثروة البلاد ، فلا بد أن تحدث فجوة كبيرة بينها وبين رعيتها التي عانت معاناة مرة من الجوع والفقر، إضافة إلى أن بعض الخلفاء وكثيراً من الوزراء والمتصلين بالسلطة كانوا قد أمعنوا في اللهو وقربوا إليهم المجان ، وانغمسوا في ممارسات خاطئة ، ففقد الشعب الثقة بحكامه ، وساءت العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

وقد تكون هناك أسباب أخرى دفعت بعض الشعراء لاتخاذ موقف مناويء من الخلافة العباسية . ونجد بشار بن برد في طلائع المتمردين على النظام الحاكم بدءاً من الخليفة ومروراً بوزراء الدولة . فقد هجا الخليفة العباسي المهدي أقذع هجاء وأوجعه إذ يقول [1]:

خليفة يزني بعماته   يلعب بالدبوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره   ودس موسى في ... الخيزران

ويتجرأ مرة أخرى على المهدي ، ويجهر باغترابه السياسي عن هذه الدولة التي تسلط فيها وزراؤها ، وصار خليفتها أضحوكة أفلتت منه أزمة القيادة ، واكتفى باللهو والعربدة . كما يرى الشاعر . فضاعت الخلافة ، وتشتت أمر الناس ، ويدعو بشار بني أمية للثورة واسترداد حقهم المسلوب [2]:

---

(1) ـ الأغاني ٣/٢٤١ .
(2) ـ الأغاني ٣ / ٢٤١ .

بـني أمـية هـبوا طـال نـومكم   إن الخلـيفة يعقـوب بـن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسـوا   خليفة الله بيـن الزق والعـود

وقد جنى عليه شعره هذا فكان سبباً في جلده حتى القتل . وقد وقف بشار مناوئاً لكثير من ذوي النفوذ في عصره ، وتبرم بكثير من أهل المناصب ، ممن لم يرهم أهلاً لها ، وعندما ولي صالح بن داود البصرة ، وكان أخا يعقوب بن داود وزير المهدي ، قال بشار فيه [٣]:

هم حملوا فوق المنابر صالحاً   أخاك فضجت من أخيك المنابر

وأشد من بشار غربة سياسية وانفصالاً عن الحكم العباسي ، دعبل الخزاعي الذي لم ينسجم ، البتة ، مع هذه الخلافة ، بل كان يراها حكومة مغتصبة غير شرعية ، وغير جديرة بإدارة البلاد ، ومن هنا صب غضبه على الخلفاء ونال منهم شتماً وهجاء .

ولأن الدولة فقدت كثيراً من هيبتها بعد وفاة الرشيد وانشقاق أمر أبنائه ، لهذا فقد رأى دعبل أن الخلفاء بعد الرشيد غير مؤهلين لقيادة دفة البلاد ، ولعل ترشيح إبراهيم بن المهدي للخلافة خلال هذه الفترة أشد ما أثار دعبل وأقلقه ، فأخذ يتهكم بهذا الخليفة المغني الذي سيورث الخلافة لرفاقه في الطرب ، يقول دعبل [١]:

علـم وتحكـيم وشـيب مفـارق   طلسـن ريعـان الشـباب الـرائق

وإمـــارة في دولـــة مـــيمونة   كانت على اللذات أشغب عائق

فـالآن لا أغـدو ، ولسـت بـرائح   في كـبر معشـوق وذلـة عاشـق

---

(3) ـ المصدر السابق ٣٤٢/٣ .
(1) الديوان ص: ١٤٠ ـ ١٤١ .

نعـر ابـن شـكلة بالعـراق وأهلـه ... فهفـا إلـيه كـل أطلـس مائـق

إن كـان إبـراهيم مضـطلعاً بهـا ... فلتصـلحن مـن بعـده لمخـارق

ولتصـلحن مـن بعـد ذاك لزلـزل ... ولتصـلحن مـن بعـده للمـارق

أنى يكـــون وليس ذاك بكائـن ... يرث الخلافة فاسـق عن فاسـق

وعندما وقف إبراهيم حائراً ، أمام مطالبة الجند بعطاياهم ، انبرى دعبل مستغلاً هذه الأزمة ، مستهزئاً بالخليفة الذي سيوزع الألحان على رعيته لأن كل سلطان يعطي ما يملك ، يقول دعبل في سخرية شديدة [١]:

يـا معشـر الأجـناد لا تقـنطوا ... وارضوا بما كان ، ولا تسخطوا

فسـوف تعطـون حنينـية ... يلـتذها الأمـرد والأشمـط

والمعـبديات لقـوادكم ... لا تـدخل الكـيس ولا تـربط

وهـكـذا يـرزق أصـحابه ... خلـيفة مصـحفه الـبربط

قـد خـتم الصـك بـأرزاقكم ... وصـحح العـزم ، فلـم تغمطـوا

بيعـة إبراهيم مشؤومـة ... تقـتل فيها الخلق أو تقحـط

ويتفرغ دعبل لهجاء الخلفاء العباسيين ، مغترباً عن هذه السلطة ، منفصلاً عن كل قيمها ، لأن ميله إلى العلويين جعله لا يرى لبني العباس حسناً ، وقد ظل معارضاً لهذه الدولة وخلفائها ،

---

[١] ـ الديوان ص: ١٢٤ ـ ١٢٥ .

مجاهراً بعداوته ،رافضاً كل أساليب المهادنة والتقية ، وهو يقول عن موقفه وما يتوقعه من جزاء ونكال (أنا أحمل خشبتي منذ أربعين سنة ، فلا أجد من يصلبني عليها بعد) [٢].

وفي موعد له مع المأمون يستخدم كل صيغ التهديد والوعيد مع هذا الخليفة ، مذكراً إياه بما فعله قومه مع أخيه الأمين عندما أطاحوا به ، وأعادوا للمأمون هيبته المفقودة ، واستنقذوه من ذله [٣]:

أيسومني المأمون خطة جاهل | أو ما أرى بالأمس رأس محمد
نوفي على هام الخلائف مثلما | توفي الجبال على رؤوس القردد
ونحل في أكناف كل ممنع | حتى نذلل شاهقاً لم يصعد
إن الترات مسهد طلابها | فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
لا تحسبن جهلي كحلم أبي ، فما | حلم المشائخ مثل جهل الأمرد
إني من القوم الذين سيوفهم | قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله | واستنقذوك من الحضيض الأوهد

ويتفاقم اغترابه السياسي في عهد المعتصم ، فهو ناقم على هذا الخليفة لسببين :

أولهما : كونه من بني العباس المغتصبين .كما يعتقد . وثانيهما : لأن هذا الخليفة قد جلب الأتراك وحكمهم في رقاب العرب ، ومكنهم منهم ، ومن العجب أن يتولى الخلافة مثل المعتصم فهو ، في رأي دعبل ، غير كفء لهذا المنصب ، وليس له كفاءة أسلافه من بني العباس [١]:

(2)ـ معاهد التنصيص : ١٩٤/٢ .
(3)ـ الديوان ص: ٨٨ .
(1)ـ الديوان ص: ٤١ ـ ٤٢ .

بكى لشتات الدين مكتئب صب وفاض بفرط الدمع من عينه غرب
وقام إمام لم يكن ذا هداية فليس له دين ، وليس له لب
وما كانت الأنباء تأتي بمثله يملك يوماً ، أو يدين له العرب
ولكن كما قال الذين تتابعوا من السلف الماضين إذ عظم الخطب
ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة كرام إذا عدوا ، وثامنهم كلب
وإني لأعلي كلبهم عنك رفعة لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
كأنك إذ ملكتنا لشقائنا عجوز عليها التاج والعقد والإتب
لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم وصيف وأشناس وقد عظم الكرب
وهمك تركي عليه مهانة فأنت له أم ، وأنت له أب
وإني لأرجو أن يرى من مغيبها مطالع شمس قد يغص بها الشرب

وغربة الشعراء العرب السياسية في هذا العصر يبدو أن من أهم دوافعها تغلغل العنصر الأجنبي الذي طرح نفسه شريكاً لهم في مختلف مجالات الحياة ومنها السياسية .

وعندما خفت سطوة العنصر الفارسي ، خلفه العنصر التركي الذي كان أشد قسوة وأكثر رعونة (ولذا تنبه بعض الشعراء ممن أخلصوا لعروبتهم إلى خطر هذا الاتجاه وحاولوا مقاومته ، وإن جاءت هذه المقاومة بصورة عدوانية إذ تتطرق أحياناً إلى انتقاد الخليفة ، وعرض مشاهد ضعف الخلافة ، أو إنذارات انهيارها وأفولها)[1] كما فعل دعبل في هذه القصيدة .

[1] ـ القصيدة العباسية ، قضايا واتجاهات : عبدالله التطاوي ص: ٣٥٩ .

ولم يكتف دعبل بتقريع المعتصم حياً ، بل رجمه ، وهو ميت ، مما يدل على تباعد ما بين دعبل والخلافة العباسية ، يقول دعبل [٢]:

قد قلت إذ غيبوه وانصرفوا   في شر قبر لشر مدفون

اذهب إلى النار والعذاب فما   خلتك إلا من الشياطين

ما زلت حتى عقدت بيعة من   أضر بالمسلمين والدين

ويصف دعبل غربته السياسية وغربة أمثاله في ظل ذلك النظام ، ويتشفى بموت المعتصم وبهوانه عليهم مثلما هان عليهم الخليفة الجديد الواثق الذي لم يفرحوا بتوليه الخلافة [١]:

الحمد لله لا صبر ولا جلد   ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا

خليفة مات لم يحزن له أحد   وآخر قام لم يفرح به أحد

فمر هذا ومر الشؤم يتبعه   وقام هذا فقام الويل والنكد

ويهجو المتوكل ببيت منفرد مقذع يغني عن قصيدة ، إذ وصمه بأسوأ ما توصم به مروءة الرجال [٢]:

ولست بقائل بدعاً ولكن   لأمر ما تعبدك العبيد

وقد ينعم خليفة على شاعر بالمال فيتعلق به ، وعندما يموت هذا الخليفة تضيق الدنيا بهذا الشاعر ، ويشعر باغتراب مرير بعد فقده ، وقبل أن يختبر الخليفة الجديد ، ولعل هذا الاغتراب

---

[٢]- معاهد التنصيص ١٩٧/٢ .

[1]- الديوان ص: ٨٣ .

[2]- معاهد التنصيص ١٩٧/٢ .

المؤقت أكثر ما يكون عند الشعراء المتكسبين ، كما حدث لأبي دلامة بعد موت أبي العباس السفاح [٣]:

وكنا بالخليفة قد عقدنا   لواء الأمر فانتقض اللواء
فنحن رعية هلكت ضياعاً   تسوق بنا إلى الفتن الرعاء

ومثله الحسين بن الضحاك الذي صدمه مقتل الأمين ، وكان أحد ندمائه وخواصه ، ووجد نفسه غريباً في ظل الخليفة الجديد ، يعاني صراعاً وقلقاً ويحيا حياة تشرد وخوف ، ولم يملك أمامها إلا أن يستنجد بذلك الخليفة المقتول وكأنه يعيش حالة من الذهول وفقدان الوعي [١]:

هلا بقيت لسد حاجتنا   أبداً وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفاً سلفوا   ولسوف يعوز بعدك الخلف

ويرثي الحال التي آل إليها أهل هذا الخليفة المنكوب ، وما فعله قادة جند أخيه من أفعال لا تليق بشرف الخلافة [٢]:

تركوا حريم أبيهم نفلاً   والمحصنات صوارخ هتف
هيهات بعدك أن يدوم لهم   عز وأن يبقى لهم شرف

وقد (وقع بعض الخلفاء ضحايا لمنطق الرفض عند بعض الشعراء ، وبدا ذلك مؤشراً إلى تفشي أنماط من الفساد ، تجسد بعضها في انصراف بعض الحكام عن الجادة في قيادة الرعية

---

(3)- الأغاني ٢٩٠/١٠ .
(١) - الأغاني ١٦٦/٧ .
(٢) - المصدر السابق ٢٣٠/٧ .

أو ضرب المثل الأعلى والقدوة الطيبة أمام المحكومين ، الأمر الذي أخذه بعض الشعراء على عاتقه فراح يترنم بقصائد في ذم أولئك الخلفاء) [٣] .

وأبو عطاء السندي أحد الغاضبين على الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور الذي حرمه من العطاء ، يقول [٤]:

فليت جور بني مروان دام لنا ... وليت عدل بني العباس في النـار

ويضيق ذرعاً بهذه الدولة ، ويصور اغترابه السياسي ، وتضجره من ضياع الأمور ، ويتمنى أن تعود دولة بني أمية [١]:

ألـيس الله يعلـم أن قلـبي ... يحب بني أمية ما استطاعا
وما بي أن يكونوا أهل عدل ... ولكني رأيت الأمر ضاعـا

وقد أكثر الشعراء من وصف غربتهم في عهد الأمين الذي أضاع مقاليد الخلافة بمجونه ولهوه ، ومما قيل في ذلك [٢]:

لم نبكـيك لمـاذا ؟ للطـرب ... يـا أبـا موسـى وتـرويج اللعـب
ولـترك الخمـس في أوقاتهـا ... حرصاً منك على ماء العنب
لم تكن تعـرف ماحـد الرضـا ... لا ولا تعـرف مـا حـد الغضـب
لم تكـن تصـلح للملـك ولم ... تعطـك الطاعـة بالملك العـرب
أيهـا الباكـي عليـه لا بكـت ... عـين مـن أبكـاك إلا للعجـب

---

(٣) ـ القصيدة العباسية ص: ٣٥٨ .
(٤) ـ الأغاني : ٣٣٣/١٧ .
(١) ـ المصدر السابق ٣٣٣/١٧ ـ ٣٣٤ .
(٢) ـ تاريخ الطبري ١٠٥/٥ .

لم نبكيك لما عرضتنا ... للمجانيق وطوراً للسلب
ولقوم صيرونا أعبداً ... لهم ينزو على الرأس الذنب
في عذاب وحصار مجهد ... سدد الطرق فلا وجه طلب

ويهاجم البحتري المستعين ناعياً وضع الأمة في عهده ، وخلافاتها المستمرة حتى كادت تتفانى [٣]:

إذا أحبابه أمسوا عشياً ... أعدوا واستعدوا للبوار
يبيد الراح في يوم الندامى ... ويفنى الزاد في يوم الخمار
تفانى الناس حتى قلت عادوا ... إلى حرب البسوس أو الفجار

وتقدم ابن الرومي (إلى المعتز هاجياً ، وسحب منه جدارته بالخلافة ، كاشفاً عمن كان أكفأ منه لها ، رامياً إياه بالمشاركة في جريمة اغتيال أبيه المتوكل ، متهماً إياه وأخوته بالتقصير في حق أبيهم حيث جزوه شر الجزاء وكلهم ولاة سوء)[1] يقول ابن الرومي [٢]:

دع الخلافة يا معتز من كثب ... فليس يكسوك منها الله ما سلبا
تا الله ما كان يرضاك المليك لها ... قد احتقابك ما أصبحت محتقبا
يا من جنى لأبيه القتل ثم غدا ... حرباً لثائرة صدقت من ثلبا
ما أولياء عهود الشرك هونكم ... من غالب الله في سلطانه غلبا
لقد جزيتم أباكم حين أكرمكم ... بالعهد أسوأ ما يجزي البنون أبا

---

(٣) ـ الديوان ١/٥٣٣ .
(1) ـ القصيدة العباسية ص : ٣٦١ .
(2) ـ الديوان ١/٣٩٢ ـ ٣٩٣ .

ويصور ابن بسام غربة الناس وحيرتهم في عهد المعتضد الذي بنى البحيرة بمال كبير ، وخلا فيها مع جواريه ، تاركاً شؤون الدولة [٣]:

تـرك الناس بحيـــــــرة   وتخلى في البحـــــيرة

قـاعـــــدا يضــــرب بالطبـــــــل عـلى ... دريـــــترة

وقد تحدث شعراء هذا العصر عن أنظمة الحكم الفاسدة وعن الوزراء والعمال المرتشين والعابثين ، وعن تولية غير الأكفاء . وأبو العيناء ينبري لأحد الوزراء المتهورين الذين أساءوا التعامل مع الرعية ، فيقول في الوزير أحمد بن الخصيب [١]:

قـل للخليفة يا ابـن عـم محمـد   اشــكل وزيــرك إنــه ركــال

قــد أحجــم المــتظلمون مخافــة   مـنه وقالـوا : مـا نـروم محـال

مــا دام مطلقــة علينــا رجلــه   أو دام للنـــزق الجهـــول مقـــال

قـد نـال مـن أعراضـنا بلسـانه   ولـرجله بـين الصـدور مجـال

امنعه من ركل الرجال وإن تـرد   مالاً فعنــد وزيـرك الأمـــوال

ولأن القضاء أنزه أجهزة الدولة ، وأقواها سلطة ، لهذا فإن اختلاله يعني اختلال الدولة كلها وانهيار مبادئها وقيمها ، وقد شكا أبو الفضة البصري تدهور القضاء وخيانة القضاة ، مما جعل الجور يعم أرجاء البلاد ، وهو يرى أن الظلم لا ينقضي إلا بسقوط الخلافة العباسية ، يقول [٢]:

قــاض يــرى الحــد في الــزناء ولا   يرى على من يلوط من باس

---

(3)ـ تاريخ الخلفاء ص:٤٤٠

(1)ـ الديوان ص : ٤٣ .

(2)ـ طبقات ابن المعتز ص : ٣٧٨ .

أميرنـــا يرتشـــي وحاكمـــنا يلوط والرأس شر ما راس

لا أحسـب الجور ينقضـي وعلى الأمـــة وال من آل عباس

لقد عاش الشاعر العباسي غربة سياسية على مستوى الفرد وعلى صعيد الجماعة ، كما شعر بانفصاله الحاد عن القيادة السياسية التي رأى أنها لم تحقق له طموحه ، ولم تكن مؤهلة . في نظره . لقيادة دفة البلاد ، وهذا الشاعر المعذب قد غدا رهين قيود الاغتراب التي أوهت قوته ، وزرعت له الأشواك في دروبه الطويلة كلها . لقد عاش الشاعر العباسي مغترباً معذباً ، تقتات الغربة أعصابه ، وتنهك قواه ، وتخنق أنفاسه ، فثار وتمرد وانسحب وانكفأ على نفسه ، وباختصار ، فقد جرب هذا الشاعر حلولاً كثيرة ولكنها كانت تخرجه من غربته الأولى إلى غربة أخرى تستنزفه من جديد .

ثالثا :الاغتراب عن القيم الجمالية :

ونقصد به التمرد على التقاليد الفنية المرعية في مطلع القصيدة العربية القديمة ، والمتمثلة في الثورة على المقدمة الطللية عند أبي نواس وأضرابه .

ويرى بعض النقاد أن (من مظاهر الإعلان عن الفعل الحر وطاقة التغيير والتحويل ثورة أبي نواس على التقليد الشعري الثابت ، وعلى استمرار الشعراء في احتذاء النموذج الشعري القديم ، وعلى الأخص ما يتصل منه بشكل القصيدة العربية القديمة وما تلتزم به من منهج وموضوع)[١] في وقت كان به للقديم قدم راسخة ، وقداسة وتبجيل (لذلك كانت الثورة على نظامه الثابت الراسخ خروجاً على المألوف ، وتعدياً على قدسية القديم وحرمته التي يجب ألا تمس)[٢]، واغتراباً عن القيم الجمالية السائدة حينذاك . ومن المثير أن ثورة أبي نواس لم تكن ثورة هادئة مهادنة بل كانت عارمة مستفزة ، إذ سخر من الوقوف على الأطلال والبكاء على الديار ، وتهكم بهؤلاء المقلدين حتى أوجعهم ضحكاً واستهزاء ، وتعدى ذلك إلى الضحك من حياة الأعراب ومعيشتهم والسخرية بهم . وإذا كان بعض الباحثين يحسن تأولها ويرى أنها دعوة إلى التمرد واستقلال النظر والرأي ، ورغبة في مواكبة الحياة الجديدة المتطورة ، فإن أبا نواس بثورته الساخرة على القيم الحضارية العربية ، واستهتاره بجنس الأعراب لم يترك موضعاً لحسن التأول ، إذ ألح في أكثر من قصيدة على همجية الأعراب وسفههم ورداءة معيشتهم وسوء ذوقهم .

---

(1)- موقف الشعر من الفن والحياة ص: ٢٠٧ .

(2)- المصدر السابق ص : ٢٠٨ .

لقد رفض أبو نواس القيم الفنية الجمالية في الشعر العربي القديم ، ساخراً منها ، مسفهاً أحلام المتمسكين بها ، وأصبح دأبه مهاجمة هذا التقليد الذي لم يستسغه ، فحارب البكاء على الديار حتى (أصبح دعوة يدعو إليها ، ونحواً يمذهبه ، وباباً يجعله وكده وهمه) [١] .

وقد امتزج كثير من شعره الذي يسخر فيه من الوقوف على الأطلال والبكاء على ساكنيها بعشقه للخمر ووصفه لها فهي عند الشاعر مفتاح سعادته وكل همه ، ولهذا فقد افتتح بها كثيراً من قصائده ، وحلت محل المقدمة الطللية عند غيره من الشعراء ، يقول في إحدى قصائده [٢]:

معاقرة المدام بوجه ظبي ... حوى في الحسن غايات الرهان

إذا ما افتر قلت : سناء برق ... وإذا ما اهتز قلت : قضيب بان

ألذ إليّ من عيش بواد ... من الأعراب ، مجدوب المكان

قصارى عيشهم أكل لضب ... وشرب من حضير في شنان

وفي قصيدته التي مطلعها [٣]:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء

يناجي الخمر مناجاة الشفيق المتيم ، ويرى فيها سحراً يخترق كل جدران الصمت أمامه ، ويفتح له كل مغاليق الحياة ، ثم يرتد ساخراً من القيم الفنية في القصيدة العربية ، ومن الذوق الجمالي عند العرب بشكل عام ، يقول [٤]:

---

(١) ـ تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث: نجيب محمد البهبيتي ص : ٤٥١ .
(٢) ـ الديوان : ص ٥١٦ .
(٣) ـ الديوان ص ١١ .
(٤) ـ المصدر السابق نفسه .

لـتلك أبكـي ولا أبكـي لمنـزلة　　كانـت تحل بهـا هـند وأسمـاء
حاشا لدرة أن تبنى الخيـــام لها　　وأن تــروح عليها الإبل والشــاء

وإذا كان أبو نواس جاهر بجريته الشخصية التي رفض من خلالها الأعراف والتقاليد والقيم الأخلاقية ، كذلك (فقد تبنى على صعيد الشعر من الحرية مبدأ يعبر من خلاله عن اتجاهه الفكري والفني ، ويعكس فيه إيمانه بضرورة التجديد في الشعر كما في الحياة)[1] يقول أبو نواس معلناً رفضه الموروث الشعري ، مستبدلاً إياه بوصف الخمرة التي حلت عنده محل الطلل والآثار [2]:

أحـب إليّ مـن وخـد المطايـا　　بمـوماة يتـيه بهـا الظلـيم
ومن نعت الديار ووصف ربع　　تلوح بـه على القـدم الرسـوم
ريـاض بالشـقائق مـونقات　　تكـنف نبـتها نـور عمـيم
ومجلس فتية طابوا ، وطابت　　مجالسهم ، وطاب بها النعيم
تــدار عليهم فيها عقـــار　　معتقة بهـا يصـبو الحليم

لقد أحب أبو نواس الخمرة ، واندفع في تقديسها والإخلاص لها ، واتخذها بديلاً عن ذلك المقدس الموروث ، رافضاً كل القيم التي تعارف عليها الناس في عصره ، كما واجه (بالخمرة تيار الشعر القديم معلنا من خلاله رفضه لنمط القصيدة الجاهلية وهيكلها ، كما عبر من خلالها عن رفضه لحياة القبيلة وأعرافها وطرق عيشها)[3] يقول [4]:

---

(1) ـ أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد ص: ١٦٨ .
(2) ـ الديوان ص: ٤٦٨ .
(3) ـ أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد ص: ١٦٨ .
(4) ـ الديوان ص: ١٤٩ .

لا تـبك ليلـى ، ولا تطـرب إلى هـند ... واشـرب على الورد من حمراء كالورد

كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها ... أجـدته حمرتها في العيـن والخـــــد

وقد اشتد أبو نواس في دعوته إلى الثورة على المقدمة الطللية ، وأكثر من توبيخ سالكي هذا المنهج ، بل لقد بلغت به ثورته حداً (لم يعد معه قادراً على الاستماع إلى أولئك الذين يصفون المنازل الخالية الموحشة ، ومن هنا راح يصب غضبه عليهم ، معنفاً لهم وموبخاً إياهم ، وداعياً بالشقاء والبؤس والحرمان لهم ، ومهوناً من شأن الأعراب الذين يتعلقون بحياتهم ويعتمدون في فنهم عليها)[١] . يقول أبو نواس [٢]:

عـاج الشـقي علـى دار يسـائلها ... وعجـت أسـأل عـن خمـارة الـبلد

لا يرقـيء الله عيني من بكى حجراً ... ولا شـفى وجـد مـن يهفـو إلى وتـد

قالـوا ذكـرت ديـار الحي من أسـد ... لا در درك قـل لي مــن بـنو أســد

ومــن تمـيم ومــن قـيس وإخـوتهم ... لـيس الأعاريـب عـند الله من أحـد

دع ذا عدمـتك واشـربها معـتقة ... صــفراء تعـبق بـين المـاء والـزبد

كم بين من يشـــتري خمراً يلذ بها ... وبين باك على نـــؤي ومنتضـــد

ويجهر أبو نواس باغترابه عن قيم شعراء العرب الجمالية ، ويتحدث في تهكم لاذع وسخرية قاسية عن أولئك الذين يقفون فيبكون على الأطلال ، ويتساءل مستنكراً متعجباً من كثرة دعوتهم للوقوف والبكاء . يقول [٣]:

---

(1)ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي : د. حسين عطوان ص : ١١٠ .

(2)ـ الديوان ص:١٤٩ .

(3)ـ المصدر السابق ص : ٣٠٥ .

قل لمن يبكي على رسم درس　　　واقفا ما ضر لو كان جلس

اتـرك الربـــــع وسلمـى جانبا　　　واصطبح كرخية مثل القبـــس

(وتأخذ دعوته في الحدة والاشتداد حتى تستحيل إلى حملة على البادية)[1] مما يوحي أن اغتراب أبي نواس لم يقتصر على القيم الجمالية الفنية بل غدا اغترابا عن الذوق الجمالي عند العرب بصفة عامة ، فهو يسلبهم أدنى درجات المقدرة على التذوق إذ يراهم جفاة جامدين لا يعرفون العيش الأنيق ، ولا الحياة الناعمة يقول [2]:

دع الأطلال تسفيها الجنوب　　　وتبلي عهد جدتها الخطوب

وخل لراكب الوجناء أرضاً　　　تخب بها النجيبة والنجيب

بـلاد نبتها عشر وطـلح　　　وأكثر صيدها ضبع وذيب

ولا تـأخذ عن الأعراب لهــوا　　　ولا عيشاً فعيشهم جـــديب

ولا يقف أبو نواس عند تمرده الشخصي ورفضه لطريقة القدماء في التعبير ، بل يثور على كل من يستخدم قوالب السلف وطريقتهم ، ويستغبي كل المتعصبين للقديم ، يقول [3]:

صفة الطلول بلاغة الفدم　　　فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وإذا وصفت الشيء متبعاً　　　لم تخل من زلل ومن وهم

تصـف الطلول على السماع بها　　　أفـــذو العيان كأنت في الفهم

---

(1) ـ تاريخ الشعر العربي ص : ٤٥٣ .
(2) ـ الديوان ص : ٣٥ .
(3) ـ الديوان ص : ٤٥٩ .

(ومن المحقق أن أبا نواس هو الذي دعا بقوة إلى إهمال استهلال القصائد بوصف الأطلال ، حتى لقد غطت شهرته على غيره من الشعراء الذين حملوا الشعارات معه .. لأنه كبيرهم وأجرأ من نطق بلسانهم)[1] .

ومن الشعراء الآخرين الذين ثاروا على المقدمة الطللية أشجع السلمي (فقد تبنى القضية ودافع عنها أكثر من مرة في هدوء وبغير جلبة وضوضاء)[2] يقول في إحدى قصائده [3]:

مالي وللربع والرسوم	هن طريق إلى الهموم
للحظ طرف وغمز كف	وخمرة من بنات ريم
وصوت مثنى يجيب زيراً	على حشا طفلة هضيم
وريح ريحانة بمسك	تدعو نديماً إلى نديم
أحسن من خيمة وربع	تجرحه الريح بالنسيم

أما أبو حيان الموسوس فقد دعا إلى التحلل من الوقوف على الأطلال ، واستبدل بها الوقوف على قطربل مسرح الشراب واللهو والعبث [4]:

لا تبك هندًا ولا المواعيسا	ولا لربع عهدت مأنوسا
وقف بقطربل ونزهتها	واحبس بها عن مسيرك العيسا

---

(1) ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول : ص : ١٠٠ .
(2) ـ المرجع السابق نفسه .
(3) ـ المرجع السابق نفسه .
(4) ـ طبقات ابن المعتز ص : ٣٨٤ .

(وكان الشعراء الشعوبيون يتخذون من الوقوف على الأطلال ذريعة للتهجم على العرب والتعريض بهم ، ولقد مرت بنا نماذج عديدة لهذا النهج من الشعر وبخاصة عند أبي نواس . إن ديك الجن يعمد إلى نفس هذه الصيغ فيكررها في بعض قصائده)[1] فمن ذلك قوله [2]:

قالوا السلام عليك يا أطلال   قلت السلام على المحيل محال

عاج الشقي مراده دمن البلى   ومراد عيني قبة وحجال

ولا يقف اغتراب عبدالله بن أبي أمية على القيم الجمالية ، بل يغترب عن الذائقة الجمالية العربية ، مثلما يغترب عن قيمهم الأخلاقية [3]:

دع دارسات الطلول   وكل ربع محيل

ولا تصف دار سلمى   ذرها لكل جهول

ولا تقل آل ليلى   قد آذنوا برحيل

حسبي بحب "مهنا"   عمن غدا في الحمول

ولعل اغتراب بعض الشعراء العباسيين عن القيم الجمالية في القصيدة العربية القديمة ، وثورتهم على المطلع التقليدي ، هو أيضاً تقليد ، إذ اقتفى بعضهم آثار أبي نواس في ثورته دون أن يحملوا روحه المتفلتة ولا حسه المتمرد ، وإنما خرجوا من تقليد إلى تقليد .

---

(1) ـ الشعر والشعراء في العصر العباسي ص : ٥٧٩ .

(2) ـ الديوان ص : ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(3) ـ طبقات ابن المعتز ص : ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .

ولا شك في أن أبا نواس كان مغترباً عن كل القيم الأخلاقية والجمالية متمرداً على الحياة نفسها ، لم ينحن إلا للشهوة ولم يقدس إلا الخمرة ، ولم يعكف إلا في محراب لذاته ، باختصار لقد تمرد على إنسانيته فعاش خارج حدود الأخلاق والقيم والأعراف .

الفصل الرابع

الاغتراب الذاتي في الشعر العباسي

أولاً : الاغتراب عن الذات الأصيلة .

ثانياً : الشعور بالدونية .

ثالثاً : التوجس والقلق .

رابعاً : الفكاهة .

تحديد المصطلح وصور الاغتراب الذاتي :

دفعت الظروف المختلفة التي تحدثنا عنها في عوامل الاغتراب ، الشاعر العباسي إلى غربة حادة ، فهذه الظروف المتكالبة وهذه الحضارات المتصادمة حيناً والمتوائمة أحيانا ، وهذا التمازج الجنسي ذو العادات والتقاليد المختلفة ، خلق جواً صاخباً ومجتمعاً جديداً متقلب الأمزجة ، شديد التغير ، مفاجئاً في خطواته العجلى ، طغت فيه المادة وعلا شأنها ، وفتحت فيه أبواب الملذات وانشغل الرقيب أو تغافل عامداً .

وأمام هذه الموجة وجد الشاعر نفسه في صراع مع مجتمعه المتلىء بالتناقضات ، وكان أمامه أن يصمد ويتجاوز واقعه ، ويحتفظ بجريته ، ويخلق لنفسه عالماً جديداً قائماً على مبادئ خلاقة يستعيد من خلالها تلك الروابط المفقودة ويحس في ظلالها بشيء من الأمان والطمأنينة وقد استطاع عدد من شعراء العصر أن يعيشوا هذا التوازن ، فخففوا عن أنفسهم كثيراً من ألم الغربة ، وقلق الوحدة .

والحل الآخر يتمثل في أن يتخلى الإنسان عن ذاته ، ولتخليه هذا ، أكثر من طريق :

فقد يستسلم استسلاماً كاملاً ، ويرضخ لكل ما يمليه عليه مجتمعه من قيم سياسية واجتماعية سائدة فيه ، ويلغى ذاتيته (ويعتنق تماماً ، نوع الشخصية المقدم من جانب النماذج الحضارية ، ولهذا فإنه يصبح تماماً شأن الآخرين ، وكما يتوقعون منه أن يكون . . . والشخص الذي يتنازل عن نفسه الفردية لا يحتاج إلى أن يشعر بأنه وحيد وقلق بعد هذا ، وعلى أية حال فإن الثمن الذي يدفعه غال ، إنه فقدان نفسه)[1] .

---

[1] الاغتراب في الفلسفة المعاصرة : مجاهد عبدا لمنعم مجاهد : ص١٨ .

وهذا المغترب فقد كل شيء ، إذ خسر نفسه ، وألغى قدراته في التفكير والشعور ولا غرابة في ذلك ، فالإنسان (الذي يضيع في الحشد يفقد حريته ، واستقلاله ، ويصبح رأساً في القطيع ، إنه يعيش على غرار الآخرين ، يعمل ما يعمله الناس ، ويفكر فيما يفكر فيه الناس ، ويقيس الأمور بمعيار الناس ، بكلمة واحدة إنه يصبح نسخة مكررة من كائن بلا اسم ، أو هوية ، هو الناس أو الحشد ، وبهذا يقضي على وجوده الأصيل ، ويتنازل عن حريته وتفرده ، ويصبح مجرد شئ بين أشياء ، وفي هذا إهدار لقيمة وحقيقة الإنسان) [1] .

هذا الخضوع والاستسلام كان أوضح ما يكون أمام سلطة الحاكم وسلطة المال الذي جر بعض الشعراء إلى بيع أنفسهم والتخلي عن مبادئهم والانقلاب رأساً على عقب ، فلبس بعضهم ثياب التسول ، وعاش على أبواب ذوي الثراء مادحاً ، يظهر خلاف ما يضمر ، ويقول عكس ما يعتقد . وربما كانت عاهة بعضهم سبباً في غربته الذاتية وإحساسه ، مجبراً ، بالدونية .

وآخرون اعتقدوا أنهم ثائرون متمردون ، ولكن هذا التمرد لم يحمل همة المتنبي ولا طموحه ، فانحنوا من حيث لا يشعرون ، واستسلموا وهم يظنون أنهم في مواجهة طامحة ، إذ انحطت بهم هممهم إلى خضوعهم للشهوات والملذات ومالوا إلى الانحراف والشذوذ والخروج عن الفطرة السليمة والنفس المثالية الأصيلة ، فتشكلت منهم عصابة مجان ذلك العصر ، الذين عاشوا حيوانية فجة ، وجاهروا بخروجهم عن الأعراف ، وعن حدود الاعتدال ، فلم يحترموا إنسانيتهم ، ولم يراعوا إنسانية الآخرين ، فعاشوا في بهيمية لا تعترف إلا بإشباع الغرائز ، ولا تقر إلا لسلطان الشهوة .

---

[1] الاغتراب عند إيريك فروم : حسن محمد حسن حماد : ص : ٦٥ .

وهؤلاء وأولئك كانوا يفيقون على صوت ضمائرهم أحياناً ، وأحياناً تأتي هذه الإفاقة صدى لحادث عارض ، أو لشيب أيقظ نومهم .

وقد تكون هذه الصحوة مخلصة لا تعرف الردة ، وهنا تكون مواجهتهم مع ذلك الماضي المظلم ، أو هذا الحاضر المخجل الذي يقرع أسماعهم ، ويرسم أمام عيونهم ملامح القادم ، وما ينتظرهم في غدهم ، فيخرجون من غربة البعد عن الذات الأصيلة إلى غربة قلقة متشائمة خائفة لا ترى للحياة معنى .

وللاغتراب عن الذات صور منها :

أولاً : الاغتراب عن الذات الأصيلة :

يعرف الاغتراب بأنه (حالة من فقدان الوجود الأصيل) [١] والبعد عن الذات والاغتراب عن الذات يوصف بأنه (حالة أقرب إلى الانفصال عن طبيعة مثالية للإنسان)[٢] وصاحب الذات الأصيلة يتسم بأنه (شخص مفكر ، قادر على الحب والإحساس ، ومبدع لما يقوم به من أفعال) [٣] أي أنه شخص يعبر عن قدراته الأصيلة في التفكير والشعور والإرادة . يقرر هو ، يحكم من خلال رؤيته ، لا رؤى الآخرين .

وفي العصر العباسي عاش كثير من الشعراء خاضعين ممتثلين لما يريده الآخرون منهم ، لا ما يريدونه هم ، تخلوا عن مبادئهم من أجل إرضاء السلطة وبالتالي من أجل ملء جيوبهم

---

[١] ـ الاغتراب عند ايريك فروم ص ٥٧

[٢] المرجع السابق ص ٦٨

[٣] المرجع السابق نفسه .

بالأموال . لقد دفعهم جشعهم إلى مجاراة الآخرين وصاروا أبواقاً للحكام . ولم يكن ذلك ولاء صادقاً ، بل زيفوا مشاعرهم ، ونافقوا ، وبالغوا في القول ما شاءوا .

إن شعر المديح الذي كان مدفوعاً ببريق الدنانير شعر زائف ، دل على تخلي هؤلاء الشعراء عن ذواتهم الأصيلة ، وبيعها من أجل المال .

وقفوا بدون حياء على أبواب الخلفاء والأمراء متكسبين بألسنتهم ، وأصبح هذا الشعر مصدراً للربح ، ونوعاً من التجارة .

وقد تجول هؤلاء الشعراء في كل مكان ، وخلف كل باب يطمع في نواله . رحلوا إلى مدن بعيدة من أجل التكسب بشعرهم ، وبالغوا في كيل الأوصاف للممدوحين . وهذا الشعر من الكثرة بمكان لا نحتاج معه إلا إلى إشارة عاجلة .

وقد مدح ربيعة الرقي العباس بن محمد وبالغ في نعته ، وتجاوز كل الحقائق [١]:

لو قيل للعباس يا ابن محمد ... قل لا ، وأنت مخلد ، ما قالها

ما إن أعد من المكارم خصلة ... إلا وجدتك عمها أو خالها

وإذا الملوك تسايروا في بلدة ... كانوا كواكبها ، وكنت هلالها

إن المكارم لم تزل معقولة ... حتى حللت براحتيك عقالها

وكان العباس بخيلاً فبعث إليه بدينارين ، وصدم شاعرنا بالحقيقة فا نقلب هاجياً ، وقال في ممدوحه السابق[٢]:

مدحتك مدحة السيف المحلى ... لتجري في الكرام كما جريت

---

(1) ـ طبقات ابن المعتز ص : ١٥٧ ـ ١٥٨ .
(2) طبقات ابن المعتز ص :١٥٨

فهبها مدحة ذهبت ضيـــاعاً　　　كذبت عليك فيها واعتــديت

ولا غرابة في هذه المواقف المتقلبة لأنها صدرت عن نفس زائفة مغتربة ، باعت مشاعرها لتقبض ثمنها . وعندما خسرت الصفقة عادت معادية متهجمة .

ويغالي أبو نواس في معانيه ، ويسرف في وصف الأمين الذي عرف بالمجون والاستهتار ، فيصوره ملكاً تقف له الدنيا وتقعد ، ويتساوى تقبيل كفه وتقبيل ركن الكعبة عنده [١]:

ياناق لا تسأمي أو تبلغي ملكاً　　　تقبـيل راحـته والـركن سـيان

متى تحطى إليه الرحـل سالمـة　　　تستجمعي الخلق في تمثال إنسـان

ويبالغ في تزييف الواقع وتغيير الحقائق ، وكل ذلك من أجل المال الذي جعل هذا الشاعر مخادعاً كذاباً ، همه أن يجمع كل ما يستطيعه من الصفات العظيمة حتى تخيل ممدوحه وسيلة للإيمان الصادق[٢]:

هـو الذي امتحن الله القلوب به　　　عمـا تجمجـم مـن كفـر وإيمـان

مـد الإلـه علـيه ظـل مملكـة　　　يلقى القصي بها والأقرب الداني

محمد خير من يمشي على قدم　　　ممن برى الله من إنس ومن جـان

هو الذي قدر الله القضاء لـه　　　ألا يكـــون له في فضله ثانـــي

وأي كذب أعظم من فرية هذا الشاعر ، ولو أن التاريخ سكت ، فلم يحك لنا حياة الأمين ، لتخيلناه من خلال قصيدة أبي نواس شخصاً آخر ومثالاً يحتذى ، وصورة للحاكم القوي العفيف . وتصورنا أمن الناس في عصره خلاف ما ذكره التاريخ . لقد اغترب هؤلاء الشعراء

---

(1) الديوان ص ٥٥٤ .
(2) المصدر السابق نفسه .

عن ذواتهم الأصيلة ، وحلت محلها ذواتٌ زائفة أخلت برسالة الشعر السامية ، فصرفته إلى الاستجداء والكدية وغدا كثير من شعراء العصر العباسي متسولين ، امتهنوا قيمة الشعر ، وحطوا من قيمة أنفسهم .

وأبو نواس من أكثر شعراء بني العباس لجاجة وتقولاً ، إذ يزعم أنه عفيف النفس قليل الاستجداء ، وها هو مرة أخرى يتقزم أمام طمعه في منح العباس بن عبيدالله الهاشمي ، بعد أن وصف رحلته الشاقة المضنية لكي يميل قلب ممدوحه فيجزل له العطاء ، وقد بالغ في وصف ممدوحه حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفره ، وهو ما عابه عليه النقاد[1]:

ثم أدناني إلى ملك ... يأمن الجاني لدى حجره
تأخذ الأيدي مظالمها ... ثم تستذري إلى عصره
كيف لا يدنيك من أمل ... من رسول الله من نفره
فاسل عن نوء تؤمله ... حسبك العباس من مطره
ملك قل الشبيه له ... لم تقع عينٌ على خطره

ويرى منصور النمري ممدوحه فوق كل شيء ، فإذا سخط على إنسان لم تنفعه صلاته . وبريق المال حريٌ بأن يصنع المستحيل ويغير الأنفس[2]:

أي امرئ بات من هارون في سخط ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك منها حيث تتسع

(1) ـ الديوان ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .
(2) ـ الأغاني : ١٣/١٦٥ .

إذا رفعت امـــرأ فالله يرفعـــه　　　ومن وضعت من الأقوام متضع

وتتفاقم سلطة المال ، فيسقط الشاعر العباسي رهيناً لهذه الرغبة الطامعة وينسى لحظتها أصالته وصدقه ، بل ينسى كل شيء حتى خشية الله ، ويرى ممدوحه خارقاً للعادة ، ويلبسه شيئاً من الألوهية كما فعل على بن جبلة في مديحه لأبي دلف[١]:

أنـت الـذي تنـزل الأيـام منـزلها　　　وتنقل الدهر من حال إلى حال

وما مددت مدى طرف إلى أحـــد　　　إلا قضيت بأرزاق وآجـــال

والممدوح لا يمثل لهؤلاء المزيفين قيمة روحية ، وإنما يمثل لهم قيمة مادية ، فهو مصدر المال الذي ينحنون إجلالاً له ، ويبيعون أنفسهم من أجله .

وهم عندما يسبغون عليه صفات التأليه ، ويتجاوزون الحد في مدحه ، يهدفون إلى كسب أكثر ، وعطاء أغدق .

ومرة أخرى يدفع الطمع علي بن جبلة العكوك إلى أن يجعل للمخلوق قدرة الخالق في أبيات مدح بها حميداً الطوسي ، استجهله الناس بسببها لأنه بالغ في مديحه حتى تجاوز كما ألمح إليها ابن المعتز[٢]:

أنـت الـزمان وقـد يجـري تصـرفه　　　علـى الأنـام بتشـديد وتلـيين

لـو لم تكـن كانـت الأيام قـد فنيت　　　بالمكرمات ومات المجد من حين

طويت كل حشا منها على أمـــل　　　إلى قرينة خـوف منك مقـــرون

---

(1) ـ المصدر السابق ٤٩/٢٠ .
(2) طبقات ابن المعتز ص ١٨٥ .

وقد امتهنت قيمة الشعر واغترب هؤلاء الشعراء ، إذ تخلوا عن قيمهم وباعوا أنفسهم للمال الذي أصبح صنماً يعبدونه ، واتخذوا من الشعر تجارة فغدوا متسولين مستجدين ، وهذا أبو نواس يصرح بذلك ولا يجمجم في مديحه للخصيب أمير مصر بعد أن كسد شعره في بغداد[1]:

إني لآمل يا خصيب على ... يدك اليسارة آخر العمر

وكذاك نعم السوق أنت لمن ... كسدت عليه تجارة الشعر

وقد أصبحت قيمة المال عندهم فوق القيم الأخرى ، فانحنوا له ، وخضعوا وباعوا كرامتهم من أجله ، وعندئذ لا نستغرب أن يمدح أبو العتاهية عمر بن العلاء فيتصاغر أمامه في صورة مزرية ، ويخترع معنى مخجلاً ، وكأنه يريد أن ينحط معه الآخرون أيضاً ، فتكون وجوههم نعلاً لصاحبه ذي الدراهم[2]:

إني أمنت من الزمان وريبه ... لما علقت من الأمير حبالا

لو يستطيع الناس من إجلاله ... لحذوا له حر الوجوه نعالا

فأي غربة فوق هذه الغربة ! ! وأيّ تخل عن الكرامة الإنسانية فوق هذا التخلي ! ! ويذكر ابن المعتز أنه أهدى إلى الرشيد نعلاً وكتب إليه[3]:

نعل بعثت بها لتلبسها ... قدماً تسير بها إلى المجد

لو كان يمكن أن أشركها ... خدي جعلت شراكها خدي

---

[1] الديوان ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .
[2] الأغاني : ٤٢/٤ .
[3] ـ طبقات ابن المعتز ص ٢٣٢ .

وهذا شيء تنفر منه الأسماع وتتقزز منه النفوس ! ! فهذه الكرامة المهدرة ، كان المال وقاءً لها كما تخيل صاحبها . هؤلاء الشعراء وأشباههم فقدوا اتجاههم وحسهم النقدي ، تشيؤوا و(الأشياء لا نفس لها ، والناس الذين أصبحوا أشياء ليس لهم نفس)[1] والتشيؤ (هو مصدر التملق والحقد)[2] والكذب والزيف والنفاق .

لقد باع بعض الشعراء مبادئهم ، بل باعوا أنفسهم وتخلوا عن قيمهم من أجل حفنة من المال تقنع جشعهم .

انحرفوا عن اتجاههم انحرافاً كاملاً ، ونسوا ولاءهم ومدائحهم الأولى ، فقلبوها هجاء وتنصلوا منها وهم في كلا الحالتين كانوا مغتربين ! !

وقفوا على أعتاب خلفاء بني أمية وتضرعوا لهم ، ثم قلبوا لهم ظهر المجن بعد زوال دولتهم ، وتنصلوا من ثنائهم عليهم ، واختلقوا في سبيل ذلك الأعذار .

هذا أبو نخيلة التميمي يختص بمدح خلفاء بني أمية واحداً بعد واحد حتى يثري منهم . وما أن انتهت دولتهم حتى انقلب رأساً على عقب ، كاشفاً عن تلونه وخداعه ، إذ أنشد أبا العباس السفاح متملقاً بني العباس واصفاً بني أمية بالظلم والتسلط[3]:

كنّا أناساً نرهب الأملاكا — إذ ركبوا الأعناق والأوراكا

قد ارتجينا زمناً أباكا — ثم ارتجينا بعده أخاكا

ثم ارتجينا بعده إياكا — وكان ما قلت لمن سواكا

---

(1) ـ الاغتراب في الفلسفة المعاصرة ص : ١٤ .
(2) ـ الإنسان والاغتراب: مجاهد عبدالمنعم مجاهد : ص :٣٣ .
(3) ـ الأغاني ٤١٢/٢ .

زوراً فقد كفّر هذا ذاكا

وأبو عطاء السندي كان أحد مداحي بني أمية ، اضطر راغباً أو راهباً أن يعلن شتم ممدوحيه السابقين ويسفه أحلامهم ، ويكيل المدائح لسلطان الدولة الجديدة[1] :

إن الخيار من البرية هاشم ... وبنو أمية أرذل الأشرار

وبنو أمية عودهم من خروع ... ولهاشم في المجد عود نضار

أما الدعاة إلى الجنان فهاشم ... وبنو أمية من دعاة النار

وأقسى من هذا وأبعد غربة ، غربة أولئك الشعراء الذين باعوا عقيدتهم التي يقرون بها من أجل التقرب إلى السلطان ونيل عطائه . هؤلاء الشعراء المكدون استطاع المال أن يغير رأيهم وعقيدتهم وتفكيرهم ، وهذا التخلي عن المبادئ يدل على فقدان هؤلاء الشعراء لا تجاههم ، ومن يستطيع المال أن يغير عقيدته أو مبدأه ، عاش بدون عقيدة ولا مبدأ .

يروى أن أبان بن عبدالحميد اللاحقي عاتب البرامكة في إعطاء الرشيد الأموال للشعراء ، وفقره مع ذلك ، مع خدمته لهم وموضعه منهم ، فقال له الفضل بن يحيى : إن سلكت مذهب مروان بن أبي حفصة أوصلت شعرك وبلغت إرادتك . يقصد هجاء آل أبي طالب . فقال أبان : والله ما أستحل ذاك ! فقال له الفضل : كلنا يفعل ما لا يحل ، لك بنا وبسائر الناس أسوة ، فقال أبان [2]:

نشدت بحق الله من كان مسلماً ... أعم بما قد قلته العجم والعرب

أعم نبي الله أقرب زلفة ... إليه أم ابن العم في رتبة النسب

---

[1] الشعر والشعراء: ابن قتيبة : ص : ٥١٩ .
[2] الأوراق : أبو بكر الصولي ١ / ١٤ .

وأيهمـا أولـى به وبعهـده ومن ذا الذي حق التراث له وجب

واستمر في هذه القصيدة على هذا المنوال ثم مدح الرشيد . ولأن المال لن يصل إليه إلا من خلال هذا الطريق الذي يتخلى فيه عن مبادئه و يرتكب ما لا يستحل ، فقد فعل ذلك وقبض ثمن البيع عشرين ألف درهم . وأكثر زيفاً منه ، وأرخص نفساً ، منصور النمري الذي عرف بتشيعه لآل البيت ، وموالاته لهم ، ومع هذا فقد أظهر خلاف ما يبطن وتقرب إلى الرشيد بإنكار حقهم ، ووقف منهم موقف المناويء المبغض إذ يقول[1]:

إن الخلافة كانت إرث والدكم من دون تيم وعفو الله متسع

وما لآل علي في إمارتكم حق وما لهم في إرثكم طمع

يا أيها الناس لا تغرب عقولكم ولا تضفكم إلى أكنافها البدع

العم أولى من ابن العم فاستمعوا قول النصيح فإن الحق يستمع

ودخل على الرشيد يوماً فأنشده[2]:

بني حسن وقل لبني حسين عليكم بالسداد من الأمور

أميطوا عنكم كذب الأماني وأحلاماً يعدن عدات زور

ألا لله در بني علي وزور من مقالتهم كبير

يسمون النبي أبا ويأبى من الأحزاب سطر من سطور

وهكذا تحول هؤلاء الشعراء إلى أبواق للسلطة تغني في ركابها ، وتتملق لها على حساب العقيدة والمبدأ ، عاش بعض شعراء بني العباس جنوداً مرتزقة همهم إرضاء الحاكم ، وإضفاء

(1) ـ طبقات ابن المعتز ص: ٢٤٤ .
(2) ـ المصدر السابق ص: ٢٤٥ .

صـفات الإجـلال والـتقديس عليه ، وإظهـاره بصـورة الحـاكم العـادل والقـدوة . لقـد تلاشـت عندهم لغة الذات ، وحلت محلها لغة الآخـرين ، وكانوا كما يريد منهم الآخرون أن يكونوا ، فاغتربوا بذلك عن ذواتهم الأصيلة ، وباعوا أنفسهم بيعاً رخيصاً .

الاغتراب عن الذات الأصيلة
في شعر المجون

الاغتراب الذاتي في بعض أوجهه يعني (انفصال الإنسان عن حياته الإنسانية الحقة أو الطبيعة الجوهرية)[١] أي (الفقد الكلي للإنسانية) وهو يرادف معنى (نزع إنسانية الإنسان)[٢] .

وهذا المعنى ينطبق تماماً على عصبة المجان التي عاشت في العصر العباسي فقد عاش هؤلاء الشعراء المجان عيشة بهيمية متطرفة في انحرافها حتى انفصلوا عن إنسانيتهم انفصالاً حاداً ، إذ انجرفوا وراء شهواتهم ولم يسمعوا إلا نداء غرائزهم .

لقد كان المجتمع العباسي ، في جانب منه ، منحل العقد ، متفسخاً لا يعرف الحياء لأسباب قد أوضحنا بعضها عند حديثنا عن المجون .

ولقد وصلت الخلاعة في هذا العصر حداً ينبئ عن مدى التحلل الذي أصاب هذا المجتمع . ولا نستغرب ما يرويه ابن المعتز عن الحمدوني في مجاهرة الناس بالفاحشة في قصة يندى لها الجبين[٣] . كما يروي قصة أبي فضة البصري الذي مر بمحلة في بغداد فيها قوم من المجان يكرهون كل من يمر بهم على الفسق والفجور وشرب الخمر[٤] ، والغريب أنهم يقدمون الخمر والنساء حبّاً في الفحش والخلاعة لا طمعاً في المال . ولعل هذه الحادثة وأشباهها لا تبقي زيادة لمستزيد .

---

[١] - الاغتراب عند إيريك فروم ص: ٦١ .
[٢] - المرجع السابق نفسه .
[٣] - تنظر : طبقات ابن المعتز ص ٣٧٠ .
[٤] - ينظر : المصدر السابق ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

والأدهى والأمر أن يتحدث أبو يعقوب الخريمي عن فعلة فعلها معه حماد الراوية ويصفها بكل تبجح وبدون حياء ولا مواربة ، وهي في غاية السوء والعار [١]، وهو ما يدل على أن هؤلاء قد فقدوا كل إنسانيتهم ، وتحولوا إلى أشياء لا تحس ولا تشعر .

وهناك من الشعراء الماجنين في هذا العصر من اغترب عن ذاته الأصيلة واستبدل بها ذاتاً زائفة فباع (روحه من أجل المال تارة ، وباع نفسه الحقيقية من أجل أن يشتري نفساً زائفة تارة أخرى ، وباع روحه من أجل الملذات الأرضية الوقتية تارة ثالثة ، وباع روحه للشيطان تارة رابعة ، وباع نفسه لآلهة غير الله . . صار مغترباً ، وهذا الوجود المغترب صار يتسيده ومن ثم طفق يعبده . . إنه في هذا البيع قد تنازل عن ملكية ذاته . . لقد اغترب . . إنه دخل بنفسه مصيدة اغترابه)[٢] .

لقد تخلى هؤلاء المجان عن تعاليم الدين ، واغتربوا عن كل القيم النبيلة والجميلة ، وتنازلوا بمحض إرادتهم عن إنسانيتهم ، وأضحوا عبيداً لشهواتهم ، خانعين لغرائزهم ، همهم اللذة ، وطموحهم أن يعيشوا لحظتهم . وفي مقابل ذلك تنازلوا عن كرامتهم ، وضحوا بكبريائهم .

والمعضل أن نجد بعض خلفاء بني العباس ، وهم قادة الدولة ، قد تورطوا في هذا الإثم . ولعل من دوّن تاريخ هذه الحقبة قد مر سريعاً بمن يعبون كووس الخمر عبّاً من هؤلاء الخلفاء ؛ لأنه هان في نظره تجاوزهم أمام فداحة ما كان يفعله الأمين . فقد اندفع هذا الخليفة المستهتر في

---

(1)ـ الأغاني ٦/٩٣ .

(2)ـ الإنسان والاغتراب ص: ٢٨ .

شهواته وملذاته ، وجاهر بشذوذه وانحرافه ، إذ طلب الخصيان وابتاعهم وغالى بهم وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره ، ورفض النساء والحرائر والإماء ، وفي هذا يقول بعضهم [١]:

ألا يا مزمن المثوى بطوس عزيباً ما يفادى بالنفوس
لقد أبقيت للخصيان بعلاً تحمل منهم شؤم البسوس
لهم من عمره شطر وشطر يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظ سوى التقطيب بالوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيماً فكيف صلاحنا بعد الرئيس

ويقول أبو نواس[٢]:

احمدوا الله كثيراً يا جميع المسلمينا
ثم قولوا لا تملوا ربنا أبق الأمينا
صبر الخصيان حتى جعل التصبير دينا
فاقتدى الناس جميعاً بأمير المؤمنينا

والعجيب أن يتغير مفهوم شرب الخمر بين القدماء وشعراء هذا العصر المجان فالخمر كانت عند المنخل اليشكري طريقاً إلى العظمة[٣]:

فإذا شربت فإنني رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

---

(1) تاريخ الطبري ١١١/٥
(2) الديوان ص:٥٦٥
(3) الأغاني : ٩/٢١ .

وهي عند حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ عرش ملك ، وساحة حرب ، تحمل صاحبها من واقعه البسيط فتصنع منه عظيماً لا يشعر بالخوف ولا يهاب اللقاء[١]:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنها اللقاء

وهي تدفع الأخطل إلى التمايل عجباً بنفسه حتى يرى أنه أعظم من الخليفة[٢]:

إذا ما نديمي علني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هدير

جعلت أجر الذيل فيها كأنني عليك أمير المؤمنين أمير

هذه اللغة تلاشت وحلت محلها لغة أخرى وضيعة ، متدنية إلى أبعد الحدود ، ساقطة غاية السقوط ، لأن الشاعر العباسي باع نفسه للذته بيعاً رخيصاً ، وكأنه يريد أن يهرب من إنسانيته قدر جهده ، ويبعد من كل ما يشعره بالسمو ، أو يذكره بأنه بشر ، فابن هرمة يروق لـه أن تصفع شهامته ، ويتلذذ بصياح الصبيان خلفه ، متهكمين به[٣]:

أسأل الله سكرة قبل موتي وصياح الصبيان يا سكران

وقد وصلت الحال بهذا الشاعر أن يرهن ثيابه من أجل شراء الخمر له ولندمائه ، بل تجرأ أيضاً على أن يطلب من الخليفة أبي جعفر المنصور أن يبيح له الشراب ، ويعطل عنه حد الخمر[٤] . وهذا الشاعر قد عرف عنه شارباً للخمرة أكثر منه وصافاً لها . وقد عاش معربداً ، بائعاً نفسه ، متخلياً عن ذاته الأصيلة ، يجدونه مطروحاً في سكك المدينة في غيبوبة شرابه .

---

(1) منتهى الطلب من أشعار العرب : ٢٦٨/٦ .
(2) الديوان ص: ١٨٩ .
(3) الأغاني : ٣٨٩/٤
(4) المصدر السابق ٣٦٨/٤ .

ولا عجب أن يشعر بأن هذه الحال لا تليق بالكرام ، ولكنه يستلذ هذا العيش الوضيع .

وعندما تولى إمرة المدينة الحسن بن زيد ، وهدده بمضاعفة العقاب وزيادة الحد ، قال[1]:

نهاني ابن الرسول عن المدام ... وأدبني بآداب الكرام

وقال لي اصطبر عنها ودعها ... لخوف الله لا خوف الأنام

وكيف تصبري عنها وحبى ... لها حب تمكن من عظامي

أرى طيف الخيال عليّ خبثاً ... وطيب العيش في خبث الحرام

وموجة المجون كانت عارمة تجتث الأخلاق ، وتستبيح الحرمات (حين تلعب الخمر بالرؤوس ، فيزداد التفكه والاستخفاف بالأشياء والاستهزاء بالقيمة والإنسان)[2] حيث انتشر الغزل المكشوف والشعر الصريح العاهر وتغنى الشعراء بتعلقهم بالغلمان المرد .

(وترجع بعض أشعار المجان إلى الشاعر نفسه ، في محاولة للتخلص من حزنه ، أو هروباً من الحياة الجادة ، والتهرب من أعبائها الثقيلة ففسدت بعض القيم واختلطت الموازين ، فنرى الرقاشي يدعو في أرجوزة طويلة له إلى اللواط ، وشرب الخمر)[3] .

وقد دعا بشار بن برد بوقاحة شديدة إلى الإلحاح في ملاحقة النساء ، لأنهن ـ كما يزعم ـ عرضة للسقوط في وحل الفاحشة ، وكأنه ينفي شرف النساء إماء وحرائر[4]:

عسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يمكن بعدما رمحا

---

(1) زهر الأدب ٩٧/١ .
(2) زهد المجان في العصر العباسي : د. علي إبراهيم أبو زيد : ص : ٢٢ .
(3) المصدر السابق ص ٣٣ .
(4) الديوان ص ٢٤٥ .

ويأتي على رأس قائمة مجان العصر العباسي الذين باعوا أنفسهم للشيطان ونذروا حياتهم للفاحشة وعربدة الخمر ، والبة بن الحباب أستاذ أبي نواس وملهمه الأول في هذا الباب وله (في المجون والفتك والخلاعة ما ليس لأحد)[1] فهو يجاهر بارتكاب المعصية ، ويفتخر بانحلاله ، ويستنجد بندمائه لإعانته على هذا الشذوذ ، وهو يريد أن يلوط وإن كان بعلج نباطي . المهم أن يمارس شذوذه ، وحيوانيته لأن الخمر لا تطيب إلا بذلك ، ويعلن تحديه لقيم الدين ، ويستهزئ بها استهزاء المستخف الساخر[2]:

شبيه الفاتك العيار مثلي ... نعيم حين يشرب بالبواطي
يعاطينا الزجاجة أريحي ... رخيم الدل بورك من معاطي
أقول له على طرب ألطني ... ولو بمؤاجر علج نباطي
فإن الخمر ليس تطيب إلا ... على وضر الجنابة باللواط
جعلت الحج في غمى وبنا ... وفي قطربل أبداً رباطي
فقل للخمس آخر ملتقانا ... إذا ما كان ذاك على الصراط

هذه الحياة التي لا تعرف إلا إشباع الغرائز ، والثغاء البهيمي المخجل ، انغمس فيها والبة وزمرته وأخلصوا لها ، ولم يروا الحياة أكثر من كأس وفاحشة وغياب عن الوعي بكل درجاته[3]:

قد قابلتنا الكؤوس ... ودابرتنا النحوس
يسقي عروس عروساً ... إحداهما الخندريس

(1) طبقات ابن المعتز ص : ٨٧ .
(2) طبقات ابن المعتز ص ٨٧ والأغاني ١١١/١٨ .
(3) طبقات ابن المعتز ص : ٨٧ - ٨٨ .

حتـــى إذا مـــا انتشـــينا | وهـــــــزنا إبلـــــيس
رأيـــت أعجـــب شـــيء | مـــنا ونحـــن جلـــوس
هـــذا يقبـــل هــــــذا | وذاك هــــــذا يبـوس

لم يكن تخلي والبة عن إنسانيته وذاته مؤقتاً ، ولا نزوة يتخطاها ، بل كان هذا التخلي صميم حياته التي عاشها عرضاً وطولاً في هذا العالم الهمجي ، حتى كانت سبباً لنفور المهدي من منادمته ، رغم أدبه وظرفه ، وذلك أنه اشترط في جلاسه ما لا يقبله دين ولا خلق[١] :

قلـت لسـاقينا على خلـوة | أدن كذا رأسـك من رأسي
ونم على صدرك لي ساعـة | إني امرؤ أنكح جلاســـي

ولم يكن الحسين بن الضحاك دونه في تهتكه ومجونه ، فقد نذر نفسه للفسق والانحراف ، إذ كان ماجناً خليعاً ، أمعن في السخف والرذيلة وباع نفسه لشهوته وعربدته ، وكان واحداً من تلك العصابة التي كرست حياتها للذة الحسيـة ، وتخلت عن كل المبادئ السامية ، والأخـلاق الكريمة . والحسين أحـد ندماء الأمين الذين يشربون معه الخمر ، ويعـربد عليهم . ويذكر الحسين بن الضحاك أن الأمين كان يركب الواحد منهم عبثاً ليدوربه ثم يصله وكان إذا قال لهم من يكون منكم حماري ؟ تسابقوا إليه كلهم يرجو ذلك ! ! وعندما يختار الحسين يرى أنه أضلع القوم[٢] ! ! ومن يرضى لنفسه مثل هذا السقوط ، فإنه من الهوان بمكان . ولسنا ندري ماذا بقي له من مروءته بعدما ارتضى أن يكون حمارا ؟

---

(1) الأغاني : ١٨/١٠٦ .
(2) الأغاني : ٧/٢٢٧ .

ولعل هذا الوضع غير شاذ في نظره لأن غريزته الحيوانية هي المحرك الأول لأفعاله ، وقد غاب من حياته الضمير المؤنب الذي يكبح الشهوة المنطلقة بلا قيود ، ويضع حداً فاصلاً بين رغبات الإنسان المؤطرة بحدود الأخلاق وبين شهوة الحيوان التي تندفع دون رادع أو رقيب .

والحسين بن الضحاك أحد الشعراء الذين انحرفوا عن جادة الصواب ، وانزاحوا عن طريق الرشاد ، فقد جد في فحشه واشتد في شذوذه . وله في الغزل المذكر أشعار كثيرة ، ومغامرات مع المرد كاد بعضها أن يودي به ، فقد كان يتعشق غلاماً اسمه يسر ، فشرب معه مرة وحارشه فأخرج يسر عليه خنجره وعربد حتى تجنبه ، وقال في ذلك[١]:

جمشت يسراً على تسكره   وقد دهاني بحسن منظره
فهم بالفتك بي فناشده   في كريم من خير معشره
يامن رأى مثل شادن خنث   يصول في خدره بزوره
ويلي على شادن توعدني   بسل سكين وخنجره
أما كفاه ماحز في كبدي   بسحر أجفانه ومحجره

ولم تكن لهؤلاء المجان خطوط حمراء يقفون عندها ، إذ استباحوا كل شيء ، وفعلوا كل ما يشتهون ، وقالوا كل ما يريدون . وطالما تطاولوا على حرمات بعضهم ، فقد روي أن مطيع ابن إياس ويحيى بن زياد كانا صديقين لا يفترقان في فرح ولا حزن ولا شدة ولا رخاء ، ومع هذا فقد سكر مطيع بن إياس ليلة فعربد على يحيى عربدة قبيحة ، وقال له وقد حلف بالطلاق[٢] :

---

(1) المصدر السابق ٢٠٩/٧ .
(2) الأغاني ٣٣٠/١٣ .

لا تحلفــن بطــلاق مــن　　　أمســت حوافـرها رقـيقة

مهــلاً فقــد علـم الأنام　　　بأنها كـانت صــديقــة

فهجره يحيى وحلف ألا يكلمه .

ومطيع بن إياس ممن أمعنوا في غربتهم الذاتية ، إذ تهالك على لذته دون احتشام ولا وقار ، واستبدل بذاته ذاتاً زائفة لا تعرف إلا الخمر والبغاء واللواط ، فقد كان يغيب عن وعيه أياماً وليالي ، وإذا أفاق عاد مرة أخرى لما كان عليه ، ومن القصص المخجلة ، ما ذكره صاحب الأغاني من اجتماع مطيع ورفقته على الشراب ، فشربوا أياماً تباعاً ثم قال لهم يحيى وهم سكارى : ويحكم ما صلينا منذ ثلاثة أيام فقوموا حتى نصلي فقام مطيع فأذن وأقام ، ثم أمتهم مغنية عليها غلالة رقيقة ، وقطعوا صلاتهم وانتهت القصة بموقف ماجن ساخر يدل على أن هؤلاء القوم كانوا يعيشون كما تعيش البهائم ، ويرتضون لأنفسهم هذا السقوط المفزع ، وقد قال في هذا الموقف شعراً نستحي من ذكره [١] .

ومطيع بن إياس أحد من تنزلوا تنزلاً سيئاً ، إذ مارس ما سماه اللذة المضاعفة ، وهي ما لا يقبله عقل ولا دين ولا خلق[٢] .

ومن الشعراء الذين اغتربوا عن ذواتهم الأصيلة ديك الجن الشاعر الحمصي الماجن الذي كان خليعاً ماجناً ، مندفعاً في طريق الخمرة والشذوذ ، مقدساً الشهوة ، متجاوزاً كل حدود القيم والأخلاق ، يقول في بعض مقطوعاته[٣] :

---

(1) المصدر السابق ١٣/٣٥٠ .
(2) المصدر السابق ١٣/٣٥٤ .
(3) الديوان ص ١٠٨ .

قالوا : السلام عليك يا أطلال   قلت : السلام على المحيل محال
عاج الشقي مراده دمن البلى   ومراد عيني قبة وحجال
لأغادين الراح وهي زلال   ولأطرقن البيت فيه غزال
ولأتركن حليلها وبقلبه   حرق وحشو فؤاده بلبال
وليشفين قلبي فم وجنى يد   وكلاهما لي بارد سلسال

وهو في بيته الثالث (الذي يسترخص حرمات البيوت إنما يناقض به الخلق العربي الحريص على العفة والفضيلة والحفاظ على الجارات)[1] .

ويصل ديك الجن إلى حد مزرٍ ، يخجل الإنسانية ويتنافى مع الذوق ، يتخلى فيه عن فطرته السليمة ، ويبعد عن ذاته الأصيلة ، ويغترب عن كل القيم ، وتتبوبه كل الأذواق ، إذ يقول غير محتشم[2] :

أعشق المرد والنكاريش والشيب   وعندي مثل البنين البنات
حد مايشتهى ويعشق عندي   حيوان تحل فيه الحياة

ولأنه مغترب عن ذاته الحقيقية ، منغمس في لذته الحسية ، يروق له أن يغيب عن الواقع ، لينسى معه قيمة الحياة وقيمها[3] :

فتراهم صرعى وقد صعقتهم   بكووسها في عدة الأموات
يا حبذا هم ميتين وحبذا   ذاك الممات لهم فخير ممات

---

(1) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص: ٥٧٩ .
(2) الديوان ص٤٩
(3) الديوان ص ٤٩ ـ ٥٠ .

مـوت أعز من الحياة عليـــهم　　　وألـذ في الأفـواه واللهـــوات

هذه الحياة المنغمسة في الفجور ، والتي عبوا الخمر فيها عبّاً حتى غابوا عن واقعهم ، وانتهكوا فيها سمو إنسانيتهم ، كانت تروق لهم بكل ما فيها من صغائر وهنات .

وما أن يفيقوا حتى يعودوا مرة أخرى لسكرهم ومجونهم . فقد غيبوا حسهم النقدي أو فقدوه تماماً . ومحمد بن يسير الرياشي واحد من هؤلاء المغتربين الذين سلبتهم الخمرة عقولهم . وفيه يقول ابنه عبدالله (كان أبي مشغوفاً بالنبيذ مشتهراً بالشرب وما بات قط إلا وهو سكران)[1] .

لقد أطاح به سكره في أسوأ المواقف ، ورضى لنفسه التي كرمها الله بأن تهان ، وخرج في صورة مزرية أسقط معها قيمته ، وأطاح بمروءته ، فقد شرب مرة مع قوم فأسكروه حتى خرج من عندهم وهو لا يعقل فأخذ رداءه وأخذ يتخبط في الطريق فيعثر ويرتطم بجدار يسلمه إلى جدار فأصاب وجهه آثار هذه العثرة ، ولقي في طريقه عنتاً وقال[2]:

شـاربت قـوماً لم أطـق شـربهم　　　يغـــرق في بحـــرهم بحـــري
لمـــا تجاريـــنا إلى غايـــة　　　قصـر عـن صـبرهم صـبري
خـرجت مـن عـندهم مثخـناً　　　تـدفعني الجـدر إلى الجـدر
مقـبح المشـي كسـير الخطـا　　　تقصر عند الجد عن سيري
فلست أنسى ما تجشمت من　　　كـدح ومـن جـرح ومـن أثـر
وشـق ثـوب وتـوى آخـــــر　　　وسقطة بان بها ظفـــري

(١) الأغاني ١٤/٥٠ .
(٢) الأغاني ١٤/٤٩ .

وليس الرياشي وحده الذي يقع عرضة لمثل هذه المواقف فقد (كان القوم يفرطون في الشراب بحيث يظلون سكارى أياماً موصولة ، ولم تكن أخبارهم ونوادرهم في هذا السبيل تخلو من طرافة)[١] وطرافتها في غرابتها .

ومن الذين عرفوا بغرابة مجونهم عبدالله بن ربعي الرياحي المعروف بأبي الهندي الذي كان (بخراسان يشرب على قارعة الطريق ، فمر به نصر الليثي والي خراسان فقال له : ويحك يا أبا الهندي ألا تصون نفسك ؟ قال : لو صنت نفسي أنا لما وليّت خراسان)[٢] .

وهو يعترف صراحة بتفريطه بنفسه وانفصاله عن ذاته الحقيقية ومن هنا فقد كان يواصل أياماً ولياليٍ مخموراً .

وقد روى أنه بكر يوماً من الأيام إلى بيت خمار ، وكان ينزل في سكة يقال لها كوي زيان ، فشرب حتى ثمل ثم نام ، وجاء قوم إلى الخمار فرأوا أبا الهندي ، فقالوا : من هذا المطروح على وجهه ؟ قال : هذا أبو الهندي قالوا : ألحقنا به ، وظلوا عشرة أيام مخمورين لا يلتقون وكل منهم يريد لقاء صاحبه ، كلما أفاق أبو الهندي وجدهم مصروعين ، وإذا قاموا وجدوه مصروعاً كذلك . ففي ذلك يقول[٣]:

ندامى بعد عاشرة تلاقوا ... وضمهم بكوي زيان راح
رأوني في الشروق صريع كأس ... معتقة وما متع الصباح
فقالوا : أيها الخمار من ذا ؟ ... فقال : أخ تخونه اصطباح

---

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص: ١٩١ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ١٣٦ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣٧ .

أدار الـــراح حتـــى أقعصـــته		فخـــر كأنـــه عـــود شـــناح
فقالـــوا : قـــم وألحقـــنا وعجـــل		بـــه إنـــا لمصـــرعه نـــراح
وحـــان تنبهـــي فســـألت عـــنهم		فقـــال : أتـــى بهـــم قـــدر متـــاح
فقلـــت لـــــه : فســـرع بـــي إلـــيهم		حثيـــثاً فالســـراع هـــو الـــنجاح
فمـــا إن زال ذاك الـــدأب مـــنا		إلى عشـــر نفـــيق ونســـتباح
نقيم معـــاً وليس لنا تـــــــلاقٍ		ببيت ما لنا منـــــه بـــراح

لقد انفصل شعراء المجون في العصر العباسي عن إنسانيتهم انفصالاً حاداً فالإنسان الذي (بث الله فيه من روحه وخلقه على صورته يأبى إلا أن ينزع عن وجهه هذه الصورة ، ويأبى أن يرتدي قناعاً حجرياً لا حياة فيه ، إنه بإرادته يريد أن يصبح مثل الأشياء لا تحس ولا ترى ، برجليه يدخل مصيدة اغترابه)[١] ولا نستغرب إذا ماعرفنا أن أبا الهندي (مذ دخل سجستان إلى أن خرج منها ما فارق كوي زيان)[٢] فقد غدت حياته مجوناً وعربدة ، وهو يرى أن الحياة فتاة وكأس خمر ، أماهم الرجال فقد انفصل عنها مع أنه كان بمقدوره أن يكون ذا شأن ، فقد وصفه ابن المعتز بالدهاء[٣]، وألمح هو بذلك في جوابه لنصر الليثي ، ولكنه تنازل عن شخصيته لشهوته الحيوانية ، واغترب عامداً ، إذ أن حانة الخمر تزري بمن حل بها[٤] :

ثـــبت الـــناس علـــى رايـــاتهم		وأبـــو الهـــندي في كـــوي زيـــان
منـــزل يـــزري بمـــن حـــل بـــه		تســـتحل الخمـــر فـــيه والزوانـــي

(١) الإنسان والاغتراب ص: ٤٥ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص ١٣٨ .
(٣) المصدر السابق ١٣٦ .
(٤) المصدر السابق ١٣٨ .

إنمـــا العـــيش فـــتاة غـــادة وقعـودي عاكفـاً في بـيت حـان

أشرب الخمر وأعصي من نهى عن طلاب الراح والبيض الحسان

في حيـاتي لـــذة ألهـــو بهـــا فإذا مت فقـــد أودى زمـــاني

ويستمر في غربته وانفصاله عن القيم الدينية والأخلاقية ، ويتحدث ، غير محتشم ، عن الخمرة وما فيها من نشوة ولذة ، ويرى أن الأيام الجميلة عندما كان الناس في زنا ولواط ، وهو يقلب بتوقح ودناءة كل المفاهيم[1] :

اصـبب علـى كبدك مـن بـردها إنـــي أرى الـــناس يموتـــونا

ودع أناســـاً كـــرهوا شـــربها ليســوا بمـــا في الخمـــر يـــدرونا

لـــو شـــربوها فانتشـــوا مـــرة لأصـــبحوا بالخمـــر يهـــذونا

وقد عهدت الناس - إذ دهرهـــم دهـــر - يلوطـــون ويزنـــونا

ولأن هؤلاء المجان قد انفصلوا عن قيم مجتمعهم ، فقد استبدلوا بها قيم خاصة ، تدل على ما وصل إليه حالهم من تحلل وانفلات ، فقد شرب أبو الهندي يوماً بكوي زيان عند خمارة هناك (وكان عندها نسوة عواهر ففجر بهن ولم يعطهن شيئاً ، فجعلن يطالبنه بجعل فلم ينفعهن)[2] .

وقال في ذلك[3] :

آلى يمينـاً أبـو الهـندي كاذبـة لـيعطين زوانـي لسـت ماشـينا

وغـرهن فلما أن قضى وطـراً قال : ارتحلن فأخزى الله ذا دينا

---

(1) طبقات ابن المعتز ص١٤٣ .

(2) الأغاني ٣٤٨/٢٠ .

(3) المصدر السابق نفسه .

لقد تشيأ مثل غيره من المجان ، والتشيؤ كالشلل (لكن في الشلل المصاب هو الجسم ، أما في التشيؤ فالمصاب هو الروح . في الشلل قد يتم الشفاء ، ولكن إذا دخل الإنسان في منطقة التشيؤ الكامل فلا برء ولا نجاة . في الشلل يصاب الإنسان دون إرادته ، ولكن في التشيؤ يدخل الإنسان بإرادته في مصيدة الاغتراب حيث ينفصل عن الاخرين ويفقد ذاته الحقيقية)[1] ولأن أبا الهندي قد تشيأ تشيؤاً كاملاً ، ومن هنا كان يعشق الحياة الماجنة بصخبها وقذاها ، بفوضويتها وهمجيتها وتفاهتها[2]:

يا خليلي اسقياني عفوها ... بالبواطي البيض ليست بالعلب
من شراب خسر واني إذا ... ذاقه الشيخ تغنى وطرب
يترك القوم إذا ما طربوا ... في صياح ومراء وصخب
وإذا ما منتش قامت به ... رفعوا الأوصال منه بالخشب
ثم ناحوا نوحة ثم بكوا ... ثم ضجوا ضحكا ، باللعب

ولم يكتف بضياعه في زخم هذه الحياة الصاخبة الراقصة ، فتمنى أن يكفن بورق الكرم ، وأن يكون قبره معصرة لأم الكبائر[3]:

اجعلوا إن مت يوماً كفني ... ورق الكرم وقبري معصرة
وادفنوني وادفنوا الراح معي ... واجعلوا الأقداح حول المقبرة
إنني أرجو من الله غداً ... بعد شرب الراح حسن المغفرة

(1) الإنسان والاغتراب ص ٤٥ .
(2) طبقات ابن المعتز ص ١٤٢ .
(3) طبقات ابن المعتز ص ١٣٨ .

ولا نبالغ إذا قلنا أن شاعراً لم يبلغ في هذا الباب ما بلغه أبو نواس من خروج عن سنن الاعتدال وتخل عن كل القيم النبيلة . وكأنه كان يستمتع في المجاهرة بشذوذه وانحرافه . ولعل لذته الكبرى في أن يغرق في وحل هذه الذنوب . إذ تحلل من كل شيء جميل ، ولم يعد للأخلاق الكريمة قيمة في نظره . ولم يكتف بانتهاكه لإنسانيته بل اندفع بدعوة صريحة لتحبيب هذا الفجور إلى الناس ، وتحس أن في داخله نزعة عدوانية دفعت صاحبها إلى الانغماس في عيشة بهيمية تستحل كل شيء من أجل إشباع غريزتها . وتبدو رغبة هذا الشاعر ملحة في دعوة الناس من حوله لمشاركته هذا الإثم .

وإذا كان هناك أكثر من سبب في انحطاط وجهة هذا الشاعر وسقوطه ، فإنها أسباب قد مر بها كثيرون مثله ولكنهم لم يسلكوا مسلكه ، فقد كان نداؤه عالياً في دعوته العاهرة والتي قد يتوهم بعضهم أنها سعي للحرية ، أو تحرر معقول ، إذ أنه تجاوز فيها كل حدود اللياقة الأدبية ، وشذ فيها عن كل ما تقره النفوس السليمة ، وهو يصرخ في نداء حيواني مأبون ، أبعد ما يكون عن الفطرة المستقيمة[1]:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

فبح باسم من تهوى ودعني من الكنى ... فلاخير في اللذات من دونها ستر

ولأن المرء إذا لم يَسْتَحِ فعل ما يشاء ، فإن أبا نواس يعشق المجاهرة بالحرام عشقه للذة الحرام [2]:

اشرب . فديت . علانية ... أم التستر زانية

لا تقنعن بسكرة ... حتى تعود بثانية

---

(1) الديوان ص ٢٠١ .
(2) الديوان ص ٥٩١ .

لقد كان يتلذذ في أن يعلنها متعة حيوانية لا تخجل من غياب عقل ولا من ارتكاب سفاد جماعي معاين ، كما هي حال السائمة من الأنعام .

وهو لا يبالي أن يرتكب معصية أعظم ، ومجاهرة أقبح وأشد ، وكأنه يتحدى كل ما يمنعه من انغماسه وسفهه ، مبتعداً عن حدود الأدب حتى مع خالقه عز وجل [١]:

يا أحمد المرتجى في كل نائبة   قم سيدي نعص جبار السموات

ولأنه فقد كل الأشياء الجميلة في ماضيه وحاضره ، فقدْ فقدَ حتى الأمل في مستقبله ، ولكي يقنع ما تبقى لـه من وحي ضميره ، فقد أنكر أيضاً كل شيء ، ولم يؤمن إلا بلذته المحسوسة الحاضرة ، وهذا من أشد أنواع الغربة وأقبحها [٢]:

وملحة باللوم تحسب أنني   بالجهل أوثر صحبة الشطار
بكرت علي تلومني فأجبتها   إني لأعرف مذهب الأبرار
فدع الملام فقد أطعت غوايتي   وصرفت معرفتي إلى الإنكار
ورأيت إتياني اللذاذة والهوى   وتعجلاً من طيب هذي الدار
أحرى وأحزم من تنظر عاجل   علمي به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه   في جنة من مات أوفي نار

هذه الرؤية التي طرحها في بيته الأخير قد تعطيه فرصة لتبرير موقفه من اللذات ، وتفتح لـه إشارة مرور إلى مواصلة طريقه في حياته الحسية المفرطة ، ولا نستغرب أن يسترجع هذه النغمة

(1) ـ الديوان ص ١٠٠ .
(2) ـ الموشح ص ٣١٨ .

مرة أخرى ، ولكنه أعطاها بعداً آخر قائماً على أن هذا الشاعر فقد اتجاهه يقيناً ، ولم يعد يؤمن إلا بلذته الحسية ، فقد باح سره وأعلنها صارخة [١]:

باح لساني بمضمر السر   وذاك أني أقول بالدهر

وليس بعد الممات مرتجع   وإنما الموت بيضة العقر

وهو في تصاغره أمام شهواته ، وإنكاره في سبيلها كل ما يمكن أن ينكره ، اتخذ من هذه اللذة صنماً يعبده ، باع نفسه له ، وسلَّم إليه كل قياده . وإذا عرفنا أن رأس هذه اللذة شرب الخمر لم يبق بعد ذلك محل لاستغرابنا من هالة التقديس التي أضفاها على الخمر حتى وصفها وصفاً يختلف عن وصف شعراء العرب قاطبة وسماها بأحسن آلائها كما يقول[٢]:

أثن على الخمر بآلائها   وسمها أحسن أسمائها

دارت فأحيت غير مذمومة   نفوس حسراها وأنضائها

وموضوع الخمرة النواسية يحتاج إلى وقفة طويلة متأملة ، فقد كانت الخمرة منفذه إلى كل أبواب اللذة ، بل عبر من خلالها إلى آفاق روحية بعيدة . ففي قصائد كثيرة نجده أسبغ على الخمرة (طابع القداسة منتقلاً بها من إطار الحسية إلى آفاق روحية عالية ، متخذاً منها تارة رمزاً للمعرفة والحب ، وتارة وسيلة للخلاص من عذابات الروح وغربة الجسد ، وتارة ذاتاً عليا يدق معناها عن الوصف ويجل عن الإدراك)[٣] وكثيراً ما يمزج غناءه بالخمر بغزله الشاذ المذكر أو بممارساته الجنسية السافرة التي لا يكني عنها ولا يتجمجم[٤]:

---

(1) المصدر السابق ص ٣١٧ .
(2) الديوان ص ١٢
(3) أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد د . أحلام الزعيم ص: ٧٨ .
(4) الديوان ص ١٧

جلت عن الوصف حتى ما يطالبها وهم ، فتخلفها في الوصف أسماء

تقسمتها ظنون الفكر إذ خفيت كما تقسمت الأديان آراء

من كف ذي غنج حلو شمائله كأنه عند رأي العين عذراء

له بكيت كما يبكي النوى رجل على المعالم والأطلال بكاء

(لقد اتخذ أبو نواس من خمره مشجباً يعلق عليها صوراً مختلفة من صراعات عالمه ، ولكي يتسق مع نفسه ، وحتى يتخلص من بعض صراعاته إزاء تلك المشكلات آثر أن يسرف في الخمر بلا حساب ... فكانت الخمر ممدوحه ، وبدت في كل الأحوال محط آماله وتحولت إلى مصدر العطاء الذي لا يلجأ إلا إليه ، كلما اشتدت به الحاجة النفسية إليها)[١] .

وباختصار فقد أصبحت الخمرة عنده ضرباً من ضروب الصنمية ، إذ باع نفسه لها فملكت زمامه ، وتحلل من كل الضوابط ، وأعلن معصيته ، وراح (يسخر من مقومات دينه ، ويستهزئ بها ، لأنه إنما يسخر بكل مقومات عالم الفضيلة التي أسقطها من حسابه ، فلم تصمد طويلاً أمام إغراء الكأس ، ليبرز من ورائها بطولات زائفة لا رصيد لها من الواقع ، بقدر ما بدا رصيدها الأكبر كامناً في أعماقه ومخيلته)[٢] .

فالخمر عند أبي نواس لم تعد نشوة عابرة يسلو عنها متى شاء ، بل (اتخذ منها معبوده الأول ، من حولها يطوف حتى الثمالة ، ولها وحدها يقدم القرابين والصلوات ، ويسجد في محرابها

---

[١] النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي د . عبدالله التطاوي ص ٢٢ .
[٢] المرجع السابق ص ٢٣ .

تقديساً وإعجاباً ودهشة بها ، ورغبة فيها ، فلا يكاد يطيق " دون السجود لها صبراً " على حد تعبيره عن موقفه)[١] .

ولأن لذة الخمر تروق لمن لم تشغله لذة المعالي ، فقد انغمس فيها أبو نواس حتى أذنيه مغترباً عن ذاته الأصيلة ، ساقطاً في وحلها سقوطاً مريعاً ، نسي معه كل إنسانيته ، وانقلبت عنده كل مفاهيمه[٢]:

فما الطيش إلا أن تراني صاحياً   وما العيش إلا أن ألذَّ فأسكرا

وهو يصر على هذا التسفل ، ويراه مكسباً رابحاً [٣]:

وما الغبن إلا أن تراني صاحياً   وما الغنم إلا أن يتعتعني السكر

لأن المتعة عنده هي الحياة كلها ، فهي غاية ما يطمح إليه ، وفي سبيلها لا يتردد ولا يمنعه مانع[٤]:

فخذها إن أردت لذيذ عيش   ولا تعدل خليلي بالمدام

وإن قالوا : حرام قل حرام   ولكن اللذاذة في الحرام

وفرق كبير بين الحرية وبين العيش البهيمي وإطلاق العنان للنفس لترتع دون رادع ولا رقيب من الضمير . وقد تنصل بعض الباحثين الأعذار لأبي نواس في مذهبه في تقديس اللذة ، وتمحل

---

(1) النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي د . عبد الله التطاوي .
(2) الديوان ص ٢٠٨
(3) الديوان ص ٢٠١ .
(٤)الديوان ص ٤٧٦ .

حتى يخرجه في ثوب من العفة والطهر ، فصور غير الواقع وبرر مالايبرر في جدل يخالف منطق شعره ووقائع حياته [١] .

فأبو نواس همه المتعة التي يبيع في سوقها كل ما لديه ، ويرخص من أجلها نفسه وأخلاقه [٢]:

جريت مع الصبا طلق الجموح ... وهـان علـي مأثـور القبـيح
ألم ترني أبحت الناس عرضي ... وعـض مراشـف الظـبي المليح
لأني عالم أن سـوف تنأى ... مسافة بين جثماني وروحي

وفي عالمها يهون ويسقط إلى مستوى مزرٍ يفقد معه كل ما وهبه الله من العقل والتمييز والمروءة ، ويتساوى مع الحيوان إذ كلاهما تحكمه غريزته وتقوده شهوته [٣]:

نشرب الليل إلى الصبـح صـغاراً وكباراً
ونغني ما اشتهينـا ... ه من الشـعر جهارا
اسقني حتى تراني ... أحسب الديك حمارا

ومرة أخرى يلح على الفكرة نفسها ليؤكد كل مرة أن اغترابه ليس اغتراباً مرحلياً بل هو اغتراب كامل مزمن ، وفقده لنفسه فقد عمد مع سبق الإصرار والترصد ، كما يقول القانونيون ، وهنا يريد (أن يشرب من الخمر ما يؤدي به إلى ذهاب عقله ، حيث يفقد عندئذ القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها ، فتختلف القيم ، أو تنقلب رأساً على عقب فيصبح القبيح حسناً في

(1) ينظر : أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد ، في مواضع كثيرة أخرى .
(2) الديوان ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .
(3) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

نظره)[١] يقول [٢]:

واسقني حتى تراني　　　حسنا عندي القبيح

ويتساقط أبو نواس جزءاً جزءاً ، حتى يكاد لا يعرف من الفضيلة إلا اسمها ويواصل انهياره القيمي ، ويعيش انحرافه عرضاً وطولاً ، فالشذوذ عنده ألا يعيش هذا الشذوذ ، إذ اندفع في هذا الطريق المخزي قولاً وفعلاً فأصبحت مطاردة الغلمان شغله الشاغل ، وغدا شعره صورة لكل ما في عصره من شذوذ وانحراف ، حتى ظن عامة الناس فيما بعد أن الغزل المذكر عزف نواسي منفرد ، وأن هذه الخلاعة قصر عليه دون غيره من الشعراء .

ومما يدل على اغترابه العميق وتخليه عن القيم الدينية والأخلاقية قوله في غلام نصراني[٣]:

تمـــر فأســـتحييك أن أتكلمـــا　　　ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلما

ألـيس عظـيماً عـند كـل مـوحد　　　غــزال مســيحي يعــذب مســلما

فلولا دخول النار بعد بصـــــيرة　　　عبدت مكان الله عيسى بن مريما

وكعادته في كل خروج عن الجادة ، وفي كل مرة يخفق فيها ، يؤكد فكرة سقوطه وبإلحاح ليلجم كل من يتمحل له عذراً . وهنا يجزم لمناصحيه أنه مارق منحرف ، وأنه ضائع في عالم اللذة ، مستعبد من غريزته التي لا تشبع أبداً ، ويعلن شذوذه مجاهرة ، ويلوي أعناق النصوص سخرية وتهكماً ليوهم ، مستهزئاً ، أنها لصالحه[٤] :

وملحـــة بالعـــذل ذات نصـيحة　　　تــرجو إنابــة ذي مجـــون مـــارق

(1) في الأدب العباسي ص ٢١٦ .
(2) الديوان ص ١٤٠ .
(3) الموشح ص ٣١٧ .
(4) الديوان ص ٣٧٤ .

بكرت تبصرني الرشاد ، وشيمتي	غير الرشاد ، ومذهبي وخلائقي
كم رضت قلبي فاعلمي وزجرته	فرأى اتباع الرشد غير موافق
ومدامة مثل الخلوق ، عتيقة ،	حجبت زماناً في كنائس دابق
باكرتها من كف أغيد شادن	حسن التنغم ، فوق سؤل العاشق
متخرسنٍ ، دين النصارى دينه	ذي قرطق لم يتصل ببنائق
لبق بديع الحسن لو كلمته	لنبذت دينك كله من حالق
والله لولا أنني متخوف	أن ابتلى بإمام جور فاسق
لتبعته في دينه ودخلته	ببصيرة فيه دخول الوامق
إني لأعلم أن ربي لم يكن	ليخصه إلا بدين صادق

ويظل في جدل أزلي مع مناصحيه ، يشعر المرء من خلاله مدى تلذذ هذا الرجل بانحرافه وشذوذه ، وكأنه مفخرة يتطاول بها ، أو مبدأ شريف يقاتل من أجله ، ولعل سبب ذلك ما وصل إليه الشاعر من تحلل أدى به إلى اغتراب كامل عن ذاته الأصيلة .

وهو يشعر بهذا جيداً ، وكأنه يئس من نفسه ، واستحالت عودته إلى عالم الفضيلة[1] :

وما لمثلي صلاة	لأن فسقي شهير

نراه في جدله يكرر فكرته السابقه ، ويزداد جرأة وتمرداً على القيم الدينية فيحرف النصوص وفقاً لهواه ، وتبعاً لمقاصده في تطاول لا يخلو من سخرية وقحة[2] :

وعاذلة تلوم على اصطفائي	غزالاً واضحاً مثل المهاة

---
(1) الديوان ص ٢٤٤ .
(2) الديوان ص ١١٠ .

وقالت : قد حرمت ، ولم توفق لطيب هوى وصال الغانيات

فقلت لها : جهلت فليس مثلي يخادع نفسه بالترهات

دعيني لا تلوميني فإني على ما تكرهين إلى الممات

بذا أوصى كتاب الله فينا بتفضيل البنين على البنات

وعلى (هذا النحو من المغالطة ، وإلى هذا الحد من التوقح يذهب الشاعر في دفاعه عن سلوكه المشين ، لا يخشى شيئاً)[1] .

ومما يدل على اغتراب أبي نواس عن ذاته ، وغرقه في بهيميته ، إصراره الشديد على ارتكاب المعصية وتلذذه بفعلها .

ومن مجونه المركب الذي تمازجت فيه المعاصي وغدت في عينه كوكبة من اللذائذ ، أن المتعة تكبر (في حسه وفي وصفه بمقدار المخالفة لا بمقدار المتعة والتذاذها ، فلا يساوي شراء الخمر والفسوق بمال حلال وشراؤهما بمال حرام :

واركب الآثام حتى يبعث الله الأناما

فلكم نلنا بدينا ر قمرناه غلاما

وشربنا يومنا ذا ك بباقيه مداما

لانصرف في حرام أبداً إلا حراما)[2]

هذه الحياة الماجنة التي عاشها بعض شعراء العصر العباسي ، حاولوا من خلالها أن يقهروا إحساسهم بالوحدة عندما لم يستوعبهم مجتمعهم ، وحاولوا من خلال هذه الحياة العابثة أن

---

(1) في الأدب العباسي الرؤية والفن ص ٢٧٦ .
(2) - أبو نواس الحسن بن هانئ: عباس محمود العقاد ص ٣٢ .

يتخلصوا من عبث حريتهم السلبية ، وأن يستشعروا الأمان الذي فقدوه بعد انفصالهم عن روابطهم الأولية .

فعن طريق حالات السكر والعربدة والتي كثيراً ما تتخذ شكل الغيبوبة الذاتية (يختفي العالم الخارجي ويختفي معه الشعور بالانفصال عنه . ويرتبط بهذا الحل من السكر ، وغالباً ما تمتزج به التجربة الجنسية ، فهزة الجماع الجنسي يمكن أن تولد إحساساً مماثلاً للإحساس الذي ينتج عن حالات السكر . . . ولا شك في أن هذه الأساليب . . . ليست الأساليب السليمة والإيجابية لقهر الانفصال لأنها جميعاً تؤدي إلى اغتراب الإنسان عن ذاته وإلى ضياعه)[1] .

---

(1) الاغتراب عند إيريك فروم ص ٩٦ .

ثانيًا : الشعور بالدونية:

يحول شعور المرء بالنقص بينه وبين التكيف مع مجتمعه ، إذ تظل هذه العقدة تطارده وتنهش في كيانه ، وتزرع من حوله الأشواك ، وهي في هذه الحالة تدفعه إلى واحد من اثنين فإما التعويض بالتفوق ، وإما الإخفاق إخفاقاً ذريعاً حتى يصبح هذا الفرد كلاً على مجتمعه .

ويعرف علماء النفس عقدة النقص بأنها (استعداد لا شعوري مكبوت ينشأ من تعرض الفرد ... لمواقف كثيرة متكررة تشعره بالعجز والنقص والفشل)[١] ويميزون بينها وبين الشعور بالنقص بوصفه (حالة نفسية يدركها الفرد إدراكاً مباشراً ويعترف بها . وهو ينشأ من نقص جسمي أو عقلي أو اجتماعي أو اقتصادي متوهم أو حقيقي)[٢] .

والشعور بالنقص أو الدونية غالباً ما يدفع إلى البحث عن وسيلة تفوق يسد بها الفرد هذا الخلل الذي أشعره مجتمعه به ، ويغطي بها عجزه . وهو (يحفز الكبار على إصلاح ما لديهم من نقائص وعيوب ، بل على التقدم والارتقاء . أي أنه قد يبعث الفرد على التعويض الموفق الناجح أو على الرضا بالواقع)[٣] .

وإذا كان من يشعر بنقصه قد يرتق هذا النقص بما يعوضه من سيطرة أو إبداع وتفوق في مجال آخر من مجالات الحياة ، فإن من يعاني من عقدة النقص المترسبة في أعماقه لا يفطن إلى وجود هذا النقص ، ومن هنا تكون ردة فعله قوية تحمله على عدم الاعتراف بنقصه كما تسوقه إلى (أنواع مغربة من السلوك لا يفهم دلالتها ولا يدرك الصلة بينها وبين شعوره الغامض الدفين بالنقص : الزهو الشديد ، والإسراف في تقدير الذات ، والتظاهر بالشجاعة أو تكلف

---

[١] أصول علم النفس : د. أحمد عزت راجح : ص: ١٤٤ .
[٢] المرجع السابق نفسه .
[٣] المرجع السابق نفسه .

الوقار أو ميل شديد إلى السيطرة والعدوان والاستعلاء وغير تلك من مظاهر التعويض المسرف)[1] وقد يتكلف هذا الشخص صوراً مختلفة من السلوك تسترعي الاهتمام والانتباه ، يحاول من خلالها سد إحساسه بالدونية .وقد شاعت هذه الظاهرة في أشعار كثير من شعراء العصر العباسي ممن انتابهم هذا الإحساس . ونلمسها واضحة في شعر من أحسوا بتواضع نسبهم من خلال رؤية العرب الذين كانوا لا يرون غيرهم شيئاً . ومن هنا انفتح باب الشعوبية على مصراعيه .

ولن نطيل الوقوف عند هؤلاء كثيراً لأن أشعارهم أخذت طابعاً سياسياً وقد درست في الاغتراب السياسي ، وإنما سنمثل لها بما يدلل على وجود هذا الشعور في نفوس الموالي .

ومن الشعراء الذين عانوا من مركب النقص الشعراء السود الذين صدموا بنظرة المجتمع القاسية إليهم ، وكان اللون يشكل لهم عقدة مزمنة يصطلون بوهج نارها بين فينة وأخرى .

والفئة الأخيرة من الشعراء الذين عانوا من إحساس مضاعف بالدونية كانوا من ذوي العاهات. وقد ركزنا على الشعراء المكفوفين لأثر العمى في نفسيتهم ، ولأن ردة فعلهم كانت صارخة ، نجدها في معظم نتاجهم صريحة أو غامضة .

وعلى الرغم مما جاءت به الشريعة الإسلامية من تعاليم صريحة في المساواة وأن التفاضل بالتقوى إلا أن موقف بعض العرب لم يزل يحمل شيئاً غير قليل من الروح الجاهلية ، والنعرة العصبية القبيحة ، إذ تعرض كثير من الموالي للنظرة الدونية والاحتقار ، بل الاضطهاد الذي أخذ صوراً وأشكالاً متعددة أهونها التهكم والسخرية .

---

(1) أصول علم النفس : د. أحمد عزت راجح : ص ١٤٤ - ١٤٥ .

وجاءت ردة فعل الموالي قوية حملت معها أضغاناً وأحقاداً كان بعضها يأخذ شكلاً مسلحاً ، وبعضها يتسلح بالقول البليغ والحجة المفحمة ، والنتيجة أن هؤلاء الموالي رغم كثرة عددهم وقوة نفوذهم في الدولة العباسية إلا أنهم كانوا يشعرون بغربتهم الشديدة أمام العربي الذي انتفخت أوداجه فخراً وزهواً وإن كان ممن لا يتمتعون بأي قيمة .

ولكي يواجه المولى المغترب تلك النظرة الصاخبة ، ولكي يخفف من قسوتها اضطر إلى أن يبعد عن الفخر بأبيه ، ويعلو إلى النسب الملكي الكسروي أو القيصري موهماً نفسه بتفوق مصطنع حتى كثر ادعاء الناس للانتساب إلى كسرى وفي هذا يقول جحظة[1] :

وأهل القـــرى كلهم ينتمو ... ن لكسرى ادعاءً ! فأين النبيط ؟

ولم تكن نظرة العرب هادئة بل كانت نظرة مزدرية من حولها أشد الازدراء[2] :

أكثـر خلـق الله مـن لا يـدرى ... مـن أي خلـق الله حـين يلقـى ؟
وحلـــة تنشـــر ثـــم تطـــوى ... وطيلســـــان يشـــترى فيغلــــى
لعبد عبد ، أو لمـولى مــــولى ... ياويح بيت المال ! مـاذا يلقـى ؟

ولم تكن الإمارة لتقنع العربي بكفاءة من أمامه من غير العرب ، وهو إن مدحه فإنما يدفعه إلى مديحه الرغبة لا القناعة . وكان الإحساس بدونية النسب ينتاب حتى أولئك القادة الكبار الذين صالوا وجالوا في الساحة العباسية ، فهذا عبدالله بن طاهر يفتح شدقيه مفتخراً محتشداً لهذا الموقف أشد الاحتشاد[3]:

---

(1) ضحى الإسلام ١/٤٠ .
(2) الأغاني ٢٠/٤٢٣ ، والأبيات لأبي نخيلة .
(3) ضحى الإسلام ١/٤٦ .

أقصري عما لهجت به | ففراغي عنك مشغول
أنا من قد تعرفي نسبي | سلفي الغر البهاليل
وأبي من لأكفاء له | من يساوي مجده ؟ قولوا

وقولوا هذه تحمل شعوراً غامضاً دفيناً بعقدة النقص ، وكأنه ينتظر رد فعل الآخرين ! ! فكانوا كما أراد ! ! قالوا فأوجعوا ، ولهذا حاول الموالي تغطية إحساسهم بكل ما استطاعوا من فخر بالأمة أو عراقة الملك والحضارة[1]:

بهاليل غر من ذؤابة فارس | إذا انتسبوا لا من عرينة أو عكل
هُمُ راضة الدنيا وسادة أهلها | إذا افتخروا لاراضة الشاء والإبل

ومن الشعراء الذين أوجعهم إحساسهم بالنقص أبو يعقوب الخريمي الذي أكثر من اعتزازه بنسبه ، وتعالى بساسانيته المزعومة ومزج غربته الذاتية بغربة مكانية موغلة في وحشتها[2]:

وناديت من مرو وبلخ فوارساً | لهم حسب في الأكرمين حسيب
فيا حسرتا لا دار قومي قريبة | فيكثر منهم ناصري ويطيب
وإن أبي ساسان كسرى بن هرمز | وخاقان لي لو تعلمين نسيب

ومرة أخرى يتناولها من وجهة نظر دينية ، يشعر معها بمساواة البشر[3]:

أبالصغد بأس إذ تعيرني جمل | سفاهاً ومن أخلاق جارتي الجهل
فإن تفخري يا جمل أو تتجملي | فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل

---

(1) ضحى الإسلام ١ / ٤٧ ولم ينسب البيتين لأحد .
(2) المرجع السابق ٦٤/١ ـ ٦٥ .
(3) الشعر والشعراء ص ٥٨٢ .

أرى الناس شرعاً في الحياة ، ولا لقبر على قبر علاء ولا فضل

يرى وما ضرني أن لم تلدني يحابر ولم تشتمل جرم علي ولا عكل

ويشعر أبو إسحاق المتوكلي بأن دونيته لا أصل لها ، وأنه أحق بشموخ النسب ويدفعه إحساسه بظلم هذه الرؤية العربية إلى الدعوة لإحياء المجد الفارسي العريق مدعياً كأمثاله النسب الملكي[١]:

أنا ابن الأكارم من نسل جم وحائز إرث ملوك العجم

ومحي الذي باد من عزهم وعفى عليه طوال القدم

وطالب أوتارهم جهرة فمن نام عن حقهم لم أنم

ويشعر بشار بهذه الدونية شعوراً مراً ، وينتابه رد فعل عجيب ، إذ يسرف في زهوه وتفاخره ، بل يتزعم الحركة العدائية للعرب ، ويدعو إلى نبذ ولائهم للعرب ، فيقول لسيد من العرب .قال له (يا بشار ! قد أفسدت علينا موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا ، وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم ، وترك الولاء وأنت غير زاكي الفرع ، ولا معروف الأصل ! فقال له بشار: والله لأصلي أكرم من الذهب ، ولفرعي أزكى من عمل الأبرار ، وما في الأرض كلب يود أن نسبك له بنسبه)[٢] .

(1) معجم الأدباء ١ / ١٢٩ .
(2) الأغاني ٣/٢٠٠ .

ويرى النويهي (أن بشاراً لم يبادئ العرب بالخصومة والتعالي ، بل هو قد بذل جهداً كبيراً في مجاملتهم إلى الحد الذي ترضى به كرامته ، فلما اتضح لـه من طول ازدرائهم به وتغطرسهم عليه أنهم لن يكتفوا بذلك ، إذ ذاك ثار وأعلن ثورته)[١].

وكلما ضغط عليه إحساسه بمركب نقصه النسبي لجأ إلى ما يلجأ إليه الموالي في مجتمعه فتشدق بنسبه الساساني المزعوم بل زاد تبجحاً بخؤولة قيصرية ترتق خلله الذي أرهقه[٢]:

جـدي الـذي أسمـو بـه   كسـرى وسـاسـان أبـي

وقيـصـر خـــالي إذا   عـددت يومـاً نســـبي

وكلما أوهم نفسه بهذا النسب العالي صدم بما يذكره بتواضع نسبه ، وفي كل مرة يكون في موعد مع التجريح والسخرية ، فقد روي أنه (دخل أعرابي على مجزأة بن ثور السدوسي وبشار عنده وعليه بزة الشعراء ، فقال الأعرابي من الرجل ؟ فقالوا : رجل شاعر . فقال أمولى هو أم عربي ؟ قالوا : بل مـــولى ، فقال الأعرابي : وما للموالي وللشعر ! فغضب بشار)[٣] ثم استأذن الأمير فقال قصيدة غاضبة مملوءة بالفخر ، تفوح منها رائحة إحساسه الدوني الذي لا يفارقه حتى في ساعة زهوه ، وإلا فما معنى أن يلجأ إلى تلك الكسروية التي غدت سمة لكل ردة فعل مشابهة[٤]:

أعـاذل لا أنـام علـى اقتسـار   ولا ألقــى علىمــولى وجــار

سـأخبر فاخـر الأعـراب عني   وعـــنه حـــين بـــارز للفخـــار

(1) شخصية بشار محمد النويهي ص ٤٢ .
(2) الديوان ص ١٨١.
(3) الأغاني ١٦٠/٣.
(4) الديوان ص ٤٨٣ ــ ٤٨٤ .

أنـا ابـن الأكـرمين أبـا وأمـاً　　　تـنازعني المـرازب مـن طخـار
نغـاذي الـدرمك المنفوط عـزاً　　　ونشـرب في اللجـين وفي النضـار
ونـركب في الفـريد إلى الندامـى　　　وفي الديـباج ، للحـرب ، الحـبار
تفاخـر يا ابن راعيــــة وراع　　　بني الأحـرار حسبك من فخار

ولعل شعوره المفرط بجرح كرامته، والذي أغاظه أشد الغيظ (أن يفخر عليه مثل هذا البدوي الجاهل الخشن . لو فخر عليه عربي مثقف لما آلمه بهذه الدرجة من الإيلام)[١] .

وقد فاضت قصيدته بالسخرية من الأعراب والتهكم بهم ، فكانت رداً قاسياً على هذا الأعرابي الذي (سخر منه ومن كونه مولى ، بمعنى أنه سخر من شخصه ومن جنسه ، فقال الأبيات ثأراً لكرامة ورداً لإهانة . فالأبيات لا تعبر عن حقيقة الشاعر وأنه يكن الكره والبغضاء والاحتقار للعرب . إنها ثورة النفس عندما تحس بجرح أو إهانة ، تنطق بلا شعور أو وعي ليلتئم الجرح وترد الإهانة)[٢] ولا يعني هذا أنه لم يسخر من العرب صراحة ، فإذا كان في هذا الموضع خص الأعراب فله قصائد أخرى لا يمكن تأولها ، إذ سلط فيها لسانه على العرب تهكماً وطعناً .

ومثله شعراء الموالي الآخرون فقد أخذوا (يهجون العرب ويقدحون في نسبهم ويشككون في عقيدتهم . كان ذلك ما نسميه اليوم بردة الفعل تجاه قوم فخروا عليهم سابقاً ، وعيروهم في أنسابهم وسخروا من عقائدهم)[٣] .

---

(1) شخصية بشار ص ٤٧ .
(2) الصورة في شعر بشار بن برد : د. عبدالفتاح صالح نافع ص ٢٦ .
(3) الصورة في شعر بشار بن برد ص ٢٨ .

كانت ثورة بشار عارمة تجاه كل من يعيره بضعة نسبه ، إذ يلجأ إلى الحط من قيمة خصمه والسخرية منه ، وينبري لـــه بلغة متعالية تحمل كل صيغ التحدي . وإذا هوجم في نسبه (راح يبحث عن مصدر للفخر بمجده التالد ، ونسبته إلى الفرس ، وأخــذ يفيض على نفسه من الصفات ما يعوض شعوره بالنقص أو العيب أو القصور)[١] وقد يتهم من يصمه بنسبه بالجنون[٢]:

ونبــئت قــوماً بهــم جــنة	يقولون : من ذا ؟ وكنت العلم
ألا أيهــا الســائلي جاهــداً	ليعــرفني ، أنــا أصــل الكــرم
نمت في الكرام بني عــامر	فروعي ، وأصلي قريش العجم

وعندما يلجأ إلى الثورة والرفض . ويميل إلى الاستخفاف بخصومه ، فإن ذلك يأتي (تعويضاً عن هذا الشعور الذي كان ينتابه ويثقل عليه وهو إحساسه بالعجز وشعوره بضعة أصله ، فاعتاض عن ذلك كله بالتعالي والرفض ، والتمرد على الحياة والناس)[٣] .

وبشار أحد هؤلاء المغتربين الذي شقوا بنظرة المجتمع لهم ، ولم يكن شعورهم عابراً بل كان يعيش معهم كل لحظات حياتهم . وقد دافع ما أمكنه أن يدافع وعندما (يضيق صدره من مواجهته بفكرة الولاء وحين تشتد المحاصرة عليه من هذه الناحية يعود إلى سخريته من العرب يائساً ومتبرماً)[٤] لاجئاً إلى الله ، معتمداً على العدالة السماوية[٥]:

---

(1) موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي : د. محمد زكي العشماوي ص ١٠٩ .
(2) الديوان ص ٥٨٨ .
(3) موقف الشعر من الفن والحياة ص ١٠٩.
(4) المرجع السابق ص ١١٠ .
(5) الديوان ص ٥٣٠.

أصبحت مولى ذي الجلال ، وبعضهم   مولى العريب ، فخذ بفضلك وافخر

مـــولاك أكـــرم مـــن تمـــيم كلـــها   أهـــل الفعـــال ومـــن قـــريش المعشـــر

فارجـــع إلى مولاك غير مـدافــــع   سبحـان مـــــولاك الأجـــل الأكبر

ولعل إحساسه الشديد بأزمته دفعه إلى مبالغة في الاعتداد بالنفس والمباهاة وصل إلى حد الأنانية إذ رسم (نفسه في غير وضعها في غير محلها . وجاء في هذا اللون من شعره سخرية ومرارة ، وكأنه كان يشعر في قرارة نفسه بضعته لكونه مولى فيرتد إلى نفسه أو ترتد نفسه إليه بعد أن كان مندفعاً في فخره وهجائه ليقدم صوراً مريرة فيها استسلام وفيها قبول للواقع)[١] .

بل كان يخرج عن طوره في بعض الأحيان ، فيعلن عجزه وهو لا يشعر ، وعندما تعجزه حيله الدفاعية وتبريراته بقوة نسبه ، يضطر إلى ترك النسب هذا كله ، فيعلن حقده على البشرية جمعاء ، باختلاف أجناسها ودياناتها ويذهب إلى محاولة إغاظة البشركلهم في مثل قوله [٢]:

إبلـيس خـير مـن أبـيكم آدم   فتـنبهوا يـا معشـر الفجـا ر

إبليس من نار وآدم طينـــة   والأرض لا تسمـو سمـو النار

وإذا كان الموالي البيض ، وعلى رأسهم الفرس ، قد عانوا من إحساس شديد بالدونية في مجتمع كانوا يقفون على هرم قيادته ، لم نستغرب بعد ذلك أن نجد هذا الشعور يتضاعف مراراً عند الشعراء السود الذين كانوا يعيشون ضيوفاً على الحياة في مثل هذه المجتمعات التي تقوم على العصبية . ولولا أن الإسلام شدد في تعاليمه على وأد هذه العنصرية القبيحة ، لاختفى ذكر السود من تاريخ هذا المجتمع .

---

(1) الصورة في شعر بشار بن برد ص ٤٠ .
(2) الديوان ص ٥٣٩ .

وقد سعى السود . قدر جهدهم . إلى التصالح مع الحضارة العربية ولكنهم فوجئوا برد فعل عنيف في كثير من الأحيان ، فارتضوا أن يعيشوا على هامش الحياة ، وكان همهم أن يؤمنوا لقمة عيشهم ، وفي مقابل ذلك يقبلون كل ما يمكنهم قبوله حتى التجريح ، والكلمة النابية .

هذه الطبقة المطحونة كان يتخطفها البؤس من كل جانب ، وينتابها الشعور بالنقص من جهتين ، كونهم موالي ، ثم شعورهم المرير بعقدة اللون الأسود التي تطاردهم أينما حلوا ، والتي كانت تحرم عليهم أشياء كثيرة كان المجتمع يجيزها للآخرين ، أو يتغاضى في تمريرها .

ولم يستطع الشاعر الأسود أن يتخطى الخطوط الحمراء التي رسمها لـــه هذا المجتمع ، لأنه كان يعرف جيداً قدر نفسه. فالشاعر الأسود إذا اقترب من البلاط السلطاني اقترب مادحاً مستجدياً حذراً غاية الحذر ، لأن هفوته ليست كهفوات غيره .وهو يعرف إمكاناته وأنه لا يجيد دور الشاعر النديم أو الشاعر السمير (فهو إما أن يصبح ضيقاً بقوانين القصور محطماً لها كأبي دلامة ، وإما أن يطلب الاستغناء على حد قول نصيب الأكبر لعبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين جلدي أسود ، وخلقي مشوه ، ووجهي قبيح ، ولست في منصب ، وإنما بلغ بي مجالستك ومواكلتك عقلي ، وأنا أكره أن أدخل عليه ما ينقصه)[1] ومثلما حرم الشاعر الأسود منادمة الملوك حظر عليه المجتمع الغزل ورآه إثما كبيراً ، لأن لونه أسود ، ولأنه بلا جذور .

هذه الفئة المضطهدة عانت أشد المعاناة ، وإذا كان الشعراء فيهم أفضل حظاً من غير الشعراء ، فإن الفرق لم يكن بعيداً (فهم بصفة عامة كانوا بعيدين عن دوائر الضوء ، ذلك لأنهم في الغالب كانوا يعيشون عند الناس لا بين الناس ، وكانوا بلا جذور في مواجهة المجتمع ، وقد

---

(1) الشعراء السود: ص ٤

ساعدهم هذا على أن يكونوا خارجين على المجتمع ، أو غير منتمين . فإذا انتموا فإن غالب انتمائهم يكون للأنظمة المشاقة والمكابدة للأنظمة القائمة ، ويكون انتماؤهم للكيانات التي تضع " العدل الاجتماعي " في برامجها من قريب أو بعيد كالخوارج والشيعة وبعض الأنظمة الثورية)[1] باختصار عاشوا مغتربين .

وقد امتزجت غربتهم الاجتماعية بغربة ذاتية موغلة في نكأتها ، ونعتقد أن كثيراً منهم قد جمد أحاسيسه ووصل إلى مرحلة التبلد ، لكي يعيش بين هؤلاء السادة المغرورين .

وقد حرص الشاعر الأسود ، ما أمكنه ، أن يتصالح مع مجتمعه ، فإذا أعجزه ذلك انسحب من هذا المجتمع .

ولعل أقسى أنواع غربة السود تتجلى في أنهم ليسوا كغيرهم من الموالي ، يحنون إلى أوطانهم ، أو يبكون سالف مجدهم ، وإنما همهم لحظتهم التي يعيشونها ، وكأنهم بلا وطن ولا ماض .

وعقدة اللون كانت تطاردهم عن أشياء كثيرة كانت من حق إنسانيتهم وكانت وراء كل إحباط يعانون منه ، وكل هم يثقل كواهلهم .

وأمام هذا الإحساس المتضخم بالنقص اضطر بعض الشعراء السود للتنازل تماماً عن ذواتهم وقبلوا الشخصيات المقدمة لهم من مجتمعهم فأبو دلامة رضي أن يكون مهرجاً في البلاط العباسي ، يقول د . عبده بدوي (ونحن نقابل هنا شاعراً أسود من نوع جديد ، ذلك لأنه لم يهتم تماماً بسواده في الوضع الاجتماعي الذي وضع فيه نفسه ، وارتضاه ، فقد أخذ على

---

(1) الشعراء السود ص٥ .

عاتقه أن يملأ الحياة من حوله بالبهجة ، والسخرية والدعابة ، وأن يتصل بالطبقة الحاكمة رجالاً ونساء ليضاحكهم ثم يسلب أموالهم)[١] .

ولعل من الوهم الشديد أن نزعم أن أبا دلامة لم يهتم بسواده ، لأن إحساسه بدونيته هو الذي دفعه للتنازل عن ذاته ، وهو أخطر ما يمكن التنازل عنه . ولو تناسى أبو دلامة سواده فالخلفاء حوله لا يتورعون عن تذكيره بعقدته وبأقبح الألفاظ (يا ابن اللخناء)[٢] (ولعل الخلفاء كانوا يحسون منه " عقدة النسب " هذه فيحرجونه بها كلما سنحت لهم سانحة حرج)[٣] .

وأبو دلامة يصرح بشعوره الدفين كلما أراد استعطاف الخلفاء واستدرار رحمتهم[٤]:

عجبت من صبيتي يوماً وأمهم ... أم الدلامة لما هاجها الجزع

لا بارك الله فيها من منبهة ... هبت تلوم عيالي بعدما هجعوا

ونحن مشتبهو الألوان ، أوجهنا ... سود قباح ، وفي أسمائنا شنع

ما زلت أخلصها كسبي فتأكله ... دوني ودون عيالي ثم تضطجع

شوهاء مشنأة في بطنها ثجل ... وفي المفاصل من أوصافها فدع

ولا عجب أن نجد عقدة النقص تلازم هؤلاء السود أينما حلوا ، فيسخرون من الحياة كما تسخر بهم ، فهذا أبو نخيلة يستشعر هذه العقدة ويحاول (تأكيد دمامته ، على نحو ما قيل من أنه دخل اليمن فلم ير أحداً بها حسناً ، ورأى وجهه وكان قبيحاً ، فإذا هو أحسن من بها فقال :

---

(1) الشعراء السود ص ١٦٩ .
(2) الأغاني ١٠/٢٩٤ .
(3) بين الكتب والناس : عباس محمود العقاد : ص ٧٨ .
(4) الديوان ص ٧٨ - ٧٩ .

لم أر غـــيري حســـنا　　　مـــنذ دخلـــت اليمـــنا

كيـف تكـون بلــــــدة　　　أحســـن ما فيـها أنا)[١]

ويظهر الشعور بالدونية عند نصيب الأصغر واضحاً ، ويبدو ذلك جلياً في قصيدته التي يشكر فيها المهدي على إهدائه له جارية تزوجها ، وقد طأطأ رأسه كثيراً أمام هذه الجارية التي يرى أنها فوق مقامه[٢]:

ما زلت تبذل لي الأموال مجتهداً　　　حتـى لأصـبحت ذا أهـل وذا مـال

زوجـتني يا ابـن خير الله جاريـة　　　مـا كـان أمـثالها يهـدى لأمـثالي

زوجـتني بضـة بيضـاء ناعمـة　　　كأنهـــا درة في كـــــف لآل

حــتى توهمت أن الله عجلـــها　　　بابن الخلائف لي من خير أعمــالي

ويتصاغر إلى أبعد الحدود أمام إحساسه المتضخم بنقصه ، وتكبر عنده عقدة اللون ، حتى لا يرى نفسه ذا قيمة ، وكأنه لا يستحق أن يمارس حياته مثل غيره[٣]:

أمــن أجــل آيــات ورســم كأنــه　　　بقـــية وحــــي أو رداء مسلســـل

جرى الدمع من عينيك حتى كأنه　　　تحـدر در ، أو جمـــان مفصـــل

فـيا أيهـا الزنجـي مالـك والصـبا　　　أفق عن طلاب البيض إن كنت تَعْقِلُ

فمثلك من أحبوشـــة الزنج قطعـت　　　وسائـل أسبـــاب بـها يتوســـل

(1) الشعراء السود ص: ١٨٨ .
(2) الأغاني ٩/٢٣ .
(3) المصدر السابق ٥/٢٣ ـ ٦ .

ويتضاعف هذا الشعور بالدونية أمام النساء اللاتي يهزأن بالسود ويرين مطاردتهم البيض الحسان تجاوزاً لقوانين المجتمع الموضوعة ، فعشق هؤلاء السود محرم ، لأنهم لا يملكون كفاءة السادة ، ولا يحظون بقناعة النساء[١]:

وتقول مية : مالمثلك والصبا ... واللون أسود حالك غربيب
شاب الغراب وما أراك تشيب ... وطلابك البيض الحسان عجيب
أعلاقة أسبابهن ، وإنما ... أفنان رأسك فلفل وزبيب
لا تهزئي مني فربة عائب ... ما لا يعيب الناس وهو معيب

وتشاركه ابنته الحجناء هذا الإحساس المرير ، فترسم لنا صورة لهذه الأسرة التي أجهدها وضعها الاجتماعي[٢]:

أمير المؤمنين ألا ترانا ... خنافس بيتنا جعل كبير
أمير المؤمنين ! ألا ترانا ... كأنا من سواد الليل قير
أمير المؤمنين ! ألا ترانا ... فقيرات ووالدنا فقير
أضرّبنا شقاء الجد منه ... فليس يميرنا فيمن يمير

ويحس أبو عطاء السندي بأزمة (اللون) التي عانى منها رفقاؤه ، ويرى نظرة القوم المتعالية فتؤلمه دونيته التي جعلت العيون تتخطاه ساخرة[٣]:

وازدرتني العيون إذ كان لوني ... حالكا مجتوى من الألوان

---

(1) الأغاني ١٦/٢٣ .
(2) الشعراء السود ص ٢٠٣ .
(3) الأغاني ٣٢٨/١٧ .

وقد غدا " اللون الأسود " عقدة تحرك شجونه ، فلم يرق له لباس السواد الذي كساه المنصور جيشه ، فهذا السواد أينما كان يعني لهذا الشاعر جرس خطر ينسف حياته نسفا[١]:

كسيت ولم أكفر من الناس نعمة — سـواداً إلى لونـي ودنـا ملهـوجا
وبايعت كـرها بيعة بعد بيعـة — مبهرجة إن كان أمـرٌ مبهرجـا

لقد عاش الشعراء السود غربة ذاتية واجتماعية وعاشوا (على هامش هذا المجتمع طبقة فقيرة مهانة ومدموغة في الوقت نفسه بالسواد . . . كانوا يرون أنفسهم ، وكانوا يرون أهلهم يهانون ، ومع أن الإهانة كانت تختلف من عصر إلى عصر ، ومن شاعر إلى شاعر ، إلا أن الشاعر الأسود كان لا يملك إلا أن يكون صوت احتجاج على الحياة من حوله ، وعلى مأساته نفسها)[٢] .

وإذا عانى الموالي ومثلهم السود من عقدة النقص التي دفعتهم إلى إحساس دائم بالدونية ، فإن هذا الشعور يتضاعف مراراً عند ذوي العاهات الدائمة وخاصة عاهة العمى ، فهذه الإعاقة تفوق كل الإعاقات في قسوتها (وإذا كان الإنسان قادراً على أن يعيش أعمى فذلك يتطلب شجاعة فائقة . ولكن بلوغه التكيف الطبيعي يحتاج إلى أكثر من ذلك)[٣] .

فالشاعر الكفيف يعيش سجيناً داخل نفسه ، يعاني من عماه أشد المعاناة ، ويتضاءل أمله في الخلاص منه ، وقد لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إنه لا يتقدم على العمى في الفقدان إلا الموت .

وقد تكون مأساة الأعمى أخف وطأة عليه لو وجد من يحسن التعامل معه في مجتمعه .

---

(1) الأغاني ٣٣٥/١٧

(2) الشعراء السود ٢٨٢ .

(3) شعر المكفوفين في العصر العباسي : د. عدنان عبيد العلي ص : ٣ .

وغربته تشتد بسبب ما يلقاه من هذا المجتمع إذ أن تعامل هذا المجتمع مع الكفيف يصطدمه برثائه أو بقسوته وسخريته واستخفافه .

فالرثاء الذي يوجهه المجتمع له يحول بينه وبين التكيف ، ويؤزم قضيته ويعمل على عزله عن هذا المجتمع ، لأن الرثاء يشعره بدونيته ، وتعالي من حوله عليه .

وأشد من الرثاء وقعاً عليه ما يلقاه من استخفاف مجتمعه به ، خاصة في مجتمع كالمجتمع العباسي الذي اشتد فيه تراشق القوم فيما بينهم ، وأصبح ذوو العاهات محلاً لتندر المثقفين والعامة على السواء ، فهذه البيئة (كان يعد فيها العمى نقصاً شديداً بالرجل ، لست أعني أنه يعد نقصاً جسمانياً فحسب ، بل كان يعد نقصاً خلقياً أيضاً)[1] فكان ذلك سبباً لنفورهم من ذوي العاهات وازدرائهم لهم ، لأن مثل (هذه البيئة تحتقر ذا العاهة وتذمه وتكرهه ، ثم يدفعها هذا إلى أن يؤذيه رعاعها وينالوا منه بالسب بل بالإيذاء الجسمي في كثير من الأحيان لأنها لم تصل بعد في صحة التفكير إلى المدى الذي يريها أن ذا العاهة لا ذنب له في عاهته ، ولم تبلغ بعد في التمييز بين الحكم الجمالي والحكم الخلقي إلى الحد الذي يهديها إلى أن ذا العاهة الجسمية لا يكون بالضرورة وغداً من شرار الناس)[2] .

وإحساس الكفيف بنقصه متشعب ، فهو يحس بنظرة المجتمع الدونية لـه ، وعجزه ، ونقص معرفته عن البيئة ، لأن جزءاً كبيراً من معرفة الإنسان بالعالم الخارجي يأتي عن طريق الرؤية ، ويتضخم إحساسه بالنقص عندما يعامله من حوله معاملة المشفق عليه ، أو يسمع منهم قريباً من هذا . وهو لا يرى ذلك أكثر من سخرية منه .

---

(1) شخصية بشار ص ٢٤ .
(2) المصدر السابق ص ٢٤ـ ٢٥ .

ولأن من نتحدث عنهم من المكفوفين هم من الشعراء ذوي العقليات الكبيرة ، ومن الطبقة المثقفة ، لذا تضاعف إحساسهم بمأساتهم ، فكان رد فعلهم عنيفاً ، أخذ شكلاً عدائيا من المبصرين في مرات كثيرة .

وقد سعى هؤلاء الشعراء لإثبات تفوقهم أو على الأقل وجودهم بين المبصرين . فكان نبوغهم الشعري سلاحاً فتاكاً يستخدمونه للدفاع أو للهجوم تجاه هذا المجتمع الذي ضاق بهم فضاقوا به ، لأن كل ما فيه يذكرهم بعاهتهم ، ويضغط على وتر مأساتهم . وغدا شعرهم نزفاً مستمراً لتلك المشاعر الجياشة المضطهدة .

ومن خلال الشعر كانوا يبصرون ويحيون . ولأن النبوغ . في أي مجال . (مدفوع بالشعور بـ " الدونية " وما يولده هذا من صراع لا سبيل إلى القضاء عليه إلا بالتعويض ، بوصفه محاولة غير واعية للارتفاع إلى المستوى ، الذي وضعه المرء لنفسه ، أو الذي فرض عليه من علاقته بالآخرين)[1] لهذا فقد عوضهم إبداعهم الفني بعض ما حرموا منه في واقعهم .

ونجد أثر إحساسهم بدونيتهم ظاهراً في أشعارهم ، ومن هنا سعوا إلى التعويض ، وجاء ذلك ساطعاً في نزفهم الشعري .فقد علا صراخهم ، مدافعين مرة ، ومعترضين مرة ، ومحتجين مراراً . حاولوا إنكار عاهتهم ما استطاعوا ، ولجأوا إلى التعويض عبر حواسهم الأخرى . فاضت أشعارهم بألوان من أساليب التعويض ، وفي كل مرة يحاولون فيها مداراة نقصهم ، يظهر إحساسهم العميق بهذه العقدة التي لا تغيب عنهم لحظة .

---

[1] ـ شعر المكفوفين ص ٤ .

وعلى رأس شعراء العصر العباسي المكفوفين يأتي بشار بن برد الذي نراه في (أخباره التي يرويها القدماء دائم السخط ، دائب الهياج ، لا يفتأ يتذكر عماه ، يذكره به كل حدث من أحداث معيشته ،ويذكره به الناس لسبب ولغير سبب ، عن قصد أو عن غير قصد)[1] .

وإذا عرفنا نظرة المجتمع العباسي الدونية للعميان ، لم نستغرب أن يحتشد هؤلاء الشعراء كل ذلك الاحتشاد الدفاعي التعويضي الذي امتلأت به أشعارهم .

(والتعويض سلوك مشترك بين أصحاب العاهات ، بسبب شعورهم بالنقص الناجم عن العاهة ، وقد تأتي محاولة التعويض بصورة إرادية واعية ، كما أنها توجه الحياة النفسية والسلوكية للفرد بصورة غير واعية . وينبغي لمحاولة التعويض أن تكون إيجابية ، ونافعة . يحاول فيها الفرد المعوق استغلال إمكاناته الأخرى إلى أقصى طاقة ممكنة ، ولكنها قد تكون سلبية تدفع الفرد إلى مجالات من السلوك تضر بعلاقاته الحياتية والاجتماعية)[2] .

ومن هنا فقد لجأ الشعراء العباسيون المكفوفون إلى محاولة تعويض خسارتهم للبصر عن طريق بعث الطاقات المدخرة في الحواس الأخرى .

وكان السمع أهم هذه الحواس عند المكفوف لأنه يعتمد عليه في كل صلاته الاجتماعية ، ويستقبل عن طريقه معظم معلوماته ، وهو مصدر غذائه العاطفي ، ومن خلاله تزداد علاقاته الاجتماعية قوة أو تضعف ، إذ أنه يعتمد في تقرير كثير من صلاته عن طريق هذه الحاسة .

---

(1) شخصية بشار ص ٢٥ .
(2) شعر المكفوفين ص ٢٩ .

ولهذا فقد يصاب بالحسرة الشديدة عندما تخونه ثقته في هذه الحاسة يقول الخريمي[1]:

اسمع ما لا أرى فأكره أن　　　أخطئ والسمع غير مأمون

وعندما يرتد إلى نفسه مرة أخرى يثق بقدرة السمع على تعويض البصر ، أو يوهم نفسه بذلك مكابرة ، يقول الخريمي[2]:

قالت أتهزأ بي غداة لقيتها　　　يا للرجال لصبوة العميان

فأجبتها نفسي فداؤك إنما　　　أذني وعيني في الهوى سيان

ويشترك معه في هذا التوجه بشار بن برد إذ يقول[3] :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة　　　والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم　　　الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وفي هذه الأبيات التي مرت للخريمي وبشار نجد مدافعة شديدة لعلة نقصهم ، بل نجد إنكاراً لهذه العاهة ممتزجاً باحتجاج قوي بمضاهاة السمع للبصر . (وإذا كانت ضروب التعويض بـ " السماع " عند المكفوفين تكاد تجمعهم كلهم إلا أنها في الغزل ـ عندهم ـ أكثر ظهوراً ، وأوضح استخداماً ، وذلك لأهمية هذا المضمون الحياتي عند الإنسان ـ بعامة ـ والكفيف ـ بخاصة ـ وللعلاقة الجدلية والعرفية الاجتماعية بين العشق والبصر . فربما تكون هذه القضية الشغل الشاغل في حياة الكفيف . ولا غرابة أن يرى الكفيف أن فقد البصر يساوي

---

(1) الشعر والشعراء ص ٥٨٠

(2) شعر المكفوفين ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(3) الديوان ص ٦١٢ ـ ٦١٣ .

الخصاء)[١]. لهذا اعتمد على السمع في علاقته الأنثوية اعتماداً يضاهي اعتماد المبصر على عينه ، فغدا حديث المرأة مصدر جمالها الأول ، وسر تفوقها عنده ، ورمز خلودها في ذهنه ، فشبهه بما يروق لعيون المبصرين ، يقول بشار[٢]:

وكـأن رجـع حديـثها قطع الرياض كسـين زهـرا

وكأن تحت لســـانها هاروت ينفث فيه سحـرا

ويلح على هذا المعنى[٣]:

ود عجاء المحاجر من معد كأن حديثها ثمر الجنان

وحديث المرأة كل شئ عند ربيعة الرقي الذي عشق بسمعه[٤]:

أحب حديثها وتحب قربي وما إن نلتقي إلا لما ما

ويخضع المؤمل بن أميل لحديث صاحبته خضوع العاشق لجمال معشوقته[٥]:

أبهـار قـد هـيجت لي أوجاعـا وتـركتني عـبداً لكـم مطـواعا

لحديثك الحسن الذي لو كلمـت وحش الفلاة به لجئن سراعـا

ومثلما اهتم الشعراء المكفوفون في العصر العباسي بالسمع ، استعانوا بحاسة الشم أيضاً فكانت رائحة المرأة وعطرها من أسباب جاذبيتها عندهم ، يقول بشار[٦]:

يا رحمة الله حلي في منازلنا حسبي برائحة الفردوس من فيك

(1) شعر المكفوفين ص ٣٨ - ٣٩ .
(2) الديوان ص ٥٢٧ - ٥٢٨ .
(3) الديوان ص ٦٠٩ .
(4) طبقات ابن المعتز ص ١٦٤ .
(5) معجم الشعراء ص ٣٨٥ .
(6) الديوان ص ٥٧٠

وفي موضع آخر يقول [١]:

وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهباً وعطرا

وقد أكثر في طرق هذا الباب مثلما أكثر في الأول مما لا يتسع المجال لذكره .واستخدموا في تعويضهم الحواس الأخرى على تفاوت بينهم وقد سلك الشعراء العميان في العصر العباسي حيلاً غير شعورية للهرب من نقصهم الذي ملأ دنياهم تعاسة وإحساساً غير محدود بالدونية . وكان السلوك الإنكاري من أهم خطوطهم الدفاعية في مواجهة مجتمعهم ، إذ تقمصوا شخصية المبصرين ، وأوهموا أنفسهم بذلك وفي الإنكار يجعل الكفيف من شخصه (أو يحاول أن يجعل منه " مبصراً " وهذا يتطلب جهداً عقلياً ، ونفسياً كبيرين لتقمص شخصية المبصر ، لما يحاوله من قسر في عملية المحاكاة والتقليد . إذ يتخذ هذا التحدي . عنده . أبعاداً قد تصل إلى حد التندر بالعاهة ، والاعتداد بها ، فيفخر بالبصيرة التي ينمي من أجلها حواسه أو يرتقي بها)[٢].

فالشاعر الأعمى يرى أن الحب في القلب وبه يبصر محبوبه ولا قيمة لغيره . وحينئذ يتساوى مع المبصرين في حبه . وهو يقتسر في مقدماته الجدلية بعض الحقائق ويلوي في بعض الأحيان أعناقها ، ويعمي حقائق أخرى ليصل إلى إقناع من حوله من المبصرين .

ولأن القلب موضع الحب ، فقد استغل هؤلاء الشعراء هذه النقطة ، وداروا حولها ليثبتوا أن القلب يرى ويعشق ، وهنا لا فرق بين أعمى وبصير .

---

(1) الديوان ص ٥٢٧

(2) شعر المكفوفين ص ٥٧

بل ذهب بشار بن برد إلى أبعد من ذلك فزعم أن القلب يرى ما لا يرى البصر[1]:

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها ... قلبي فأضحى به من حبها أثر

أني ولم ترها تصبو ! فقلت لهم ... إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

وإذا أنكر القوم حبه وهو أعمى ، وسموا ذلك هذياناً وصبوة، فقد جهد وهو يحاول (أن يقنعهم بأهمية القلب في الإحساس والرؤية ، وبالتالي في الحب والعشق)[2] .

وهويتجاهل قيمة بصره المفقود ، ويرى أن العشق بالقلب ولا فرق بين مبصر وأعمى ، فإحساسهما بالحب واحد ما دام القلب هو واسطة الحب[3]:

يا قلب مالي أراك لا تقر ... إياك أعني وعندك الخبر

أضعت بين الألى مضوا حرقاً ... أم ضاع ما استودعوك إذ بكروا

فقال بعض الحديث يشغفني ... والقلب راءٍ ما لا يرى البصر

قالوا بسلمى تهذي ولم ترها ... يا بعد ما غاولت بك الفكر

وهو في إحلاله القلب مكان البصر ، يتقمص شخصية المبصرين ، ويحس إحساسهم وينفي بشدة نقصه ، لأن القلب هو أساس كل شيء ، والعشق (ليس مقصوراً على المبصرين فقط بل هو عام مشترك لدى كل إنسان)[4] وبشار يملك أن يحب كالمبصرين[5]:

يزهدني في حب عبدة معشر ... قلوبهم فيها مخالفة قلبي

(1) ـ الديوان ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧

(2) الصورة في شعر بشار ص ١٧١ .

(3) الصور في شعر بشار ص ١٧١

(4) المرجع السابق ص ١٧٢ .

(5) الديوان ص ١٨٦ .

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب

وما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

وقد يصل الأمر بالشاعر المكفوف إلى تجاهل عاهته ، وكأنها غير موجودة ، ويتخيل نفسه مبصراً ، كما يقول بشار[١] :

ألا يا نور عيني الذي كنت به أنظر

إذا ما غبت لم أغف ولم أسمع ولم أبصر

وقد يسرح به خياله أو وهمه إلى أبعد من ذلك ، فيصل به الإنكار (حداً لا يخلو من التندر من الآخرين بوجود عاهة لديه)[٢] . كما صنع بشار في قوله[٣]:

وما ظفرت عيني غداة لقيتها بشئ سوى أطرافها والمحاجر

وحوراء من حور الجنان غريرة يرى وجهه في وجهها كل ناظر

ومهما حاول الشعراء العميان إخفاء شعورهم الحاد بالدونية ، ومهما حاولوا تغطية أثر عاهتهم ، أو تعويضها بطرق مختلفة ، فإن إحساسهم الطاغي بدونيتهم يأبى إلا أن يظهر واضحاً ، وعندئذ يتصدون للموقف بقوة ، مخترعين الأعذار والتبريرات ليصلوا في نهاية المطاف إلى مساواتهم بالمبصرين ، يقول بشار[٤]:

عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم معقلا

وغاض ضياء العين للقلب فاغتدى بقلب إذا ما ضيع الناس حصلا

---

(1) المصدر السابق ٥٢١ .
(2) شعر المكفوفين ص ٦٠ .
(3) الديوان ص٥٤٠ .
(4) الديوان ص ٥٧٧ ـ ٥٧٨ .

وشعر كنور الأرض لاءمت بينـــه   بقول إذا ما أحزن الشعر أسهـــلا

فبشار مع اعترافه بمحنته ، فإنها (لا تستطيع أن تحرمه من إثبات وجوده وتأكيد ذاته وتحقيق الظفر والتفوق في مجالات أخرى قد لا يستطيعها المبصرون أنفسهم)[١] .

ففي مثل هذه الأبيات التي يدافع فيها بشار عن عاهته ، يحاول تعزية نفسه أولاً ثم يبوح بحسرة كامنة مشبعة بصنوف الألم والحرمان ، وقوله (إذا ما ضيع الناس) حنق على وضعه المؤلم وبكاء خفي على مأساته ، وتحسر وحسد لأولئك المبصرين الأغبياء الذين يرى كثيراً منهم غير جدير بهذه النعمة[٢] .

وعندما يتضاعف إحساسه بدونيته يلجأ إلى تعزية نفسه بأن التفوق في معرفة المروءة والتقى ، ولا يضير فَقْد غيرها[٣]:

وعـيرني الأعــداء والعيب فيهم   ولـيس بعـار أن يقـال ضـرير

إذا أبصـر المـرء المـروءة والتقـى   فـإن عمـى العينين لـيس يضـير

رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمـة   وإنـي إلى تلك الثـلاث فقـير

وينكر أبو العيناء عاهته إنكاراً ممزوجاً بفخر بقدراته الأخرى[٤]:

إن يأخـذ الله مـن عـيني نـورهما   ففـي لسـاني وسمعي منهما نـور

قلب ذكي وعقل غير ذي خـطل   وفي فمي صارم كالسيف مأثور

---

(1) موقف الشعر من الفن والحياة ص ١١٢ .
(2) تنظر : شخصية بشار ص ٢٩ .
(3) الديوان ص ٥٢٦ .
(4) ـ معجم الأدباء ٢٦١٢/٦ .

وسبق أن أشرنا في الاغتراب الاجتماعي إلى أن العميان عجزوا عن التصالح مع مجتمعهم فاضطروا إلى مهاجمته والسخرية منه دفاعاً عن أنفسهم وهكذا عاشوا غربتهم الذاتية في قسوتها وحرمانها ، وجرتهم هذه إلى غربة أشد وأوجع إذ عاشوا غربة اجتماعية موغلة في جفاوتها ونفورها .

وكثيراً ما تنتاب حياتهم لحظات انكسار يضطرون فيها إلى التنازل عن كبريائهم ، ويخمد معها صوت الاعتداد بالنفس ، وتختفي حينئذ مكابرتهم فيعلنون حالة ضعف تتهاوى أمامها كل أحلامهم بمساواة المبصرين ، وينهارون أمام عجزهم ، فيأتي رثاؤهم لأنفسهم حاراً مؤلما ، فبشار بن برد يرثي وضعه في الصلاة ، وعجزه عن ملاحقة الإمام ، وأداء الصلاة مع الجماعة[١]:

وإنـني في الصـلاة أحضـرها	ضحكة أهل الصلاة إن شهدوا
أقعـد في سـجدة إذا ركعـوا	وأرفـع الـرأس إن هـم سـجدوا
أسـجد والقـوم راكعـون معـاً	وأسـرع الـوثب إن هـم قعـدوا
ولسـت أدري إذا إمامهم	سلم كـم كان ذلك العـدد

وينهار أبو علي البصير ، ويسكب دموعه ، ويصرخ في ألم مرير ، ويأس لا حدود لـه، ويفقده فقد عينيه الصبر ، فيعلن غربته وحداده[٢]:

عـزاءك أيهـا العـين السـكوب	ودمعـك إنهـا نـوب تـنوب
وكـنت كـريمتي وسـراج وجهـي	وكانـت لي بـك الدنـيا تطـيب

---

[1] الديوان ص ٤٤٠

[2] شعراء عباسيون : د. يونس أحمد السامرائي : ٢/٣٠٠ .

فـإن أك قـد ثكلـتك في حياتـي ... وفـارقني بـك الإلـف الحبـيب

فكـــل قـــرينة لا بـــد يـــوماً ... سيشـعب إلفهـا عـنها شـعوب

على الدنـيا السـلام فمـا لشيخ ... ضـرير العـين في الدنـيا نصـيب

يمـوت المـرء وهــو يعـد حـيّاً ... ويخلـف ظنـه الأمـل الكـذوب

يمنـيني الطبـيب شـفاء عـيني ... ومـا غـير الإلـه لهـا طبـيب

إذا ما مات بعضك فابك بعضـاً ... فإن البعض مـــن بعـض قريب

وأبو يعقوب الخريمي كان مبصراً ثم عمي في المرحلة الأخيرة من عمره (والخريمي شاعر من قمة رأسه إلى أخمص قدمه حسب القول السائر ، والشاعر الذي من هذا القبيل يرصد الدنيا ببصره ويراها ببصيرته ، فإذا ما فقد بصره كان ألمه أشد من ألم الآخرين . وبات أساه أعمق وأمر من أسى غيره)[1] . وقد بدأ متماسكاً في أول الأمر ، وكان في شعره الذي تحدث فيه عن فقد بصره يميل إلى التصبر ، ولكن بعد مضي الأيام أحس بثقل الكارثة فتحسر على عينيه في مثل قوله الذي جسد غربته[2]:

كفـــى حـــزناً أن لا أزور أحـــبتي ... مـن القـرب إلا بالـتكلف والجهـد

وإنـي إذا حيـيت ناجـيت قائـدي ... لـــيعدلني قـــبل الإجابـــة بالـــرد

إذا مـا أفاضـوا بالحديث تقاصـرت ... بي النفس حتى ما أحير وما أبدي

كأنـي غـريب بيـنهم لسـت مـنهم ... وإن لم يحولـوا عـن وفـاء ولا عهـد

---

(1) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص: ٥٣١ .
(2) الحيوان ١٥١/٧ ـ ١٥٢ .

أقاسي خطوباً لا يقـــوم بثقلها من الناس إلا كل ذي مـــرة جـلد

(ولكن الحالة لا تقف بالرجل المتوجع لفقد بصره عن هذا الحد ، إنه ينتقل إلى مرحلة أكبر ألماً وأبعد حسرة ، إنها مرحلة البكاء بعد أن تغير أمامه كل شيء وأصبح فريسة للخوف ، وضحية لتوقع الخطأ ، فيعبر عن ذلك تعبيراً يوجع كل نفس ويململ كل وجدان)[١] إذ يقول [٢]:

أصـغي إلى قائـدي ليخبرنـي إذا التقيـــنا عمـــن يحيـــيني

أريـد أن أعـدل السـلام وأن أفصل بـين الشـريف والـدون

أسمــع مــا لا أرى وأكــره أن أخطـئ والسـمع غـير مأمـون

لله عـيني الـتي فجعـت بهـا لـو أن دهـراً بهـا يواتـيني

لو كنت خيرت ما أخذت بها تعمــير نــوح وملــك قــارون

حــق أخــلائي أن يعودونـي وأن يعــزوا عــني ويبكونـــي

وإذا تجاوزنا عاهة العمى ، وإحساس العميان بالدونية والذي دفعهم للتعويض بألوان مختلفة ، وتجاوزهم شيئاً ما لبعض معوقات هذه العاهة ، فإننا نجد شعراء من ذوي العاهات الأخرى صاحبهم هذا الإحساس الدوني ، وأرق مضاجعهم وإن لم تصل هذه العاهات إلى مستوى فقد البصر ، فإنها وقفت عائقاً لهؤلاء المصابين وأشعرتهم بشيء غير قليل من النقص ، فأبو عطاء السندي يشكو لثغته ولكنته ولونه [٣]:

أعـوزتني الـرواة يـا ابـن سـليم وأبى أن يقيم شعري لساني

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص: ٥٣٢ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٥٨٠ .
(٣) الأغاني ١٧ : ٣٢٨

وغلى بالذي أجمجم صدري   وجفاني بعجمتي سلطاني

وازدرتني العيون إذ كان لوني   حالكا مجتوى من الألوان

فضربت الأمور ظهراً لبطن   كيف أحتال حيلة للساني

وتمنيت أنني كنت بالشعر   فصيحاً وبان بعض بناني

أما ابن الرومي فقد أسرع الشيب إلى رأسه ، ورأى صلعته عاهة مزعجة اضطرته إلى محاولة تغطية عيبها بلبس العمامة[1]:

تعممت إحصانا لرأسي برهة   من القر طوراً والحرور إذا سفع

فلما دهى طول التعمم لمتي   فأزرى بها بعد الجثالة والفرع

عزمت على لبس العمامة حيلة   لتستر ما جرت علي من الصلع

فيالك من جان علي جناية   جعلت إليه من جنايته الفزع

وإحساسه الشديد بأدنى عيوبه يجعله متوتراً مستفزاً ، فكان يثقل عليه أن يسأله أحد عن سر عمامته[2]:

يا أيها السائلي لأخبره   عني لم لا أزال معتجرا

أستر شيئاً لو كان يمكنني   تعريفه السائلين ما سترا

وغربلت مشيته فساءه ذلك وأزعجه[3] :

إن لي مشية أغربل فيها   آمناً أن أساقط الإسقاطا

---

(1) الديوان ٤/١٠٥ .
(2) المصدر السابق ٢/٢٣٠-٢٣١
(3) ـ المصدر السابق ٤/٨١ .

وهذه المشية المتهافتة تكثر فيمن بهم خلل في العصب .

وكان خفيف اللحية ، فساءه ذلك ورآها نقصاً في رجولته ، وحاول أن يثبت أمام الآخرين عكس ما يشعر به ، يقول[1]:

ولم أزل سبط الأخلاق واسعها   وإن غدوت امرأ في لحيتي كثث

(وكأنما جعل من ذلك النقص فخراً ، لأنه نقص لا يدله في استدراكه فكان يسخر من اللحى الطوال ويسميها أذنابا ومخالي ومذبات ويشك في كل غزير اللحية بل يجعل غزارتها دليلاً قاطعاً على نزارة أدبه ... ومغالطته في هذا بادية من دخيلة إحساسه بهيبة اللحية وأنها علامة التذكير)[2] كما أشار إلى ذلك في رائيته. ولأنه لم يكن متماسكاً أمام الحياة فقد زاده ضعف بصره وفقد شبابه وهنا على وهن وأحس أنه مجموعة من النقائص .

ولم تكن عاهة ابن الرومي من العاهات المعوقة التي تشعر صاحبها بنقص شديد ، لكن هذه الشخصية كانت من الضعف بمكان لا يحتمل معه أدنى صدمات الحياة وإذا رأينا تماسك العميان رغم مصابهم ، ومحاولتهم إظهار التصبر ، تعجبنا من وضع ابن الرومي الذي ملأ الدنيا صراخاً وعويلاً ، وكان كثير من شعره رثاء لنفسه وندباً لحظه تصريحاً وتلميحاً .

ولكن هل حاول ابن الرومي تعويض هذا النقص ؟

يقول ادلر واضع أسس علم النفس الفردي عن التعويض (إن شعور الإنسان بأنه دون غيره من أعظم الدوافع إلى العمل وبذل الجهد ، وإن الغريزة المتسلطة هي غريزة السيطرة والتطلع إلى العلو. وعندما يعجز الشخص عن إثبات ذاته ، واكتساب النفوذ الإجتماعي الذي يصبو إليه ،

---

(1) الديوان ٤٧١/١ .
(2) ابن الرومي حياته من شعره : عباس محمود العقاد ص ٩٧ .

نظراً لعيوبه الجسمانية خاصة كقصر القامة ، أو قبح الهيئة أو أية عاهة من احديداب أو شلل أو ضعف في النظر ، أو عي في اللسان ... فإنه يلجأ إلى سبل مختلفة من التعويض)[1] .

وطرق التعويض قد تؤدي به (أحياناً إلى التفوق والقيام بأعمال جليلة ، وأحياناً أخرى إلى أن يصطنع في سلوكه أسلوباً شاذاً كالقسوة والاستبداد في ضعاف البنية ، أو المكر في قصار القامة مثلاً)[2] .

وإذا فشل في حياته الواقعية فإنه يلجأ أيضاً إلى تعويضها عن طريق أحلام اليقظة ويستسلم لها قاطعاً صلته بالعالم الخارجي ، منطوياً على نفسه .

وشعور ابن الرومي (بالدونية ، على اضطراب أعصابه وهـزاله نتيجة المصائب التي حلت به ،لم يمكنه من العمل وبذل الجهد ، كما لم ينم فيه غريزة السيطرة والتطلع إلى العلو كما يقول أدلر ... عجز ابن الرومي عن إثبات ذاته واكتساب النفود الاجتماعي وكان سبب ذلك آفات جسدية اعترته)[3] فكان الشعر متنفسه ، والسبيل الأول لتعويض نقصه ، ولكنه لم يسد كل فراغه ، إذ أن إحساسه بنقائصه لا يزال ينهشه بأنيابه الحادة ، فانزوى ، وهرب إلى أحلام اليقظة فاراً من واقعه المرير ، وانطوى على نفسه ، فإذا خرج أخرج أنيابه ليقتات من لحوم أعدائه البشر .

كره الناس لأنه يرى أن أعينهم لا تقع إلا على عيوبه ، فحقد عليهم وتراكمت الثارات في نفسه ، وزادته مصائبه في موت ولده وأخيه وزوجته ، وفي تهالك صحته ، واحتراق بيته ، غضباً

---

(1) - ابن الرومي : خليل شرف الدين : ص ٦٥ - ٦٦ .
(2) - المرجع السابق ص: ٦٦ .
(3) - المرجع السابق ص ٦٧ .

علىغضب . لقد (جعلته هذه الثارات وتلك المصائب يتعامى عن فضائل الناس وحسناتهم ، ويمعن بالتحديق في نقائصهم ومساوئهم ، يتأملها ، يعدها ويستعيدها في كل جهة ، مشوهاً ماسخاً ، ليشبع ما في نفسه من حقد وزراية ، لقد كان كلفاً بالقبح ، يفتش عنه ليفرح به ، ذلك أن القبح في الناس يقنعه بتفوقه عليهم . أو على الأقل بأنه يشبههم في قبحهم)[1] .

هذه الثورة العارمة سببها أن ابن الرومي (شك بنفسه ، وتولاه شعور حاد مبرم بالنقص والاختلاف والغرابة)[2] .

وكلما حاول أن ينسى عيوبه ، ذكرته سخرية الناس واستهزاؤهم هذه العيوب ، فانطلق مفتشاً عن عيوبهم ، متفحصاً في مواطن قبحهم ، وقابل هزءهم بهزء أشد ، وسخريتهم بسخرية أوجع وأمر .

وهاهو مع عمرو يجسد نقائصه فيه ، يرى وجهه فيتذكر الكلب ويتذكر خصاله ، فيرى أنها دون فضائل الكلب الوفي المحامي المدافع [3]:

وجهك ، يا عمرو ، فيه طول	وفي وجوه الكلاب طول
مقابح الكلب فيك طراً	يزول عنها ، ولا تزول
وفيه أشياء صالحات	حماكها الله والرسول
والكلب واف ، وفيك غدر	ففيك عن غدره سفول
وقد يحامي عن المواشي	وما تحامي ولا تصول

(1) - ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره : إيليا سليم الحاوي ص : ٤٣ .
(2) - المرجع السابق ص ٤٤ .
(3) - الديوان ١٨٧/٥ .

وأنت من أهل بيت سوء قصتهم قصة تطول

وجوههم للورى عظات لكن أقفاءهم طبول

إن انتقاص ابن الرومي لإنسانية مهجوه ، مدفوع بتلك الرواسب العدائية ضد بني جنسه ، فقد استخف ابن الرومي بأمر الإنسان وتنقصه حتى رآه دون الكلب ، فالإنسان عند ابن الرومي مثال للنقائص والدناءة والتفاهة . فهو مخلوق مشوه حقير مجرد من الفضائل ، غدار ، مغرور بجسده .

وكلما ضغطت على ابن الرومي نقائصه بالغ في تجريد مهجوه من إنسانيته فوجوه مهجويه مزرية مضحكة ، وأقفاؤهم طبول وفي هذه الصورة من السخرية والهزء ما يوحي بما وصل إليه هذا الشاعر من حقد دفين ، وكأن ثأره لا يشفيه إلا أن يخرج هؤلاء من نطاق الإنسانية ويرمي بهم في قعر الحضيض .

وتبلغ غربة ابن الرومي الذاتية مداها في تعميم نظرته الحاقدة ، ليلقى بعيوبه على غيره ، ويتخيل من حوله حيوانات لا عقول لها ، لا تفهم ولا تعقل[1] :

شعري شعر إذا تأمله الإنسان ذو الفهم والحجي عبده

ولا أنا المفهم البهائم والطير سليمان قاهر المردة

ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقردة

ويمارس ابن الرومي نفثه المسموم ، لأن ذوي العيوب يذكرونه بعاهته ، فيصفعهم بشعره صفعاً ، وكأنه في حربه الشعواء يطعن بيده ولسانه . وهو لا يصف صاحب العيب وصفاً عابراً ، بل

[1] ـ المصدر السابق ٢٤٩/٢ .

يقتله ويئده ، ويكبر عيبه ويخرجه بصورة مضحكة حاقدة ، فهو عندما يصف الأحدب يتبع وصفه بصورة نفسية فكأن هذا الاحديداب قد انكمش وتجمع خشية الخوف من الصفع[1]:

قصرت أخادعه وغار قذاله فكأنـه متربـص أن يصـفعا

وكأنما صفعت قفاه مــرة وأحـــس ثانية لها فتجمعا

وقد أخذ ابن الرومي موقفاً مناوئاً من أصحاب اللحى ، فتندر عليهم ، مثلما فعل مع صاحب اللحية الطويلة في رائيته ، يدفعه إلى هذا لحيته الضئيلة ، وعاهاته الأخرى ، فقد علمنا (كم كان شاعرنا يعاني من عقدة النقص في بنائه الجسدي لا سيما بعدما تقدمت به السن وتراكمت عليه المصائب ... تساقط شعر رأسه ولبس العمامة مضطراً ، وطبيعي ، والحالة هذه ، أنه لا تكون لـــه لحية فياضة كلحية البحتري مثلاً أو لحية صاحبه هذا الذي انتقم منه لنفسه . . إذ كيف يحرم من لحية سوية وهيئة مرضية وقوام معتدل وجسم صحيح ، في حين يتمتع بكل هذا إنسان غيره لا يداني مواطئ قدميه مرتبة وشأنا ؟ وتراه مع هذا موضع احترام الآخرين)[2] .

فشعور ابن الرومي بنقصه واهتزاز ثقته بنفسه جعلاه يرى ضآلة شعر لحيته دليلاً على ضعف رجولته ! ! .

ومن هنا انقض على فريسته ذات اللحية الطويلة (حتى كأنه يمد يده الهازئة الماجنة إلى تلك اللحية المسكينة ، يعبث بها كيفما شاء ، ويقلبها كيف بداله ، حتى أصبح يخيل لصاحبها كما يخيل للناس أيضاً ، أنه يحمل في ذقنه عاراً ومنكراً ولا عجب ، فقد طالما تشبه لابن الرومي

(1) - ابن الرومي : خليل شرف الدين ص: ١٥٥ .
(2) المرجع السابق ص ١٦٠ - ١٦١

وساوس شتى في أمر لحيته . وربما خيل إليه ، ثمة ، أن النقص في لحيته ، هو دليل نقص في تكوينه ، وبالتالي في شخصيته)[١] يقول[٢]:

إن تطل لحية عليك وتعرض	فالمخالي معروفة للحمير
علق الله في عذاريك مخلا	ة ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها إليّ لطارت	في مهب الرياح ، كل مطير
ألقها عنك ، يا طويلة ، أو لا	فاحتسبها شرارة في السعير
أرع فيها الموسى ، فإنك منها	شهد الله في أثام كبير
إيما كوسج يراها ، فيلقى	ربه ، بعدها صحيح الضمير
لحية أهملت ، فسالت وفاضت	فإليها تشير كف المشير
ما رأتها عين امرئ ، ما رآها	قط ، إلا أهل بالتكبير
فاتق الله ذا الجلال وغير	منكراً فيك ، ممكن التغيير
أو فقصر منها ، فحسبك منها	نصف شبر ، علامة التذكير

فقد شبه لحية مهجوه بمخلاة شعير معلقة في عنق حمار ، وهو هنا هجا اللحية وصاحبها ووصفها بأقبح وصف .

ولعل ما يغيظه في هذه اللحية تقدير الناس لصاحبها في مظهره الخارجي ، وغضبه (يتميز ، ظاهراً ، على صاحب اللحية الطويلة ، ولكنه ينصب ضمناً عليه وعلى أولئك الذين يقدرون الإنسان في شكل جسده البهيمي وغرائزه التي لا فضل له فيها ، ويتعامون عن الروح التي تحفزه

---

(1) ابن الرومي : ايليا الحاوي ص : ٥١ .
(2) الديوان ٣/٣٢ - ٣٣ .

نحو الحقيقة والخير)[1] . ويبلغ إحساس ابن الرومي بنقصه غايته كلما تعمق في وصف هذه اللحية التي يحس أن طولها دلالة على نقصه ، ومن هنا فقد نسي صاحبها بل نسي اللحية أيضاً وتمسك بطولها وكثافتها ، وبدلاً من أن يقول (يا صاحب اللحية الطويلة) نادى بقوله (يا طويلة) وكان ذلك هتافاً عصبياً مباشراً لأن طول هذه اللحية وتدليها يتناقض تمام التناقض مع قصر لحيته وقلتها وعيائها ، خاصة وأنه يرى من حوله يحترمون الإنسان لمظهره وشكله ، وينتقصون من ينتقصون من أجل مظهره أيضاً ، وإن كان لا يستحق هذا الاحترام والتقدير . إن هذه الموازين المقلوبة زرعت في نفس ابن الرومي إحساساً شديداً بالدونية دفعه إلى الحقد عليهم ، ولم يرهم إلا بلهاء ، لذا لم يتورع عن نعتهم بأقسى نعوت الغباء .

إن غربته الذاتية مؤلمة مفزعة دفعته إلى الانفصال عن قيم مجتمعه وأناسه . فلجأ إلى السخرية منهم وإلى عدم احترامهم . ظهر في شعره ألفاظ وأوصاف تنبو عن الذوق ، وتدل على أن هذا الشاعر غير آبه برؤية مجتمعه ولا ذوقهم .

جاءت سخريته قاتلة ضاحكة ، ولكنه ضحك يخفي وراءه بكاء مراً ، وابتسامات تمتلئ بالدموع والآهات ، فالشاعر (يتقمص تجاربه الذاتية في المعاني والصور التي ينسبها لسواه .

أو ليست الأكف التي تشير إلى اللحية الغريبة ، هي ذاتها الأكف التي طالما تلذع منها وتأذى بها .. فيما كنت تشير إلى مشيته المغربلة أو إلى لحيته القصيرة . هكذا يتجر الشاعر بتجاربه . يعانيها زمناً في حياته ، ثم تقع في عتمة الضمير والسلو ، حتى تنجلي وتطالعنا من جديد في أحداق المعاني والصور التي تحدس في شعره)[2] .

---

(1) ابن الرومى : إيليا الحاوي ص ٥٣ .
(2) ـ المرجع السابق ص ٦١ .

وإذا كان ابن الرومي قد سخر من الناس وازدراهم وسفه أحلامهم ، فعلى النقيض كان مع ممدوحيه إذ تطامن لهم وتصاغر أمامهم تصاغرا مخلاً بكبريائه وكرامته ، وظهرت دونيته في هذا الجانب في أوضح صورها ، وعالم هذا الشاعر العصابي مملوء بالنقائض والمفارقات .

يقول مادحاً ومستخذياً [١]:

إن العبيد إذا أهدت لسادتها ... فقد تعدت وأربت كل إرباء

إلا الثناء فإني لست أنكره ... أو الدعاء لذي نعمى وآلاء

ومرة أخرى يحط من قدره فيقول في أحد ممدوحيه [٢]:

أنا حر وهبت نفسي عبداً ... لك بالحق فاتخذني عبدا

وعلى العبد أن يرى نصح مولا ... ه سبيلاً فيها هداه ووكدا

وينحدر أيضاً إلى أدنى درجات الذل وهو يقول [٣]:

أرض عني فلست أنكر أني ... لك عبد أذل من كل عبد

وقد أكثر من وصف نفسه بأنه عبد لممدوحه ، على الرغم من أن ممدوحيه متنفذون من الدرجة الثالثة أو الرابعة وليسوا خلفاء أو أمراء ذوي شأن .

وربما نزل بنفسه إلى الحضيض ، فجعل خده نعلاً لممدوحه ، وهذا غاية الإحساس بالدونية والتفاهة [٤]:

وما كنت أخشى أن أسام هضيمة ... وخداي نعلا بدلة من نعالكا

---

(1) ـ الديوان ١/٥٤ .
(2) ـ المصدر السابق ٢/٢٤٦ .
(3) ـ المصدر السابق ٢/٢٦٤ .
(4) ـ الديوان ٥/٢٠ .

لقد عاش ابن الرومي مغترباً عن ذاته ، مغترباً عن مجتمعه ، مغترباً عن الحياة كلها .

ثالثاً :التوجس والقلق :

التوافق مع المجتمع مطلب مهم للحياة التي تبعد عن السوداوية والعقد . وعلماء النفس يعتبرون التكيف شرطاً أساسياً للسلوك السوي .

(وإذا لم يتقبل المرء نفسه والجماعة التي يعيش فيها فإنه يتعرض للمواقف الإحباطية التي تجعله يشعر بالعجز والفشل ، وعندها تسوء درجة التكيف الاجتماعي ، وهذا ما يدفعه إلى الانطواء أو العدوان لجذب أنظار الآخرين إليه . وإذا لم يتكيف المرء مع واقعه ومجتمعه بل مع نفسه فإن حالة من الخوف الغامض الشديد تتملكه ، وتسبب لـه كثيراً من الكدر والضيق والألم . وذلك ما يسمى بالقلق)[1] .

وليس سوء التكيف مع المجتمع أو النفس وحده الباعث على القلق ، فالخوف من المجهول يسبب قلقاً ، ودوران الزمن يسبب قلقاً ، وهكذا الإنسان القلق يعيش في حالة رعب مستمر ، فهو يتوقع الشر دائماً ، ويترقب المصائب كل لحظة ، لأنه غالباً ما يكون متشائماً كثير الشكوك .

ولم يكن كثير من الشعراء العباسيين مطمئني البال ، تغشاهم السكينة . وينعمون برخاء وطمأنينة ، فقد عاشوا في عصر تصارعت فيه الحضارات ، وتصادمت فيه القيم ، وطغى فيه سلطان المال ، وعندما أطل القرن الثالث حمل معه مزيداً من الصدمات وشهد ضعف بعض الخلفاء ، وسيطرة الأتراك بعد الفرس ، وانتشار الرشوة ، وشراء مناصب الدولة ، فزاد الناس

---

(1) ـ ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي : د. عفيف عبد الرحمن ص : ١٦ .

فوضى وشهد العصر اضطراباً شديداً . وسبق أن تحدثنا في عوامل الاغتراب بتوسع وتفصيل عن ذلك .

وهو ما جعل كثيراً من شعراء هذا العصر يعيشون القلق بمستوياته المختلفة ، فبعضهم عاش قلقاً مؤقتاً لظرف طارئ ، أو ظهور شيب لامح أيقظه من غفوته .

وبعضهم قضى حياته كلها قلقاً خائفاً مضطرباً لا يقر له قرار ، ولا يطمئن به مضجع ، حتى كسا السواد حياته ، وراح التشاؤم يرافقه كظله .

وقد تبارى هؤلاء في وصف حالة قلقهم ، وأمعنوا في رسم ملامح هذا الاضطراب والخوف .

وأول ملامح هذا القلق يبدو في صورة خوف متردد بين تصبر مصطنع أو حالة رثاء على ذلك الشباب الناضر الذي أعلن رحيله ظهور شعر أبيض في عارضي هذا الشاعر أو ذاك .

ولم يكن الشيب ظاهرة عابرة تمر على الشاعر دون أن تستوقفه ، بل قد تهزه هزّاً ، يغير معها مجرى حياته ، فهو إنذار بخطر قادم ، وإشارة حمراء يقف عندها من تمادى بجهله وضياعه .

إنه فاصل بين زمنين أحلاهما في نظر الشاعر أولهما ،وإذا كان بعض الشعراء المتفائلين قد رحبوا به فإنه وقع من المجان أو المتشائمين موقعاً يسوء ويقلق . فقد أزعجهم ظهور الشيب ، وخافوا من عاقبة مصيرهم ، فاجتاحهم خوف لا حدود له ، فكان ذلك مصدر قلق يخنق فرحتهم وجرس خطر لا تهدأ حياتهم معه ، إذ حل عليهم ضيفاً ثقيلاً قيد حركتهم ، وأثقل خطاهم .لم لا يقلق الشاعر ؟ وكيف يبعد الخوف الذي يطارده بعد رحيل

شبابه ؟ لقد أحس هذا الشاعر بغربته الشديدة ، وبالقلق الذي يجتاح كيانه ، بعد أن شعر بتلاشي حيويته وقوته ، وأحس ببداية عجزه ، وأنه في طريقه إلى الضعف ، وهو يودع أحلى أيامه ، وأجمل ذكرياته .

وهم عندما يترحمون على شبابهم ، يعيشون لحظة مشيبهم فيتراءى لهم شبح الموت ، فتكون دموعهم ممزوجة بالقلق والخوف ، يقول أبو العتاهية [1]:

لهفي على ورق الشباب ... وغصونه الخضر الرطاب
ذهب الشباب وبان عني ... غير منتظر الإياب
فلأبكين على الشبا ... ب وطيب أيام التصابي
إني لآمل أن أخلد ... والمنية في طلابي

ويتمزق أبو العتاهية ألماً ، وهو يرى المشيب يلوح بعارضيه ، ويدق له ناقوس الخطر فيتمنى المستحيل[2]:

بكيت على الشباب بدمع عيني ... فلم يغن البكاء ولا النحيب
فيا أسفاً أسفت على شباب ... نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكان غصناً ... كما يعرى من الورق القضيب
فياليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

ولا يلبث أن يعلن سر بكائه ونحيبه ، فالشيب مقدمة الموت والهرم [3]:

---

[1] ـ الديوان ص: ٦٨ .
[2] ـ المصدر السابق ص: ٥٠ .
[3] الديوان ص: ٥٤.

وما هو إلا على نقصه فيوماً يشب ، ويوماً يشيب
ألا يعجب المرء من نفسه إذا ما نعاها إليه المشيب

ويقف أبو الشيص الخزاعي أمام قلق المشيب وقفة باكية متألمة ، وكأنما يئس من لذة العيش ورخائه ، فودع حياته إذ ودع الشباب[1]:

فهل لك يا عيش من رجعة بأيامك الموثقات الحسان
فيا عيشنا ، والهوى مورق له غصن أخضر العود دان
لعل الشباب وريعانه يسود ما بيض القادمان
وهيهات يا عيش من رجعة بأغصانك المائلات الدواني
لقد صدع الشيب ما بيننا وبينك صدع الرداء اليماني

وإذا كان الشيب بداية عجز المرء ، فإن الإحساس بهذا العجز يتضاعف مراراً عندما تعلن النساء إعراضها عن ذي الشيب ، والاستهانة بأمره ، وحينئذ يحس بسقوط قيمته بعد عنفوانها، ومن هنا يتأزم القلق ، وتشتد نوازع الغربة ولا يجد شاعر مثل أبي الشيص ما يعوضه عن هذا الفقيد الثمين[2]:

حسر المشيب قناعه عن رأسه فرمينه ، بالصد والإعراض
اثنان لا تصبو النساء إليهما ذو شيبة ومحالف الأنفاض
عوضت عن برد الشباب ملاءة خلقاً وبئس معوضة المعتاض

(1) ـ طبقات ابن المعتز ص: ٧٨.
(2) ـ المصدر السابق ص: ٧٥.

(وكم تحدث الشعراء الكبار ذوو النفوس العظيمة عن الشيب ، بالنحيب الذي تفضحه الكلمات ، فجاءت قصائدهم أحر التعازي ، ورموا كلمات اللعن بوجه بياض الشعر ، فبدأ أسود من الظلمة)[1] في عيونهم لأنهم يرونه ضيفاً غير محتشم يفعل ما لا يفعله السيف باللمم .

وأبو تمام ينزل عليه الشيب ضيفاً ثقيلاً ، يأخذ بخناقه ، ويهزم مقاومته [2]:

غـدا الهـم مخـتطاً بفـودي خطـة　　طريق الردى منها إلى النفس مهيع

هـو الزور يجفى ، والمعاشر يجتوى　　وذو الإلف يقلى ، والجديد يرقع

له منظر في العين أبيض ناصـــع　　ولكنه في القلب أســـود أسفع

إن شعور القلق هذا ينتاب البحتري كلما أحس بسخرية البيض منه ، فيتمنى أن السيف قد أعمل برأسه لا بياض الشعر[3]:

وددت بياض السيف يوم لقينني　　مكان بياض الشيب كان بمفرقي

وديك الجن يستسلم أمام شيبه ويجهش ببكائه ، ولا يستحي من أن يصرح بعجزه [4]:

نهـنهت الخمسـون مـن شـدتي　　وضـيقت خطـوي بعـد اتساع

واتحفـتني خـــوراً ظاهـــراً　　وكنت قبل الشيب عين الشجاع

ويعلن الحسين بن الضحاك حالة قلق وخوف وعجز بعد أن داهمته الثمانين[5]:

أصبحت مـن أسـراء الله محتسـباً　　في الأرض نحو قضاء الله والقدر

---

(1) ـ الاغتراب في حياه وشعر الشريف الرضي : عزيز السيد جاسم ص: ١٤٤ .
(2) ـ الديوان ٣٩٩/١ .
(3) ـ الديوان ٨٢٤/٢.
(4) ـ الديوان ص : ٩٢.
(5) ـ معجم الأدباء ١٠٦٧/٣.

إن الثمانين إذ أوفيت عـــدتها   لم تبق باقيـــة مني ولم تـــذر

(ومن الشعراء من يرتبط تصويرهم للشيب بمعان تشاؤمية ، تدور حول الموت والناعي ، والفناء والهلاك ، والقبر والعظام البالية ، فيفقدون الإحساس بالحياة ، ويفقدون طعمها ، وربما طالت بهم تلك الحالة فيظلون فيها أمداً طويلاً)[1] .

وأكثر الشعراء الذين ألحوا على فكرة ارتباط الشيب بالموت ، وظهرت غربتهم الموغلة في تشاؤمها وقلقها ، هو أبو العتاهية ، الذي كان يرى الشيب ناعي الحياة [2]:

الشيب إحدى الميتتين ، تقدمت   إحداهما ، وتأخرت إحداهما
فكأن مـــن نزلت بـــه أولاهما   يوماً ، وقد نزلت به أخراهـما

ويكرر هذه الفكرة مرارا [3] :

إنما الشيب لابن آدم ناع   قام في عارضيه ثم نعاه

وتغلق الدنيا أبوابها بوجهه بعد مشيبه ، وتتقطع آماله ، ولا يرى أمامه إلا الموت [4] :

فياليت شعري أبعد المشيب   سوى الموت من غائب ينتظر

(والشيب شيبان ، شيب الزمن من " طول العمر " وشيب المعاناة الإنسانية الشديدة ، التي لا يعـرفها إلا الذين تفجـــرت قلـــوبهم بالحب والشهامة والعطف والإكرام ، معاناة الأباة الأحرار)[5] .

---

(1) - زهد المجان ص : ١٤٤ .
(2) - الديوان ص: ٣٦٥.
(3) - المصدر السابق ص: ٤١١ .
(4) - المصدر السابق ص : ١٦٣.
(5) - الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ص: ١٤٤ .

وأقسى الشيب ، شيب المعاناة الذي تفقد معه الحياة طعمها فيصيب (القلب ويحطم أركان السعادة في داخل النفس الإنسانية ، ويتمثل في الاكتئاب والحزن واليأس المطبق الذي لا أمل فيه)[1] .

فدعبل الخزاعي أحد من ضاقت بهم الحياة وضاقوا بها ، يرى - من وجهة نظره على الأقل - أن عصره بظلمه وكبته سبب في مشيبه [2]:

لقد عجبت سلمى وذاك عجيب رأت بي شيباً عجلته خطوب

وما شيبتني كبرة غير أنني بدهر به رأس الفطيم يشيب

وإذا كانت " العدالة " في نظر بعض هؤلاء الشعراء ضالة منشودة ، فالشباب لا يقل عنها فقداً ، ولعل عودة كليهما في نظرهم ضرب من المستحيل . ولا شك أن فشل الإنسان في تحقيق أحلامه على أرض الواقع بعثره وبشتته ، ويشعره بالظلم وعدم تساوي الفرص (وبديهي جداً أن تؤدي هذه العرقلة إلى الشعور بالإخفاق والإحباط ، وأن يساور القلق النفس الإنسانية ، وهي تشهد مصرع رغبات طالما تشوقت إلى تحقيقها) [3] وهم عندما يطرحون أسئلتهم المملؤة بالقلق على شكل أماني صعبة التحقيق ، إنما يجرون خلف سراب يحسبه الظمآن ماءً ، يقول دعبل [4]:

أين الشباب؟ وأية سلكا لا ، أين يطلب ؟ ضل بل هلكا

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

(1) - زهد المجان ص: ١٦٥ .
(2) - المرجع السابق ص: ١٦٣ - ١٦٤ .
(3) - ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي : أحمد الخليل ص: ٢١ .
(4) - الديوان ص: ١٤٣ .

قـد كـان يضـحك في شـبيبته وأتـى المشـيب فقلمـا ضـحكا

يا سلم ما بالشيب منقصـة لا ســـوقة يبقى ولا ملـــكا

فدعبل في تشرده وسرعة انقضاء شبابه تخللت نفسه (فكرة الضياع والتبدد ، حيث كانت الحقوق تضيع ، والفرص تهدر ، والجمالات تتباعد ، فلا يتبقى إلا الحرمان وكبر النفس . وتمر السنوات مسرعة ، كأن الشباب ومضة ، وليس مرحلة كبيرة من العمر)[1] .

وإذا كان الشعراء في مواجهة مرة مع مرور الزمن ودورانه ، ووقفتهم أمام الشيب وقفـة قلق وضجر ، فإننا نجدهم في موقف أصعب ومواجهة مرعبة مع شبح الموت الذي يتخطفهم ، وحالات الفزع التي تنتابهم عند ذكر الموت تقزم هاماتهم . فنجد شعراً لا تشم منه إلا رائحة القلق ، ولا تجد فيه إلا التذلل والخضوع .

ومأساوية الزمن تكمن عندهم في فكرة الموت الذي يتهددهم والذي يرون فيه السبب الأول لاغترابهم الروحي (وليس غريباً على الشعراء أن يتحدثوا عن الموت ، لأنهم بإحساسهم المتدفق الذي خبروا فيه غنى الحياة ، شخصوا الحياة كحقائق ، لكنهم بالعقل والإحساس شخصوا الموت كحقيقة الحقائق)[2] .

ويبقى الموت علماً يلوح بين عيونهم ، ويشعرهم بمآلهم ، وينهض بهم من غفلتهم ويشكل لهم قلقاً ورعباً يلاحقهم حتى في لحظات فرحهم (ويتجلى العجز الإنساني بأدق أشكاله إزاء الموت . ذلك لأن لحظة الموت هي أشد صيغ الزمان عناداً وشراسة . ولأنها اللحظة التي

(1) ـ الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ص : ١٤٧ .
(2) ـ المصدر السابق ص : ٣٤ .

تبدد ما هو تاريخي ومعقول في ما هو كوني ومجهول ، هذا ، علاوة على أن الوعي بالموت ، لا يتم إلا بتحققه في الواقع ، وهو شرط يبث الذعر في نفس الإنسان)[١] .

وأمام هذه القضية الكبرى وقف الشاعر العباسي بين تأمل وخوف ، ولاختلاف نفسيات هؤلاء الشعراء وعزائمهم ، اختلفت مواقفهم .

فمنهم من كانت رؤيته للموت مليئة بالأفكار الإيجابية ، وبعضهم كانت نظرته تشاؤمية مهتزة مضطربة تنبئ عن ضعف وانهيار ، ولكن الجامع بين الموقفين حالة قلق وخوف من ذلك القادم المفاجئ .

وما دام الموت حقيقة حتمية ، وأمراً واقعاً فمن اللؤم أن يتفانى الإنسان في لذاته على حساب قيمه ، وبشار بن برد عندما تقلقه ذكرى الموت ، يطمئنه وفاؤه والتزامه الأخلاقي[٢]:

أنا من قد علمت لا أنقض العهـد ولا تستخفني الأهـواء

وعجيب نكث الكريم ، وللنفـس معاد ، وللحياة انقضاء

وإذا كان الشعراء جسدوا خوفهم من الموت وقلقهم إزاءه ، فإنهم لم يقفوا عند هذه الظاهرة وقفة عابرة بل كانوا ينظرون إلى الموت ويحسون به من أكثر من زاوية ، ويرون شبحه في أكثر من جهة ومن ذلك خراب الديار (والشاعر عندما أراد أن يجسد هذه الحقيقة ، حقيقة الموت الذي يتهدد الحياة فلم يجد إلا الديار ، وهي قرينة وجوده ومحتواه المكاني ، ليجعله رمزاً لهذا الموت الذي لا يفتأ يفنيه ويمحو آثاره ، ولهذا فالشاعر لا يذكر الديار على الإطلاق إلا وهي في

---

(1) - ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي ص : ٢٢ .

(2) - الديوان ص: ٢٧ .

حالة موت وعفاء واندثار ، الديار مقبرة للحياة المندثرة ، للماضي الجميل ، والتجارب السعيدة ، والعلاقات المختلفة ولحظات التحقق ، ولهذا نجد أن الشاعر يبكي هذه الديار ويسفح عليها دموعه ، إنه يبكي الحياة في بكائه إياها ويرثيها)[١] .

وبشار يرثي كل الأشياء الجملية التي في طريقها إلى الزوال [٢]:

ديار الحي بالركح اليماني   خراب والديار إلى خراب
ودهر المرء منقلب عليه   فنوناً ، والنعيم إلى انقلاب
وكل أخ سيذهب عن أخيه   وباقي ما تحب إلى الذهاب

وابن المعتز يواجه حقيقة الموت ، ويعترف بعجزه ، ويرضخ لهذه الحتمية [٣]:

راح فراق، أو غدا   لست بباق أبدا
كم لك من أحبة   ماتوا فصاروا بددا
من سار كل ساعة   أوشك به أن يردا

ويعيش محمد بن يسير في قلق مستمر ، يترقب مصيره المجهول في ذعر وخوف شديدين [٤]:

ويل لمن لم يرحم الله   ومن تكون النار مثواه
واغفلتا في كل يوم مضى   يذكرني الموت وأنساه
من طال في الدنيا به عمره   وعاش فالموت قصاراه
كأنه قد قيل في مجلس   قد كنت آتيه وأغشاه

(1) - الحياة والموت في الشعر الأموي : د. محمد حسن الزير ص : ٣٣٠ .
(2) - الديوان ص : ١٠٩ .
(3) - الديوان ص : ١٥٧ .
(4) - الأغاني ١٤/٤٠ .

محمد صـــــار إلى ربــه		يرحمنـــا الله وإيـــــاه

والشاعر العباسي وهو يعيش صراعه بين الحياة والموت أيقن أن وجوده مهدد بالفناء ، وأنه لا خلود لإنسان في هذه الحياة .

وابن مناذر عندما بكى صديقه الحميم عبدالمجيد الثقفي عزى نفسه وواساها بمن حولها ومن سبقها من الناس لأن الجميع سيموتون ، وأنه لا نجاة من الموت ، محاولاً إعادة شيء من الطمأنينة إليها ، بعد أن أحس بالقلق يمزقها ، ويسلب إرادتها وصمودها [1]:

كل حي لا قى الحمام فمودي		مالحـي مـؤمل مـن خلـود

لاتهـاب المـنون شـيئاً ولا تـر		عـى علـى والـد ولا مولـود

يفعـل الله مـا يشـاء فيمضي		مالفعـل الإلـه مـن مـردود

فكأنا للموت ركب محـــثـ		ون سـراع لمنهل مـــورود

ولقد أطال الشعراء وقفاتهم عند صراع الحياة والموت ، ولن يتسع المجال لإيراد أمثلة لكل هؤلاء ، وإنما سنقف عند نموذج لهم قد أكثر من هذه الوقفات حتى كاد أن يكرس شعره في آخر حياته لهذه الظاهرة وهو أبو العتاهية ، حين تكالبت الظروف عليه ، واضطر إلى أن يترك الحياة الزاهية لمن يستطيعون اقتناص فرصها ، واتجـه إلى الزهد في الحياة منسحباً من ضوضائها . ولن نتعرض لصدق زهده أو عدمه ، فقد حقق الباحثون في هذا الباب وأطالوا ، ولكن ما نريده هو ذلك الموقف الذي اتخذه الشاعر من الحياة فقد غدا الموت شغله الشاغل ، حتى أكثر منه وأفاض في نزعة تشاؤمية قلقة لا ترى في الحياة نوراً ولا في الناس خيراً .

---

[1] ـ طبقات ابن المعتز ص : ١٢٢ ـ ١٢٣ .

وقلق أبي العتاهية من الموت جعله يلغي قيمة الحياة ، ويعطلها ، ولا ينظر إليها إلا بمنظار أسود قاتم ، يقول[١] :

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى تباب

لمن نبني ، ونحن إلى تراب ... نصير ، كما خلقنا من تراب

ألا يا موت لم أر منك بداً ... أتيت ، وما تحيف وما تحابي

كأنك قد هجمت على مشيبي ... كما هجم المشيب على شبابي

(وحديث أبي العتاهية عن الموت والقبر فيه كثير من التشاؤم ، ويبدو ذلك في إكثاره من الاستعانة بألفاظ الخراب والدمار ، والحطام ، والدعوة إلى نبذ الآمال ، وإلى هجر الآماني ، ما دام الكل إلى نهايته المحتومة يسعى) [٢] يقول[٣] :

كأن الموت قد نزلا ... ففرق بيننا عجلا

كفى بالموت موعظة ... ومعتبراً لمن عقلا

وحيلتك التي للمو ... ت ، في أن تحسن العملا

وقد أخذ قلق أبي العتاهية طابعاً تشاؤمياً ، وغدا كالنائحة الثكلى يولول في كل صوب ، ولم يعد يرى للحياة معنى ، وكأنه يريد من الناس من حوله أن يعيشوا في مأتم لا ينقطع حزنه ، ولا يهدأ عويله ، يريد أن لا تجف دموعهم ، وأن لا يعمروا الحياة ، يريد أن يقفوا مكتوفي الأيدي بانتظار لحظة الموت[٤] :

---

(1) - الديوان ص: ٥١ .
(2) - زهد المجان ص : ٢٦٧ .
(3) - الديوان ص : ٣١٨ .
(4) - الديوان ص : ٢٧٠ - ٢٧١ .

الموت بين الخلق مشترك | لا سوقة يبقى ولا ملك
ما ضر أصحاب القليل ، وما | أغنى عن الأملاك ما ملكوا
عجباً تشاغل أهل ذي الد | نيا ، وما فيها لهم درك
طلبوا ، فما نالوا الذي طلبوا | منها ، وفاتهم الذي دركوا
لم يختلف في الموت مسلكهم | لا بل سبيلاً واحداً سلكوا

هذا العويل الذي ملأ به أبو العتاهية الدنيا ، يدل على توجس وقلق ، وخشية من ذلك المصير المجهول .

وأبو العتاهية (يخشى الموت ويفرق لذكره ، وهو ينقل هذا الخوف منه إلى الناس يذكرهم بأهواله وآلامه ليتعزى بخوفهم عن خوفه)[1] .

ينقل لهم صوراً مرعبة عن الموت ، يعظهم بقسوة ، يريد ممن حوله أن يعيشوا في رعب دائم كما هي حاله[2] :

كم رأينا من عزيز | طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل | صائح الدهر الصدوح
سيصير المرء يوماً | جسداً ما فيه روح
بين عيني كل حي | علم الموت يلوح
كلنا في غفلة والمو | ت يغدو ويروح

(1) ـ ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي ص : ١٦٧ .
(2) ـ الديوان ص : ١٠٧ ـ ١٠٨ .

نــح علــى نفســك يــا مســكين إن كـنت تـنوح

لست بالباقي ولـو عمـر ت ما عمر نـــوح

وننتقل من حديث الموت إلى حديث السجن لما بينهما من تشابه ظاهري على الأقل فإذا (كانت واقعة الموت وقفاً نهائياً لإمكانية التحقق الإنساني ، فإن السجن وقف غير نهائي لإمكانية التحقق . ومن هنا فقد يكون السجن أقسى على النفس من واقعة الموت)[1] لأن الإنسان المسجون يعيش وجوداً ناقصاً يشبه الموت ، فهو مسلوب الحرية والإرادة ، يعاني من الكبت والحرمان و (يصبح تحت وطأة مشاعر قاتلة ، تفيض بمعاناة الهموم والآلام ، التي تتسم بالبؤس والإحساس بالوجود المهدد ، وتسلط أفكار الموت نفسه وهواجسه)[2] .

هذه الحياة الهامشية المعذبة ، عبر عنها شعراؤها بحزن وكآبة وانكسار ، فتجربة السجن تختلط أحاسيس الحياة عند شعرائها بالموت ، ففقدان الحرية يقضي على ذاتهم الإنسانية التي تعتبر الحرية أهم مقوماتها . واغتراب الشعراء المسجونين مرير مؤلم، فقد مزقهم القلق والخوف، فهم موجودون مع وقف التنفيذ . ولقد أسهب بعض الشعراء في التعبير عن تجاربهم القاسية في السجن فكان السجن لديهم صورة مكثفة عن البؤس والشقاء والبلوى بأنواعها .

يقول إبراهيم بن إسحاق الموصلي وكان في حبس هارون الرشيد[3]:

ألا طـال ليلـي أراعـي الـنجوم أعـالج في السـاق كـبلاً ثقـيلا

بدار الهـــوان وشـر الديار أسام به الخسـف دهراً طـويلا

(1) ـ الحياة والموت في الشعر الأموي ص :٣٩٠ .
(2) ـ المصدر السابق نفسه .
(3) ـ الأغاني ١٧٦/٥ .

ويؤكد إبراهيم بن المدبر تلك الصورة القاسية للسجن بقوله [١]:

إن طـال ليلـي في الإسـار فطالما أفنـيت دهـراً لـيله متقاصـر

والحـبس يجمعـني وفي أكـنافه مـني على الضـراء ليث خـادر

عجـباً لـه كـيف الـتقت أبـوابه والجـود فـيه والغمـام الباكـر

هلا تقطع أو تصدع أو وهـى فعذرته لكنه بي فاخـر

وعلي بن الجهم حبسه المتوكل ثم أخرج من حبسه وصلب نهاراً كاملاً ثم رد إليه ، وقد بدا متماسكاً أمام هذه الحوادث ولكنه تماسك يخفي وراءه كثيراً من التمزق والقلق[٢]:

لم ينصـبوا بالشـاذياخ صـبيحة الإ ثـنين مغمـوراً ولا مجهـولا

نصـبوا بحمـد الله مـلء عـيونهم شـرفاً ومـلء صـدورهم تبجـيلا

ما ازداد إلا رفعـة بنكـوله وازدادت الأعـداء عنه نكـولا

فإذا كانت تجربة السجن تثير في الشعراء شعوراً قوياً بالموت ، وأن إهدار قيمة هذا المسجون كإنسان يعادل الموت ، فإننا نجد هذا الشعور يبلغ أشده عندما يواجه هذا المصير واقعاً ، فيصل إلى ما يشبه الانهيار النفسي ويعلو نواحه ، وينادي الحياة من كل جهاتها ، وجعفر بن علبة الحارثي أحد المسجونين بجرائم القتل في سجن مكة كان في بداية أمره يشكو عذاب سجنه ومعاناته الشديدة[٣]:

وقـل لأبـي عـون إذا مـا لقيـته ومـن دونـه عـرض الفـلاة يحـول

---

(1)- الاغانى ٢٢ / ١٦٣ .

(2)- الديوان ص : ١٨٥ - ١٨٦ .

(3)- الأغاني ٥٨/١٣ وأدباء السجون ص: ١٤٢ .

تعلم وعد الشك أني يشفني		ثلاثة حراس معاً وكبول

إذا رمت مشياً أو تبوأت مضجعا		يبيت لها فوق الكعاب صليل

ويتناول المشاعر التي تخالجه وهو في السجن ، محاولاً إخفاء معاناته الاغترابية عبثاً [١]:

هواي مع الركب اليماني مصعد		جنيب وجثماني بمكة موثق

عجبت لمسراها وأنى تخلصت		إلىّ وباب السجن دوني موثق

ألمت فحيت ثم قامت فودعت		فلما تولت كادت النفس تزهق

فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم		لشئ ولا أني من الموت أفرق

ولا أن نفسي يزدهيها وعيدكم		ولا أنني بالمشي بالقيد أخرق

ولكن عرتني من هواك صبابة		كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلق

ويصف ضجره من معاناته في سجنه [٢] :

إذا باب دوران ترنم في الدجى		وشد بإغلاق علينا وإقفال

وأظلم ليل قام علج بجلجل		يدور به حتى الصباح بإعمال

وحراس سوء ما ينامون حوله		فكيف لمظلوم بحيلة محتال

ويصبر فيه ذو الشجاعة والنهى		على الذل للمأمور والعلج والوالي

ولكنه عندما يواجه بحقيقة إعدامه ، يرتاع ويستسلم وينهار ، ويعلن سقوط قواه أمام هذا الواقع القاسي[٣]:

---

(1) ـ الأغاني ١٣ / ٥٧ ـ ٥٨ وأدباء السجون ص : ١٤٣ .

(2) الأغاني ٥١/١٣ .

(3) ـ المصدر السابق ص : ١٣/ ٥٤ .

أحقاً عباد الله أن لست ناظراً ... صحاري نجد والرياح الذواريا

ولا زائراً شم العرانين أنتمي ... إلى عامر يحللن رملاً معاليا

إذا ما أتيت الحارثيات فانعني ... لهن وخبرهن أن لا تلاقيا

وقود قلوصي بينهن ، فإنها ... ستبرد أكباداً وتبكي بواكيا ليغني

أوصيكم ، إن مت يوماً ، بعارم ... شيئاً أو يكون مكانيا

(وتمتاز هذه التجربة بالاتساع وتعدد العناصر في موقف متكامل استعرض فيه الشاعر رؤوس الذكريات اللماحة المحمومة ، وودع الوجود بتعاطف ثج مثير للدموع) [1] .

والسجن غربة وعذاب وقلق لا ينقطع ، والمسجون محاصر من كل جهة ، حي في عداد الأموات .

وليل السجناء ، ليل طويل ملئ بالآلام والحسرات ، يعايشون فيه هموماً مضاعفة ، وتوتراً نفسياً شديداً .

ونصيب الأصغر أحد هؤلاء المعذبين الذي عانوا في سجنهم الأمرين . وقد جاءت قصيدته التي ألقاها بين يدي المهدي باكية محتشدة بصور حزينة ومفزعة . يقول[2]:

تأوبني ثقل من الهم موجع ... فأرق عيني والخليون هجع

هموم تتالت لو أطاف يسيرها ... بسلمى لظلت شمها تتصدع

ولكنها نيطت ، فناء بحملها ... جهير المنايا حائن النفس مجزع

---

(1) ـ الأسر والسجن في شعر العرب ص : ٤٦٥ .

(2) ـ الأغاني٧/٢٣ .

وعادت بلاد الله ظلماء حندساً فخلت دجى ظلمائها لا تقشع

ويشتد قلق نصيب عندما يرى الدموع بعيني ابنته ، وهي ترى قيوده ، ويحاول تعزية نفسه ، وتخفيف حدة غربته التي أوهت قواه[١]:

لقد أصبحت حجناء تبكي لوالد بدرة عين قل عنه غناؤها
أحجناء صبراً كل نفس رهينة بموت ومكتوب عليها بلاؤها
أحجناء أسباب المنايا بمرصد فإلا يعاجل غدوها فمساؤها
أحجناء إن أفلت من السجن تلقني حتوف المنايا لا يرد قضاؤها

وقد تكون قسوة السجن وآلامه ، وعذاب الصغار الذين ينتظرون خروج عائلهم وحاميهم ، سبباً في قلق هذا المسجون واضطرابه ، حتى يضطر إلى أن يتملق السلطان ويتضرع له ، فهذا الحسن بن معاوية الطالبي اعتقل بعد خروجه مع محمد النفس الزكية ، وعندما بلغه نعي أخيه يزيد ، آلمه وضع أهله بعدهما ، فاستعطف أبا جعفر المنصور بهذه الأبيات التي تفيض بالغربة والأسى[٢]:

ارحم صغار بني يزيد إنهم يتموا لفقدي لا لفقد يزيد
وارحم كبيراً سنه متهدماً في السجن بين سلاسل وقيود
ولئن أخذت بجرمنا وجزيتنا لنقتلن به بكل صعيد
أوعدت بالرحم القريبة بيننا ما جدكم عن جدنا ببعيد

---

(1) - الأغاني ٢٣/١٠ .
(2) - أدباء السجون ص: ١٥٠.

ولأن السجن قيد لحرية الإنسان وتكبيل لطاقاته وقتل لقدراته ، فلا عجب أن تسوء حال أصحاب الهمم وهم يرفلون في القيود ، ويقبعون خلف القضبان ، ولا غرابة أن تشتد غربتهم ومخاوفهم ، وأن يصل بهم الحال إلى تشاؤم مفرط ، حتى يكادوا أن ينسوا معنى الحياة وقيمة الوجود .

وهذا عبدالله بن معاوية الطالبي أحد الثوار في العصر الأموي ، خرج بالكوفة آخر أيام مروان ابن محمد ثم انتقل إلى خراسان فخافه أبو مسلم وأودعه السجن فترة طويلة ثم قتله .

يقول عبدالله الطالبي مصوراً مأساته في السجن[1] :

إلى الله فيما نابنا نرفع الشكوى	ففي يده دفع المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها	فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا دخل السجان يوماً لحاجة	عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا وجل حديثنا	إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فإن حسنت كانت بطيئاً مجيئها	وإن قبحت لم تنتظر وأتت سعيا
ألا أحد يدعو لأهل محلة	مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا
كأنهم لم يعرفوا غير دارهم	ولم يعرفوا غير الشدائد والبلوى

والقلق لا يقف حكراً على فئة دون فئة لأنه إحساس يشترك فيه كل ذوي المعاناة ، وشعور يمسك بتلابيب كل من أوجعتهم سياط الغربة ، وأرقهم الألم . وقد لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا أن الاغتراب شعور يشترك فيه كل مرهفي الإحساس وذوي المشاعر الإنسانية العالية .

(1) ـ أدباء السجون ص : ١٤١.

وقد يغترب شاعر رقيق لأنه يعاني من قضية قد لا تشكل للآخر ذي المشاعر الغليظة قلقاً ، ولا تحرك له ساكناً .

فقلق محمد بن يسير وشعوره الحاد بمصير ابنته بعد وفاته يشكل له غربة عنيفة ترهق حياته ، وتمزق أوصاله . وقد لا تشكل لبعض الآباء قضية أو على الأقل فهي عندهم قضية مؤطرة لا تجتاحهم كما تجتاح هذا الشاعر المرهف . ولننظر إليه وكبده تتفتت حسرة ، وقلبه يتقطع ألماً على مستقبل ابنته ، ومصيرها الذي يقلقه أشد القلق[١] :

لـولا البنـية لم أجـزع مـن العـدم	ولم أجـب في الليـالي حـندس الظـلم
وزادني رغـبة في العيـش معـرفتي	ذل اليتـيمة يجفـوها ذوو الـرحم
أخشـى فظاظـة عـم أو جفـاء أخ	وكنت أخشى عليها من أذى الكلم
إذا تذكـرت بـنتي حـين تـندبني	جـرت لعـبرة بـنتي عبرتـي بـدم
تهوى بقائي وأهـوى موتها شفقاً	والموت أكـرم نزال على الحـــرم

أما نموذج القلق والتوجس في هذا العصر فهو ابن الرومي الذي أخفق في حياته نتيجة عدم تكيفه مع واقعه ومجتمعه . نشأ مضطرباً خائفاً يحمل معه عقده نقصه ، إذ كان يشعر في داخله أن عيوبه الخلقية سببٌ في ازدراء الناس لـــه . وقد كان شديد الحساسية مما ضاعف مأساته . إضافة إلى ما كان يعانيه من اختلال أعصابه وشذوذ أطواره وحدة مزاجه فقد كان (يستحضر الخوف ويكثر التوجس ويختلق الأوهام)[٢] .

---

(1) ـ طبقات ابن المعتز ص ٢٨١ .ونسبها أبو تمام في حماسته (شرح الأعلم الشنتمري ٦٩٢/٢) لإسحاق بن خلف .

(2) ـ ابن الرومي حياته من شعره : عباس محمود العقاد ص: ١١٠ .

ومن مختلي الأعصاب (من يخاف الفضاء أو يخـاف الماء أو يخاف حـيوانات منزلية لا قوة لها ... فابن الرومي واحد من هؤلاء نحسب أنه كان مستعداً لهذه الهواجس طول حياته في صحته ومرضه ، في شبابه ومشيبه . . ولكنه مع استعداده للهاجس في شبابه ومشيبه قد تمادى به الوسواس في أعوامه الأخيرة حتى أصبح آفة متأصلة غلبت على أقواله وأفعاله جميعاً فليس له عنها محيص)[١] .

وغلب التشاؤم على ابن الرومي حتى رأى الدنيا بمنظار أسود ، وكان كثير الفزع ، شديد التطير ، قضى عمره وجلاً ولم يعرف للراحة طعماً .

وعاش تعيساً شقياً ، إذ كان يسعى بقدميه ـ أحياناً ـ إلى القلق ، فقد كان خائفاً من كل شئ ، ومستاء من كل طيف ، يرعبه ظله ، ويختلق المآسي ليعيشها فإذا وجد اسماً حسناً ، جهد في تصحيفه حتى يخرج منه بما يسوءُه ويقلقه . فهو في لحظات أنسه يبحث عن مواطن الشقاء والحزن ، فقد خرج مرة مع صحبة في رحلة صيد ، وقد حالت متعته إلى ألم ، فمنظر الطيور وهي تسقط في فخ أصحابه ، قد هاج حزنه ، وانقلبت رحلة الصيد في عينيه (مشهداً مأساوياً فاجعاً . . إذ سرعان ما تحولت الفرحة إلى مأتم جنائزي حين هاله تساقط الطيور صرعى بلا ذنب)[٢] يقول[٣] :

هنالك تغدو الطير ترتاد مصرعا ... وحسبانها المكذوب يرتاد مرتعا

تؤوب بها قد امتعتك وغادرت ... من الطير مفجوعاً به ومفجعا

---

(1) ـ المرجع السابق نفسه .

(2) ـ ابن الرومي : خليل شرف الدين ص : ٧٨ .

(3) ـ الديوان ٤/١١٧ ـ ١١٩ .

فظل صحابي ناعمين ببؤسـها وظلت على حوض المنية شرعـا

وقد جر توجسه وخوفه عليه اضطراباً نفسياً ، أقض حياته وأرق مضجعه . وقد صور صراعه في الحياة وحيرته ، في لحظة صادقة مع نفسه ، يقول في إحدى انكساراته المؤرقة ، التي كان يقدم فيها رجلا ويؤخر الأخرى[1]:

ومن يلق ما لاقيت في كل مجتنى من الشوك يزهد في الثمار الأطايب

فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد وإن كنت في الإثراء أرغب راغب

حريصاً جباناً أشتهي ثم أنتهي بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب

تنازعني رغب ورهب كلاهما قوي وأعياني اطلاع المغايب

فقدمت رجلاً رغبة في رغيبة وأخرت أخرى رهبة للمعاطب

أخاف على نفسي وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب

وتشتد سوداوية ابن الرومي به ، فتملأ حياته رعباً ، ويحيط به الخوف من كل جانب ، فهو يتضجر من الصيف ويؤلمه برد الشتاء ، ويشتم البر وما فيه من الآفات ، وما لقيه فيه من التباريح [2]:

فدع عنك ذكر البر إني رأيته لمن خاف هول البحر شر المهاوب

كلا نزليه صيفه وشتاؤه خلاف لما أهواه غير مصاقب

---

(1) ـ الديوان ٢/٢٢٠ وما بعدها .
(2) ـ المصدر السابق نفسه .

لهاث مميت تحت بيضاء سخنة ... وري مفيت تحت أسحم صائب

ويبلغ قلقه وتوجسه الغاية عندما يقف أمام البحر ، وهو لا يخشى أمواجه وأهواله فحسب ، إنما ترعبه ((فكرة الماء)) فالماء يزرع الخوف في هذه النفسية المضطربة[١]:

وأما بلاء البحر عندي فإنه ... طواني على روع مع الروح واقب
ولم لا ولو ألقيت فيه وصخرة ... لوافيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذي سباحة سوى ... الغوص والمضعوف غير مغالب
فأيسر إشفاقي من الماء أنني ... أمر به في الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب ... فكيف بأمنيه على كل راكب
أظل إذا هزته ريح ولألأت ... له الشمس أمواجاً طوال الغوارب
كأني أرى فيهن فرسان بهمة ... يليحون نحوي بالسيوف القواضب

وقد جعله توجسه الدائم يشعر بأن هؤلاء ((الفرسان المتخيلين)) في البيت الأخير يشيرون نحوه بأسلحتهم ، حيث يشعر المرء بأن ابن الرومي يكاد يموت فرقاً ورعباً من هؤلاء الأعداء الوهميين الذي صنعتهم وساوسه المرضية . وقد جعله وهمه وفكرة الاضطهاد التي تلاحقه يعيش فزعاً ضجراً ، تنهشه أنياب القلق فتقتل طمأنينته وتدمر حياته .

ولهذا فهو يصور عذابه في الحياة وتوجسه من مصائبها وغربته الأليمة ، فيقول[٢]:

وجربت حتى ما أرى الدهر مغرباً ... عليّ بشئ لم يقع في تجاربي

---

(1) ـ المصدر السابق نفسه .
(2) ـ الديوان ١ / ٢٢٥ .

أرى المرء مذ يلقى التراب بوجهـــه إلى أن يواري فيه رهن النوائب

ويلح على هذا المعنى أكثر من مرة ، يقول في ذلك[١]:

نبكي على زمن ومن زمن فــبكاؤنا موصــولة مــدده

ونــرى مكارهنا مخلــدة والعمر يذهب فانياً عـــدده

وقد لاحقته فكرة الاضطهاد فزاد وساوسه وخوفه ، يقول في سوء طالعه ، وهو يتمنى أن يجد طعاماً ولو في المنام ، معلناً غربته الاقتصادية الشديدة[٢]:

ولقد منعت من المرافق كلها حتى منعت مرافق الأحلام

من ذاك أني ما أراني طاعماً في النوم أو متعرضاً لطعام

إلا رأيت ـ من الشقاء ـ كأنني أثنى وأكبح ـ دونه ـ بلجام

وكثيراً ما كان يشعر بأنه مظلوم مضطهد، يجهضه الحرمان ، ويهيمن عليه الفشل ، ويرى أنه لم يعط فرصة ليثبت قدراته[٣] :

مـالي أسـل من القراب وأغمـد لم لا أجـرد والسـيوف تجـرد

لم لا أجـرب في الضـرائب مـرة يـا للـرجال ! وإنـني لمهـند

لم لا أحلى حليـة أنا أهــلها فيزان بي بطل ويكفى مشـهد

وغلب عليه الخوف (والخوف إذا استبد بإنسان نغص عليه حياته ، وقلب حياته جحيماً ، فهو

---

(1) ـ الديوان ١٧٦/٢ .
(2) ـ المصدر السابق ٣١/٦ .
(3) ـ المصدر السابق ٢٥٣/٢ .

يقود إلى القلق والقلق يقود إلى التشاؤم)[١] .

وابن الرومي يعاني من مرض مستعص وتوجس لا حدود ، ففي كل يوم يشتد تطيره (فتبدو الصغائر مكبرة في حسه ، وتكثر الأشباح والأطياف في وهمه . فهو يتخيل ويتوهم ، ثم يفزع مما تخيل وتوهم)[٢] .

لهذا عاش مضطرباً مجبولاً على طبيعة الحذر المركبة[٣]:

وآمن ما يكون المرء يوماً إذا لبس الحذار من الخطوب

وأمام هذا القلق الذي يقتاب أعصاب ابن الرومي ، ووسط هذه الحياة المائجة نجده يقف حائراً بين مصائب الحياة وبلى الموت ، فتزعجه مأساته ، ويعيش بين الأحياء عيش الأموات[٤]:

لا يبعد الله أسلافاً لنا سبقوا ولو بقوا للقوا ما لا يحبونا
كيف العزاء وما في العيش مغتبط ولا اغتباط لأقوام يموتونا
متى تعش قبلي الأحياء يدركنا وإن تمت قبلى الأموات يعفونا
لا بد من ميتة للمرء أو هرم يظل منها جليد القوم موهونا

وبهذا نلاحظ أن مشكلة القلق والتوجّس بالنسبة إلى ابن الرومي تكمن أولاً في حالته النفسية المتأزمة أو حالته المرضية ، كما تكمن ثانياً في طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشها وهي حياة ملأى بالبؤس والشقاء والمعاناة . أي لقد تكالب على ابن الرومي كلٌّ من مرضه النفسي وفقره المادي فأصبح أنموذجاً مثالياً للقلق والتوجس ، ولا يختلف غيره من

(1) ـ ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي ص : ١٦٢ .
(2) ـ المرجع السابق ص : ٢٤٤ .
(3) ـ الديوان ٢٠٠/١ .
(4) المصدر السابق ٢٥٩/٦ .

الشعراء عن هذه الحال إلا بالدرجة من جهة وبالسيرورة من جهة أخرى . فابن الرومي وصل إلى الدرجة القصوى من القلق والتوجس وبشكل مستمر لا ينقطع ، وعبر حياته كلها ، لأسباب خاصة به وبالحياة التي عاشها . أما غيره من الشعراء فكان القلق أو التوجس يزورهم حيناً دون حين وبدرجة أقلّ عمقاً وعنفاً ، ولأسباب غالباً ما تتعلق بالظروف الحياتية في المقام الأول .

رابعاً : الفكاهة بوصفها صورة للاغتراب الذاتي :

يختلف الشعراء في أساليب التعبير عن واقعهم المعيش ، فمنهم من ينهج الجدية في وصف حاله وتصوير حياته ، ومنهم من يحاول التخفف من أعباء هذا الواقع عن طريق الفكاهة والسخرية ليدفع عن نفسه الكآبة ويعبر عن حاجته إلى الانطلاق بعيداً عن القهر والكبت ، أو على الأقل ، تخفيفا لحدتها .

وقد تصبح الفكاهة سمة من سمات هذا الشاعر إذ يعيش دور المضحك المهرج متخليا عن ذاته الأصيلة ، هرباً من معاناته الدائمة .

(ويرى المختصون أن الضحك والبكاء ، مظهران لباعث واحد هو الرفض والاحتجاج . لذا فإن البكاء يتحول إلى ضحك حين يعظم ، والضحك يتحول إلى بكاء حين يكبر . من هنا جاء المثل القائل : شر البلية ما يضحك)[١] .

ولأن الاضطهاد يخلق جواً مشحوناً عند ذلك الشخص الذي يحس بالظلم والقهر ، لهذا فقد يلجأ إلى الفكاهة والسخرية ليضحك بدلاً من أن يبكي .

و (عصور الشدائد والأهوال تشكل وسطاً مناسباً لتفجر المواقف الفكاهية التي تحارب اليأس وتحول المأساة إلى ملهاة ، فتتحول الفكاهة إلى زاد نفسي يريح المرء وينقله من دائرة الأسى والحرج إلى دائرة اللهو والتسلية)[٢] .

---

[1] ـ شعر المكفوفين ص : ٢١٤ .
[2] ـ الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي : د. رياض قزيحة ص : ٥٩ .

ولا غرابة في أن نجد أن الناس كلما اشتد بهم البكاء اشتدت حاجتهم إلى الضحك (ولذلك راجت الفكاهة في بعض العصور التي ران فيها القلق وازداد الضغط لأن فيها تجاوزاً للواقع بالابتعاد عنه ولو بالظاهر ، ولأن فيها مزاولة للحرية ولو بطريق الفكر)[1].

وبعض الشعراء عندما يتخلى عن جده إنما يدفع إليه دفعاً ، فالتمزق والقلق اللذان ينهكان قوى كثير من هؤلاء الشعراء اضطراهم إلى نوع من البكاء الضاحك ولعله أقسى أنواع البكاء .

وقد كانت الفكاهة طريقاً مناسباً لهؤلاء للتعبير عن غربتهم وعن واقعهم الأليم . فالفكاهة أحياناً (تنم عن ألم دفين وتشف عن كرب خفي ، ويريد من يلجأ إليها أن يداوي ألمه بالضد ويشفى كربه بالنقيض كما يداوي البرد بالتدفئة ويعالج التعب بالراحة والاستجمام)[2].

والعصر العباسي عصر مليء بالتناقضات والطبقية واستيلاء الطبقة الخاصة على خيرات الدولة ، وهو عصر تضغط العنصرية العرقية فيه على دفة القيادة إذ يكون للعرق المتغلب على السلطة الأمر والنهي برضا الخليفة أو بغير رضاه وباختصار فهو عصر يبدو في غاية التعقيد ، والطبقة الدنيا فيه مطحونة ، ولا يسمع فيه إلا صوت الأقوياء .

في مثل هذه الظروف كان العامة يتضورون جوعاً ن ويعانون من أشكال الظلم والقهر . وفي هذا الجو المشحون غدت الفكاهة (سلاحاً ماضياً كالكلمة اللاذعة المقذعة المحكمة في أفواه اللسنين أصحاب البديهة الحاضرة والعارضة المتوقدة يستعملونها بمختلف الميادين في غمرة الحياة

---

(1) ـ دراسات فنية في الأدب العربي ص : ٤١٤ .
(2) ـ المرجع السابق ص :٤١٣ .

الاجتماعية المشبكة المعقدة . فهي قد تفتك بالخصوم وتخفض من شأنهم ولو كانوا في المراتب العالية ، كما صار التهريج واللعب بالألفاظ وسيلة للعيش ولصلة الخلفاء)[١] .

ولم يكتف بعض هؤلاء الشعراء بالتكسب عن طريق الفكاهة بشكل مقبول بل تنازلوا عن ذواتهم الأصيلة وباعوا كرامتهم ليعملوا مهرجين في البلاط السلطاني ، فأبو العبر محمد بن أحمد الهاشمي أحد أقارب الخليفة المتوكل رفض الحياة الجادة وعدل إلى التحامق والهزل وغدا أراجوزاً يقوم بحركات خفيفة في غاية السخف ليضحك المتوكل وصحبه ، يقول عنه صاحب الأغاني(وكسب بالحمق أضعاف ما كسبه كل شاعر كان في عصره بالجد ، ونفق نفاقاً عظيماً ، وكسب في أيام المتوكل مالاً جليلاً)[٢] .

وهذا الشاعر الذي باع نفسه للمال وعاش غربة ذاتية ، كان هدفه أن يكسب الأموال الطائلة ولم يزعجه ما دفعه من ثمن غال لقاء هذا البيع المغبون . ولقد بلغ من قوله وفعله في السخف مبلغاً بعيداً إذ كان (المتوكل يرمي به في المنجنيق إلى الماء ، وعليه قميص حرير ، فإذا علا في الهواء صاح : الطريق الطريق ، ثم يقع في الماء ، فتخرجه السباح . . وكان المتوكل يجلسه على الزلاقة ، فينحدر فيها حتى يقع في البركة ، ثم يطرح الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك ، ففي ذلك يقول في بعض حماقاته :

(١) ـ دراسات فنية في الأدب العربي ص: ٣٥٨ .
(٢) الأغاني ٢٠٥/٢٣

ويأمـــر بـــي الملـــك فيطـــرحني في الـــبرك

ويصـــطادني في الشـــبك كأنـــي مـــن الســـمك

ويضحـــك كك كك ككك ككك كك ككك كك ككك)[1]

وأبو العبر قد اغترب عن ذاته الأصيلة ، إذ باع نفسه من أجل المال ، وقبل الشخصية المقدمة له من عصره فقد (كان من آدب الناس ، إلا أنه لما نظر إلى الحماقة والهزل أنفق على أهل عصره أخذ منها وترك العقل ، فصار في الرقاعة رأساً)[2] .

ومن هزله قوله[3]:

أنـــا أنـــا أنـــت أنـــا أنـــا أبـــو العـــبرنة

أنا الغـني الحمقوقـوا أنا أخـو الجنـــــة

إلى آخر هذه الحماقات .

ويذكر ابن المعتز في طبقاته مثل ذلك عن شاعر يدعى أبا العجل ، كان ينحو نحو أبي العبر ويشاركه في غربته الذاتية ، ومما روى له قوله[4]:

أيا عـاذلي في الحمق دعني من العذل فإني رخي البال من كثرة الشغل

وأصـبحت لا أدري وإنـي لشـاهد أفي سـفر أصبحت أم أنا في الأهـل

فمرنـــي بمـــا أحبـبت آت خلافـــه فـإن جئـتني بالجد جئـتك بالهـزل

وإن قلـت لي : لم كـان ذاك ؟ جـوابه لأني قـد اسـتكثرت من قلة العقـل

---

(1) ـ الأغاني ٢١٠/٢٣ .

(2) طبقات ابن المعتز ص: ٣٤٢ .

(3) ـ المصدر السابق ص : ٣٤٣ .

(4) ـ المصدر السابق ص : ٣٤٠ .

فأصبحت في الحمقى أميراً مؤمراً ... وما أحد في الناس يمكنه عزلي
وصير لي حمقي بغالاً وغلمة ... وكنت زمان العقل ممتطياً رجلي

ويقول مبرراً هزله[1]:

عذلوني على الحماقة جهلاً ... وهي من عقلهم ألذو أحلى
لو لقوا ما لقيت من حرفة العقل ... لساروا إلى الحماقة رسلا
أذعن الناس لي جميعاً وقالوا ... يا أبا العجل مرحبين وسهلا
فبها . لاعدمتها . صرت فيهم ... سيداً أتقى ورأساً ورجلا

ويصر أبو العجل على أن الهزل مفتاح الغنى والوصولية في عصره ، وأنه طريق للتفوق على الآخرين وإذعانه لهذه الشخصية المقدمة له واغترابه عن ذاته الأصيلة ، جاء بسبب قبول عصره للهزل ورفضه للحياة الجادة[2]:

اكفف ملامك محسناً ... أو مجملاً متطولا
أعلى الحماقة لمتني ... قد كنت مثلك أولا
فدخلت مصر وأرضها ... والشام ثم الموصلا
وقرى الجزيرة لم أدع ... فيها لحي منزلا
إلا حللت فناءه ... بالعقل كي أتمولا
وإذا التعاقل حرفة ... فعزمت أن أتحولا

---

(1) ـ طبقات ابن المعتز ص: ٣٤١ .
(2) ـ المصدر السابق نفسه .

فانظـــر إليّ أمـــا تـــرى　　　حـــال الحماقـــة أجمـــلا

مــــن ذا عليــــه مـؤنبي　　　حتى أعـود فأعقــــلا

ومهما يكن فشعراء الفكاهة والهزل قد وجدت بضاعتهم في هذا العصر رواجاً ، ولعل هذا ما دعاهم إلى أن يتنازلوا عن قيمهم وأن يجدوا في هذا السخف مصدراً لغناهم .

وقد ذكر ياقوت الحموي أن البحتري قد أنشد المتوكل قصيدته التي مطلعها [١] :

عن أي ثغر تبتسم　　　وبأي طرف تحتكم

وكان البحتري من أبغض الناس إنشاداً ، يتشدق ، ويهز رأسه ، فقال أبو العنبس الصيمري ارتجالاً ، وكان من (أهل الفكاهات) كما يقول الحموي [٢]:

في أي سلح ترتطـــــم　　　وبأي كـــــف تلتقم

أدخلت رأسك في الحرم　　　وعلمت أنك تنهـــــزم

فضحك المتوكل وأمر لأبي العنبس بعشرة آلاف درهم .

وفي هذه القصيدة سخر الصيمري من البحتري وأفحش في القول علي سبيل الفكاهة وقد فر البحتري من المجلس وسط ضحك الحضور .

ومن العجيب أن يلوم أبو العنبس الصيمري أبا العبر على هزله ، فكانت إجابة أبي العبر مفحمة إذ قال (أتريد أن أكسد أنا وتنفق أنت ؟ . . أحب أن تخبرني لو نفق العقل أكنت تقدم على البحتري)[٣] فأبو العبر هنا يذكره بسلوكه المضحك مع البحتري (وأنه لولا السلوك المزري

---

(1)- معجم الأدباء ٢٤٢٣/٦ .
(2)- المصدر السابق ٢٤٢٤/٦.
(٣) - الأغاني ٢٠٦/٢٣ .

لاستحال عليه أن يكون نداً لذلك الشاعر أو أن يقدم عليه . فكأن الرقاعة والمجون كانت لهما سوقاً رائجة)[1] .

في مثل هذه الظروف نجد أن الفكاهة صورة من صور الاغتراب الذاتي ، إذ أن بعض شعراء هذا العصر قد غدوا ممثلي ملهاة ، غايتهم إضحاك ذوي الثراء وكسب نقودهم ، ولكن هذه التمثيلية لم تكن مشهداً مؤقتاً ينقضي لحظتها بل أصبحت سمة ثابتة لهؤلاء الشعراء الذين تخلوا عن ذواتهم الحقيقية .

فشاعر هذا النمط قد (طرح الحياء جانباً وألقى وراء ظهره قيم المجتمع ومفاهيمه وأعرافه ، وأراد إحلال مفاهيم جديدة تحرر الإنسان من الأعراف وقيود الأخلاق ومبادئ الذوق الأدبي . . وتكاد تكون فكاهات هذا الشاعر تعبيراً قوياً عن عبثيته المطلقة ، فهي ليست عادية ، وإنما تمثل نوعاً من الارتداد نحو غرائزه الأولية)[2] .

وإذا تركنا هذه الفئة وجدنا شعراء الفكاهة والسخرية الآخرين قد اتخذوا سخريتهم سلاحاً يواجهون به أخطاء مجتمعهم ، ويعبرون من خلالها بدقة متناهية عن أحوالهم ، كما غدت لديهم وسيلة تقويم وإصلاح (وقد أحس العباسيون بأهمية الفكاهة فشجعوا أصحابها وضحكوا في جميع عصورهم وكانت الفكاهة بالنسبة لطوائف المجتمع ريحانة لنفوسهم المتعبة ، ومتعة لخواطرهم القلقة . وسلوى لقلوبهم الخفاقة كما عبروا بواسطتها عن تناقض المجتمع ومفارقات

---

(1) - دراسات فنية في الأدب العربي ص: ٣٦٠ .
(2) - الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي ص: ٢٧٠ .

العصر ، وكانت بحق بحراً واسعاً عميقاً ، فيه الروعة والبريق والجمال ، وفيه المرارة والمهاوي القاتمة)[1] .

والشعراء الذين عرفوا بفكهم وسخريتهم المضحكة المدمية هم غالباً من الشعراء الذين قد لذعتهم الغربة بسياطها الجحيمية ، وأرقهم المجتمع بتناقضاته .

وإذا كان هؤلاء الشعراء لم يقصروا شعرهم على هذه الطريقة فإنهم قد أكثروا من عرض نتاجهم بطريقة فكهة ساخرة ، فبشار بن برد وأبو نواس وابن الرومي وغيرهم من شعراء هذا العصر قد عرفوا بسخريتهم ، وقد ذكرنا بعض الأمثلة في موضعها من هذا البحث ، ففي الاغتراب الاجتماعي والسياسي كانت السخرية أداة ناجعة ومعبرة .

ولهذا فإننا سنقتصر بعدما ذكرناه من أمثلة على نموذجين مهمين للفكاهة العباسية وهما أبو دلامة وأبو الشمقمق لأنهما قصرا طريقتهما التعبيرية على الفكاهة والسخرية أو كان أغلب نتاجهما من هذا الباب .

ولهذا فقد كانت الفكاهة صورة لاغترابهم الذاتي والاجتماعي ، إذ فضلا البكاء بطريقة ضاحكة .

فأبو دلامة قد استطاع أن يتجاوز ضعة نسبه في زمن الطغيان العنصري ، وأن ينسى من حوله قبح شكله وسواد لونه عن طريق الفكاهة وأن يصل إلى مجالسة الخلفاء وكسب دراهمهم .

وقد صورت لنا فكاهته غربته الذاتية إذ كان يقوم بدور يشبه أدوار المهرجين ، ولكنه بطريقة فنية مبتكرة إذ كان شعره يؤدي مهمة الرقص والحركة ، ولا نشك في أنه أحد المكدين الكبار

---

[1] ـ الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي ص: ٢٣٠ .

الذين احتالوا بأشعارهم لكسب أكبر قدر من المال في زمن شعر فيه هو وأمثاله بالقهر والجوع فكان لا بدله من الرضوخ والتكيف مع هذا الوضع وإن كان فيه تخل عن ذاته وقيمه بل كرامته أيضاً .

ولهذا فقد باع كل شئ من أجل أن يعيش ، واغترب عن ذاته الحقيقية ليحيا جسده ويؤمن لقمة عيشه ، تنازل عن كرامته ، ورضي أن يكون مضحكاً ، وثمن ذلك كان غالياً لأننا وجدناه (يهجو أمه ، وزوجته ، وابنته وابنه ، بل إنه ليقسو على نفسه ، ولا ينسى كذلك بغلته . . ومعنى هذا أن الشاعر يأخذ موقفاً عبثياً من كل شئ ، فهو يتنصل من الضغوط والمقومات بلباقة ، وهو يصل دائماً إلى ما يريد بذكاء)[1] بل بتضحية كبيرة ، إنها فقدان نفسه ، ها هو يصور نفسه صورة غير إنسانية [2] :

ألا أبلغ لديك أبا دلامة ... فليس من الكرام ولا كرامة

إذا لبس العمامة كان قرداً ... وخنزيراً إذا نزع العمامة

جمعت دمامة وجمعت لؤماً ... كذاك اللؤم تتبعه الدمامة

فإن تك قد أصبت نعيم دنيا ... فلا تفرح فقد دنت القيامة

(نحس أنه يعابث نفسه من واقع الموقف الذي قال فيه هذه الأبيات . بل إنه يخيل إليّ أنه كان يعد نفسه لهذا العبث فساداً ليضحك من حوله ، فيقتنص الأمول)[3] .

(١) ـ الشعراء السود ص: ١٧٥ .
(٢) ـ الديوان ص: ١٠٩ ـ ١١٠ .
(٣) ـ الشعراء السود ص: ١٧٦ .

هذا الشاعر المهرج لم يبق لنفسه ولا لأهله أدنى درجات الحشمة والوقار فهو يرسم صورة زوجته بريشة لا تعرف الحياء ولا الاحترام ، وقد وجد ذلك سهلاً أمام حصوله على جارية من جواري الخيزران [١]:

أبلغي سيـــــدتي باللـــه يا أم عبيــــدة
إنها أرشدها الاله وإن كانت رشيـــــدة
وعـــــدتني قبل أن تخـــرج للحج وليـــدة
فتأنيت وأرسلـــت بعشـــــرين قصيـــدة
ليس في بيتي لتمهيـد فراشـــــي من قعيـدة
غير عجفاء عجوز ساقها مثل القديدة
وجهها أقبح من حو ت طري في عصيدة
ما حيـــاة مع أنثى مثل عرسي بسعيدة

باسم الفكاهة اغترب أبو دلامة عن ذاته ، وباسمها ابتذل نفسه وأهله ، وباسمها جنى الأرباح الطائلة ، إذ أراح نفسه من الكد والتعب بل أراحها من كل قيمة ، ومرة أخرى نجده يعرض ابنته في صورة مزرية ليضحك الآخرون ، ولا يعنيه ماذا تكون غداً ؟ وهي تكبر ويكبر معها ما خلفه لها والدها من إرث هزيل [٢] :

بللت علي . لا حييت . ثوبي فبال عليك شيطان رجيم

(1) ـ الديوان ص: ٤٧ ـ ٤٨ .
(2) ـ الديوان ص: ١١٢ .

فما ولدتك مريم أم عيسى		ولا رباك لقمان الحكيم
ولكن قد ولدت لأم سوء		يقوم بأمرها بعل لئيم

لقد تاجر ، وهو يبتسم ، بكل شئ ، بنفسه ، وبأهله ، وبلونه ، وبقيمه ، وقبض ثمن ذلك حاضراً ، وفقد ذاته .

ابتذل أبو دلامة ، كما ذكرنا كل شئ حتى الشعرالذي قصره على الكسب ولم ير لرسالته هدفاً أبعد من ذلك ، ويذكر صاحب الأغاني أنه مر على نخاس (يبيع الرقيق ، فرأى عنده من كل شئ حسن ، فانصرف مهموماً ، فدخل إلى المهدي فأنشده :

إن كنت تبغي العيش حلوا صافيا		فالشعر أعزبه وعش نخاسا
تنل الطرائف من ظراف نهد		يحدثن كل عشية أعراسا
والربح فيما بين ذلك راهن		سمحاً يبيعك كنت أو مكاسا
دارت على الشعراء حرفة نوبة		فتجرعوا من بعد كأس كاسا
وتسربلوا قمص الكساد فحاولوا		بالنخس كسبا يذهب الإفلاسا

فجعل المهدي يضحك منه)[١] .

رسالة شعره لا تتعدى إخراج الدراهم من جيبوب الأثرياء ، يجدهم في حلهم وترحالهم ، فيسلب أموالهم وهم يبتسمون [٢]:

إني نذرت لئن رأيتك سالماً		بقرى العراق وأنت ذو وفر

(١) ـ الأغاني ١٠/٢٩٨ .
(٢) ـ الديوان ص: ٦٧ .

لتصلين على النبي محمد ولتملأن دراهماً حجري

ويتسول وهو في منامه فيثري في يقظته [1]:

إنـي رأيتك في المنام وأنت تعطيني خيارة

مملوءة بدراهم وعليك تفسير العبارة

(والفكاهة وسيلة ينفس فيها المرء بعض ما يحمله من الأعباء والمتاعب ، لأن الفكاهة نكوص وارتداد نحو مرحلة سابقة من عمر المرء . وكأن ذلك عودة إلى الطفولة التي تسقط عن الإنسان بعض التبعات بوصفها وسيلة نافعة للتهرب وقتياً من الآلام . وهذا دليل على انعدام التكيف الاجتماعي)[2] .

ولا عجب حينئذ أن نرى أبا دلامة طفلاً كبيراً ، لا يعرف قيمة الأشياء وعنده استعداد للعبث بكل ما حوله .

يرى بعض المفكرين أن الفكاهة ظاهرة إنسانية يجد فيها الإنسان مجالاً للتعبير عن (قلقه ومآسيه ، أو للهروب من واقعه وإنكار هذا الواقع . وكثير ما تبدو المثل الإنسانية من خلال مرآة الفكاهة ، مصطدمة مع غايات الإنسان وأهدافه ، فتقوم الفكاهة بالتعبير عن هذا التناقض)[3] .

---

(1) ـ الديوان ص: ٦١ .
(2) ـ شعر المكفوفين ص: ٢١٦ .
(3) الفكاهة والضحك في التراث العربي ص: ٢٤٠ .

وبالفعل استخدم أبو دلامة الفكاهة كسلاح فعال ذكي في ثورته على قيم مجتمعه الدينية والاجتماعية .

فقد احتج على ترك الحرب ، ورفض ما تعارف عليه القوم من قيم بطولية بطريقة فكهة ضاحكة وذلك عندما أمره روح بن حاتم بمبارزة أحد فرسان الخوارج وكانت إجابته [1]:

إني أعوذ بروح أن يقدمني ... إلى البراز فتخزى بي بنو أسد

إن البراز إلى الأقران أعلمه ... مما يفرق بين الروح والجسد

قد حالفتك المنايا إذ صمدت لها ... وأصبحت لجميع الخلق في الرصد

إن المهلب حب الموت أورثكم ... وما ورثت اختيار الموت عن أحد

لو أن لي مهجة أخرى لجدت بها ... لكنها خلقت فرداً فلم أجد

ويعلن غربته عن القيم الدينية وخروجه عن الأوامر الشرعية بشعر فكاهي هازل أحرج به السلطة التي لم تتخذ منه موقفاً حازماً ، على الرغم من مجاهرته بالعصيان ، لكنه عصيان المبتسم الذي لا يثير غضب الآخرين .

وقد روى صاحب الأغاني أن أبا دلامة كان معتكفاً على الخمر لا يحضر صلاة ولا مسجداً فساء ذلك من حوله وخشوا أن يفسد شبابهم فشكوه إلى أبي جعفر المنصور الذي تشدد في وعيده له ، وأمره أن يلزم الصلاة في مسجد القصر، ولكنه كعادته استطاع أن يسيطر على الموقف بفكاهته ، يقول [2]:

---

(1) ـ الديوان ص: ٥٤ ـ ٥٥ .
(2) ـ الأغاني ٢٩٥/١٠ .

ألم تعلمـا أن الخليفة لزني بمسجده والقصر مالي وللقصر

أصلي به الأولى جميعاً وعصرها فويلي من الأولى وويلي من العصر

أصليهما بالكره في غير مسجدي فمالي من الأولى ولا العصر من أجر

لقد كان في قومي مساجد جمة سواه ولكن كان قدراً من القدر

يكلفني من بعد ما شبت خطة يحط بها عني الثقيل من الوزر

وما ضره والله يغفر ذنبه لو أن ذنوب العالمين على ظهري

وإذا كان أبو دلامة قد عمل بهدوء على أن يخرج من دائرة القيم الاجتماعية السائدة ، فإنه قد جهد في أن يرمي كل القيم الدينية وراء ظهره ، فهو لا يرغب صلاة التهجد ، ولا أن يصوم شهر رمضان ، وعندما يرغمه الخليفة المهدي على ذلك ، لا نجده يمانع في سبيل تخلصه من التوسط بنساء القصر فقد استعان بزوج الخليفة وابنة عمه ريطة بنت أبي العباس السفاح للتدخل في إعفائه ، متوسلاً لها بخضوع مرير [1]:

أبلغا ريطة أني كنت عبداً لأبيها

فمضى يرحمه الله وأوصى بي إليها

وأراها نسيتني مثل نسيان أخيها

جاء شهر الصوم يمشي مشية ما أشتهيها

قائداً لي ليلة القدر كأني أبتغيها

تنطح القبلة شهراً جبهتي لا تأتليها

---

[1] ـ الديوان ص: ١٢١ ـ ١٢٣ .

ولقـــد عشـــت زمانـــاً　　في فـــيافي وجـــيها

في لـــيال مـــن شـــتاء　　كنت شيخاً أصـطليها

قاعـــداً أوقـــد نـــاراً　　لضـــباب أشـــتويها

وصـــبوح وغـــبوق　　في عـــلاب أحتســـيها

مـــا أبـــالي لـــيلة القـــد　　ر ولا تســـــمعنيها

فاطلبي لي فرجـــاً منها　　وأجـــرى لك فيـــها

وعندما يطلب منه الحج ويعطى مبلغاً كبيراً نفقة له ، يختفي ويشرب بهذا المال الخمر ثم يعتذر اعتذاراً هزلياً أنساهم ذنبه [1] .

وخلاصة القول أن أبا دلامة بدأ (لملاقاة الحياة خفيفاً من كل شئ ، فهو باسم الولاء الممرح والحياة المبهجة يخرج على القيم السائدة في المجتمع ، ويكاد يخرج للوجود نافضاً عنه كل القيم المسبقة ، وخارجاً عما تعارف عليه أكثر الناس ، ولكنه في خروجه لا يحمل السيف ، ولا يخلع الولاء ، وإنما كل هذا من خلال النادرة والمفارقة)[2] .

وتكثر الفكاهة في (عصور التقلب والاضطراب ، فتعبر عن رأي الفرد والجماعة في الحياة والوقائع ، وتقوم بالترويح عن النفس الرازحة تحت وطأة الأحداث ، فتحول المآسي إلى طرائف وأضاحيك تخفف عن الإنسان وتسري عنه)[3] .

---

(1) ـ ينظر الأغاني ١٠/٢٩٣ .
(2) ـ الشعراء السود ص : ١٧٠ .
(3) ـ الفكاهة والضحك في التراث العربي ص: ٢٤٠ .

وأبو الشمقمق واحد من هؤلاء التعساء الذين جنى عليهم إخفاقهم المتصل فعاشوا على هامش الحياة ، يبحثون عن كسرة خبزة تسد رمقهم فلا يجدونها ويرون من حولهم يشتري الغانيات بمئات الألوف ، ويجيز الشعراء بالأموال الطائلة ، وهم يتضورون جوعاً .

كان أمامه أن يموت غيظاً أو يلبس ثياب الهزل فيخفي دموعه وراء ستار صفيق من الضحك (ولكن طرافته هذه لم تعد عليه بالخير الكثير . ويبدو أن خيبة آماله هي التي أدت إلى توقف نموه الفني)[١] لذلك لم نجد من الشعراء المكثرين .

عاش هذا الشاعر مغترباً قلقاً أرهقته سوء حاله ، وقادته أوضاعه الصعبة إلى حافة الطريق. فسخر من مجتمعه ومن نفسه أيضاً ، وجاءت فكاهته الساخرة صورة لغربته المضنية . لم يجده حوله أحداً ، ولم تنفعه جلجلة معاصرية لأنه لم يرطحنا [٢]:

ذهب الموال فلا موال   وقد فجعنا بالعرب
إلا بقايا أصبحوا   بالمصر من قشر القصب
بالقول بذوا حتما   والعقل ريح في القرب

ويصور مأساته ، ويصف غربته الموجعة ، وكأنه ضيف على هذه الحياة فهو يعيش بلا زاد وبلا مأوى ، تسقط دموعه قهراً ولكنها تختبئ خلف ابتسامة عريضة مصطنعة [٣]:

برزت من المنازل والقباب   فلم يعسر على أحد حجابي
فمنزلي الفضاء وسقف بيتي   سماء الله أو قطع السحاب

---

(1) ـ شعراء عباسيون : غوستاف فوف غروبناوم ص: ١٢٦ .
(2) ـ طبقات ابن المعتز ص: ١٢٩ .
(3) ـ شعراء عباسيون : غوستاف فوف غرونباوم ص: ١٣١ .

فأنت إذا أردت دخلت بيتي | عليَّ مسلماً من غير باب
لأني لم أجد مصراع باب | يكون من السحاب إلى التراب
ولا انشق الثرى عن عود تخت | أؤمل أن أشار به ببابي
ولا خفت الإباق على عبيدي | ولا خفت الهلاك على دوابي
ولا حاسبت يوماً قهرماني | محاسبة فأغلظ في حسابي
وفي ذا راحة وفراغ بالٍ | فدأب الدهر ذا أبداً ودابي

ويشتد به بؤسه ، وتتضاعف آلامه ، ويحس بأن بوناً شاسعاً يفرق بينه وبين أهل الثراء في عصره، بل بينه وبين رفاقه الشعراء الذين أثروا بألسنتهم وهو لا يزال يصارع الجوع والفاقة في وضع يرثى له ، يقول [1]:

ولقد قلت حين أقفر بيتي | من جراب الدقيق والفخارة
ولقد كان آهلا غير قفر | مخصباً خيره كثير العمارة
فأرى الفأر قد تجنبن بيتي | عائذات منه بدار الإمارة
وأقام السنور في البيت حولاً | ما يرى في جوانب البيت فاره
ينفض الرأس من شدة الجو | ع وعيش فيه أذى ومرارة
قلت لما رأيته ناكس الرأ | س كئيباً في الجوف منه حرارة
ويك صبراً فأنت من خير سنو | ر رأته عيناي قط بحارة
قال : لا صبر لي وكيف مقامي | وسط بيت قفر كجوف الحمارة

(1) ـ شعراء عباسيون : غوستاف فوف غرونباوم ص: ١٣٨ .

طريقة حوارية غريبة عرض لنا بها صورة وضعه البائس ، ولا يبعد أن يكون قد اتخذ من السنور معادلاً موضوعياً لـــه ، وهذا الأمر على غرابته محتمل لأن انفصال هذا الشاعر عن مجتمعه والهوة السحيقة التي تفصل بينهما وسوء حاله ، أسباب قوية تدفع الشاعر إلى الظهور بأي صورة كانت فهو مؤود ولكنه يتحرك .

وكلما اشتد به وجعه ، سخر من الأوضاع أكثر ، وكأنه يتجاهل الألم ولو للحظات يبحث عن لحظة طمأنينة من خلال الفكاهة ليعيد لنفسه المضطربة توازنها ولو لحين ، وكعادته يبكي وهو يرسم ابتسامة مخنوقة على شفتيه [1] :

مـــا جمـع الـناس لدنـياهم   أنفـع في البـيت مـن الخبـز
والخبـــز بـــاللحم إذا نلــته   فأنـت في أمـن مـن الـترز
والقلـز مـن بعـد علـى إثـره   فإنمـــا اللـــذات في القلـــز
وقـــد دنـــا الفطـر وصـــبياننا   ليســوا بــذي تمـر ولا أرز
وذاك أن الدهـــر عــــاداهم   عـــداوة الشـــاهين للـــوز
كانـت لهـم عنـز فـأودى بهـا   وأجدبـوا مــن لـبن العنـز
فلـو رأوا خبـزا علـى شـاهق   لأســرعوا للخبــز بالجمـز
ولـو أطاقـوا القفـز ما فاتـهم   وكيف للجائـــع بالقفـز

ضحك كالبكاء ، بل هو بكاء كالضحك ، أراد هذا الشاعر أن يصف لنا من خلال الفكاهة مأساته ، وغربته التي لا تطاق .

---

(1) ـ طبقات ابن المعتز ص: ١٢٧.

شعر يخلو من الصور الجميلة والتجويد ، لأن أبا الشمقمق لم يكن همه الشعر بقدر ما كان همه أن يتنفس لكي لا يختنق ، يموت مثل هذا البائس كل لحظة، وهو يرى أبناءه يموتون جوعاً ، ومن حولهم أطفال مصابون بالتخمة . يغرق في عذابه فلا يجد أمامه إلا التهكم وسيلة للشكوى ، لسنا ندري أيريد إضحاك سامعيه لما هو فيه من فشل وإحباط أم يريد أن يندبوا معه سوء حظه .

وقد ضاعف ألمه ذلك الانفصال الحاد الذي يعاني منه المجتمع العباسي، إذ انعدمت المواساة، واشتدت الأنانية، وطغت المادية، وغدت غربة هذا الشاعر وأمثاله مبضعاً يمزق أجسادهم، وينهش قواهم، حيث اهتزت ثقتهم بغيرهم ، وأصبحوا يائسين من الناس ، ولا عجب حينئذ أن يصيره بؤسه هزيلاً محبطاً [1]:

أنا في حال تعالى الله ربي أي حال

ليس لي شيء إذا قيل لمن ذا ؟ قلت : ذالي

ولقد أهزلت حتى ... محت الشمس خيالي

ولقد أفلست حتى ... حل أكلي لعيالي

من رأى شيئاً محالاً ... فأنا عين المحال

في حريم الله طراً ... من نساء ورجال

لو أرى في الناس حراً ... لم أكن في ذا المثال

---

[1] ـ شعراء عباسيون : غوستاف فوف غرونباوم ص: ١٤٦ .

عاش أبو الشمقمق عيشة بائسة، وأدرك أن مأساته ستخنقه فحولها إلى ملهاة ساخرة ، وكأنه ينفس عن روحه شيئاً كثيراً من ذلك الألم الذي يلذعه بسياطه ، وتلك الكرب التي تلف عنقه بعذاباتها .

وقد صورت الفكاهة غربته الذاتية والاجتماعية ومعاناته الممضة، ومن خلال الفكاهة ابتذل أشياء كثيرة ، ولم يتورع في مجونياته الهازلة عن ذكر أقبح الأشياء في أقبح الصور في مقطعات لا نستسيغ إيرادها لبذاءتها .

وهكذا فقد صورت الفكاهة العباسية في جانب منها (واقع الإنسان الحضاري الجديد وهو يعيش في بيئة مترفة ... وحين اشتد التفاوت الطبقي وتكدست الأموال في صناديق فئة من الناس، وعانى الفقراء والعوام من العوز، برزت الفكاهة على ألسنة هؤلاء المحتاجين يرسمون من خلالها معالم حياتهم، ويبثون من خلالها آراءهم في الحياة والناس، وعبثهم واستهتارهم بكثير من المثل والقيم والأعراف ، كما حملت الفكاهة صوراً من المرارة والأسى وخيبة الأمل)[1] .

وقد رأينا فيما مضى من هذا الفصل مدى الاغتراب الذاتي الذي عانى منه شعراء العصر العباسي وأدى بهم إلى الانفصال عن مجتمعهم (وثمة تفاعل بين الاغتراب عن الذات والاغتراب عن المجتمع ، ومرد ذلك إلى أن الفرد عندما يغترب عن ذاته ، فإن اغترابه ينعكس على المجتمع الذي يعيش فيه ، ويؤثر على تواصله مع الآخرين)[2] .

---

[1] - الفكاهة والضحك في التراث العربي ص : ٢٤٥ .

[2] - دراسة مدى الإحساس بالاغتراب : محمد إبراهيم عيد ص: ٢٣ .

الفصل الخامس

أثر الاغتراب في البنية الفنية

أولاً : اللغة الشعرية .

ثانياً : الصور الفنية .

ثالثاً : الموسيقا الشعرية .

تمهيـــد :

لقد تبيّن لنا ، من الفصول السابقة ، عمق الإحساس بالاغتراب ، عند الشاعر العباسي ، في الفترة المدروسة ، كما تبيّن أيضاً اتساع المساحة الشعرية التي نالها موضوع الاغتراب حتى ليظنّ المرء أن ليس ثمة شاعر عباسي لم يغمس قلمه في مداد الاغتراب ، أو لم يلفح روحه لهيب هذا الإحساس الذي هو نتاج العلاقات الاجتماعية بمختلف مستوياتها، وبما أن الأمر على هذا النحو من العمق والاتساع ، فقد كان من الطبيعي أن ينعكس هذا الموضوع في البنية الفنية لشعر المرحلة المدروسة ، وذلك علاوة على انعكاسه أولاً على أمزجة شعرائها ومشاعرهم الإنسانية . ومن هذا الباب لم يكن بدّ من دراسة أثر الاغتراب في البنية الفنية لشعر هذه المرحلة ، مع الإشارة إلى أنه كان من الأجدى دراسة ذلك الأثر ، في ثنايا كل فصلٍ على حدةٍ . غير أن خشية التكرار من جهة ، وخشية تشتت البحث من جهة أخرى قد دفعتا بنا إلى إيثار الفصل بين الشكل والمضمون ، على سبيل الدراسة النقدية وحسب . بمعنى أن هذه الدراسة قد فرضت علينا ذلك الفصل ، بغية التركيز العلمي على كل جانب من جوانب البحث ، وإن كان الفصل الفعلي بين الشكل والمضمون في الشعر ، والأدب عامة ، أمراً غير واردٍ البتة .

وفي الحقيقة ، كان للاغتراب آثاره الجمالية والفنية العميقة في الشعر العباسي ، وقد ظهر ذلك بشتى المستويات اللغوية والدلالية والإيقاعية والتصويرية ... غير أن هذا لا يسمح بالقول إن هنالك نصاً اغترابياً أو قصيدة اغترابية متمايزة في الشعر العباسي . أي على الرغم من عمق التأثيرات الاغترابية في الشعر العباسي ، فإن ذلك لم يرق إلى مستوى التأكيد أن

موضوع الاغتراب قد تحوّل إلى غرضٍ شعري مثلاً كبقية الأغراض الشعرية المتوارثة في الشعر العربي عموماً . فمن المعلوم أن لقصيدة المدح مثلاً بنية فنية موحدّة بشكل كبير . وكذا هي الحال في بقية الأغراض الشعرية . إن مثل هذا الأمر لا نستطيع أن نؤكد حدوثه بالنسبة إلى موضوع الاغتراب كما حدث لبعض الأغراض الناشئة نسبياً في هذا العصر كالزهد أو كالخمريات . . ولكن إذا لم يرتقِ هذا الموضوع إلى مستوى الغرض الشعري ، فإن ذلك لا يعني عدم تلمّس المنعكسات الفنية للاغتراب في الشعر المدروس ، وهي على أية حال ليست باليسيرة أو الهيّنة .

لقد بدا أثر الاغتراب واضحاً وجلياً في جملة من مستويات الشعر العباسي منها اللغوي الدلالي ، والتصويري الفني ، والإيقاعي الموسيقي ، إضافة إلى أمور جزئية أخرى قد نتعرّض لها في أثناء الفصل .

غير أن ما يجب توكيده قبل التعرّض لتلك المستويات هو أن موضوع الاغتراب لم يكن يظهر في قصيدة أو مقطّعة مستقلة وحسب ، وإنما كثيراً ما يتم التعبير عنه في مطالع القصائد أو في ثناياها . أي في معرض أغراض شعرية مختلفة . فقد نواجه موضوع الاغتراب في قصائد المديح ، وفي قصائد الرثاء ، كما قد نواجهه في قصائد الهجاء والغزل والزهد والخمريات ومردُّ ذلك إلى أن الاغتراب هو في نهاية المطاف إحساس ذاتي . وبما أنه كذلك فقد يتسرّب هذا الإحساس إلى مختلف الأغراض الشعرية . وهو ما يعني صعوبة قصوى في تحديد تلك المستويات ، وفي توكيد نسبتها الصرف إلى موضوع الاغتراب .

إن هذه الصعوبة لا تمنعنا من البحث وإنما تدفعنا إلى الاحتراز والتمحيص في نسبة هذا الأثر أو ذاك إلى الاغتراب دون غيره من الأغراض التي ينطوي تحتها أحياناً .

ولا شك في أن تلك الصعوبة تتراجع كثيراً فيما يتعلق بالقصائد والمقطّعات التي يشكل الاغتراب موضوعها الأوحد أو موضوعها الرئيس . وقد يكون في هذه القصائد عونٌ لنا كي نحدّد الأثر الفني للاغتراب في قصائد الأغراض الأخرى .

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن للإحصاء دوراً هاماً في دراسة تلك المستويات . وذلك بالإضافة إلى التحليل الأدبي . بمعنى أننا سوف نقوم بنوع من الإحصاء للمعجم الشعري وللصور الفنية والأبحر الشعرية المستخدمة ، كما نقوم بتحليل ذلك الإحصاء . بصرف النظر عما إذا أثبتنا تلك الإحصائيات أو لا . لأن الهدف هو الوصول إلى نتائج يمكن الاعتماد عليها في تحديد شيوع هذه الظاهرة الفنية أو تلك ، وفي تحليل هذا المستوى التعبيري أو ذاك .

أولاً : اللغة الشعرية :

لقد اهتم نقادنا ، منذ القديم ، بمسألة اللغة في الشعر اهتماماً يفوق أي اهتمام آخر . بل يصح التوكيد أن لغة الشعر هي القاسم المشترك بين مختلف النقاد العرب على مرّ العصور . ولا يتعلق الأمر بمرحلة التدوين وحسب بل يمتد أيضاً إلى العصر الجاهلي ، وما وردنا من أخبار حول بعض المنافرات والمحاكمات الشعرية يؤكد اهتمام كل من الشاعر والمتذوق العربي بالمسألة اللغوية في الشعر . فما تزال قصة التحكيم بين امرئ القيس وعلقمة الفحل ، من قبل زوجة الأول أم جندب ماثلة في الأذهان حيث كان المنطلق الأول في التحكيم لغوياً [١] وإن كان في ظاهره معرفياً . وكذا هي الحال في مآخذ النابغة الذبياني على حسان بن ثابت في قوله الشهير:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقد أخذ عليه ، كما هومعلوم ، استخدامه جمع القلّة في الجفنات والأسياف[٢]... وهوما يخفف من قيمة الفخر .

ولقد تعمق هذا النهج في النقد العربي بشكل طاغٍ ، فظهر بشتى الأشكال النقدية ، من ثنائية اللفظ والمعنى ، وثنائية الحقيقي والمجازي ، إلى الخصومة بين القدماء والمحدثين ، والموازنة بين الشعراء ، إلى نظرية النظم عند الجرجاني . بل حتى نظرية السرقات الشعرية لا تخلو من هذا الهاجس اللغوي .

(1). ينظر : الموشح ص ٤٠ .
(2). المصدر السابق ص ٧٦ .

ولا شك في أن تركيز النقد العربي القديم على الجانب اللغوي في الشعر يعني أن هذا النقد قد وعى أن فن الشعر هو فن لغوي في المقام الأول . وأي تقصير في وعي هذه المقولة يؤدي إلى تقصير مؤكد في وعي الشعر وفي إبداعه وفي تذوقه أيضاً .

لقد كان نقدنا العربي القديم سبّاقاً إلى وعي هذه المقولة ، وذلك من قبل أن تظهر في المدارس النقدية الغربية الحديثة التي راحت هي الأخرى تعطي هذا الجانب حقه من الاهتمام . بل راح بعضها ينطلق من اللغة في دراسة الشعر مثل الشكلانية الروسية والبنيوية والأسلوبية ، علاوة على الشعرية التي أقام أصحابها نظريتهم في الشعر على الجانب اللغوي بمستوياته المتعددة كالدلالي والنحوي والصرفي والإيقاعي والرمزي فقد راح هؤلاء بمختلف مدارسهم ، يرون النص الشعري بوصفه بنية لغوية وحسب . إذ إن (الشكليين الروس يلتقون مع البنيويين في طبيعة النظرة إلى النص الأدبي ، تلك النظرة التي تعزل النص عن المؤثرات الخارجية ولا تتفحصه إلا من حيث هو بنية لغوية مستقلة ، ذلك لأن كلّ المعالجات الخارجية ـ حسب الشكليين ـ لا تمتلك المؤهلات الكافية لدراسة الأدب واستنباط قوانينه)[١] وبهذا فقد تم إعطاء اللغة الأهمية القصوى بل الوحيدة في الشعر ، عند مثل هذه المدارس التي راحت تنظر ، ولا سيما البنيوية ، إلى أن (الطريقة الأساسية التي تظهر فيها الوظيفة الشعرية نفسها في الشعر ، تكون بإسقاط البعد الصرفي والاستعاري للغة على البعد النحوي ، إن الشعر بتأكيد تماثلات الصوت والإيقاع والصورة يزيد من كثافة اللغة ، جاذباً الانتباه إلى خصائصها الشكلية بعيداً عن أهميتها الإسنادية)[٢] .

---

(1)ـ مفاهيم الشعرية : د. حسن ناظم ص : ٤٠ .
(2)ـ البنيوية في الأدب : روبرت شولز ص : ٣٨ .

وفي الحقيقة ، إن إهمال البعد الإسنادي الذي يعني المرجعية الواقعية للغة وللأدب عموماً ، في تلك المدارس اللغوية الحديثة . هو الذي يجعلها بعيدة ومختلفة عن الاهتمام اللغوي النقدي العربي . ففي الوقت الذي تنفي فيه تلك المدارس أهمية البعد الواقعي للغة من خلال اعتبار النص كائناً لغوياً مستقلاً عن الواقع ، نجد نقدنا القديم يركّز اهتمامه الأول على ذلك البعد . وإن المحك الأساسي في لغة الشعر ، عند نقادنا القدامى ، هو اللغة العربية خارج النص الشعري . وهذا ما ليس موجوداً في تلك المدارس . إن اهتمام نقادنا القدامى بالبعد الواقعي هو الذي جعلهم يحاكمون لغة الشعر وفق اللغة الحقيقة العربية ووفق إحالاتها إلى الواقع العيني المحسوس . ومن هذا الباب جاءت مآخذ الآمدي مثلاً على أبي تمام في موازنته كقوله في الموازنة عن قبيح استعارات أبي تمام (فمن مرذول ألفاظه وقبيح استعاراته قوله :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد　　　　أضججت هذا الأنام من خرقك

فجعل كما ترى مع غثاثة هذه الألفاظ للدهر أخدعا . .)[١] .

وعلى الرغم من الفارق في المنطلق بين نقدنا القديم والنقد الحديث ، فإن ما هو مشترك بينهما هو الاهتمام العظيم باللغة الشعرية ومستوياتها المختلفة والمتنوعة . ومن هنا فإن تحديد لغة الشعر يسهم بالضرورة في تحديد الشعر وطبيعته وطريقة معالجته للحياة بما تحويه من ظواهر وأشياء ومشاعر وأحاسيس . وهذا ما سوف ندرسه في هذه الفقرة .

إن أول ما يشد الأنظار ، في دراسة المعجم اللغوي لشعر الاغتراب العباسي ، هو ذلك الميل الواضح إلى استخدام المفردات اللغوية المألوفة والمأنوسة . والابتعاد قدر الإمكان عن

---

(١) ـ الموازنة بين الطائيين : الآمدي : ٢٢٨ و ٢٣٣ .

الغريب والوحشي في اللغة . ولا يتعلق هذا بالمفردات وحسب بل يتعلق أيضاً بالتراكيب الشعرية التي غالباً ما تميل إلى البساطة بمعنى أن شعر الاغتراب العباسي بأبعاده المكانية والذاتية والاجتماعية هو غالباً من النوع الذي يمكن أن يطلق عليه مصطلح السهل الممتنع حيث إن الشاعر المغترب كان يتوجه إلى معانيه الشعرية بأقرب شكل لغوي ممكن . فلم يكن همّه الإدهاش باللغة العربية كما نجد ، في شعر المديح مثلاً ، بل الإدهاش بالنسبة إليه هو القدرة على رصد مشاعره الإنسانية تجاه تجربته الاغترابية وهذا ما يطرح مسألة طريفة في هذا المجال وهو أن الشاعر الذي يعاني " الغربة " في حياته يميل إلى " الألفة " في لغته . وكأن في ذلك نوعاً من الاعتصام باللغة ضدّ المعاناة . في حين أن الشاعر " المستقر " نجده يميل في شعر المديح مثلاً إلى " التجوال " في " أصقاع " اللغة وكثيراً ما يترجح الشاعر بين هذين الموقفين إذا ما كان يمدح ويشكو معاً ، فنراه " يغرّب " في مديحه ، " ويؤالف " في شكواه .

إن الميل إلى المألوف والمأنوس من اللغة في شعر الاغتراب العباسي هو إذاً واحدة من السمات الهامة لهذا الشعر وقد يتأكد ذلك أكثر فأكثر في العودة إلى مختلف الشواهد الشعرية في ثنايا هذا البحث . وفي واقع الحال فإن عدداً كبيراً من شعراء الاغتراب قد مالوا إلى مثل هذه اللغة التي أصبحت سمة أشعارهم عامة . ويكفي أن نذكر في هذا المجال العباس بن الأحنف وأبا العتاهية وأبا الشمقمق وأبا الشيص وابن المعتز وابن الرومي في معظم أشعاره . فهؤلاء الشعراء المغتربون الذين ذكرناهم ، وغيرهم من الشعراء الذين لسعتهم الغربة اقتربوا بشعرهم من عامة الناس ، وكأنما كانوا يطمحون إلى الاتصال ولو عن طريق الشعر ، ولهذا وجد من بين

هؤلاء الشعراء من كان نظم الشعر عليهم سهلاً فأكثر من القول فيه ، حتى قيل إن الشعر أهون على أبي الشيص من شرب الماء [١] .

وهو القائل في غربته الذاتية ، باكياً فقد عينيه [٢] :

يا نفس بكي بأدمع هتن — وواكف كالجمان في سنن
على دليلي وقائدي ويدي — ونور وجهي وسائس البدن
أبكي عليها مخافة أن — تقرنني والظلام في قرن

ونجد هذه السهولة المفرطة في كثير من اغترابيات أبي دلامة على شاكلة قوله [٣]:

أبلغي سيدتي بالله يا أم عبيدة

(وتتضح شعبية الأسلوب الشعري عند بعض الشعراء واختيارهم ألفاظهم من لغة الحياة اليومية في مثل شعر أبي الشمقمق الذي يعد شاعر الفقر في القرن الثاني)[٤] وقد ذكرنا له من المقطعات ذات اللغة السهلة الدارجة فيما سبق ، مما يغني عن إعادتها هنا .

ولم يكن هذا وقفاً على شاعر مغترب دون آخر ، فكبار الشعراء الذين عرفوا بجزالة ألفاظهم وجلجلتهم في المديح والفخر ، نجدهم في كثير من أشعارهم الاغترابية يقتربون بشعرهم من عامة الناس ، ويستخدمون أمثالاً وتعبيرات شعبية ،

---

(1)- ينظر : الأغاني ١٦ / ٤٣٣ .
(2)- المصدر السابق نفسه .
(3)- الديوان ص ٤٧ ـ ١٤٨ .
(4)- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٥٨٨ .

فبشار يعبر عن غربته بين أصدقائه وانفصاله عن أخوتهم وصداقتهم بأكل الخبز والملح ، يقول [١]:

صبرت عليه حتى بان فسلاً   كأن إخاه خبز وملـــح

(والحقيقة أن شعبية أبي العتاهية اللفظية والموضوعية على السواء قد أدت بلغة الشعر في القرن الثاني إلى مرحلة جديدة وتطور ظاهر ، ذلك أنها اقتربت بلغة الشعر من النثر اقتراباً واضحاً)[٢].

وثمة سمة أخرى هامة في لغة هذا الشعر ، وهي البعد عن المحسنات البديعية إلا ما ورد منها عفو الخاطر ومن دون تكلّف . وذلك على الرغم من أن الميل إلى تلك المحسنات قد بدأ بالبروز والاستعلاء في العصر العباسي الأول أي في مرحلتنا المدروسة . أي أن الشاعر العباسي الذي سعى إلى التميز من خلال تلك المحسنات والإكثار منها ، ابتعد بشعره الاغترابي عنها ما وسعه الابتعاد . ولعلّ لسيطرة الإحساس الاغترابي سبباً في هذا الابتعاد بمعنى أن هذا الشاعر أراد أن يعبّر عن تجربته الاغترابية بحرارتها العاطفية من دون تلاعب لغـــوي لفظي . ففي هذه التجربة من القوة والحرارة ما لاتحتاج معه إلى أي صنعة أو لعبة لفظية حتى يتفاعل معها السامع أو القارئ .

إننا نؤكد أن التجربة الوجدانية التي تحصّلت للشاعر في معاناته الاغترابية هي السبب وهي المسوّغ في ميله إلى السهولة والبساطة والطبيعية والألفة في اللغة الشعرية المستخدمة . فليس هنالك تغريب أو تعقيد أو تحسين إلا ما ورد عفو الخاطر كما أسلفنا سابقاً .

---

(1)- الديوان ص ٢٦٦ .

(2)- اتجاهات الشعر العربي ص ٥٩٦ .

يتوزع المعجم اللغوي لشعر الاغتراب العباسي على ثلاثة أنساق رئيسية ، من دون أن ينفي ذلك وجود بعض الأنساق الأخرى والأقلّ أهمية وورودا ً . أما تلك الأنساق فهي النسق الانفعالي العاطفي ، والنسق الاجتماعي ، والنسق الطبيعي . ويشمل النسق الأول مختلف المفردات اللغوية الدالة على ما هو انفعالي أو عاطفي أو شعوري أو نفسي عامة . ويشمل النسق الاجتماعي كل ما يرتبط بالعلاقات بين الناس بمستوياتها المتعددة . أما النسق الطبيعي فنقصد به كل مفردات الطبيعة الحية الجامدة . وقد تبين لنا من خلال بعض العمليات الإحصائية أن النسق الانفعالي العاطفي يأتي في المقدمة من بين الأنساق اللغـــوية لشعر الاغتراب . فهو النسق المشترك بين كل أشكال الاغتراب المكانية والذاتية والاجتماعية . ولعلّه النسق الوحيد المشترك ولا شك في أن هذا أمرٌ بدهي إذ إن الاغتراب هو في نهاية المطاف موقف شعوري نفسي ولهذا لم يكن بدٌّ من أن ينعكس الاغتراب في الشعر بلغة انفعالية عاطفيــة .

أما النسقان الآخران فيأتي حضورهما في الدرجة الثانية بعد النسق الانفعالي . حيث يتقدّم النسق الاجتماعي في الاغتراب المكاني . ويمكن لنا أن نقدم رسماً تقريبياً للمساحة التي احتلّها كل نسق على حدة في المعجم اللغوي لشعر الاغتراب العباسي وذلك بالشكل التالي :

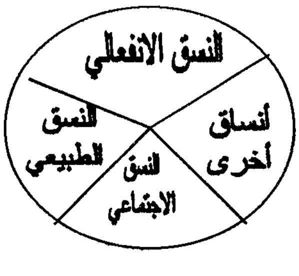

أما مكونات تلك الأنساق فيمكن أن نحدّد محاورها اللغوية بالرسم التالي :

	المحور الأول	المحور الثاني	المحور الثالث
النسق الانفعالي	الشوق والحنين	الحزن والوحشة	النوح والبكاء
النسق الاجتماعي	الأهل والأحبة	العزلة والوحشة	اللوم والعتب
النسق الطبيعي	الحمام والشجر	البيئة	البعد والنوى

إن مفردات المعجم اللغوي الاغترابي لا تخرج في الأعم الأغلب عن هذه الأنساق وتلك المحاور . أي أن هذه المحاور التسعة هي مدار المعجم اللغوي في الشعر الاغترابي العباسي وقلّما يخرج نص عن هذه المحاور. مما يؤكد أن هنالك لغة شعرية موحدة عامة ينهل منها الاغتراب في الفترة المدروسة .

وغني عن البيان أن هذه المحاور ليست مستقلة عن بعضها كما أنها ليست خاصة بالضرورة بهذا النوع من الاغتراب أو ذاك فقد نجد المحاور التسعة أو معظمها في قصيدة واحدة من قصائد الاغتراب المكاني . حيث يتذكر الشاعر أهله وأحبته ويتشوق إليهم ويبكي فراقهم ويشكو من العزلة ويعتب على الدهر الذي رماه بعيداً عن موطن الجمال في الطبيعة وفي العلاقات الاجتماعية . وقد يكون الذي حرّضه على كل ذلك هو طير يتغنى على غصنه ، غير أن الشاعر رأى في غنائه نوحاً وبكاء .

ولا بأس من الاستئناس بأحد نصوص الاغتراب لشاعر عانى من الغربة المكانية زمناً طويلاً . وهوعوف بن محلّم الخزاعي . يقول [(١)]:

أفي كل عام غربةٌ ونزوح ... أما للنوى من ونيةٍ فتريحُ
لقد طلّح البين المشتّ ركائبي ... فهل أرينّ البين وهو طليح
وأرّقني بالري نوحُ حمامة ... فنحتُ وذو اللب الحزين ينوح
على أنها ناحت فلم تر عبرةً ... ونحتُ وأسراب الدموع سُفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخي مهامه فيح
ألا يا حمام الأيك فرخُكَ حاضرٌ ... وغصنك ميّادٌ ففيم تنوح

إن لغة هذا النص هي لغة نموذجية تعبر خير تعبير عن المعجم اللغوي لشعر الاغتراب العباسي . فقد تضمنت هذه اللغة معظم المحاور اللغوية الآنفة الذكر . فعلى صعيد النسق الانفعالي نجد : (تريح ، أرقني ، نوح ، نحتُ ، الحزين ، ينوح ، ناحت ، عبرة ، نحت ، الدموع ، ناحت ، تنوح) . وعلى صعيد النسق الاجتماعي نجد : أفراخي (أبنائي) . أما على صعيد النسق الطبيعي فنجد : (حمامة ، فرخاها ، أسراب ، حمام الأيك ، فرخك ، غصنك مياد ، مهامه فيح ...) وذلك بالإضافة إلى الكثير من المفردات التي يمكن تصنيفها تحت الأنساق الثلاثة مثل الغربة والنزوح والنوى والركائب والبين والونية . إذ إن لهذه المفردات أبعاداً شعورية واجتماعية ومكانية في الوقت نفسه .

---

(1)- طبقات ابن المعتز ص: ١٨٦ .

والشيء نفسه تقريباً نجده في قصيدة مطيع بن إياس التي يقول فيها [1]:

علّلاني يا نخلتي حلوان   وابكيالي من ريب هذا الزمان

وفي إطار المعجم اللغوي الاغترابي أيضاً ، نلاحظ تصدّر المعنويات على الحسيات في هذا المعجم . بمعنى أن المفردات الدالة على ما هو معنوي أكثر هيمنة من تلك الدالة على ما هو حسي . ولا شك في أن هذا ينسجم مع جدول الأنساق والمحاور السابق . حيث إن قراءة متأنية لـــه تشير إلى تقدّم المعنوي على الحسي بنسبة (٢) إلى (١) . فنجد ستة حقول (وهي حقول النسق الانفعالي والاجتماعي) من أصل تسعة ، تقوم على ما هو معنوي .

أما ما يعنيه هذا التقدّم أو التصدّر للمعنوي على الحسي فنعتقد أنه يعني أن المعاناة التي كان الشاعر العباسي المغترب يعانيها هي معاناة معنوية في المقام الأول سواء أكانت تلك المعاناة مكانية أم ذاتية أم اجتماعية ، فالمشكلة لا تكمن ، في الغربة المكانية مثلاً ، في بُعد المسافات وشط الديار ، وإنما تكمن أولاً وأساساً في افتقاد الأمان النفسي وهو ، كما نعلم ، أمر معنوي أصلاً . ومن المؤكد أن افتقاد الأمان النفسي هو المحرّك الأول في الاغترابين الآخرين . الذاتي والاجتماعي . ومن الطبيعي أنه يصعب الكلام على أي اغتراب في حضور الأمان النفسي .

وبهذا نلاحظ أن ميل المعجم اللغوي لشعر الاغتراب العباسي إلى المعنوية قد عبّر تعبيراً دقيقاً عن المعاناة التي سعى الشاعر العباسي إلى رصدها الفني .

---

(1)- الأغاني : ١٣ / ٣٥٦ .

وقد يتساءل المرء أمام هذا التقرير : كيف يصحّ القول بهيمنة المعنوي على الحسي في مرحلة كان للمجون واللهو والتهتك والعبث النصيب الأوفى فيها ؟ وكيف تتراجع الحسية بحضور شعر أبي نواس وابن الحباب وبقية عصبة الفتّاك ؟

إن لمثل هذا التساؤل من الوجاهة ماله . فلا شك في أن هؤلاء الشعراء قد انغمسوا في الحسيات انغماساً ما بعده انغماسٌ . وقد ظهر ذلك في أشعارهم ظهوراً لا تخطئه عين . غير أنهم ، ولا سيما أبا نواس . قد زاوجوا بين اللذة وضغط الحسيات . فكثيراً ما كان أبو نواس يضع في شعره شروطاً معنوية وقيمية لمجلس الشراب من مثل قوله [1]:

والقوم إخوان صدق بينهم نسب ... من المودة ما يرقى له نسب
تراضعوا درة الصهباء بينهم ... وأوجبوا لنديم الكأس ما يجب
لا يحفظون على السكران زلته ... ولا يريبك من أخلاقهم ريب

وقوله متحدثاً بلسان الخمر [2] :

لا تمكنني من العربيد يشربني ... ولا اللئيم الذي إن شمني قطبا
ولا المجوس فإن النار ربهم ... ولا اليهود ، ولا من يعبد الصلبا
ولا السفال الذي لا يستفيق ولا ... غر الشباب ، ولا من يجهل الأدبا
ولا الأراذل إلا من يوقرني ... من السقاة ، ولكن اسقني العربا
يا قهوة حرمت إلا على رجل ... أثرى ، فأتلف فيها المال والنشبا

---

(1)- الديوان ص : ٤٥ .
(2)- المصدر السابق ص ٤١ .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فنحن ذهبنا إلى هيمنة المعنوي على الحسي ، ولم نذهب إلى هيمنة القيمي على الحسي . فإذا كان القيمي معنوياً فليس كل معنوي قيمياً . أي أن المعنوي المهيمن ، في المعجم اللغوي لشعر الاغتراب العباسي ، ليس من النوع القيمي بالضرورة . بل إن هذا لا يشكل في حقيقة الأمر إلا جزءاً يسيراً من معنويات هذا المعجم التي تمحور في معظمها في الجوانب الشعورية والعاطفية عامة . أما الجانب القيمي من تلك المعنويات فغالباً ما كان يظهر بوصفه مفتقداً أي أن افتقاد القيم المرغوبة بالنسبة إلى الشاعر هو أحد أسباب اغترابه ، وهو أحد جوانب معنوياته اللغوية أيضاً .

نكتفي بهذا القدر من الحديث عن المعجم اللغوي لشعر الاغتراب العباسي ، مع الإشارة إلى أننا سوف نعود في الفقرة التالية إلى اللغة الشعرية ولكن من منظور آخر وهو منظور الصورة الشعرية .

ثانياً :الصورة الفنية :

للصورة الفنية ، في الشعر ، من الأهمية ما لا يمكن تجاوزه أو تغافله . فهي التي تعطي الشعر رونقه وبهاءه فبها يستطيع الشاعر أن يعيد إنتاج الظواهر والأشياء من حوله فنياً . وبها يتمكن من نقل أحاسيسه ومشاعره بشكل جمالي متميز ، يشدّ الانتباه ويخلب الأذواق .

ولقد وعى نقادنا القدامى أهمية التصوير في الشعر ، حتى قال الجاحظ قولته الشهيرة : (والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، والمدني . وإنما

الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير)[١] .

أما الفلاسفة المسلمون فقد كان لهم موقف أكثر وضوحاً وتحديداً لأهمية الصورة الفنية في الشعر . وذلك حين ذهبوا إلى تأكيد أن الشعر محاكاة وتخييل معاً (فإذا كانت وظيفة المحاكاة تكمن في وعي العالم وتجسيده فنياً ، فإن وظيفة التخييل تكمن في التأثير الانفعالي الإيجابي في المتلقي ، فتدفعه إلى النفور مما هو قبيح ومرذول وتافه ، وإلى عمل ما هو جميل ونبيل وخيّر)[٢] أي أن الفلاسفة المسلمين نظروا إلى الشعر من منظورين اثنين : الأول هو طريقة وعي الشاعر لما حوله من ظواهر وأشياء ، والثاني هو طريقة إنتاج ذلك الوعي فنياً . والحقيقة أن الجامع بين المنظورين هو التصوير . فالمحاكاة تمدّ الصور بالعناصر الواقعية والتخييل يعيد بناء تلك العناصر بشكل يتلاءم مع الشاعر وعياً ومزاجاً وذوقاً .

ولقد أعلى النقد الحديث من قيمة الصورة الفنية في الشعر حتى ظهرت مدرسة شعرية ونقدية هي المدرسة الصورية التي كان على رأسها الأمريكي عزراباوند . وبصرف النظر عن هذه المدرسة التي ولا شك كان لها تأثير كبير في النقد الحديث ، فإن مختلف المدارس النقدية الحديثة تركّز على الصورة الفنية ، من منظورات عدّة . منها ما هو نفسي كمدرسة التحليل النفسي ، ومنها ما هو ذاتي فردي كالرومانسية ، ومنها ما هو اجتماعي كالواقعية ، ومنها أيضاً ما هو لغوي كالشكلانية الروسية والأسلوبية .

---

(1)ـ الحيوان ٣ / ١٣٢ .
(2)ـ البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي : د. سعد الدين كليب ص ٢٦٧ .

وعلى اختلاف هذه المنظورات المدرسية فإن ثمة اتفاقاً عاماً في النقد الحديث على الأهمية القصوى للصورة في الشعر .

غير أن الاهتمام الكبير بالصورة الفنية ، في كلّ من النقد القديم والنقد الحديث لا يجب أن يُنسينا ذلك الاختلاف الكبير أيضاً في طبيعة الصورة من حيث العناصر والتوجّه الجمالي وطريقة الصياغة ، في الشعر العربي القديم والشعر الحديث معاً . فمما لا شك فيه هو أن الصوة الحديثة أصبحت أكثر تعقيداً وغموضاً ورمزية من الصورة في شعرنا القديم ، هذه الصورة التي تتصف كما يرى الدكتور نعيم اليافي(١) ، بالثنائية والتزيينية ، والمحاكاة ، وتتصف أيضاً بنوع من التراكم والتفكك والاستقلال بين الفكرة والصورة ، إضافة إلى طغيان الصورة المفردة . أي أن الدكتور اليافي يرى أن الصورة هي إحدى وسائل التعبير في شعرنا القديم ، وليست هي الأساس الأول كما ظهر في الشعر الحديث . ولهذا كثيراً ما تغيب الصورة بالمعنى البلاغي عن بعض القصائد القديمة .

ويتابع د . سعد الدين كليب ما ذهب إليه الدكتور اليافي مؤكداً أن التناظر يعد أحد قوانين الصورة في الشعر القديم ، ويدخل في التناظر الثنائية والتزيينية والاستقلالية(٢) .

والحقيقة إن ما ذهب إليه الباحثان يجد صداه في معظم الصور الفنية في شعرنا القديم ، فلم يكن الشاعر يفكر بطريقة صورية في علاقته الجمالية بالمشاعر والظواهر والأشياء . وإنما

---

(1) ـ ينظر : تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث : د. نعيم اليافي ص : ٣٦٤ .
(2) ـ وعي الحداثة : د. سعد الدين كليب ص : ٤٢ .

كان يذهب إلى المعنى مباشرة ، ثم يعيده بشكل تصويري وغالباً ما تكون أداة التشبيه هي الأداة الرابطة بين المعنى والصورة . وذلك كقول امرئ القيس[1]:

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطّه السيل من عل

حيث نلاحظ أن الرابط بين الشطر الأول والشطر الثاني هو أداة التشبيه ، كما نلاحظ أن المعنى قد أتى في الشطر الأول وأتت الصورة في الثاني . وكأن الصورة قد جاءت توضيحاً وتزييناً للمعنى الذي قرّره امرؤ القيس في شطره الأول .

وكذا هي الحال في الكثير الكثير من الصور الفنية في شعرنا القديم ، ولا سيما تلك الصور التي تقوم على أداة التشبيه .

لقد توسّل الشاعر العباسي المغترب بالصورة الفنية للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه وتجربته الاغترابية عامة . ولعلّه كان الأكثر اهتماماً بها وذلك لأنها تستطيع أن توحي بما يريده بالشكل الفني الأكثر تأثيراً وجمالاً ، ولا شك في أن هذا يحسب للشاعر المغترب ، فقد أعطى الصورة من العناية ما لم يعطها سواه . وكما قلنا فإن طبيعة التجربة الاغترابية هي التي وجّهته هذه الوجهة . فطبيعة التجربة هي التي فرضت طبيعة الصورة والاهتمام بها .

ولعلّ ما أشرنا إليه مراراً ، في أثناء البحث ، من بروز ما أسميناه المعادل الموضوعي في الشعر يكون برهاناً على ما للتجربة الاغترابية من تأثير في توجه الشاعر إلى الصورة الفنية ، لتحمل عنه بعض ما يحمل من مشاعر وأحاسيس قاسية .

---

[1] - شرح المعلقات السبع : الزوزني ص : ٢٦ .

على الرغم من أن مصطلح المعادل الموضوعي الذي طرحه الشاعر الأمريكي ت . س . إليوت. لا يدخل بشكل مباشر في إطار الصورة الفنية ، فإن ذلك لا يلغي إشارته إليها . أي أن تشخيص المشاعر الفردية بشكل موضوعي ومستقل عن ذات الشاعر ، يدفع بالشاعر إلى التعبير بالصورة الفنية عن ذلك التشخيص . ولا ينبغي أن نغفل عن أن التشخيص في طبيعته هو شكل من أشكال التصوير . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن التشخيص في المعادل الموضوعي لا يتم إلا بالنمذجة الفنية . وهذه في واقع الحال صورة كبرى أو كلية ، كما يؤكد أحد الباحثين[1] .

لعل من أهم الصور الفنية عمقاً وتعبيراً هي تلك الناجمة من استخدام تقنية المعادل الموضوعي . ولقد مرّت بنا شواهد عدّة منها . آخرها في الفقرة السابقة ، في قصيدة عوف بن محلّم الخزاعي . حيث راح يقارن بين تجربته الاغترابية وتجربة حمام الأيك . ولا شك في أن هذه المقارنة تعمق الإحساس بالاغتراب ، كما توسّع من دائرة المشاعر المتعلقة به ، إذ إن القارئ أو السامع حين يتلقى مثل هذه القصيدة فإنه يتلقى تجربتين معاً وهما تجربة الشاعر وتجربة الحمام (وهي تجربة مؤنسة بالضرورة) . وهو ما يزيد في خبرة المتلقي ويوسّع من مداركه بالتجربة المرصودة . وهذا ما نلحظه واضحاً في قول عبدالرحمن الداخل في نخله رآها

[1] - ينظر وعي الحداثة . ص : ١٠٦ .

غريبة مثله [1]:

يا نخل أنت فريدة مثلي   في الأرض نائية عن الأصل

وثمة طريقة تصويرية ،في شعرنا القديم ، وهي طريقة التصوير الوصفي . الذي لا يستخدم فيه الشاعر أي شكل بلاغي شائع كالتشبيه أو الاستعارة أو المجاز المرسل غير أنه يقدّم صورة وصفية دقيقة قد تصل إلى مستوى المطابقة مع الواقع كقول الصمة القشيري[٢]:

ألا يا حبذا نفحاتُ نجد   وريّا روضه غبّ القطار

ففي الشطر الثاني يرصد الشاعر الروضَ الريان بعد المطر بشكل وصفي . وهذه الصورة تنطبع في الأذهان ، من خلال كونها صورة واقعية من جهة ، وكونها صورة ذهنية من جهة أخرى . بالإضافة إلى كونها صورة شعورية (أو نفسية) محببة . أي أننا أمام ثلاثة أبعاد لهذه الصورة التي خلت من أي شكل بلاغي شائع .

إن هذه الصورة . وأمثالها كثر في الشعر العباسي . ترصد إحساس الشاعر تجاه الظواهر والأشياء من دون أي وسيلة بلاغية متعارف عليها . وربما لهذا السبب لم تُدرس الدراسة اللائقة بها وإن دخلت في إطار ما سمّي بالوصف . والحقيقة ، فإن هذه التقنية ليست وصفاً بقدر ما هي صورة وصفية . لأن الوصف يحمل معاني الدقة والشمول والموضوعية ، أما الصورة فتحمل معاني الإحساس والذاتية . وبما أن أمثال هذه الصور فيها من الدقة ما فيها فإنه أصبح بالإمكان اعتبارها صوراً وصفية .

---

(1)- الحلة السيراء ١ / ٣٧ .

(٢) شرح حماسة أبي تمام ٧٧٤/٢

يقول ابن يسير الرياشي [١]:

لولا البنيّة لم أجزع من العـــدم ... ولم أَجُب في الليالي حندس الظلم

وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحـــم

ويقول دعبل الخزاعي [٢]:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات

ويقول أبو نواس [٣]:

من كفّ ذات حرٍ في زيّ ذكر ... لها محبـان لوطــي وزناء

ويقول بشار [٤]:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ... ونفى عني الكرى طيفُ ألم

واضح من الصور السابقة أن الصورة الوصفية هي صورة غير مجازية . وهو ما يجعلها مختلفة من حيث اللغة الشعرية عن الصور المجازية كالتشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية . والتي تتميز بلغة شعرية مجازية بدرجة ما . وهذا ما اصطلح عليه نقادنا القدامى والبلاغيون خاصة بمصطلح العدول أو ما اصطلح عليه النقد الحديث بالانزياح . أي أن الشاعر يعدل باللغة عما استُخدمت لــه في الحياة ، إلى معنى جديد يراه معبّراً عما يريده . ومن المعروف أن نقدنا القديم كان حذراً بشكل كبير من المبالغة في العدول خوفاً من ضياع المعاني الأصيلة للمفردات ولهذا لم يفتح الباب واسعاً أمام الشعراء . ولعلّ مآخذ الآمدي على

(1) ـ طبقات ابن المعتز : ص : ٢٨١ .
(2) ـ الديوان ص : ٥٩ .
(3) ـ الديوان ص : ١١ .
(4) ـ الديوان ص : ٥٩١ .

أبي تمام يمكن فهمها من هذا الجانب . فأمام الشاعر والعدول جملة من المحاذير لا يجب تغافلها ، ولقد كان الهدف من تلك المحاذير هو الإفهام . أي أن يُفهم الشاعر سامعه بدون عناء وبدون إيهام .

وربما لهذا السبب كانت الصورة التشبيهية هي الأكثر وروداً في الشعر العربي القديم عامة . لما تتسم من تخفيف العدول إلى درجاته الدنيا . وكما تعلم فإن صور التشبيه هي بين الصور البلاغية العربية .

ونلاحظ في الإطار نفسه أن ثمة تبايناً من حيث الانتشار والذيوع بين الاستعارة المكنية والاستعارة التصريحية فبما أن الاستعارة الأولى أقلّ عدولاً من الثانية ، على صعيد اللغة الشعرية ، فقد كان لها الصدارة ، في الشعر العربي ، قياساً إلى الاستعارة التصريحية . أي أن ميل النقد العربي القديم إلى المطالبة بعدم المبالغة في العدول قد أدى إلى تصدّر صور التشبيه ، في الشعر العربي عموماً ، تليها بنسبٍ متفاوتة بقية الصورة الفنية كالاستعارة المكنية والتصريحية والكناية . . وهذا ما يلاحظه المتأمل في الشعر العباسي الاغترابي أيضاً . فلم يختلف هذا الشعر عن سواه من الشعر العربي على هذا الصعيد . فقد استمرت فيه صور التشبيه متصدرة مختلف الأشكال البلاغية . وإذا كان ثمة بعض الملاحظات الخاصة على صور هذا الشعر ، فيمكن أن نذكر ميل صور الاغتراب إلى البعد الذاتي بما يحمله من مشاعر وعواطف وأحاسيس . أي أن صور الاغتراب في هذا الشعر هي صور شعورية في المقام الأول . ونرى ذلك في شتى أشكال الصور البلاغية من مثل :

قول أبي العتاهية [١]:

أمـالي عـبرةٌ في ذكـر قـومٍ　　تفانـوا ربمـا خطـروا بـبالي

كأن مُمرَّضى قد قام يسعى　　بنعشـي بـين أربعـةٍ عجـال

وخلفي نسوة يبكين شجواً　　كأن قلوبهن على المقالـي

وقول إسحاق بن إبراهيم الموصلي [٢]:

وإني وإن مُليتُ في العيش حقبةً　　كذي سفرٍ قد حان منه رحيل

وقول أبي حية النميري [٣]:

تجودلك العينان من ذكر ما مضى　　إذا ضـنّ بالدمـع العـيون الغـوارز

ألوفان ينهلان من غصص الهوى　　كمـا انهـلّ شـقٌّ غيبـته الجـوارز

يهـيج لي نـوح الحمـام صـبابةً　　ونـوحُ مُـرنّاتٍ شـجتها الجنائـز

لتفـريق ألافٍ كأن عيـــونها　　عيون المها جازت بهنّ الأماعـز

ويتضح مما سبق أن الصور الفنية الاغترابية تميل . بمختلف أشكالها البلاغية . إلى التعبير عما هو شعوري أو انفعالي . بشكل يصح التوكيد معه أن الشاعر العباسي المغترب قد وجد في تلك الأشكال البلاغية طاقة تعبيرية يمكنه الإفادة منها في رصد عالمه الداخلي واستيعاب تجربته الاغترابية عامة .

(1)- طبقات ابن المعتز .ص : ٢٣٤ .
(2)- نفسه . ص : ٣٦٠ .
(3)- نفسه . ص : ١١٤ .

ونتوقف أخيراً عند الصور الفنية من منظور الحواس لنتبيّن أي الحواس هي الأكثر إمداداً لشعراء الاغتراب بالمعطيات الواقعية .

تنقسم الصور الحسية ـ أو ذات المعطيات الحسية ـ كما هو معلوم إلى خمسة أنواع بعدد الحواس الخمس وهي الصورة البصرية ، والسمعية ، والشمية ، والذوقية ، واللمسية . ويختلف طغيان نوع من الأنواع ، على شعر شاعر ما ، بحسب ميوله واهتماماته وطبيعة حياته وإن تكن الصورتان البصرية والسمعية هما الأهم بشكل عام عند مختلف الشعراء . كما يؤكد ذلك علماء الجمال في أحاديثهم عن الحواس الجمالية ويقصدون بها حاستي البصر والسمع[١] . ولعل السبب في ذلك هو أن هاتين الحاستين تمتلكان من المعطيات الواقعية ما لا تمتلكه بقية الحواس . ومن هنا لا غرابة في أن تكثر الصور البصرية والسمعية في الشعر ويخفُّ حضور سواهما بشكل نسبي . إن هذا الكلام الذي ينطبق على الشعر عموماً ، ينطبق بالضرورة على شعرنا المدروس ، فقد برزت الصور البصرية حتى في شعر العميان . فهذا بشار بن برد يقول [٢]:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوت كواكبه

فهذه الصورة البصرية الرائعة يبدعها شاعر أعمى وهو ما يدل على حضور الصور البصرية بكثافة حتى في شعر العميان ـ كما أسلفنا ـ ولعل هذا ما دفع ابن المعتز ليقول في بشار (وتشبيهاته على أنه أعمى لا يبصر من كل ما لغيره أحسن)[٣] ثم يستدل بما يقوله بشار أيضاً [٤] :

---

[1]ـ ينظر : النقد الأدبي الحديث ، مناهجه وقضاياه : د.سعد الدين كليب ص : ٢٠١ .
[2] ـ الديوان ص ١٤٦ . .
[3] ـ طبقات ابن المعتز ص ٢٨ .
[4] ـ المصدر السابق نفسه .

أودّ من لم ينلني من مودته ... إلا سلاماً يردّ القلب حيرانا

يا قوم إذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وعلى الرغم من توكيد بشار بن برد أن الأذن تعشق قبل العين أحياناً ، فإن صوره البصرية هي الأكثر شيوعاً (١) غير أن هذا لا يعني قلّة في الصور السمعية ولا سيما في شعر الاغتراب العباسي . إذ كثيراً ما شاق الشاعر المغترب نوحُ حمامة ، أو حنين ناقة أو صفير ريح ... الخ ولقد مرّ بنا قبل قليل قول أبي حية النميري (٢):

يهيج لي نوحُ الحمام صبابة ... ونوح مُرنّاتٍ شجتها الجنائز

ومثله قول عبدالله بن طاهر (٣):

ناحت مطوقة بباب الطاق ... فجرت سوابق دمعي المهراق

كانت تغرد بالأراك وربما ... كانت تغرد في فروع الساق

فرمى الفراق بها العراق فأصبحت ... بعد الأراك تنوح في الأسواق

ولقد ظهرت الكثير من الصور السمعية ولا سيما عند ابن الرومي الذي كثيراً ما راح يصف أصوات المغنين والمغنيات بأوصاف سمعية عديدة . يقول ابن الرومي في وحيد المغنية (٤):

يا خليلي تيمتني وحيد ... ففؤادي بها معنى عميد

ظبية تسكن القلوب وترعاها ... وقمرية لها تغريد

---

(1) - ينظر الصورة في شعر بشار بن برد . ص: ١٣٢ فما بعد . .
(2) - طبقات ابن المعتز ص : ١١٤ .
(3) - معجم البلدان ١ / ٣٠٨ .
(4) - الديوان ٢ / ٢٦٥ وما بعدها .

مد في شأو صوتها نفس كاف		كأنفاس عاشقيها ، مديد

وأرق الدلال والغنج منه		وبراه الشجا ، فكاد يبيد

فتراه يموت طوراً ، ويحيا		مستلذ بسيطه والنشيد

فيه وشي ، وفيه حلي من النغم مصوغ ، يختال فيه القصيد

ويجمع أبو نواس بين معطيات البصر والسمع والذوق في بيته الشهير [١]:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر		ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

فهو يريد أن يتذوق الخمر ويسمع رنين اسمها على مرأى من الناس .

ومما هو لافت للنظر بروز الصورة الذوقية في شعر المجون أو شعر الاغتراب الماجن . وهو ما يدل على الشهوانية الحسية . ولهذا كثرت مفردات الخمر والراح والماء والمزج والشرب والشراب . . الخ .

يقول أبو نواس [٢]:

هذا قناع الليل محسور		فاشرب فقد لاح التباشير

يسقيكها مختلق ماجن		معود للسقي نحرير

وله أيضاً [٣]:

ولكن سقني ويقول أيضاً		عليك الصرف إن أعياك ماء

ويقول واصفاً الخمرة [٤]:

---

(1) ـ المصدر السابق ص: ٢٠١ .
(2) ـ المصدر السابق ص: : ٢٠٠ .
(3) ـ المصدر السابق ص ١٣ .
(4) ـ المصدر السابق ص ١٤ .

ليست إلى النخل والأعناب نسبتها   لكـن إلى العسـل المـاذي والمـاء

نـتاج نحـل خلايـا غـير مقفـرة   خصت بأطيب مصطاف ومشتاء

ترعى أزاهير غيطان وأوديــــة   وتشرب الصفو من غدر وأحسـاء

حتى تمكن التوكيد أن من سمات شعر الاغتراب الماجن كثرة تداول معطيات الذوق .

ولا نعدم بعض الصور الشمية في شعر الاغتراب ولا سيما المكاني منه حيث يتذكر الشاعر ويتحسس نسيم بلاده كقول يحيى بن طالب الحنفي [1]:

ألا هـل إلى شمّ الخزامى ونظرة   إلى قرقرى قبل الممات سبيل

ويقول ابن الدمينة[2]:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد   لقد زادني مسراك وجداً على وجد

ويقول ابن أبي عاصية السلمي [3]:

أهل ناظر من خلف غمدان مبصر   ذرى أحد ، رمت المدى المتراخيا

فلـو أن داء اليـأس بـي وأعانـي   طبيـب بأرواح العقيـق شفـانيا

ويكثر العميان من رسم الصورة الشمية ، وقد أوردنا أمثلة مختلفة عليها .

أما الصور اللمسية فقليلة الحضور عموماً ، ولعل العميان أكثر من تعرضوا للصورة اللمسية ، فبشار (أبرز من تلقاه من الشعراء المكفوفين عناية بها ، فعوض باللمس مشكلاً بعض صوره الشعرية منها . غير أن هذه الصور تجلت في غزله ، إذ صور المرأة شيئاً ملموساً مثلما صورها

(1)- الأمالي ١ / ١٢٣ .
(2) الحماسة البصرية ٣/ ٩٩٥
(3)- معجم البلدان ١ / ١١٠ .

من قبل (صوتا) مسموعاً ، أو حديثاً جميلاً . فهي - مثلاً - جيد طويل عليه جواهر)[١] يقول [٢]:

وجيد يشبه الدر كجيد الريم سلهوب

عليه الجوهر الأخضر والياقوت منصوب

وفي نهاية المطاف فإن شعر الاغتراب العباسي قد تناول مجمل العناصر الواقعية من خلال تعدد الصور الحسية لديه وتعدّد معطياتها المختلفة . وهو ما يسوّغ لنا الحكم بأن الصور الفنية الاغترابية قد استطاعت أن تلمّ بجوانب التجربة الحياتية الاغترابية للشاعر العباسي سواء في ذلك ما هو واقعي موضوعي أم ما هو انفعالي ذاتي .

ثالثاً :الموسيقا الشعرية :

لقد بات من المستقرّ في الدراسات النقدية التي تناولت الشعر العباسي أن ما سمّي بالشعر المحدث لم يكن على قطيعة أو اختلاف حاد مع الشعر القديم ، وأن التحديث الذي تمّ في الشعر هو تحديث فرضته الحياة الجديدة ، وبما أن هذه الحياة لم تكن جديدة بكل ما تعنيه الكلمة ، فإن الشعر المحدث أيضاً لم يكن له من التحديث ما يجعله جديداً مختلفاً بجدّة عن ذلك القديم . بل ليس من الخطأ القول إن كثيراً من الشعر المحدث كان يضارع القديم في أسلوبه ولغته وصوره وموسيقاه ومعانيه وأغراضه . أي أن كثيراً من هذا المحدث لم يكن حديثاً إلا بشعرائه . فكل ما نظمه شاعر حي ، في ذلك العصر ، اعُتبر شعراً محدثاً بصرف النظر عما

---

(1)- شعر المكفوفين في العصر العباسي ٣٩٠ .
(2)- الديوان ص ٨٤ .

إذا كان هذا الشعر متفقاً أو مختلفاً عن ذاك القديم . ولعلّ الموسيقا الشعرية التي بُني عليها الشعر المحدث ـ وفي مجالنا شعر الاغتراب العباسي ـ تؤكد ذلك التواصـــل بين القديم والمحدث .

فقد استمر الشعراء في النظم على البحور الشعرية المتوارثة من دون أي إضافة أو حذف أو تغيير إلا ما اقتضته طبيعة التلحين والغناء أحياناً أو ما اقتضته النزعة الشعبية عند بعض الشعراء أحياناً أخرى .

ولا شك في أن هذا الاقتضاء لم يكن يؤدي إلى الحذف أو الإضافة أو التغيير وإنما كان يؤدي بهم إلى الميل إلى الأبحر القصيرة تارة والأبحر المجزوءة تارة أخرى [١] .

فمن المعلوم أن هذا العصر قد شهد تنامياً في أجواء اللهو والمجون والطرب . وهو ما جعل الشعراء يميلون إلى الأبحر الشعرية التي تناسب هذه الأجواء فكانت الأبحر القصيرة والمجزوءة هي المعبّرة عن هذا الميل . إن النظم على مثل هذه الأبحر ليس جديداً بحدّ ذاته ، فقد ظهر ذلك قبل هذا العصر ، بل منذ العصر الجاهلي . غير أن الجديد في هذا الشأن هو الإكثار من النظم على هذه الأبحر حتى باتت إحدى سمات الموسيقا الشعرية في العصر العباسي . وإذا أردنا أن نحدّد الأشكال الوزنية التي شاعت في هذا العصر ، فإننا نقول مع الدكتور هدّارة إن (الأوزان القصيرة التي نجدها قد شاعت في القرن الثاني هي مجزوء الكامل

---

[1]ـ ينظر: في التجديد الموسيقي لهذا العصر : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري .ص : ٥٦٦ ـ ٥٨٢ .

ومجزوء الرجز والبسيط المخلّع ومجزوء الرمل ومجزوء المنسرح والهزج والمضارع والمقتضب والمجتث والخبب ، ومجزوء المقتضب ومجزوء المتقارب)[١] .

وينقل الدكتور هدارة رأي بعض الباحثين عن علاقة الوزن في الشعر العربي ومادة الشعر نفسه فالرمل ـ مثلاً ـ من الأبحر التي (أدرك بعض المرقين من طبقة المولدين رقته وعذوبته فتعاطوه في غزلياتهم واستغلوا ناحية الأسى فيه لتصوير مجونهم وغرامياتهم ومن ذلك ما فعله بشار في رائيته الرملية الفاجرة)[٢]والتي تنم عن اغتراب دفين وعقدة متأصلة ، فهو يفهم المرأة فهماً عبثياً صارخاً ، بسبب إحساسه بنقصه ، ولا يرى فيها غير الجسد .

يقول بشار [٣]:

عجبت فطمة من نعتي لها — أيجيد النعت مكفوف البصر

أذرت الدمع وقالت ويلتي — من ولوع الكف ركاب الخطر

أمتا بدد هذا لعبي — ووشاحي حله حتى انتثر

وينغم العباس بن الأحنف كثيراً من اغترابياته على الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، فيقول ـ من مجزوء الكامل ـ واصفاً غربته المكانية [٤]:

بلغي يا ريح عنا — أهل بغداد السلاما

بأبي من كان مشغو — فاً بقربي مستهاماً

فقضى الله علينا — أن شحطنا وأقاما

---

(1)ـ المرجع السابق ـ ص : ٥٦٩ .
(2)ـ المرجع السابق ص ٥٧٠ .
(3)ـ الديوان ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .
(4)ـ الديوان ص ٢٣٧ .

ويستغل أبو نواس هذه الأوزان القصيرة ذات الدندنة لعبثياته ، فيستخدم بحر المجتث . مثلاً . في هذا الغرض [١]:

ألا قــولا لحمــدان　　　أيــا فاســق مــردان

لقــد أنبــئت تهديــد　　　ك ، إيــاي فأغرانــي

فيا ويلي على إعــرا　　　ض حمـدان الخراساني

وفي مقابل أجواء المجون والطرب التي فرضت مثل هذه الأبحر الشعرية ، نجد النزعة الشعبية التي أصبحت طاغية بحيث لا يمكن إغفالها . ولقد وعى نقادنا القدامى هـذه النـزعة في تعليقهم على شعر بشار بن برد في قوله [٢]:

ربابــة ربــة البــيت　　　تصــب الخــلّ بالــزيت

لـها عشــر دجاجــات　　　وديك حســن الصوت

كما أنهم انتبهوا إلى ميل العامة إلى شعر أبي نواس وأبي العتاهية [٣] . غير أنهم لم يلتفتوا إليها التفاتهم إلى شعر المجون ، ولهذا لم يكن لشعر النزعة الشعبية ذلك الذيوع الذي كان لشعر المجون . ولو تأملنا الأمر جيداً لوجدنا أن كثيراً من شعر المجون ينطوي تحت النزعة الشعبية ، من منطلق أن هذا الشعر غالباً ما يكون هو شعر القاع الاجتماعي حيث أماكن اللهو والمجون والتهتك .

(1)- الديوان ص ٥٤٦ .
(2)- الديوان ص: ٢٢٦ .
(3)- مسائل البلغاء ص : ٣١٩ (عن هذارة . ص : ٥٩٤) .

إن شعر النزعة الشعبية . أو الشعر الشعبي العربي إن جاز التعبير . قد تعرّض لمختلف جوانب الحياة بطرائق فنية ميسّرة لغةً ومعانيَ وأساليبَ إضافة إلى الموسيقا الشعرية الخفيفة والقصيرة واللينة . وثمة كثرة كثيرة من شعر الاغتراب العباسي تقع تحت هذه النزعة يقول أبو الشمقمق شاكياً من غربته المكانية ومتشوقاً إلى البصرة . والبيتان من مجزوء الرمل [1]:

أنــا بالأهــواز محــزو ... ن وبالبصـــــرة داري

في بني سعد ، وسعد ... حيث أهلي وقراري

صـــرت كالخفــاش لا أبصـــر إلا بالنهـــار

ويقول ساخراً من بؤسه وفقره ، والأبيات من المجتث [2]:

الحمـــد لله شـــكراً ... أمشي ويركب غيري

قد كنت آمل طرفــاً ... فصرت أرضى بعيري

ومما يمكن أن نلاحظه على الموسيقا الشعرية لشعر الاغتراب العباسي هو الميل الكبير إلى شعر المقطعات أو البيت والبيتين . وكأن الإحساس الاغترابي القاسي يأبى أن يُكثّف إلا ببعض الأبيات وينفر من المطولات . وإذا ما ذكرنا أن شعراء هذا العصر ، ممن كان لهم باع في شعر الاغتراب ، كانوا يدبجون القصائد الطوال في الأغراض الشعرية التقليدية من مثل المديح أو الرثاء ، لكنهم حين يعبّرون عن إحساسهم الاغترابي يميلون إلى الأبيات المفردة في ثنايا قصائدهم أو إلى المقطعات المستقلة . وقلما قرأنا قصيدة اغترابية مطوّلة بل حتى ابن الرومي ، الشاعر الاغترابي الأكبر ، والذي تصل بعض قصائده المدحية إلى ما يقرب من ثلاثمائة بيت ،

(1)- شعراء عباسيون : غروبناوم ص : ١٣٦ .
(2)- المرجع السابق نفسه .

نراه لا يتوقف إلا لماماً عند الاغتراب ببعض الأبيات أو بعض المقطعات . ونرى أن هذا يشير إلى ضآلة الاهتمام الشعري العباسي بالوجدان الذاتي . إذ قلما قرأنا شعراً وجدانياً صرفاً في هذا العصر . ولو انتبه الشعراء العرب إلى مثل هذا في إحساسهم الاغترابي لكان بين أيدينا الكم الهائل من شعر الوجدان الذاتي ، ولما اضطرّ عباس محمود العقاد إلى دعوته الملحة إلى شعر الوجدان في كتابه (الديوان) في بداية العقد الثالث من القرن العشرين .

ونود الإشارة هنا إلى أن هذا الميل إلى المقطعات أو الأبيات المفردة ، يمكن اعتباره شكلاً من أشكال النزعة الشعبية حيث تتسم الأشكال الشعرية الشعبية عموماً بالابتعاد عن التطويل . وربما يعود ذلك إلى أن ثمة رغبة في الحفظ والتداول . والقصائد المطولة يصعب حفظها أو تداولها .

وفي هذا الإطار أيضاً نلاحظ ابتعاد شعر الاغتراب العباسي عن الموسيقا الصاخبة والمجلجلة التي يتسم بها عادة شعر الحرب والحماسة أو تتصف بها أيضاً بعض الأغراض الشعرية كالمديح والفخر . ولعلَّ من أوضح الأمثلة على ذلك بائية بشار التي مطلعها [١] :

جفا وده فازور أو مل صاحبه   وأزرى به أن لا يزال يعاتبه

أو بائية أبي تمام في المعتصم التي يقول في مطلعها [٢]:

السيف أصدق أنباءً من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

إن مثل هذه الموسيقا الصاخبة قلّما نجدها في شعر الاغتراب ولا شك في أن هذا يعود إلى طبيعة المشاعر التي تدفع الشاعر إلى التعبير وهل هي طبيعة انفعالية عالية أو طبيعة

(1)- الديوان ص ١٤١ .
(2)- الديوان ص ١ / ٣٢ .

انفعالية معمّقة وحزينة أو كئيبة . ومن الطبيعي أن تكون مشاعر الحزن ذات إيقاع خافت ومهموس ، ويبدو من التناقض المخلّ أن يكون هنالك تباعد بين الموسيقا الشعرية والحالة الشعورية كأن تكون هذه صاخبة وتلك هادئة أو العكس . وغنيٌّ عن البيان أننا لا نقصد بهذا الكلام موسيقا الأبحر الشعرية . هذه الموسيقا التي تتلاءم مع كل المشاعر والأحاسيس . فليس من الصواب تحديد هذا البحر أو ذاك بمشاعر أو معان أو أغراض معينة فديوان الشعر العربي ، عبر تاريخه يثبت أن ليس هنالك بحر مخصص لمثل ذلك . فالبحر الطويل مثلاً نراه في الحرب والحماسة والحزن والرثاء والفخر والمنافرة والكآبة والاغتراب والفرح والغزل والحكمة . . إلخ . ولكننا نقصد مما قلنا سالفاً الموسيقا اللفظية في إطار القصيدة . فقد يستخدم الشاعر ألفاظاً ذات جرس عال في موقف ما ، كما يستخدم في موقف آخر ألفاظاً ذات جرس هادئ أو رشيق أو حزين . . إلخ . وذلك كقول عبدالرحمن الداخل [١]:

أيها الراكب الميمم أرضي   أقر من بعضي السلام لبعضي .

أو كقول على بن الجهم [٢]:

وارحمتا للغريب في البلد النا   زح مــاذا بنفســه صــنعا
فـارق أحبابه فما انتفعــوا   بالعيــش من بعده ولا انتفعا

أو كقول أبي نواس [٣]:

(1)ـ الحلة السيراء ١ / ٣٦ .
(2)ـ الديوان ص : ١٥٩ .
(3)ـ الديوان ص : ٤٧ .

حامل الهوى تعب   يستخفّه الطرب

ونشير أخيراً إلى ظاهرة موسيقية لفظية وهي ظاهرة التنغيم الصوتي عبر توالي الحروف المتماثلة أو المتقاربة في المخارج ، أو عبر تكرار حرف محدد مرات عدّة . وعلى الرغم من قلّة شيوع هذه الظاهرة ، فإن ثمة العديد من القصائد الشعرية الاغترابية قد حملت هذا التنغيم الصوتي . ولعلّ سينية البحتري تكون شاهداً فذّاً على ذلك . يقول البحتري معبراً عن غربته الاجتماعية والسياسية [١]:

صنت نفسي عما يدنس نفسي   وترفعت عن جدا كل جبس

وتماسكت حين زعزعني الدهـــر التماســـاً منه لتعسي ونكســـي

وكأن الزمان أصبح محمو   لاً هـواه مع الأخـس الأخـس

حضــرت رحلي الهموم فوجـهت إلى أبيـض المـدائن عنسـي

أتســلى عن الحظوظ وآسى   لمحـل من آل ساسـان درس

فقد اختار السين قافية لهذه القصيدة الاغترابية الباكية ، وكرره كثيراً في معظم أبيات القصيدة ، والسين حرف وسوسة وهمس ، يوافق حال الشاعر المغتربة المضطربة .

وغالباً ما يكون هذا التنغيم متلائماً مع الحالة الشعورية التي تعالجها القصيدة . ويمكن أن نذكر في هذا المجال بقصيدة عوف بن محلم الخزاعي التي مرّت بنا سابقاً ، والتي مطلعها [٢]:

أفي كل عام غربة وتروح   أما للنوى من ونية فتريح

(1)- الديوان ص ٦٣١ وما بعدها .
(2)- طبقات ابن المعتز ص١٨٧ .

فقد كرّر فيها الشاعر حرف الحاء (١٧) مرّة في ستة أبيات فقط . وهو رقم عال نسبياً قياساً بالشكل الطبيعي لورود هذا الحرف في الشعر . وإذا ما تأملنا علاقة حرف الحاء بالحالة الشعورية النائحة فإننا نلمس علاقة خفية وطريفة بينهما . فالحالة الشعورية التي تعبر عنها الأبيات هي حالة نوحٍ وبكاء ،وحرف الحاء بما فيه من بحّة صوتية يتلاءم تماماً مع تلك الحالة . والشعراء المغتربون ، في هذا العصر ، أحدثوا في الأوزان القديمة (تجديدات موسيقية في داخل الأبيات عن طريق تساوي العبارات أو عن طريق وجود قواف داخلية)[1] ويعمدون إلى تجزيء الجمل الشعرية ، فتحدث نغمات متتابعة ، ورنين موسيقي متقطع ، في مثل قول عبيدالله بن طاهر [2]:

أيرحل آلف ويقيم إلف   وتحيا لوعة ويموت قصف

وهكذا نتوصل إلى أن البنية الفنية لشعر الاغتراب العباسي قد استطاعت ببراعة أن تحمل معاني الأسى والحزن والعزلة والغربة ... . سواء أكان ذلك فيما يتعلق باللغة الشعرية أم الصورة الفنية أم الموسيقا الشعرية ولا شك في أن ثمة جوانب فنية أخرى لم نتعرض لها في هذا الفصل وذلك لاكتفائنا بما هو أساسي في البنية الفنية عامة ، من دون الوقوف عند الجزئيات أو المظاهر غير الشائعة أو العرضية .

---

(1)ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ص ٥٨٢ .
(2)ـ معجم البلدان ١ / ٤٦٣ .

الخـــاتمة

لم تكن ظاهـرة الاغـتراب خاصـة بجيل دون جيل ، ولا وقفاً على عصر دون عصر ، فقد لازم الاغـتراب الإنسـان منذ خطواته الأولى ، ومنذ أن وعى التناقضات وصدم بمرارة واقعه ، ومنذ أن وجد نفسه في مواجهة دائمة مع العالم من حوله .

وقد ظل الاغـتراب مرافقاً للإنسـان ، حتى غدا سمـة من سمات حياته المعذبة ، إذ عانى من عـذاب الـوحدة والعجـز عـن الاتصـال بالآخـرين ، مـثلما عجـز عـن كبح غرائزه واندفاعاتـه وإحباطاته الداخلية فانفصل عن ذاته كما انفصل عن الآخرين من قبل . وظل الإنسان المغترب يعاني من بعد واقعه عن تصوره المثالي للحيـاة وللناس ، ولهذا فقد انسلخ عن مجتمعه ، وعاش في عزلة كئيبة .

والمغـترب يشـعر بعجـزه عـن الـتلاؤم مع من حوله ، ويخفق في تكيفه مع مجتمعه ، ويفقد الشعور بالانتماء ، ويصل به الأمر إلى أن يفقد مغزى الحياة .

ومن هـنا فقـد درسـنا هـذه الظاهـرة عـند شـعراء العصـر العباسـي حتى نهايـة القـرن الـثالث الهجـري ، ورأيـنا أن هـناك عـوامل مـتعددة سـاهمت في تفشـي هـذه الظاهـرة في نفوس كثير من شعراء هذا العصر الذي كان يموج بالتناقضات ، وتطغى ماديته على حساب إنسانية إنسانه .

وقد كشف لنا الشعر معاناة شاعرنا العباسي وانفصاله ، ونضاله في سبيل تحقيق ما كان يطمح إليه من مثالية مفقودة .

وجـاء الشـعر المغـترب صـورة لهـذا المجتمع الذي أتخمنا ببذخه الحضـاري بينما خفـت صـوت إنسانه ، فقد كانت الهوة ساحقة بين طبقاته ، والفجوة متسعة بين طرفيه .

وإذا كان هناك من اغترب عن مجتمعه أو ذاته لأن رغباته كانت أقوى من ضميره ، فإن جل شعراء هذا العصر اغتربوا بحثاً عن الأفضل ، لأنهم رفضوا واقعهم المزري الذي فرض عليهم فرضاً .

إن هذه الظاهرة في العصر العباسي لا تشكل حالة مرضية ، وإنما تشكل صوت احتجاج حر على الواقع الأليم ، وتمثل طموحاً مثالياً يتوق إلى اتصال رفيع المستوى ، فالشاعر المغترب يسعى إلى هدم النقائض ، ويحاول جاهداً رتق الخلل ، وسد الفجوات . وإن كنا نستثني من هذا الحكم أولئك الشعراء الذين غرقوا في شهواتهم الخاصة وباعوا أنفسهم للذات الحسية .

ولقد توصلنا إلى جملة من النتائج التي تتعلق بالاغتراب من جهة وبجمالية الشعر الاغترابي من جهة أخرى . أما ما يتعلق بموضوع الاغتراب فقد رأينا ما يلي :

١ـ أن للسلطة السياسية في العصر العباسي أهمية كبيرة في تفاقم ظاهرة الاغتراب ، ومعاناة الشعب المريرة من الصراعات السياسية والمناحرات المذهبية ، وانشغال الخلفاء بمصالحهم الخاصة التي جاءت على حساب مصلحة المجتمع . وتسليطهم للوزراء والكتاب والعمال على رقاب الشعب ، وتركهم يعبثون كيف شاءوا دون مراقبة ولا حساب وهذا ما انعكس بالضرورة في الجانب القيمي والنفسي للشاعر العباسي حيث اضطربت قيمه بمختلف جوانبها مما جعله عرضة لأي هزة نفسية أو قيمية فكان الاغتراب مصيره المحتوم .

وكان دور العامل الاقتصادي فعالاً في انفصال الإنسان عن ذاته وعن الآخرين لأن للمال سلطة عظمى في هذا العصر . كما كان لاستئثار الحكام والمتنفذين بالأموال أثر كبير في تغريب المجتمع

واتساع الفجوة بين طبقاته ، فجاء بذخ المتسلطين على حساب الرعية الجائعة التي يزداد حس الاغتراب لديها تعمقاً و تأصلاً .

ولم يكن الجانب الاجتماعي في تعدده العرقي وصراع أجناسه المختلفة وتمايزه الحضاري أقل أثراً مما سبق ، إذ تقطعت الوشائج بين الناس ، فعاش الفرد غربة موغلة في بعدها ونكايتها .

٢ـ شعر النازحون من ديارهم ، لأسباب سياسية ، بغربة شديدة فقد عصرهم ألم البعد وأضناهم فراق الأحبة ، وضاعف مأساتهم تلاشي آمالهم في العودة إلى أوطانهم ، فكانوا مدفوعين دفعاً إلى هذه الغربة القهرية.

وكانت هناك غربة اقتصادية دفعت إليها الحاجة والفقر . وعلى الرغم مما وجده هؤلاء المغتربون في البلدان التي حلوها ، وما وصل إليه بعضهم من مكانة ونفوذ ، إلا أن ذلك لم ينسهم دفء أوطانهم ، ولا بأس من الإشارة إلى أننا بدأنا نشهد تنامي الحس والشعور بالوطن ، وهذا مما هو جديد بالنسبة إلى الشاعر العربي الذي كانت الجزيرة العربية كلها وطناً له .

٣ـ استفحل شعر المجون المغترب عند شعراء المجون بحثاً عن لذة مفقودة تعوض شعورهم بالنقص حيناً والحقد أحياناً . وقد انفصلوا ، واعين أو غير واعين ، عن ذواتهم الأصيلة حتى وصل هذا الانفصال في بعض مراحله إلى تخل كامل عن إنسانيتهم .

وقد مر بنا كيف أن الكثيرين من شعراء الغربة الذاتية قد باعوا أنفسهم للمال مهدرين كرامتهم ، ومتخلين عن مبادئهم وقيمهم .

وفي جانب آخر كان الشعراء الموالي والشعراء السود يشعرون شعوراً مريراً بتدني قيمتهم في

مجتمع كانت النعرة العنصرية فيه طاغية على الرغم من القيود الكثيرة التي وضعها الدين للقضاء على هذه النزعة الجاهلية .

ومثلما أحس هؤلاء بنقصهم العرقي ، عانى شعراء آخرون من عقدة نقص مرضية كانت لأسباب عاهة أشعرتهم بدونيتهم عمن حولهم ، ومن هنا جاء شعر العميان وهو يحمل تميزاً ولوناً خاصاً .

وأجاد الشعراء المغتربون لأسباب اقتصادية ، التعبير عن اغترابهم ، واستطاع بعضهم أن يحول هذا الاغتراب إلى شكل من أشكال الكوميديا .

٤ـ استطاع الشعراء الصعاليك ، ببراعة فائقة ، رسم حدود عالمهم المغترب ، وتصوير طبقتهم المطحونة ، ونقل صورة واقعهم المؤلم ، فكانت قصائدهم المغتربة ، على قلة نتاجهم ، تحمل من النقل الحيّ لحقيقة المجتمع العباسي ، ما يفوق زيف أولئك الشعراء المنتفعين الذين نقلوا غير الحقيقة ، وزيفوا وتزيدوا .

وقد حمل الشعراء المغتربون اجتماعياً ، الدنيا والزمن أخطاء مجتمعهم ، وكانت الدنيا شماعة يعلقون عليها تجاوزات السلطة والآخرين .

وتمكن هؤلاء المغتربون من رصد مشاعرهم تجاه الآخرين ، فقد كان الآخر خصماً يحمل لسان المنافق وطبع الذئب الغادر ، وكان متسلقاً نفعياً متقلباً ، ومن هنا لا بد أن يكون الانفصال بديلاً للعلاقة المفقودة . وقد أدت العلاقة المتوترة بين الشعب والحكومة ، وبين عناصر المجتمع ذات النزعات العرقية المختلفة ، إلى وجود هوة سحيقة ، وتباعد بين الأحزاب والقيادة وبين الأفراد والسلطة ، وكذلك بين فئات المجتمع نفسه ، إذ ظهر عندنا ثلاثة أصناف من الاغتراب

السياسي : اغتراب عنصري شعوبي ، واغتراب مذهبي شيعي ، واغتراب فردي ، وجمع بين هذه الأصناف الثلاثة موقف واحد يتسم برفض الواقع ، ويحمل شعارات المعارضة السلمية التي يعلو فيها صوت الاحتجاج والرفض ، والمعارضة المسلحة التي تتميز بالتمرد والمواجهة.

٥ . أما على الصعيد الفني والجمالي ، فقد وجدنا أسلوبية معينة يتسم بها شعر الاغتراب ولعل أهمها :

أ . الميل إلى استخدام تقنية المعادل الموضوعي .

ب . الميل إلى البساطة في المعجم اللغوي الشعري ، حيث اقتربت لغة الشعر من لغة الحياة اليومية أحياناً .

جـ .استخدام الشعراء المغتربين مختلف أشكال الصور الفنية ذات المصادر الحسية كالذوق والشم والسمع ، فالصورة الذوقية مثلاً كثرت عند شعراء المجون ، والصورة السمعية كثرت عند الشعراء المكفوفين والصورة الشمية كثرت عند شعراء الاغتراب المكاني .

د . كثرة استخدام الأوزان الشعرية القصيرة والأبحر المجزوءة ، مما جعل الموسيقى الشعرية قريبة من حياة البسطاء .

وأخيراً فإن العصر العباسي لا يزال بحاجة إلى دراسة أكثر عمقاً للكشف عن أغوار تلك النفوس الشاعرة التي عاشت معذبة في عصر تنازعته تيارات مختلفة .

المصادر والمراجع

أولاً : المصـــادر :

١. الإشارات الإلهية : أبو حيان التوحيدي ، تحقيق : د. وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٣م .

٢. الإصابة في تمييز الصحابة : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق : د. طه الزيني ، المكتبات الأزهرية ، ١٩٧٧م.

٣. الأمالي : أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت

٤. الأوراق : أبو بكر محمد بن يحيى الصولي . دار المسيرة ، بيروت . لبنان . الطبعة الثانية ، ١٤٠١هـ / ١٩٨٢م .

٥. البداية والنهاية : الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، تحقيق : د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، هجر للطباعة والنشر ، ١٤١٩هـ .

٦. بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس : الإمام أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر القرطبي ، تحقيق : محمد مرسي الخوالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨١م .

٧. البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح :

عبدالسلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٠هـ .

٨. تاج العروس من جواهر القاموس : السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ .

٩. تاريخ الأمم والملوك : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧هـ .

١٠. تاريخ الخلفاء : الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : إبراهيم صالح ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٧هـ .

١١. الحلة السيراء : ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعي ، تحقيق وتعليق : د . حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣م.

١٢. الحماسة : ابن الشجري أبو السعادات هبة الله بن حمزة ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، ١٣٤٥هـ .

١٣. الحماسة البصرية : صدر الدين على بن أبي الفرج الحسن البصري ، تحقيق : د . عادل سليمان جمال ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٢٠ هـ .

١٤. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبدالقادر بن عمر البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨هـ .

١٥. ديوان الأخطل : شرح مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م .

١٦. ديوان الإمام الشافعي : محمد بن إدريس ، تحقيق وشرح : د. إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٦ ، ١٤٢٢هـ .

١٧. ديوان البحتري : شرح وتعليق : د. محمد التونجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٤هـ

١٨. ديوان بشار بن برد : شرح وتقديم ، مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣هـ.

١٩. ديوان الخوارج : تحقيق : نايف معروف ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٨٣م

٢٠. ديوان دعبل الخزاعي :شرح وتقديم : ضياء حسين الأعلمي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٤١٧هـ.

٢١. ديوان أبي دلامة : شرح وتحقيق : د . إميل بديع يعقوب ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٤هـ .

٢٢. ديوان أبي دهبل الجمحي وهب بن زمعة بن أسيد ، روايه أبي عمرو الشيباني ، تحقيق : عبدالعظيم عبدالمحسن ، النجف ، ١٩٧٢م .

٢٣. ديوان ديك الجن الحمصي : تحقيق وشرح : أنطوان محسن القوال ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٥هـ .

٢٤. ديوان ابن الرومي : شرح وتحقيق : عبدالأمير علي مهنا ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٤١١هـ.

٢٥. ديوان الصعاليك : الشنفرى ، عروة بن الورد ، تأبط شراً ، السليك بن السلكة ، شرح : د. يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيروت .

٢٦. ديوان الصمة بن عبدالله القشيري : تحقيق : عبدالعزيز محمد الفيصل ، النادي الأدبي ، الرياض ، ١٩٨١م

٢٧. ديوان طرفة بن العبد : دار صادر ، بيروت .

٢٨. ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات : تحقيق : د. محمد يوسف نجم دار بيروت ، لبنان ، ١٤٠٠هـ .

٢٩. ديوان أبي العتاهية : شرح وتقديم : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٧ هـ .

٣٠. ديوان القتال الكلابي عبيد الله أو عبيد عبيد المضرحي : تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦١ م .

٣١. ديوان المعاني : أبو هلال حسن بن عبد الله العسكري ، مكتبة المقدس ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ.

٣٢. ديوان ابن المعتز : دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ .

٣٣. ديوان أبي نواس :شرح وتقديم : علي فاعور ، دار الكتب العلمية ،بيروت ، ١٤١٤ هـ .

٣٤. رسائل الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، شرح وتعليق : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٠هـ .

٣٥. زهر الآداب وثمر الألباب : أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ط٣ ، ١٩٥٣م .

٣٦. شرح حماسة أبي تمام : الأعلم الشنتمري أبو الحجاج يوسف بن سليمان ، تحقيق وتعليق : د. علي المفضل حمودان ، دار الفكر ، لبنان ، ١٩٩٢م .

٣٧. شرح ديوان أبي تمام : الخطيب التبريزي ، تقديم : راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١٤هـ .

٣٨. شرح ديوان جرير : شرح : تاج الدين شلق ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٣ هـ .

٣٩. شرح ديوان العباس بن الأحنف : شرح : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢، ١٤١٧هـ.

٤٠. شرح ديوان امرئ القيس ويليه أخبار المراقسة وأشعارهم وأخبار النوابغ وآثارهم في الجاهلية وصدر الإسلام : جمع وتحقيق : حسن السندوبي ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط٢، ١٤١٦هـ .

٤١. شرح المعلقات السبع : الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨هـ .

٤٢. شرح الهاشميات : محمد محمود الرافعي ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، مصر ، ط٣

٤٣. شعر الخوارج : تحقيق : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

٤٤. الشعر والشعراء : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، تحقق : د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ .

٤٥. شعراء أمويون : تحقيق : نوري حمودي القيسي ، مؤسسة دار الكتب ، جامعة الموصل ، ١٩٧٦م .

٤٦. صحيح مسلم : تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٥م .

٤٧. طبقات الشعراء : عبد الله بن المعتز ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، مصر ، ط٣ ، ١٣٧٥هـ .

٤٨. طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحى ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية بمصر .

٤٩. العقد الفريد : أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي ، تحقيق : أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الابياري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٥م .

٥٠. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية : محمد بن علي بن طباطبا . ابن الطقطقي . مكتبة محمد علي صبيح ، الأزهر ، ١٣٨١هـ .

٥١. الفهرست : محمد بن إسحاق بن النديم ، دار المعرفة ، بيروت

٥٢. الكامل في التاريخ : عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤١٤هـ .

٥٣. المحاسن والأضداد : الجاحظ ، تحقيق : فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، ١٩٦٩م .

٥٤. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء : الراغب الأصفهاني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٥٥. مدارج السالكين : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد النقي ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

٥٦. مروج الذهب ومعادن الجوهر : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت .

٥٧. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص : الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي ، تحقيق :محمد محيي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٣٦٧ هـ .

٥٨. معجم الأدباء ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب : ياقوت الحموي ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٣ م .

٥٩. معجم البلدان : ياقوت الحموي ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان ، ١٩٧٩ م

٦٠. معجم الشعراء: الإمام أبو عبيد الله محمدبن عمر المرزباني . صححه وعلق

عليه الاستاذ المستشرق د .ف . كرنكو ، دار الكتب العـلمية ، بيروت ط ٢ ، ١٤٠٢هـ

٦١. معجم المقاييس في اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو ، دار الفكر ، بيروت ط ٢ ، ١٤١٨هـ .

٦٢. المعمرون والوصايا : أبو حاتم السجستاني ، تحقيق : عبدالمنعم عامر ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

٦٣. المفضليات : المفضل الضبي ، تحقيـق : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٨ .

٦٤. مقدمة ابن خـلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، تحقيق : درويش جويدي ، المكتبة العصرية ،صيدا ، بيروت ، ١٤٢٢هـ .

٦٥. المنازل والديار : أسامة بن منقذ ، تحقيق : مصطفى حجازي ، مطابع الأهرام ، مصر ،1415 هـ .

٦٦. منتهى الطلب من أشعار العرب :جمع : محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون ، تحقيق : د. محمد نبيل طريفي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٩م .

٦٧. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري : أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحميد ، المكتبة العلمية ، بيروت .

٦٨. الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء : أبو عبدالله محمد بن عمران بن

موسى المرزباني ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥هـ .

٦٩. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس أحمد بن محمد ابن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق ، د. يوسف علي طويل ، د. مريم قاسم طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٩هـ .

ثانيا : المراجع

١. الأدب في عصر العباسيين : د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

٢. أدباء السجون : عبد العزيز الحلفي ، دار الكاتب العربي ، بيروت .

٣. الأسر والسجن في شعر العرب : د. أحمد مختار البرزة ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ١٤٠٥ هـ .

٤. أصول علم النفس : د. أحمد عزت راجح .

٥. الإنسان والاغتراب : مجاهد عبد المنعم مجاهد ، مطابع الإنشاء ، دمشق ، ١٩٨٤ م .

٦. بعض المتغيرات النفسية المرتبطة بالشعور بالاغتراب : عفاف محمد عبد المنعم ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٨ م .

٧. البنية الجمالية في الفكر العربي الإسلامي : د. سعد الدين كليب ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٧ م .

٨. البنيوية في الأدب : روبرت شولز ، ترجمة : حنا عبود ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨٤ م .

٩. بين الكتب والناس : عباس محمود العقاد – القاهرة – مصر ١٩٥٢ م .

١٠. تأملات في الحضارة والاغتراب : عزيز السيد جاسم ، دار الشؤون الثقافية

العام ، بغداد ، ١٩٨٦م .

١١. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي : د. حسن إبراهيم حسن ، دار الجيل ، بيروت ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط١٤ ، ١٤١٦ هـ .

١٢. التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ، المكتب الإسلامي : بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧ هـ .

١٣. تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري : نجيب محمد البهبيتي ، دار الفكر ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٧٠ م.

١٤. تاريخ عصر الخلافة العباسية : د. يوسف العش ، راجعه ونقحه : د. محمد أبو الفرج العش ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٩ هـ .

١٥. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : د. محمد مصطفى هدارة ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ١٩٨١ م .

١٦. تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث : د. نعيم اليافي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٨٣ م .

١٧. الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي : محمد إبراهيم حور ، دار النهضة ، مصر .

١٨. الحنين و الغربة في الشعر العربي الحديث : د. ماهر حسن فهمي ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٠ م .

١٩. الحياة والموت في الشعر الأموي : د. محمد حسن الزير ، دار أمية ، الرياض ، ١٤١٠ هـ .

٢٠. دراسة تحليلية للاغتراب وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية لدى الشباب : محمد إبراهيم عيد ، رسالة دكتوراه ، كلية التربية ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٧م .

٢١. دراسات فنية في الأدب العربي : د. عبد الكريم اليافي ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

٢٢. دراسات في تاريخ الخلافة العباسية : د. أمينة البيطار ، مكتبة دار القلم والكتاب ، الرياض ، ط٢ ، ١٤٢٠ هـ .

٢٣. ديوان الشعر العربي – الكتاب الثاني – تقديم : علي أحمد سعيد (أدونيس) ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٤ م .

٢٤. ابن الرومي حياته من شعره ، عباس محمود العقاد : المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ط٦ ، ١٣٩٠ هـ .

٢٥. ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره : إيليا سليم الحاوي ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٥٩ م .

٢٦. الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول : د. حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٤ م .

٢٧. زهد المجان في العصر العباسي : د. علي إبراهيم أبو زيد ، دار الثقافة مصر ، ١٩٨٦ م .

٢٨. سيكولوجية الاغتراب : أحمد خيري حافظ ، دراسة ميدانية رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٨٠ م .

٢٩. الشاعر مفكراً : عبد الله التطاوي ، دار غريب ، القاهرة .

٣٠. شخصية بشار : محمد النويهي ، دار الفكر ، ط٢ ، ١٩٧١ م .

٣١. شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري : د. إبراهيم شحاده الخواجة ، شركة كاظمة ، الكويت ، ١٩٨٤م .

٣٢. شعر الاغتراب في الأدب العربي : د. ماهر حسن فهمي ، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة ، الجزء (٢٥) ، ١٣٨٩ هـ .

٣٣. شعر المكفوفين في العصر العباسي : د. عدنان عبيد العلي ، دار أسامة ، الأردن ، ١٩٩٩م .

٣٤. الشعر والشعراء في العصر العباسي : د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٨٦ م .

٣٥. شعراء الزهد في القرنين الثاني والثالث الهجري : د. علي نجيب عطوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١٠ هـ .

٣٦. الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي : د. عبده بدوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨م .

٣٧. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : د. يوسف خليف، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٣ .

٣٨. الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول : د. حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٩٧ م .

٣٩. شعراء عباسيون : أبو دلف العجلي ، أبو علي البصير ، ابن بسام ، د. يونس أحمد السامرائي .

٤٠. شعراء عباسيون : محمد بن وهيب الحميري ، أحمد بن أبي فنن ، يزيد المهلبي : إبراهيم بن المدبر ، د. يونس أحمد السامرائي ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ .

٤١. شعراء عباسيون : مطيع بن إياس ، سلم الخاسر ، أبو الشمقمق ، غوستاف فون غرنباوم ، ترجمة وتحقيق : د. محمد يوسف نجم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

٤٢. الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية : د. حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٧ م .

٤٣. الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول : د. زاهية قدورة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ .

٤٤. الصورة في شعر بشار بن برد : د. عبدالفتاح صالح نافع ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٣م .

٤٥. ضحى الإسلام : أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١٠ .

٤٦. ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء : د. عفيف

عبدالرحمن ، دار العلوم ، الرياض ، ١٤٠٣هـ .

٤٧. ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات : د. مي يوسف خليف ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

٤٨. ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي : أحمد خليل ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٩م

٤٩. ظهر الإسلام : أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٧٧م

٥٠. العصر الإسلامي : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط٦ .

٥١. عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية ـ العراق ـ إيران) : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٣م .

٥٢. العصر العباسي الأول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١٠.

٥٣. العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٧.

٥٤. الاغتراب : د. أحمد أبو زيد ، عالم الفكر ، المجلد(١٠) العدد (١) ، الكويت ، ١٩٧٩م .

٥٥. الاغتراب ـ سيرة مصطلح ـ د. محمود رجب ، دار المعارف ـ القاهرة ، ط٤ ، ١٩٩٣م .

٥٦. الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً : د. قيس النوري ، عالم الفكر ، المجلد (١٠) العدد (١) ، الكويت ، ١٩٧٩م .

٥٧. الاغتراب عند إيريك فروم : د. حسن محمد حسن حماد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٤١٥هـ .

٥٨. الاغتراب في الإسلام : د. فتح الله خليف ، عالم الفكر ، المجلد (١٠) ، العدد (١) ، الكويت ، ١٩٧٩م .

٥٩. الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي : عزيز السيد جاسم ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٤٠٦هـ .

٦٠. الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب : د. أحمد عودة الله الشقيرات ، دار عمار ، الأردن ، ١٤٠٧هـ .

٦١. الاغتراب في الشعر العربي : د. فاطمة حميد السويدي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٧م .

٦٢. الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري : د. سميرة سلامي ، دار الينابيع ، دمشق ، ٢٠٠٠ م .

٦٣. الاغتراب في الفلسفة المعاصرة : مجاهد عبدالمنعم مجاهد ، سعد الدين للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٤٠٥هـ .

٦٤. الاغتراب في الفن : د. عبدالكريم هلال خالد ، منشورات جامعة قار يونس - بنغازي ، ليبيا ، ١٩٩٨م .

٦٥. الاغتراب النفسي : د. إبراهيم عيد ، الرسالة الدولية للإعلان .

٦٦. الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر : د. نبيل رمزي سكندر ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨م .

٦٧. الاغتراب وبعض متغيرات الشخصية : د. رشاد صالح دمنهوري ، مركز

البحوث التربوية والنفسية بمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي ، مكة المكرمة ، ١٤١٧هـ

٦٨. الاغتراب والتطرف لدى الشباب الجامعي بصعيد مصر وعلاقة كل منهما بالدافعية للإنجاز : صلاح محمد صالح ، دراسة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة أسيوط ، كلية التربية ، ١٤١٥هـ .

٦٩. الاغتراب والتطرف نحو العنف ـ دراسة نفسية اجتماعية ـ د. محمد خضر عبد المختار ، دار غريب ، القاهرة ، ١٩٩٩م .

٧٠. الاغتراب وانحراف الشباب العربي : د. عبد المنعم محمد بدر ، المجلة العربية للدراسات الأمنية ، العدد (١٦) ، دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض ، ١٤١٤هـ .

٧١. الغربة في الشعر الجاهلي : عبدالرزاق الخشروم ، دار الأنوار ، دمشق ، ١٩٨٢م

٧٢. الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي : رياض قزيحة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٨هـ .

٧٣. في الأدب العباسي الرؤية والفن : د. عز الدين إسماعيل ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .

٧٤. القصيدة العباسية قضايا واتجاهات : د. عبدالله التطاوي ، مكتبة غريب ، القاهرة .

٧٥. المتنبي بين البطولة والاغتراب : محمد شرارة ، جمع وتحقيق : حياة شرارة ،

المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م .

٧٦. محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : الدولة العباسية ، محمد الخضري بك ، المكتبة التجارية الكبري ، مصر ، ط١٠ ، ١٩٧٧ م.

٧٧. مفاهيم الشعرية : حسن ناظم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ١٩٩٤م .

٧٨. مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، د. حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٧ .

٧٩. مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي ، د. مصطفى عليان ، دار المنارة للنشر ، جدة ، ١٤٠٥هـ .

٨٠. الموسوعة الأدبية الميسرة ، أبو نواس ، ابن الرومي ، المتنبي : خليل شرف الدين ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨٧م .

٨١. موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، د. محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .

٨٢. ندوة حول مشكلة الاغتراب : د. فتح الله خليف وآخرون ، عالم الفكر ، المجلد (١٠) ، العدد (١) ، الكويت ، ١٩٧٩م .

٨٣. النص وآليات القراءة : د. فوزي عيسى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية .

٨٤. نظرية الاغتراب من منظور الاجتماع: د. السيد علي شتا ، دار عالم الكتب ، الرياض ، ١٤٠٤هـ .

٨٥. النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي : د. عبدالله التطاوي ، دار غريب ، القاهرة ، ١٩٩٩م .

٨٦. النقد الأدبي الحديث ، مناهجه وقضاياه : د. سعد الدين كليب ، جامعة حلب ، ١٩٩٨م .

٨٧. أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد : د. أحلام الزعيم ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨١م .

٨٨. أبو نواس الحسن بن هانئ : عباس محمود العقاد ، نهضة مصر ، القاهرة .

٨٩. وعي الحداثة : د. سعد الدين كليب ، اتحاد الكتاب العربي ، دمشق ، ١٩٩٧م .

الفهرس

المقدمة .... أ

التمهيد :

الاغتراب ١

في الشعر الجاهلي ٢٠

في شعر الفتوح ٥٢

في الشعر الأموي ٥٧

الفصل الأول : عوامل الاغتراب في العصر العباسي : ٦٩

أولاً : العامل السياسي ٧٠

ثانياً : العامل الاجتماعي ١٠٥

ثالثاً : العامل الاقتصادي ١٣٦

رابعاً : العامل الثقافي ١٥٢

الفصل الثاني : الاغتراب المكاني في الشعر العباسي : ١٧٠

أولاً : أهمية المكان ١٧١

ثانياً : الحنين إلى الوطن ١٨٠

ثالثاً : الحنين إلى الأهل والأحبة ١٩٩

الفصل الثالث : الاغتراب الاجتماعي في الشعر العباسي : ٢١٧
أولاً : الاغتراب عن القيم الاجتماعية ٢١٩
ـ الاغتراب عن قيم المجتمع والإحساس بالظلم والحرمان ٢١٩
ـ الاغتراب عن الآخرين ٢٥٣
ثانياً : الاغتراب عن القيم السياسية ٢٧٢
ثالثاً : الاغتراب عن القيم الجمالية ٣٠١

الفصل الرابع : الاغتراب الذاتي في الشعر العباسي : ٣٠٩
أولاً : الاغتراب عن الذات الأصيل.............................. ٣١٢
ثانياً : الشعور بالدونية ٣٤٧
ثالثاً : التوجس والقلق ٣٨٤
رابعاً : الفكاهة ٤١٠

الفصل الخامس : أثر الاغتراب في البنية الفنية في الشعر العباسي : ٤٣٠
ـ تمهيد :.. ٤٣١
ـ أولاً :اللغة الشعرية ٤٣٤
ـ ثانياً : الصورة الفنية ٤٤٥
ـ ثالثاً : الموسيقا الشعرية ٤٥٨

الخاتمة ٤٦٧
مصادر البحث ٤٧٢
مراجع البحث ٤٨١
الفهرس ٤٩١

Abstract

Alienation is a common human phenomenon represented in the individual's consciousness of the conflict between himself and the surrounding and frustrating environment as well as his feeling of non-belonging to and separation from his surroundings besides what accompanies this feeling of personal disintegration and anxiety.

This MA thesis has studied 'alienation' in Abbasid poets' till the end of the 3rd century A.H. as well as the factors behind this gap in that society. It has also investigated the spatial alienation with particular emphasis to the significance of place for human beings and then citing the alienated people's nostalgic feelings towards their homeland and beloved companions.

Studying social alienation, this study has handled three dimensions. First, it has studied alienation from social values and being not content with these values and how consequently being alienated from others; second, it has studied the political alienation collectively and individually while the third dimension is pertaining to the aesthetic alienation represented in the revolution against the traditional classical Arabic poem.

The forth chapter has addressed the personal alienation which examines the disintegration and split of the Abbasid poet's personality. This is embodied in being alienated from one's ego or psyche and the feeling of inferiority and its subsequent aspects of worries and anxiety. Then the study has cited poetry of humor, which reveals deeply latent pains and painful alienation.

The fifth chapter, furthermore, has briefly and aesthetically examined the influence of alienation on the poetic language, images and rhythm.

Finally, the study has offered a conclusion of the findings that explain the influence of alienation during the Abbasid era at all aspects as well as the impact that this phenomenon had created in terms of the form and the content of the Abbasid poem.